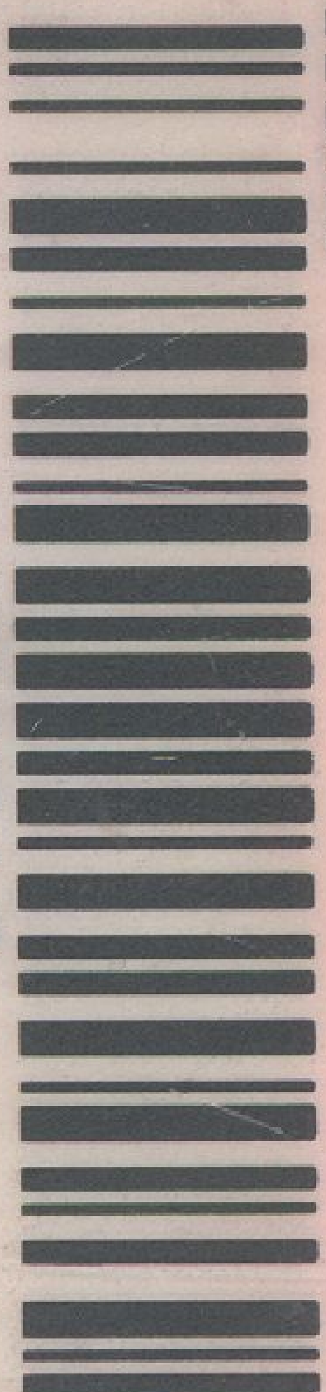



اقرأ

محمد كرد علي

# دمشق

## مدينة السحر والشعر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

# دِمشق

## مدينة السحر والشعر

محمد كرد علي

# دمشق

## مدينة السحر والشعر

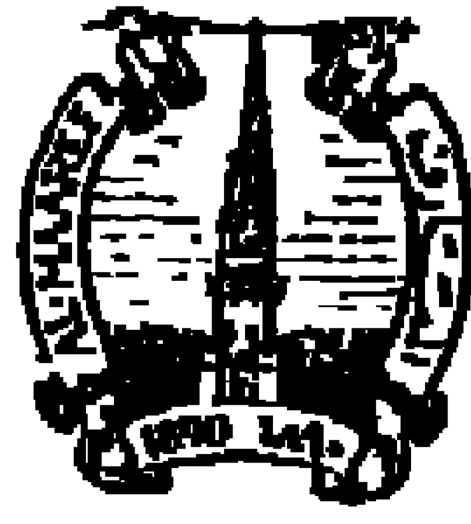
لولا دمشق لما كانت طُلَيطِلَة

ولا زهت ببني العباس بغدان

( شوقي )

اقرأ ١٦

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف





منظر عام لدمشق

# دمشق وطبيعتها

دمشق بكسر الدال وفتح الميم و إسكان الشين اسم هـذه المدينة الجميلة مدينة السحر والشعر . قالوا إن أصلها لفظة آرامية مماتة ( مشق ) تتقدمهـا دال النسبة . وقد وردت فى اللغة الهيروغليفية على هذا النحو تقريباً ومعناها الأرض المزهرة أو الحديقة الغناء . وأطلق الآراميون عليها اسم (درمسق) والسريان ( درمسوق ) وأهل لغة التلمود ( درمسقين ) . وقالوا إن إرم ذات العماد التى وردت فى القرآن الكريم هى دمشق بعينهـا و بعض المفسرين يذهبون إلى ذلك. والآية الكريمة ( أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعادٍ إِرَمَ ذاتِ العماد التى لم يخلقْ مِثلها فى البلاد ) قال شبيب بن يزيد بن النعمان بن بشير :

لولا التى علقتنى من علائقها  لم تمس لى إرَم داراً ولا وطنا

قالوا أراد دمشق ، و إياها عنى البحترى بقوله :

إليك رحلنا العيس من أرض بابل  يجوزُ بها سمتَ الدَّبور و يهتدى

فكم جزَعت من وَهدة بعد وهدة وكم قطعت من فدفد بعد فدفد
طلبنك من أم العراق نوازعاً بنا وقصور الشام منك بمرصد
إلى إرم ذات العماد وإنها لموضع قصدى موجفاً وتعمدى

ومعنى آرام العالية أو سهل مرتفع نحو ألفى قدم عن مساواة البحر . وقد وردت فى التوراة عدة أسماء مضافة إلى آرام .

وأطلقوا اسم ( جِلِّق ) بكسر أوله وثانيه وتشديده على مدينة دمشق . وقد ورد هذا الاسم فى الشعر القديم ومنه فى شعر حسان:

لله درُّ عصابة نادمتهم يوماً بجلق فى الزمان الأول

وقيل جلق اسم لكورة غوطة دمشق كلها وقيل غير ذلك . ويكاد يكون الإجماع على أن جلق هى دمشق ، وسموا دمشق جلق الخضراء والغوطة وذات العماد ، ولقبت بالفيحاء — والفيحاء الواسعة من الدور والرياض — وسماها بعضهم بجيرون وسماها آخرون بالعذراء .

تعلو دمشق ٢٢٠٠ قدم أو نحو ٦٩١ متراً عن سطح البحر المتوسط وتبعد عنه نحو ٦٠ ميلا . قامت فى نجد من الأرض . ومعدل ما تجود به سماؤها من المطر كل سنة نحو

٣٥٠ مليمتراً . وهى تقع فى عرض ٣٦/١٨ درجة من الطول و ٤٣/٢٠ من العرض . يطل عليها من الشمال جبل قاسيون وهو فرع من فروع جبل سَنير الذى يطلق على بعضه اليوم اسم جبل قلمون ، و يشرف عليها من الجنوب الجبل الأسود وجبل المانع ، ومن الغرب جبل الشيخ المعروف بحَرْمونْ فى التوراة و بجبل الثلج عند قدماء العرب . وغربها مفتوح وكذلك شرقها، فهى سهلية جبلية ، ومعتدلة الهواء تأخذ الفصول الأربعة فيها حكمها ، وقد تنزل درجة الحرارة فى الشتاء إلى اثنتى عشرة درجة تحت الصفر وتصعد فيها أيام الصيف إلى نحو ٣٧ درجة . وهى هبة ( بردى ) الذى سماه اليونان نهر الذهب ، كما أن مصر هبة النيل ، و بردى يسقى المدينة بعد تقسيمه ستة أنهار منها ما يدخل البلد وهى بردى (النهر الأصلى) وقنوات و بانياس و يزيد وتورا ، واللذان يسقيان الضاحية فقط الدارانى وقناة المزة .

وكانت دمشق لقربها من جزيرة العرب والعراق والجزيرة ومصر مدينة تجارية تصل بين الشرق والغرب . وظلت عامرة على اختلاف العصور نحو أربعة آلاف سنة . فهى أقدم مدينة فى العالم باقية على عمرانها . ومما تفخر به أن لها الوادين وادى

بردى ووادى العجم ، يشق الأول نهر بردى مضافة إليه مياه عين الفيجة ، ويشق الثانى نهر الأعوج المعروف عند القدماء باسم فرفر ، ومخرجه من سفوح جبل الثلج ، ولا يدخل المدينة بل يسقى بعض قراها القريبة .

ومن خصائص دمشق أنها وسط غوطتها الغناء تخرج لها بقولها وفاكهتها وأخشابها وأحطابها ، وهى على مقربة من إقليم حَوْران تجلب منه حبوبها الجيدة ، وعلى أميال يسيرة من إقليم الجَوْلان ترعى فيه ماشيتها ، وعلى فراسخ قليلة من مصايفها ومشاتيها . ترى فى بعضها الهواء العليل البليل طوال السنة ، وفى الوقت عينه تشهد حكم الصيف . فغورها على مقربة من نجدها وجبالها كسهولها تتعاون على جلب الخيرات اليها ؛ والثلج لا تخلو منه أعالى جبالها صيفاً وشتاء ، وماء الشَّفَة يجلب إليها فى أنابيب تسقى دورها ومصانعها ، وندر فى المدن الكبرى مدينة كهذه تسقى ماء طاهراً لذيذاً كماء عين الفيجة ، وبهذا قلت الأمراض الوافدة على ما كانت فى الأعصار الخالية .

# تاريخ دمشق السياسى

## تاريخ دمشق القديم

استولى الأشوريون والبابليون والفرس والأرمن واليونان والرومان على هذه المدينة . ومنهم من كانت تطول أيامهم فيها كالرومان ، حكموها سبعمائة سنة ، واليونان حكموها ٢٦٩ سنة . ومنهم من كانت لهم منزل قلعة كالأرمن ، استولوا عليها ثمانى عشرة سنة . وكان الدمشقيون هم الذين استدعوا صاحب إرمينية لما سئموا تنازع الرومان والفراعنة عليها . والغالب أن الفراعنة لم يستولوا على دمشق واكتفوا بالاستيلاء على ساحلها غير مرة . ووقعت فى أيدى اسكندر المقدونى ثم فى أيدى خلفائه السلوقيين ، وفى أيامهم كانت دمشق هيلينية يونانية كما كانت فى عصور كثيرة سريانية أرمية . وكان شأن دمشق فى النكبات شأن العواصم الكبرى إذا اضطرب حبل الأمن فى البلاد المجاورة لها ، ولا سيما فى البوادى والأقاليم ، أو تنافس الرؤساء ، وكان أكثرهم أشبه بعصابات لصوص — تصاب بأذى كبير فتقف تجارتها وتضعف زراعتها ، ويجوع فقيرها بل يزيد فقراؤها ،

لأن كل بائقة تنال الأقاليم المجاورة تحفز المنكوبين من أهلها على الاعتصام بدمشق . وما عرفت هذه المدينة طعم السعادة فى أكثر أيام الرومان ، وشقيت بهم فى آخر عهدهم خاصة ، فكانت رومية لا تعدُّ أهلها وطنيين رومانيين بل غرباء ورعايا ، وكثيراً ما كان الدمشقيون يبيعون أولادهم ليؤدوا ما تتقاضاهم رومية من الجزية .

## دمشق قبل الفتح العربي

سقطت دمشق فى أيدى دولة النبطيين العرب فى سنة ٨٥ قبل الميلاد ، فتحها الحارث النبَطى فكانت نبطية من سنة ٣٧ إلى سنة ٥٤ للمسيح . وظهر النفوذ العربى فى دمشق فى عهد مبكر جداً ، وهل النبط إلا عرب بأصولهم ؟ وإذ كانت هذه المدينة تحت سلطان أهل الوبر لم يجعل منها الرومان عاصمةً ولايتهم ، بل جعلوا مدينة حمص قصبتهم . ولم تخضع دمشق خضوعاً تاماً لأمراء العرب الحاكمين فى أرجائها ، حتى ولا للغسانيين الذين كانوا عمالا للروم يرابطون فى الجنوب والشمال والشرق فتتقى دمشق بهم عادية الأعراب .

ولنا بذلك أن نقول إن اللغة العربية انتشرت فى دمشق وأرجائها قبل الفتح الإسلامى بزمن طويل وسبق إلى نشرها الوثنيون من العرب ثم متنصرة العرب . و إلى هؤلاء يرجع الفضل فى انتشارها . والفتح العربى مدين للمتنصرة العرب لانضمامهم إلى بنى قومهم وكانوا مع الروم يوم الفتح ، فغلبت عليهم النُّعَرَة الجنسية أكثر من النعرة الدينية لما شاهدوا أعلام الدولة العربية الجديدة .

## دمشق فى الاسلام

تولى فتح دمشق كل من أبى عبيدة بن الجراح وخالد بن الوليد و يزيد بن أبى سفيان من كبار الصحابة ، حاصروها بعد وقعة اليرموك أعظم وقائع العرب فى الشام ، من الشرق والغرب ، ففتح نصفها عنوة والنصف الآخر صلحاً ، فأجراها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب صلحاً كلها ، وذلك سنة ١٤ من الهجرة ، ٦٣٦ م وقبل فتحها فتح خالد بن الوليد غوطتها — أى ضاحيتها — لما جاء من العراق مدداً لأهل الشام ، وركز العُقاب راية الرسول فى أعلى الثنية ثنية العقاب التى يقال لها اليوم الثنايا ،

وهو الجبل المرمى المشرف على شمال دمشق ، وقاتل بنى غسان يوم رِفصحهم فغلبهم على أمرهم .

وما كان الفاتحون بغرباء عن دمشق لصلاتهم التجارية بأهلها فى الجاهلية وامتزاجهم بساداتها من الروم . وكان أبو سفيان ابن حرب شيخ بنى أمية كثيراً ما يرحل إليها ، وقد زارها فى الجاهلية بعض قواد العرب وخلفائهم ، فعرفوا مداخلها ومخارجها وصادفوا من أهلها بعد الفتح موادعة ، فعاملوهم معاملة ليس أحسن منها ، ولما لحق الروم بعد سقوط دمشق بقومهم فى آسيا الصُّغرى ، وخلت بهزيمتهم بيوتهم أسكن المسلمون فيها بعض رجالهم وجعلوا فى أسفلها المسلمين وخصوا أعاليها بأبناء الذمة حتى لا يتأذوا بالمسلمين إذا نزلوا العلالى .

ولما هلك أمير دمشق يزيد بن أبى سفيان وسِّدت الإمارة إلى شقيقه معاوية ، فتولاها عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة . وسِّدت إليه الخلافة بعد وفاة أمير المؤمنين على بن أبى طالب فوضع أساس ملك بنى أمية ، وكان على غاية التسامح . عهد بوزارة ماليته إلى سرجون بن منصور من نصارى دمشق ثم إلى ابنه من بعده ، وكان بعض أطبائه من النصارى . وكان فى

جيشه الأنباط والجراجمة والعجم وغيرهم من العناصر غير العربية وغير المسلمة . ثم تولى الخلافة ابنه يزيد بن معاوية ثم معاوية الصغير أياماً قليلة ، ثم مروان بن الحكم ثم ابنه عبد الملك ، وتولى الخلافة الأموية فى دمشق أربعة من أبناء عبد الملك فدعى لذلك بأبى الأملاك ومفتاح الخير ، وهم سليمان بن عبدالملك والوليد ابن عبد الملك وهشام بن عبد الملك ويزيد بن عبد الملك ، وتولاها منهم عمر بن عبد العزيز حفيد عمر بن الخطاب لأمه ، وضرب المثل بعدله وحسن سياسته . وكان آخرهم مروان بن محمد وهو من خيرة خلفائهم ، ولكن قضت الأقدار أن تسقط على يده الخلافة. قال جستاف لوبون : « أبان العرب عن تسامح مع كل مدن الشام ، فرضى أهلها بسلطانهم ، وطرحوا النصرانية وقبلوا دين الفاتحين وتعلموا لسانهم » . وأصاب دمشق من عناية بنى أمية ما أصبحت به عاصمة أعظم دولة ، وبهمتهم وعبقريتهم امتد عمرانها ، وذاق سكانها طعم العدل ، وعرفوا الغنى والسؤدد وكانت دمشق بهم أعظم عواصم العالم وأجملها .

مدحهم شاعرهم الأخطل النصرانى بقوله :

حُشْد على الحق عُيّاف الخنا أُنُف إذا أَلَمّت بهم مكروهة صبروا

شُمس العداوة حتى يُستقاد لهم وأعظم الناس أحلاماً إذا قدروا

وكانت دمشق فى أيام الأمويين كرومية فى نظر أهل النصرانية . وما كانت قبلهم تعد فى العواصم الكبرى . وللامويين ابتكارات في الإدارة والسياسة لم ينسجوا فيها على منوال غيرهم . ولهم على العرب فضل لا ينسى على وجه الدهر، وهو أن أبا سفيان والد معاوية وجدّه حرباً نقلا من الحيرة الخط إلى جزيرة العرب .

دمشق فى عهد العباسيين

فتح عبد الله بن على عم الخليفة العباسى السفاح مدينة دمشق سنة ١٣٢ هـ ووضع السيف فى أهلها ، واستصفى أموالها ، ودخلت أباعر جيشه جامع بنى أمية وظلت فيه سبعين يوماً ، وقتل من النصارى واليهود خلق كما قتل كثير من العلماء والأمراء . ونبشوا قبور بنى أمية وأحرقوا جثثهم بالنار وذروها فى الهواء ، ونقضوا أسوار البلدة حجراً حجراً . انتقم العباسيون من الأمويين أحيائهم وأمواتهم انتقاماً فظيعاً ، وصفت لهم دمشق إلا أنهم لم يجعلوا فيها دار خلافتهم ، وصيروها قصبة

ولاية ، فذهب ما كان لها من عظمة على العهد الأموى .

ومع هذا كان عظماء رجال بنى العباس أمثال ابراهيم بن المهدى وعبد الله بن طاهر يتولون أمرها . ومن أعظم من عطف عليها من خلفائهم الرشيد ، وكان أميراً عليها قبل أن يلى الخلافة ، وكذلك ابنه المأمون ، كانا يختلفان إليها و يعدلان فى أهلها ، حتى لقد ذكّراهم بما كانوا يلقون من عدل بنى أُمية أيام سلطانهم

وما خلت البلاد حتى فى أيام عظماء العباسيين من دعاة يدعون إلى إرجاع الملك للامو يين ، فوضعوا لذلك ملحمة بنوها على معرفة المستقبل ، زعموا أنه يظهر رجل من بنى أُمية اسمه السفيانى، فاعتقد الناس بظهوره ، كما اعتقد أهل المغرب بالمهدى ، وفى خلافة الأمين — والعباسيون يشتغلون بأنفسهم — ظهر هذا السفيانى ، واسمه على بن عبد الله بن خالد بن يزيد بن معاوية ، وهو الملقب بالعَمَيْطر ، وكان من أهل العلم والرواية فدعا إلى نفسه. وكان أصحابه يوم ادعى الخلافة يدورون فى أسـواق دمشق ، ويقولون للناس : قوموا بايعوا مهدى الله . وكان يفتخر بقوله : (أنا ابن شيخى صفين) يعنى علياً ومعاوية ، لأنه كان ينتسب لبنى أُمية من جهة أبيه ، ولآل أبى طالب من أمه ، وتعصب له اليمانية

وقاومه القيسية ، فنهب دورهم وأحرقها ، وقتلهم وفتك بأهل دمشق . وكان أصحابه يمرون بالدار فيقولون : ريح قيسى نشم من هذه الدار ، فيضربونها بالنار ، فهرب القيسية من دمشق ، وكان من لم يبايعه سمر عليه بابه . ثم قام رجل آخر من الأمويين فنازع العميطر السلطة ، فلقيت دمشق بسبب هذه الفتنة شدة . وأعظم ما لقيت من تنازع قيس ويمن أو النزارية واليمانية ، وبقى الاختلاف فى الشام بين هذين الحيين من العرب إلى العصر الأخير .

## دمشق فى عهد ملوك الطوائف

كان أول من اقتطع جزءاً عظيماً من جسم الخلافة العباسية أحمد بن طولون التركى . استولى على مصر نائباً عن أحد أمراء الأتراك فى بغداد أولاً ، ثم صفت له أصالة واستولى على الشام ، وكان حكمه فيها وفى الثغور ضئيلاً ، وسدّه إلى بعض العمال الذين ارتضاهم . ولما هلك ابن طولون ، وكان أحسن سيرة من بعض المتأخرين من خلفاء العباسيين ، خلفه ابنه خُمَارَوَيْه فى الشام ومصر فأحسن هذا لأهل دمشق . ولما انقرضت دولة الطولونيين

سنة ٢٩٢ وقضى العباسيون على القرامطة الباطنية الذين جاءوا دمشق وأزعجوا أهلها وأخذوا منهم جزية عظيمة وأموالاً كثيرة حتى يكفوا عن تخريب بلدهم — ظهرت الدولة الإخشيدية دولة محمد بن طغج ، فصادر الإخشيد أغنياء دمشق ، واستصفى أموالهم .

وقد وجد بدار الإخشيد فى مصر رقعة مكتوب عليها (قدرتم فأسأتم ، وملكتم فبخلتم ، ووسع عليكم فضيقتم ، وأُدِرَّت عليكم الأرزاق فقطعتم أرزاق العباد ، واغتررتم بصفو أيامكم ، ولم تتفكروا فى عواقبكم ، واشتغلتم بالشهوات واغتنام اللذات ، وتهاونتم بسهام الأسحار وهن صائبات ، ولاسيما إن خرجت من قلوب قرحتموها ، وأكباد أجعتموها ، وأجساد أعريتموها ، ولو تأملتم فى هذا حق التأمل لانتبهتم . أوما علمتم أن الدنيا لو بقيت للعاقل ما وصل إليها الجاهل ؟ ولو دامت لمن مضى ما نالها من بقى ، فكيف بصحبة ملك يكون فى زوال ملكه فَرَج العالم ، ومن المحال أن يموت المنتظرون كلهم حتى لا يبقى منهم أحد ويبقى المنتظَر به . افعلوا ما شئتم فإنا صابرون ، وجوروا فإنا بالله مستجيرون ، وثقوا بقدرتكم وسلطانكم

فإنا بالله واثقون ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ) .

قالوا إن الإخشيد بقي بعد هذه الرقعة فى هواجس وسافر إلى دمشق فمات فيها سنة ٣٣٤ . وفى السنة التى قبلها كان سيف الدولة بن حمدان استولى على حلب ودخل دمشق ودهش بغوطتها فصرح بأنه سيستولى عليها جملة ، فكتب أهلها إلى المتغلب على مصر كافور الإخشيدى فبعث جيشاً طرده عنها وضمها إلى مصر ، فنجت دمشق من جشع سيف الدولة وتحكمه فى أصحابها . وآذنت شمس الإخشيديين بالأفول سنة ٣٥٧ ولم تلق دمشق من دولتهم ودولة الطولونيين سوى راحة نسبية ، ما خرجت عن حد ما كانت تلقاه فى أدوار عظماء الخلفاء من بنى العباس .

وجاءت دولة الفاطميين أو العُبَيْديين فاستولت على هذه المدينة سنة ٣٥٩ وخطب على منبرها للمعز الفاطمى الشيعى ، وانقطعت خطبة بنى العباس السنِّيين ، وعادت دمشق تشهد حظها يسود ، والفتن فيها تتكاثر وتشتد . وكان من سياسة الفاطميين ألاَّ يولوا الولاة مدة طويلة ، وبذلك كان سوء الإدارة ماثلا فى أيامهم ، ومن ضعفهم أن يتولى أمر دمشق رجل كان ينقل التراب على الحمير اسمه قسام الحارثى من تلفيتا فى جبل قلمون ، ولا تقدر

الدولة على نزع السلطة منه ، وكانت أرسلت لحربه الأمير الأفضل فحاصر دمشق وضاق بأهلها الحال ، ثم رضى القائد عن قسام وأعاد إليه حكم البلد .

واستولى الأحداث على دمشق فأرسل الفاطميون أحد قوادهم جيش بن الصمصامة فتلقاه أهلها خاضعين فأمنهم واستخص رؤساءهم ، واستحجب جماعة منهم ، وكان يبسط الطعام كل يوم لهم ولمن يجىء معهم من أصحابهم ، وأمرهم ذات يوم إذا فرغوا من الطعام أن يحضروا إلى حجرة يغسلون أيديهم فيها ، وأوعز إلى أصحابه إذا دخل رؤساء الأحداث الحجرة أن يغلقوا بابها و يضعوا السيف فيمن دخلها ، فقتل من أصحابهم بهذه المكيدة نحو ثلاثة آلاف رجل ، ثم قبض على الأشراف واستأصل أموالهم ، وأتى على نعمهم ووظف على البلد خمسمائة ألف دينار .

و بعد سنين قليلة ثار بدمشق رجل من أهلها يعرف بالجزار ، فاجتمع إليه جمع كثير من أحداثها ، فقبضوا عليه وقتلوه ، وأظهروا الطاعة للفاطميين ، وذلك بعد أن اجتمع على الناس بدمشق الجوع والحريق والنهب والقتل . وفى سنة ٤٦١ وقع الخلف بين الدمشقيين والعسكرية فطرحت النار فى جانب من

المدينة فاحترقت ، واتصلت بالجامع الأموى ، وكانت دمشق فى هذه الحقبة قد خربها أعراب البادية وأهل العيث والعيّارون وانتقل أهلها إلى حمص . وهذا القرن من أشأم القرون على دمشق ، فقد أُصيبت فى سنة ٤٦٧ بكارثة لم يسجل تاريخها أعظم منها ، وذلك بانتشار الطاعون أولاً ثم عمت المجاعة البلاد من قابل ، فلم يبق من أهل دمشق سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد أن كانوا خمسمائة ألف كما قال المؤرخون ، أفناهم الغلاء والجلاء والوباء . وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان ، وخلت الأسواق وأقفرت القصور والدور ، ونعق البوم فى البرارى ، والدار التى كانت تساوى ثلاثة آلاف دينار ينادى عليها عشرة دنانير فلا يشتريها أحد ، والدكان الذى كان يساوى ألف دينار ما يشترى بدينار ، وأكلت الكلاب والسنانير والميتات ، وأكل الناس لحم الآدميين . وهذا هو الطاعون الأسود الذى عم العالم وأصاب مصر ما أصاب الشام من فجائعه .

دمشق فى عهد السلجوقيين

ساءت سيرة المعلى بن حيدرة أمير الفاطميين مع الجند والرعية فى دمشق ، فثار به العسكر وأعانهم العامة ، فخربت فى الفتنة

دمشق وأعمالها ، وجلا عنها أهلها ، وهان عليهم مفارقة أماكنهم وبيوتهم بما عانوه من ظلمه . قال المؤرخون : وخلت الأماكن من قاطنيها ، والغوطة من فلاحيها ، وغلت الأسعار حتى أكل الناس بعضهم بعضاً لانعـدام الأقوات ، فجاء أتسز من أمراء السلجوقيين واستولى على المدينة بالأمان ، وأعاد إليها الخطبة العباسية سنة ٤٦٨ ، وانقضت أيام الفاطميين فيها . إلا أن أتسز لم يكن بالدمشقيين أرحم من المعلى . يُضاف إلى المصيبة بالسلف والخلف أن رجاء الفاطميين لم ينقطع من استرجاع دمشق ، فحاصروها غير مرة ورجعوا عنها خائبين ، حتى قيض لها رجل عظيم من مماليك السلجوقيين اسمه طغتكين

تولى طغتكين دمشق فأحسن السيرة واستمر فى حكمها من سنة ٤٩٧ إلى سنة ٥٢٢ فأحبـه الدمشقيون كثيراً لبعده عن الظلم ، وإعادته إلى الناس أملاكهم التى اغتصبها منهم ولاة الجور ، وإحيائه الأراضى المعطلة ، فباع منها ما كان شاغراً ، وصرف ما حصل من ثمنها فى الأجناد المرتبين للجهاد ، فعمرت عدة ضياع ، وأُجريت عيون ، وحسنت بايالته دمشق وأعمالها ، وانبسطت الرعية فى عمارة الأملاك فى باطن العاصمة وظاهرها ،

ولما مات اشتد حزنها عليه ، ولم تبق محلة ولا سوق إلا والمآتم قائمة فيه عليه . وبحسن سياسته أوقف توغل الصليبيين فى أحشاء البلاد ، وقصر حكمهم على الساحل ، وعقد بين المتخالفين من أمراء المسلمين فى الديار الشامية صلات الود ، ومعاهدات عدم الاعتداء ، وألف بين قلوبهم ليجتمعوا كلهم على حرب الصليبيين الذين كانوا وصلوا إلى الأراضى الشامية سنة ٤٩٠ هـ واستولوا على أنطاكية وعلى الساحل الشامى وبيت المقدس .

وعَدُّوا من غلطات طغتكين أن سَلَّم الباطنية الاسماعيلية قلعة بانياس ليسلطهم على الافرنج ، ويحول دون اعتداء هؤلاء على المسلمين ، فقوى بهذه القلعة أمرهم ، وخفّ بهرام داعيتهم من العراق ، ودعا إلى مذهبه جهرة ، فتبعه خلق من العوام والجهال والفلاحين ، ووافقه الوزير المزدقانى وزير دمشق فعظم أمر بهرام بالشام ، وملك عدة حصون ، وكاتب الافرنج ليسلم إليهم دمشق ، وجعلوا موعدهم يوم الجمعة ليقتلوا المسلمين وهم فى صلاتهم ، فعلم صاحب دمشق بالأمر فقتل الوزير المزدقانى وأمر الناس فثاروا بالاسماعيلية فقتل منهم بدمشق بضعة آلاف ، ولم يتعرضوا لحُرَمهم وأموالهم ، ووصل الافرنج فى الميعاد فلم يظفروا بشىء ،

فتبعهم المسلمون يضربون رقابهم فما نجا من جيشهم إلا القليل .

ولولا قيام طغتكين ذاك القيام المحمود لاستولى الصليبيون على دمشق وحلب ، وكثيراً ما كانوا يغزون رَبَضَهما ، ولم تؤد دمشق للصليبيين غرامة على عهده ، وظهرت بمظهر دولة قوية ، وكأن طغتكين كان مبشراً بالدولتين النورية والصلاحية اللتين جعلتا من دمشق عاصمتهما ، وكان لهما شأن وأى شأن فى دفع عادية الصليبيين عن الأرض المقدسة ، والقضاء على ذاك التذبذب الذى ظهر من الدولة الفاطمية ، وكان بعض رجالها كاتب أهل الحملة الصليبية . وطغتكين هو الذى ضرب على أيدى صغار الأمراء فى الشام ممن كان يهون على بعضهم الوقوع فى سلطان الصليبيين على أن تبقى لهم اماراتهم الموهومة الضئيلة .

### دمشق على عهد الدولتين النورية والصلاحية

لم تر دمشق عزاً بعد دولة الأمويين مثل العز الذى نالته على عهد الدولتين النورية والصلاحية . كان نور الدين محمود بن زنكى تركياً وخلفه صلاح الدين يوسف بن أيوب وهو كردى . وكلاهما خدم العرب والاسلام خدمة جليلة لا ينساها التاريخ . وفى

دولتيهما عمرت دمشق عمراناً عظيماً على اشتغال السلطانين برد الصليبيين عن الديار الشامية . وقوّت هذه الكارثة العظيمة من متن الأمة ، فانتظم شملها بالنظام المحكم، ووجهت وجهتها إلى هدفها الأسمى ، وهو القضاء على الصليبيين . وكانت الأمة إذ ذاك على غاية الحماسة الدينية ، حتى إن والدة شمس الملوك وافقت أرباب الدولة على قتل ابنها لما استصرخ الافرنج لتسليمهم البلاد . وكان جده طغتكين المثال الكامل فى دفعهم عنها . وقد وصلوا مرة إلى المرج الأخضر من ضواحى دمشق بقيادة كونراد الألمانى ولويز السابع الفرنسى وبودوين الثالث ملك القدس فى جيش عظيم فهزمهم المسلمون شر هزيمة ودفعوهم إلى الساحل .

أبطل نور الدين فى دمشق المظالم والمغارم ، ورفع الحيف عن الضعاف ووجه القوة إلى مقصد واحد ، وفتح بعض البلاد التى كان أمراؤها ضعافاً فى وطنيتهم . ولما استعان شاور وزير العاضد الفاطمى بالصليبيين على قتال جيش نور الدين بعث العاضد يستنجد بنور الدين ، فجهز له حملة بقيادة أسد الدين شيركوه وقصد مصر سنة ٥٦٢ ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف ، فاستنجد شاور بالافرنج فساروا فى أثر شيركوه إلى الصعيد فهزمهم ،

ثم ظهر التبلبل فى السياسة الفاطمية وتولى صلاح الدين القيادة فقضى على دولتهم آخر الدهر ، وصفت مصر والشام والجزيرة لنور الدين .

وكانت سيرة نور الدين كسيرة صحابة الرسول من التقشف والعفة عن أموال الرعية . أسقط كل مايدخل فى شبهة الحرام ، وما أبقى من الجبايات سوى الخراج والجزية وما يحصل من قسمة الغلات ، وكتب أكثر من ألف منشور بذلك ، وأطلق المظالم وأسقط من دواوينه الضرائب والمكوس عن المسافرين ، وسامح الرعايا بمئات الألوف من الدنانير . وكان يأخذ مال الفداء ويعمر به الجوامع والمارستانات ، وأخذ من أحد ملوك الافرنج وكان فى أسره ثلاثمائة ألف دينار ، وشرط عليه ألا يغير على بلاد الإسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام ، وأخذ منه رهائن على ذلك ، وبنى بالمال المستشفى النورى بدمشق ، ولما بلغ الملك الافرنجى مأمنه هَلَك . ووقف نور الدين الأوقاف العظيمة على جوامع دمشق ، وكان يبيع ما يصل إليه من الهدايا ، وينفقه فى عمارة المساجد المهجورة ، وعمر المدارس والطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات والأبراج والرباطات ، وبنى المكاتب

وأجرى عليها وعلى المعلمين فيها الجرايات الوافرة إلى غير ذلك .

أما خلفه صلاح الدين فقد كان مثله فى حسن السيرة ، وبعد الهمة ، وجميل المفاداة ، وكان له عطف خاص على الدمشقيين . سامحهم بمئات الألوف من الدنانير على نحو ما فعل معلمه نور الدين وزين مدينتهم هو وآله وعتقاؤه وجواريه بالمدارس والرباطات والمساجد ولم ينسب إليه شىء منها . وكان يحب دمشق ويؤثر الإقامة فيها ، ولما بنى له أحد عماله قصراً لامه ولم يرض أن ينزله لأنه ما كان يفكر فى غير حرب الصليبيين ، ومات صلاح الدين بعد هذه الفتوح العظيمة ومنها مصر ، ولم يخلف سوى جرم واحد من الذهب وسبعة وأربعين درهماً ، ولم يترك ملكا ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا شيئاً من أنواع الأملاك ، وكان يهب الأقاليم ويعطى فى وقت الضيق كما يعطى فى حال السعة ، ويفتح بابه للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد ، ويجلس إليهم مجلساً عاماً يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، يفعل ذلك سفراً وحضراً . قال سبط ابن الجوزى : ويقال إن صلاح الدين فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين مصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الافرنج

وديار بكر ، ولو عاش لفتح الدنيا شرقاً وغرباً .

وما كان أولاد صلاح الدين وحفدته ، مع وقوع الخلف بينهم ، بغافلين عن زحزحة الصليبيين من مصر والشام ، ويولون دمشق عطفاً عظيماً ويقيمون فيها المصانع والمرافق مقتفين أثر مؤسس دولتهم الأعظم ، وعلى خطته جروا في الرحمة وحب الخير ، وكان الملك العادل أبو بكر بن أيوب عظيما بأخلاقه سار بسيرة أخيه صلاح الدين وكان مستشاره وأمينه . ولولا هذا الاختلاف الناجم بين الأسرة الأيوبية للنزاع على الملك لكانت دولتهم خير دولة قامت . ذلك لأن أصحابها كانوا عارفين بصناعة الملك ، يحسنون حمل الناس على الجهـاد ، لإنقاذ بلادهم من العدو ، وكان صـغارهم وكبارهم على غاية التهذيب مثقفين بأدب الدين والدنيا ، ولقد توصل الملك العادل بدهائه إلى أن كان يرشى نساء قواد الصليبيين بالجواهر والحلى الدمشقية فيخدمنه مقابل ذلك خدمات مهمة ويتجسسن له على قومهن . وكثيراً ما كان أمراء المسلمين يعمدون إلى مثل هذه الوسائط ، وقد قدم أحد أمراء دمشق ذات يوم مائتين وخمسين ألف دينار لأحد أمراء الصليبيين فلما فحصها وجدها زيوفاً ، ولكن كان السهم نفذ ، وحصل الأمير

المسلم على ما أهمه الوصول إليه من الصليبي ، والحرب خدعة .

أوعز الملك العادل إلى الواعظ سبط ابن الجوزى مرة أن يحث الناس على الجهاد ، لما شاهد من فتور فى العزائم والقعود عن الحرب ، فأشار الواعظ أن يقص النساء شعورهن لتستعمل فى الأدوات اللازمة للحرب ، ويعمل منها شكال وكرفسات . وصعد منبر جامع دمشق الأعظم وأمر باحضار الشعور فحملت على الأعناق ، وكانت ثلاثمائة شكال ، فلما رآها الناس ضجوا وشهقوا بالبكاء ، وتعاهدوا على أن يقصوا من شعور نسائهم مثلها، ثم سافروا للقاء العدو وما كفوا حتى وقع الصلح بين العادل والأعداء . وبهذا أثبت نساء دمشق فى القرن السادس ما انطوت عليه أنفسهن من الوطنية ، وأنهن لسن دون نساء بنى أمية فى القرن الأول يوم أتين مع جيش العرب لفتح دمشق ، وكن يقاتلن فى صفوف الرجال ويتولين منهم ما تتولاه نساء أهل المدنيات الحديثة فى الحروب من طهى الطعام وغسل الثياب وتضميد الجراحات وتمريض المرضى .

## دمشق على عهد المماليك

اشتد الخلاف بين أبناء العادل اشتداده من قبل بين أبناء أخيه صلاح الدين . وأهم ما كان من الأحداث أيام هذا الضعف مجيء الخوارزمية من الشرق يريدون الاستيلاء على الشام ، فعاونهم بعض أمراء دمشق واشتد البلاء فيها ، وأحرقت عدة أحياء وقصور ومساجد وخانات ، ودام حصارها خمسة أشهر ، وهلك الخلق موتاً وجوعاً وقلّ الشيء وأكلوا الميتة وأبيعت الأملاك والأمتعة بالشيء اليسير ، وأنتن البلد بالموتى على الطرق. قال المؤرخون : وجرى بدمشق أمور شنيعة بشعة جداً لم يتم عليها مثلها قط .

بويع الملك الظاهر بيبرس البُنْدُقدارى ملكاً على مصر والشام بعد أن قتل تورانشاه آخر الأيوبيين سنة٦٤٧ ولقب الملك الظاهر ، وهو رأس دولة المماليك البحرية . وجاء جماعة هولاكو إلى دمشق بعد تخريبهم بغداد والقضاء على الخلافة العباسية فيها سنة ٦٥٦ . وفى السنة التالية خرب هولاكو حلب وأوقع بها خمسة أيام حتى لم يبق بها أحد ، وأنفذت دمشق مفاتيحها إلى هولاكو لتأمن شره ، ومع هذا خرب سورها وما نجت من غائلته

إلا بانهزام جيش التتر على عين جالوت شر هزيمة .

و بعد حين وصل غازان من حفدة هولاكو دمشق فبذل له أهلها مالاً عظيماً ، وباستيلائه عليها خربت الدور والمساكن بظاهر دمشق ، واستبيح ما لم يصبه الحريق من الأماكن ، وأسر ألوفاً وقتل مئات فى التعذيب على المال ، ودام التتر أربعة أشهر على ذلك، فخربت بعض المدارس الكبرى ودار السعادة مقر نواب السلطنة وما حولها . و بعد مدة فتح بَبَغَا أروس التترى دمشق ونهب ضياعها وقطع أشجارها وجرى على أهلها من عسكره ما لم يجر من عسكر غازان .

كان ملوك المماليك أجناساً ، منهم الكفاة و بعضهم دون مايجب من الكفاءة السياسية ، فاتسع المجال فى عهد الضعاف للواغلين من الشرق فعسفوا أهل هذه المدينة . وما لقيت من جنكيز وهولاكو وغازان من المصائب زاد أضعافاً بضعف الدولة القائمة ، فلما وافاها تيمورلنك أنساها ما لقيت منه ما كان حل بها فى القرنين الماضيين من أجداده التتر . فإنه ضرب عليها غرامة عظيمة كان مقدارها ألف ألف دينـار ، ولما استوفاها دخلها أمراؤه فحل بأهلها البلاء تسعة عشر يوماً هلك من ساكنيها

خلال ذلك ألوف بالتعذيب والجوع ، وسبوا النساء وساقوا الأطفال والرجال ، ثم طرحوا النار فى المنازل والقصور والجوامع والمدارس ، فعم الحريق فى يوم عاصف جميع البلد ولم يبق غير جدران جامعها ، وحرق فى هذه الفتنة معظم خزائن الكتب التى كانت زينة المدارس . وأكد رجل من باقاريا اسمه جوهان شيلتبرجه كان جندياً من الأرقاء فى جيش تيمور أن ثلاثين ألف إنسان بينهم النساء والأطفال قد اختبأوا فى المسجد الجامع فهلكوا لما سرت إليه النار . قال ابن تغرى بردى : ولقد ترك المصريون دمشق أكلة لتيمور وكانت يوم ذاك أحسن مدن الدنيا وأعمرها

وكان يرجى بعد تلك الفتنة المشئومة سنة ٨٠٣ أن تتنفس هذه المدينة الصعداء ، بيد أن أمراءها ما كفوا عن مظالمهم ، وظلوا يصادرون كل من يعتقدون أن لديه مالا . وانتشر فيها الطاعون سنة ٨١٤ فأحصى من مات من سكانها خاصة فكانوا نحواً من خمسين ألفاً وخلت عدة قرى من السكان و بقيت الزروع قائمة لا تجد من يحصدها، وأشبه هذا الوباء وباء سنة ٨٩٧ وكان يموت فيه كل يوم ثلاثة آلاف إنسان . والأوبئة والمجاعات والزلازل والقحط ليست أكثر بلاء على هذا البلد من جبابرة

الملوك والمفسدين من الفاتحين ، فان تيمورلنك مثلا أخذ من دمشق جميع صناعها ومُفَنّنيها وعلمائها وقرائهـا ، ونهب آثارها النفيسة ثم أحرقها ، لم تأخذه بها و بأهلها شفقة .

وجاء ملوك عظام من المماليك البحرية والبرجية اهتموا لسعادة دمشق وفى مقدمتهم الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون و بيبرس الجاشنكير وقايتباى و برسباى ، وجاء أيضاً منهم صغار بعقولهم وبأعمارهم ، ومع هذا وفقت دولتهم إلى إخراج بقايا الصليبيين من ساحل دمشق فخف عنها الضغط الذى دام نحو مائتى سنة مشفوعاً بغارات التتر من الشرق

## دمشق فى عهد الدولة العثمانية

استولى السلطان سليم الأول العثمانى على دمشق سنة ٩٢٢ بعد وقعة مرج دابق التى قتل فيها قانصوه الغورى آخر ملوك المماليك . وكان سليم جباراً سفاكاً للدماء ، قتل إخوته و بضعة من وزرائه : ومن سوء حظ هذه العاصمة أن أرباب الرحمة من ملوك آل عثمان مضوا قبل استيلاء العثمانيين الأتراك على الشام ومصر . ولئن كانت هذه الديار بمعزل عن شؤون الدولة السياسية فى القسطنطينية

دار الملك وشأنها شأن سائر الولايات العثمانية ، فإن جهل الأتراك بالإدارة أذهب عن دمشق نضرتها التى كانت لها على عهد نور الدين وصلاح الدين مثلا . وكان يتحكم فيها المتوثبون على الملك وأرباب الإقطاعات ، والدولة لا تهتم إلا لجباية أموالها من الرعايا ، وقصاراها أن يخطب لها على المنابر ، وتضرب السكة باسم ملوكها ، وتراعى فيها الظواهر وتحس فى أهلها الخضوع لما تأمر به

ولم ينكر الدمشقيون على الأتراك القادمين سوى استرسال بعض رجالهم فى الشهوات ، ومجاهرتهم بالفسق وتعاطى الخمور ، وضرب حكومتهم رسوماً حتى على بيوت الدعارة . واستغربوا من الفاتح ورجال حملته أن يحلقوا لحاهم ، وما كانت عيون الناس فى بلاد العرب تألف غير اللحى تزين وجوه الرجال . أما الجيش العثمانى فكان دأبه الاعتداء على السكان ، ينزلون بيوتهم بالقوة ، ويعتدون على الأعراض ويقطعون الأشجار ويرعون الزرع ويوغلون فى المنكرات والسلب والنهب .

ولما رحل السلطان سليم بعد فتحه مصر خلا الجو لنائبه جان بردى الغزالى فخرج عن الطاعة وبايعه الأهلون بالسلطنة مكرهين وسمى نفسه بالملك الأشرف ، وخطب له على المنابر ، وزينت

دمشق ثلاثة أيام ، وأوقدت الشموع على الدكاكين ، وضربت السكة باسمه ، ثم أرسلت الدولة العثمانية جيشاً قضى عليه . وكان هو من قبل قضى على حامية المدينة ، وكانوا خمسة آلاف جندى من الانكشارية . وفى وقائعه خرب نحو ثلث دمشق من ضياع وأحياء وحارات وأسواق و بيوت ، وقتل من أهلها نحو سبعة آلاف ، وهجم العسكر التركى على أحياء المدينة ور بضها فكسروا الأبواب والحواصل والدكاكين ، وآذوا النساء والأولاد ، وكان النساء اجتمعن فى مدرسة الحنابلة ومدرسة أبى عمر وغيرهما من مدارس الصالحية فهجموا عليهن وعروهن من ثيابهن ، وأخذوا من راقهم من النساء والغلمان . ويمكن حصر مصائب الدور العثمانى الأول فى ظلم الوالى إذا كان عاتياً مرتشياً ، وظلم الجند فى كل مكان نزلوه ، وشقاء البلاد بأر باب النفوذ من أهلها . ومن الولاة من لم يكن حد لظلمهم ولا لسرقاتهم ، أمثال سنان باشا ، كان يقتل ألوفاً من الأبرياء ويعمر المساجد ا. فقد خلف من الذهب والجواهر والحلى والأحجار الكريمة ما عز وجود مثله فى غير خزائن كبار الملوك المستبدين . هذا عدا ما أنفقه فى بناء الجوامع والمدارس والتكايا والخانات مما قدرم

مؤرخو الترك بمليوني ليرة ذهباً بسكة زماننا .

وكانت الدولة العثمانية تخشى ولاتها ، ولذلك ما كانت تبقيهم في دمشق إلا أشهراً معدودة حتى لقد بلغ من تولاها منهم في قرن واحد من سنة ١٠٠٠ إلى ١١٠٠ أحداً وثمانين والياً . وزاد في هذا الدور ظلم الانكشارية جيش الدولة وكثر أذاهم ، يعبثون بأعراض الرعية وعروضها ، ويستبيحون المدينة وقراها ، لا يكاد إنسان يأمن شرهم وعتوهم ، وزادت فظائعهم لما أنشئت فرق جديدة من الجند ، وبدت المنافسة بين العسكر القديم والعسكر الجديد ، حتى أدت إلى أن يقتتلوا في الشوارع ، وإلى أن يتغلب أحد الفريقين المتقاتلين على القلعة ، يقتل الأبرياء وتخرب بيوت وحوانيت، وتتعطل الأعمال أياماً . وأقل ما كان ينال أهل القرى من الظلم متى طولبوا بعوارض سنتين أي بأموال عامين لحاجة الدولة أبداً إلى المال . فيرسل الوالي زبانيته من الجند يخربون المساكن ويقطعون الأشجار ، وعادة قطع الأشجار تأصلت في نفوس رجال الترك حتى أتوا في بعض الأقاليم على أشجارها كلها ، فأصبحت بتكرر قطعها وإحراقها جرداء مرداء بعد أن كانت غابات غناء . وكان الجند إذا شتوا بدمشق وهم ألوف يلزمون

أهل المدينة بأكلهم ومبيتهم ، فإذا عزموا على السفر يأخذون من كل دارٍ ترحيلة أي مبلغاً من المال نفقة الطريق. وأصبح الأمر في بعض الأدوار على غاية الأخلوقة ، فقد حدث أن خصص السلطان إبراهيم الخالع الماجن جباية إيالة الشام كلها لامرأته السابعة ، فكانت قرينة السلطان ترسل رجلاً يجبيها باسمها . وحدث بعض السنين أن أرسلت رجلا اسمه محمد أغا ، وهو الذي نهض بعد مدة بالدولة باسم محمد باشا الكوبرلي الكبير . قال أبو الفاروق : ولا عجب فقد توجد الدرة النفيسة بين الكناسات والقمامات (راجع الجزء الثاني ص ٢٦٧ من كتاب « خطط الشام » من تأليفنا ) .

وفي العهد العثماني كانت الفتن بدمشق متصلة اتصال الشؤبوب ، والبلاد ساحة وغى على الدوام ، وكذلك كانت الحال في الأقاليم : تتعطل الأسواق والمعاملات بسبب الاضطرابات بين الإنكشارية جيش الدولة والفرق الجندية الأخرى كالدالاتية والقبوقولي . وقد عطلت البلد سنة ١١٦١ هـ مرة ما يقرب من سنة ، لا تقام جمعة ، ولا يسمع أذان ، ولا يفتح جامع ، ولا يتمكن أحد من الخروج من منزله ،

وأغلقت دمشق دكاكينها مرة تسعة أشهر احتجاجاً على مسائل آذتها ، وكانت ذريعتها العظمى فى إنكار ما يؤذيها إغلاق الحوانيت والمتاجر .

نعم انقلب عيش الدمشقيين فى القرون الأخيرة من حكم العثمانيين عيشاً رتيباً ليس فيه غير المغارم والمظالم ، ونشوب الفتن فيها من الأمور الطبيعية ، وذلك لضعف الحكومة وقلة بصيرة ولاة الأمر وفسادهم ، وسرعة تبديل الولاة وسائر العمال ، والقاعدة أن المناصب الكبرى لا تدوم لمتوليها أكثر من بضعة أشهر ، وندر من يتولاها سنة كاملة أو سنتين ، ومعظم العمال يبتاعون مناصبهم من رجال الآستانة بالمال الوافر ، والجند لأقل سبب يُشَعِّثون القرى ويأكلون مَغَلها ، ويقتلون فى أهلها . ومعنى تخريب قرى دمشق انقطاع مادة حياتها . وكاد الموت والحياة يتساويان فى نظر الناس على عهد الترك لأن كل ما يدخرونه ينهب ، وكل ما يعمرونه يخرب .

وجاء الوالى أحمد باشا الجزار يقتل فى الأهلين ويعسفهم ، وكثيراً ما كان يصادر الناس ثم يقتلهم ، وطال حكمه فى أوائل القرن الثانى عشر وهو يلقى الشَّغْب بين الأهلين وينمى روح

الفتن بينهم ، حتى ينقذ القطر بزعمه من عسف المشايخ والامراء . وكان جوره بالقياس إلى جور هؤلاء أقل وطأة ، فحفظ المساواة بين الرعية ، وكان يحبس علماء المسلمين كما يحبس قسيسى النصارى وحاخامى اليهود وعُقال الدروز . ويصادر المسلمين كما يصادر اليهود .

وأهم ما وقع فى القرن التالى قتل أعيان دمشق الوالى سليم باشا، وكان قضى على جيش الإنكشارية فى الآستانة وهوصدر أعظم ، فحاول قتل بعض أعيانهم وهو والٍ فبدأوه بالشر قبل أن يبدأهم، وجعلوا الحجة فى إثارة العامة أنه يريد وضع ضريبة جديدة على البيوت والحوانيت فهاج الرعاع لذلك وقتلوه . ولولا أن اتفق فى تلك السنة خروج محمد على باشا والى مصر على الدولة ، وإعداده حملة لفتح الشام ، لجعلت الدولة عالى دمشق سافلها لما أصابها من الذل بمقتل واليها .

وشغلت دمشق بفتح ابراهيم باشا بن محمد على باشا ونفّس خناقها بالدولة الجديدة ، وقد رأى الدماشقة إدارتها أحسن من الإدارة التى عهدوها من العثمانيين ، وكان من أول أعمال المصريين ترتيب المجالس الملكية والعسكرية وإقامة مجلس

الشورى ، وترتيب المالية ووضع نظام للجباية ، ومعاملة الرعايا بالمساواة والعدل . ومع هذا استثقل أرباب النفوذ والمشايخ ظل هذه الدولة ، وودوا رجوع العثمانيين ، ليعيشوا معهم كالحلمة الطفيلية تمتص دماء الضعفاء وتفتك بالآمنين والأبرياء . أما إبراهيم باشا فمضى فى إصلاحه وأبطل المصادرات ، وقرر حق التملك ، ووطد الأمن وأحيا الزراعة والصناعة وهيأ الطرق لرواج التجارة ، وبتشويقه عمت تربية دود الحرير ودود القز ، واستخرجت بعض المعادن، فاستعادت بعض القرى عمرانها القديم ورخص الفاتح الجديد للأجانب فى إرسال معتمديهم إلى دمشق، وكانوا قبله يمنعون من دخولها . ودام حكمه فى الشام تسع سنين ، ومن دمشق خرج عائداً إلى مصر فبكاه الدمشقيون بكاء شديداً، على شدته فى تطبيق القوانين ، وما عهد منهم أن ودعوا فاتحاً بما ودعوا به إبراهيم بن محمد على الكبير .

مدح قنصل بريطانيا العظمى الإدارة المصرية فى الشام بقوله : ( ولو طال الحكم المصرى لاستعادت الشام قسماً عظيماً من وفرة سكانها القدماء وأصابت شطراً كبيراً من الثروة التى كانت فى الماضى وآثارها لم تزل ظاهرة للعيان فى القرى والمدن العديدة ،

ولم يكد المصريون يُطْردون ويتقلص ظل سطوتهم — وقد كانوا أخضعوا الجميع لحكمهم الشديد — حتى عاد القوم إلى نبذ الطاعة وخَلَفت الرشوة والتبذير في إدارة المالية النزاهة والاقتصاد، ومنيت المداخيل بالنقص ، واستأنف عرب البادية غاراتهم على السكان ، فخلت القرى والمزارع المأهولة بالتدريج ، حتى أمكن القول إنه لا يوجد ثَمّ ظل للأمن على الحياة والأملاك ، وكل شيء يدعو إلى عودة الفوضى إلى هذه الديار ) .

وأهم ما وقع فى هذا القرن حادثة النصارى المعروفة بحادثة الستين سنة ١٨٦٠ م وخلاصتها قيام رعاع المسلمين والدروز على نصارى دمشق وقتلهم ونهبهم و إلقاء النار خمسة أيام فى حيهم حتى خرب كله . وكانت هذه المذابح بدأت من قبل فى لبنان وهلك فى دير القمر وزحلة ووادى التَّيْم ألوف من النصارى بيد جيرانهم الدروز . جرى هذا فى مدينة التسامح واللطف ، فسوّد الأشقياء سمعة دمشق بعد أن عاش المواطنون قروناً فى صفاء وولاء . وكانت لبعض الدول الغربية يد فى إثارة نفوس النصارى من جهة و إثارة الدروز من أخرى .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أن الدولة هى التي دفعت

الرعاع أو غضّت الطرف عنهم فارتكبوا ما ارتكبوا ، وكان والي دمشق لما رأى أهل زحلة يجمعون جموعهم للغارة على الدروز أرسل إليهم وفداً من دمشق لينصح لهم بالعدول عن فتح باب الشر فقبل الدروز بمقترحه إلا أن الزحليين لم يقبلوا ، وكان بعد ذلك ما كان من إثخان الدروز في جيرانهم النصارى في لبنان ووادي التيم ، ثم سرت هذه الشرارة إلى دمشق وهلك فيها من النصارى ٥٥٠٠ مسيحي وقدر بعضهم عدد القتلى في لبنان ودمشق باثني عشر ألفاً ، وهو عدد مبالغ فيه . وأرسلت الدولة على الأثر أحد عظماء رجالها فؤاد باشا لإطفاء الفتنة وإرضاء الدول العظمى حامية النصارى في الشرق ، فقتل من مسلمي دمشق ١١١ رجـــــلاً رشقاً بالرصاص وصلب ٥٦ ونفى ١٤٥ وحكم بالأشـغال الشاقة على ١٨٦ وكان في جملة من قتل ١٨ رجلاً من كبار الأسر ، وأرسل زهاء ألف رجل إلى المنفى والسجون خارج دمشق ، وقتل الوالي أحمد باشا رمياً بالرصاص قالوا لتساهله في الفتنة ، والحقيقة أنه نفذ أوامر الآستانة فخافت الدولة شيوع الخبر فقتلته ، بعد أن أخذ فؤاد باشا أوراقه . وأخذت الحكومة تجبي المال للتعويض على المنكوبين

فجبت مئات الألوف من الليرات غرامة من أهل دمشق يبنون بها الحيّ الذى أصبح طعام النار ، وجندوا ثلاثة آلاف جندى ، وجعلوا بدل الخدمة فى الجندية من النقد مائتى ليرة ذهبية ، و بلغت الخسائر مليوناً وربع مليون من الليرات . وعاد من دانوا بالإسلام من النصارى كرهاً إلى دينهم الأصلى ، وعوضت الدولة على المنكوبين من أموال الأهالى ، ولم يصل إلى من أريدت معاونتهم مما جبى بهذا الاسم أكثر من الربع ، وضاع الربع الثانى فى النفقات ، واختلس الربع الثالث عمال الحكومة ، وأصاب صيارفة اليهود الربع الرابع . وكانت الخسارة عظيمة على الحكومة وعلى رعاياها من المسلمين والنصارى ، وربحت الدولة من كل هذا تذليل الرعية وإخضاع الزعماء وأرباب المقاطعات . وخسرت دمشق ألوفاً من البيوت المسيحية هاجرت من دمشق إلى بيروت وقبرص ومصر واستوطنوها استيطاناً قطعياً .

ولولا أن مئات من أعيان دمشق وتجارها وغيرهم من أرباب الدين والمروءة فتحوا بيوتهم وصدورهم لحماية المسيحيين والمسيحيات لما بقى منهم ديّار ، لأن الأمر بعد أن خرج من يد الحكومة صار إلى أيدى الرعاع ، والرعاع فى العادة لا حدّ

لتعديهم و إسرافهم . عمل المسلمون بما فرضه عليهم دينهم من حماية أهل الذمة ، ولـكن السياسة لعبت ألاعيبها ، فعوقب حتى بعض من حمى مواطنيه ، وأطعمهم وألبسهم وحنا عليهم .

وكانت الدولة تحاول أن تمثل مثل هذه الفتنة فى دمشق قبل نحو ربع قرن فلم تقع فى أحبولتها ، لأن الأمر رجع يومئذ إلى أرباب البصيرة والرأى . وذلك أن الدولة أرادت يوم ثورة المورة وجزائر البحر المتوسط سنة ١٢٤٤ هـ أن تقتل طائفة الروم الأرثوذكس فى الشام انتقاماً منهم عما أتاه أبناء دينهم فى اليونان من عصيان الدولة للوصول إلى استقلالهم ، فأمرت الحـكومة واليها فى دمشق أن يقتل أبناء طائفة الروم فى إيالته ، وكان الوالى عاقلا على ما يظهر فأحال المسألة على مجلس دعا إليه الأعيان وأرباب الشأن وتلا عليهم أوامر الآستانة ، فكان جوابهم : ليس عندنا مفسدون من النصارى ، وجميعهم ذميون وعاملون بشروط الذمة لا تجوز أذيتهم ، والرسول أوصانا بالذميين ، ونحن لا نقدر أن نتحمل تبعة قتلهم ، وكتبوا محضراً بجميل سلوك نصارى الإيالة وحسن طاعتهم ، وأنهم يؤدون الأموال الأميرية وأنهم يستحقون الرعاية والمرحمة من السلطنة العثمانية . و بصنع أهل دمشق هذا نجا من

القتل عشرات الألوف من النصارى . وهكذا كانت سياسة الدولة العثمانية مدة تزيد على أربعة قرون ، تضرب الغنى بالفقير والموافق بالمخالف والطائع بالعاصى ، وتفرق بين أجزاء قلوب رعاياها فى بلد فيه عشرون مذهباً وديناً حتى تخلت عن هذه الديار فى حرب سنة ١٩١٨ م .

### دمشق فى العهد الأخير

فتح الجيش الانكليزى والجيش العربى مدينة دمشق أواخر الحرب العالمية وتولى الأمير فيصل بن الحسين حكمها بمعاونة البريطانيين ، ووضع فيها أساس الحكومة العربية . ثم وقع الاتفاق بين الحلفاء على تقسيم الديار الشامية ، فكانت فلسطين وعُبْر الأُردنّ من حصة بريطانيا العظمى ، وسورية ولبنان من نصيب فرنسا . و بعد حين جعلت عصبة الأمم الإشراف على هذا القطر لكل من الدولتين المشار إليهما على هذه الصورة مع الاعتراف بأنه مستقل ويحتاج إلى من يدربه على الحكم من الدول ، وهذا ماسموه بالانتداب .

وفى عهد الأمير فيصل التأم مؤتمر من نواب الديار الشامية

( فلسطين وشرق الأُردن ولبنان وسورية ) فى مدينة دمشق وقرروا فيه المناداة بالأمير فيصل ملكا على هذه البلاد ، فلم يرق الحكومتين المنتدبتين عمل المؤتمر على ما يظهر ، وطلبت فرنسا دخول جيشها إلى الأرض السورية فمانعت حكومة فيصل ، فدخل الجيش الفرنسى دمشق عنوة بعد وقعة طفيفة فى قرية مَيْسلون مع قوة قليلة من الجيش العربى والمتحمسين من الأهلين . وعهدت فرنسا بالحكم فى سورية إلى رئيس سورى سمته تارة رئيس وزراء وأُخرى رئيس دولة وطوراً رئيس مجلس المديرين، وجعلوا لكل وزارة ولكل ديوان كبير مستشاراً فرنسياً ، وتغلغل الفرنسيون فى جميع فروع الإدارة ، تغلغل جيشهم المحتل فى المراكز الحربية . وبينا كانت الهمة منصرفة إلى تقرير الأمن وإصلاح آلة الحكومة ، والقوم يهنأون بالراحة وقد نجا أولادهم من خدمة الجندية فى الجيش التركى ، وكان كل سنة يهلك منهم ألوف فى هذه السبيل ، وقد نجوا من الاشتطاط عليهم فى أداء المغارم ، نشبت الثورة فى جبل دروز حوران ، ولم تلبث أن سرت شرارتها إلى دمشق ، فكانت ثورة مؤلمة فى زمن تحتاج فيه البلاد إلى السلام ، نخربت بمدافع الحامية أجمل قصور دمشق

الأثرية وجزء غير قليل من أعظم بيوت حي الميدان وحوانيته وحواصله ومستودعاته ، وخربت عدة قرى في الغوطة ، وهلك من الأهلين ألوف ، وذهب من ثرواتهم مئات الألوف كانت جُمعت في عشرات من السنين .

كان عمل فرنسا في التنظيم والإدارة والأمن حسناً في مجموعه ، لكن سياستها كانت غير مستقرة على حالة واحدة ، فكان الرؤساء الوطنيون ينصبون تارة بالتعيين وأخرى بالانتخاب ، ينتخبهم مجلس له صورة المجلس النيابي ، وبعد أخذ ورد طال أمرهما اختاروا الحكم الجمهوري ، وجاء نواب الأمة إلى دمشق يجتمعون في دار الندوة أي البارلمان على نحو ما يجتمع العريقون في الحكم النيابي في الغرب . وإلى الآن تولى الأمر أربعة رؤساء جمهورية ، اثنان منهم انتخبا انتخاباً نظامياً في الجملة ، إلا أنهما لم يكملا مدتهما ، وثالث عينوه بمرسوم وقالوا إنه رئيس جمهورية ، وربما كان هو أول رئيس جمهورية يعينه الغريب بأمر منه ! والرابع من الرؤساء جرى انتخابه على النحو الذي جرى عليه انتخاب الرئيسين الأولين ، وكان ذلك بعد استيلاء البريطانيين على سورية ولبنان في سنة ١٩٤٠ لأسباب حربية ، وقضوا على

الفرنسيين الذين حافظوا على الطاعة لفرنسا الأم ، وظلوا إلى الآن تحت الاحتلال الألمانى . وأصبحت سورية ولبنان مستقلين بحسب العرف الدولى .

وأخذت المفاوضات بين البلدان العربية تدور حول تأليف وحدة من مصر والشام والعراق وجزيرة العرب ، وإذا تمت هذه الأمنية التى تحرص على تحقيقها دمشق حرصاً كبيراً تصبح العاصمة الثانية لهذه الوحـــــدة بعد القاهرة لتوسطها بين الأقطار العربية .

# عمران دمشق

لم تبق الأيام فى دمشق من عاديات الأُمم البائدة قبل الإسلام سوى مصانع قليلة داثرة يستدل منها على مبلغ عنايتها بالعمران . لا جرم أن دولة الرومان التى طال عمرها فى هذه الديار كان لها ممن تُسَخِّرهم من الأَسرى والأَرقاء فى إنشاء مصانعها مالم تكد تصل إليه دولة قبلها ولا بعدها . وعلى هذا الأَساس كان حالها فى كل قطر استصفته وكل بلد نزلته . ومن آثارها هنا الشارع الأعظم ويدعى المستقيم ، كان ممتداً من الباب الشرقى إلى باب الجابية ، أى من الشرق إلى الغرب وطوله ١٦٠٠ متر وفيه طريق للركبان وآخر للمشاة ، وقد طمر اليوم بما قام عليه من الأنقاض العظيمة ، وما برحت بعض عمده مدفونة على أمتار من سطح الأرض تعلوها الدور والحوانيت ، ولا يظهر منه إلا الباب الشمالى من الباب الشرقى وقسم من الباب الأوسط الكبير . أما باب الجابية فبقى جزء صغير منه .

ومن أعظم آثار الرومان اثنان وخمسون حصناً وقلعة أقاموها بين دمشق وتدمر إلى الفرات لتقف حاميتها على الدوام دون

تسرب أهل البادية إلى المعمور من دمشق وأرباضها . وكذلك ماشادوه من حصون على الطريق الممتد بين بصرى قصبة إقليم حوران ودمشق عاصمة القطر الشامي ليأمنوا عيث البادية أيضاً .

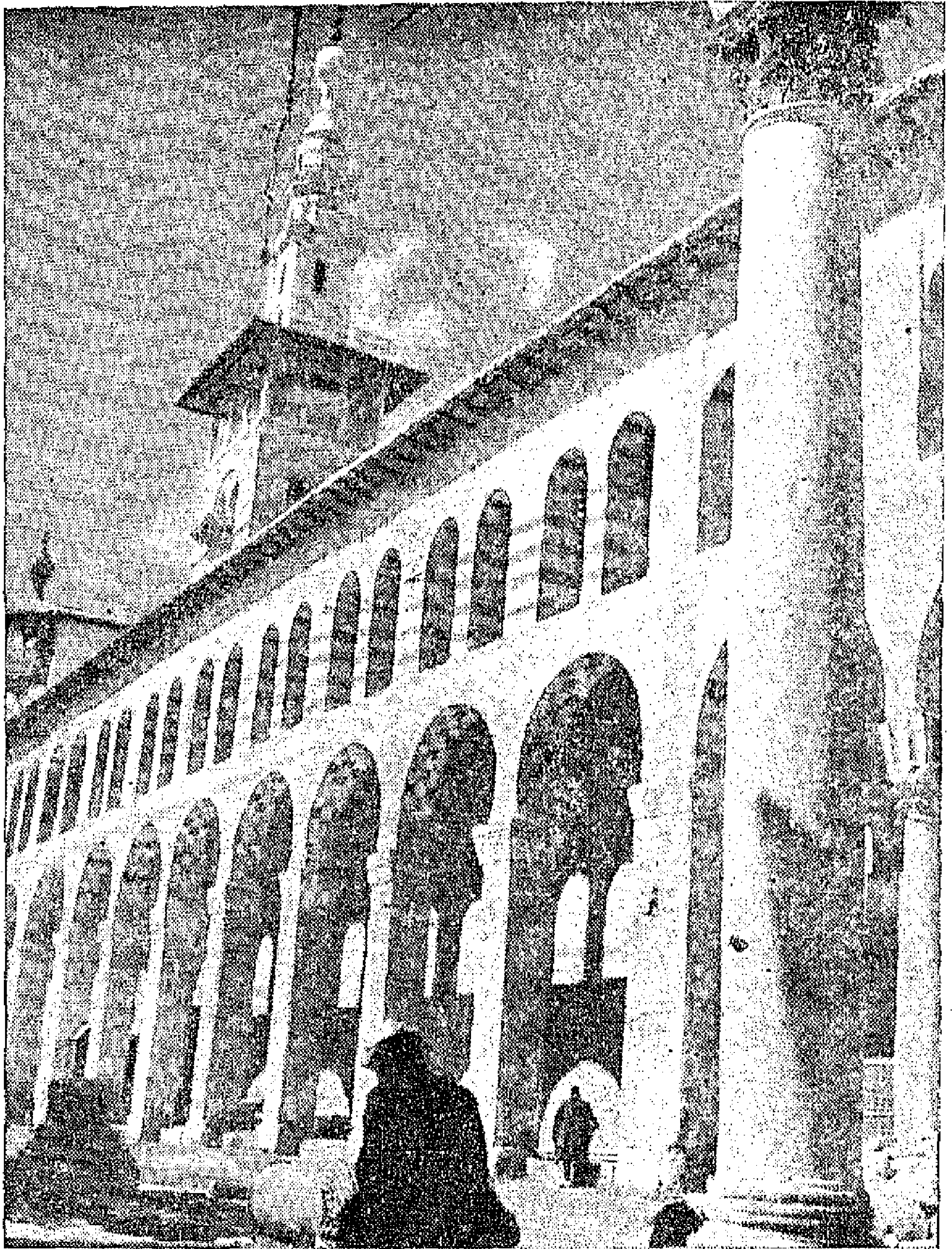
ومن آثار الرومان قلعة دمشق فى غربها سماها العرب «الأسد الرابض» وتعاورها بعض الفاتحين بالترميم فى أدوار كثيرة ، ولا تزال بعض جدرانها قائمة ، وأكثرها خراب ، وقد اتخذها كثير من ملوك الطوائف ونورالدين وأخلافه دار إمارة ، وجاءت بعض العصور وهى أشبه بمدينة فيها جميع المرافق وأقيم فيها جامع بخطبة . ومن آثار القدماء سور البلد وهذا أيضاً جار عليه الدهر فنقض مرات ورمم مرات فى الدول الإسلامية . وهناك بقايا أنقاض بيعة اسمها كنيسة حنانيا يرد عهد بنائها إلى القرن الرابع للمسيح ، إلى غير ذلك من الأحجار والتماثيل المهشمة وقليل منها السالم ، وقد رمّ العرب بعض ماعَوِر من المصانع القديمة ، وما أفرطوا فى تشييد البناء العظيم لأن الإسلام حظر السخرة ، وعاديات القدماء كانت من عمل الرقيق والأسارى ، وربما اختار العرب لأول أمرهم البناء بالمدر أى باللبن والطين ، ثم تحول البناء إلى الحجر فى بعض السنين ، وكانوا يؤثرون البناء بالطين والخشب

لأنه أدنى إلى السلامة عند حدوث الزلازل من أبنية الحجر .

بنى معاوية قصر الإمارة جنوب المسجد الأموى ، وسمى بالخضراء لقبة خضراء قامت عليه . قيل إنه أنفق عليه ثمانية عشر حملا من الذهب ، وبنى الأمويون بيوتهم فى جوار الجامع ، وكان لمعظمهم قصور فى الغوطة ، ومنهم من كان يؤثر نزول البادية لئلا يخمل أبناؤهم بعيش الحضارة .

وجاء الخليفة الوليد بن عبد الملك وكان مولعاً بالعمران فبنى الجامع الأموى ، وصالح النصارى على النصف الذى كان أبقاه لهم الفاتحون، وعوضهم عن نصفه أربعين ألف دينار . وكان بدمشق خمس عشرة كنيسة للنصارى صولحوا عليها . قال المؤرخون : وهدم المسلمون واليهود جميع ما جددت النصارى فى تربيع الجامع الأموى من المذابح والأبنية والحنايا ، حتى بقى عرصة مربعة ، ثم شرع ببنائه بفكرة جيدة على الصفة الحسنة الأنيقة التى لم يشهد قبلها مثلها .

وذكر المؤرخون أن الوليد أتى بالصناع والمهندسين من الروم أى من الروم الوطنيين وبناه على أعمدة من الرخام طبقتين ، الطبقة التحتانية أعمدة كبار ، والتى فوقها صغار ، فى خلالها صورة كل



الجامع الأمـــوى

مدينة وشجرة فى الدنيا معمولة بالفسيفساء بالذهب والخضرة والصفرة . وكان ابتداء عمارته فى أواخر سنة ست وثمانين ، وتكامل فى عشر سنين . وقبل أن يكون بيعة للنصارى كان معبداً للصابئة والكلدان والسريان واليهود . وكان طول الحرم الأصلى من الشرق إلى الغرب ١٣٠٠ قدم وعرضه من الشمال إلى الجنوب ١٠٠٠ قدم ، فهو ربع مساحة دمشق فى تلك الأيام ، أنفق الوليد على تشييده وتزيينه خراج الشام سنتين وقيل أكثر من ذلك ، وكان خراجها ألف ألف دينار ومائتى ألف دينار كل سنة ، فجاء أجمل جامع فى الإسلام يليق بعاصمة الخلافة الإسلامية . وبقى على جماله إلى سنة ٤٦١ ﻫ أيام ذهبت محاسنه فى الحريق الذى وقع فى دولة الفاطميين وقد حرق ست مرات فى عصور مختلفة ، وكان آخر حريق أصابه فى سنة ١٣١٠ ﻫ فأعيد إلى ما كان عليه كما كان يعاد فى كل حريق . وأصيب غير مرة بزلازل فتفطرت بعض أركانه وشراريفه ومآذنه الثلاث .

ولنابغة بنى شيبان فى الوليد بانى الجامع الأموى من قصيدة عدحه بها ويصف بدائع هذا الجامع :

قلعت بيعتهم عن جوف مسجدنا فصخرها عن جديد الأرض منسوف
كانت إذا قام أهل الدين فابتهلوا باتت تجاوبنا فيها الأساقيف
أصوات عجم إذا قاموا بقربتهم كما تصوت فى الصبح الخطاطيف
فاليوم فيه صلاة الحق ظاهرة وصادق من كتاب الله معروف
فيه الزبرجد والياقوت مؤتلق والكلس والذهب العقيان مرصوف
ترى تهاويله من نحو قبلتنا يلوح فيه من الألوان تفويف
يكاد يعشى بصير القوم زبرجه حتى كأن سواد العين مطروف
وفضة تعجب الرائين بهجتها كريمها فوق أعلاهن معطوف
وقبة لا تكاد الطير تبلغها أعلى محاريبها بالساج مسقوف
لها مصابيح فيها الزيت من ذهب يضيء من نورها (لبنان) و(السيف)
فكل إقباله — والله زينه — مبطن برخام (الشام) محفوف
فى سرة الأرض مشدود جوانبه وقد أحاط بها الأنهار والريف
فيه المثانى وآيات مفصلة فيهن من ربنا وعد وتخويف

ووصف ابن منقذ الكنانى هذا الجامع بقوله :

وكأن جامعها البديع بناؤه ملك يمير من المساجد جحفلا

ذو قبة رفعت فضاهت قُلـة ومنابر بنيت فحا كت معقلا
تبـدو الأهلة فى أعاليها كما يبدو الهلال تعاليـاً وتهللا
ويريك سقفاً بالرصاص مدثراً يعلو جداراً بالرخام مزملا
قد ألف الأقوام بين شكوله فغدا الرخام بذاته متشكلا
لم يرض تجليلا بجص فانبرى بالفَصِّ يعلو والنضـار مجللا
يُعْشى سوامَ اللحظ فى أرجائه من عسجده أرضاً ومن فَصٍّ حلا
فإذا تذر الشمس فيه تخاله بُرقاً تألَّق أو حريقاً مشعلا
فكأنما محرابه من سندس أو لؤلؤ وزمرد قد فصـلا
وتخال طاقات الزجاج إذا بدت منه للحظك عبقرياً مسدلا
تبدو القباب بصحنه لك مثلما تبدو العرائس بالحلى لتجتلى
وعلت به فوارة من فضـة سالت فظنوها معينا سلسلا
وببابه حركات ساعات إذا فتحت لها باب تراجع مقفلا

وفى أيام الوليد كان الناس يتكلمون فى البنايات والعمائر لزيادة رغبته فى البناء ، فبنت الناس المجالس الحسان عملا بسنة الخليفة، وهو الذى عمر الضياع وحفر الآبار وأقام المنارات فى الطرق وهدم المساجد القديمة وزاد فيها وشيد دور المرضى . وكان إذا ازدادت

أموال الجباية ولم يجد أحداً يقبل الصدقات يبنى بها المساجد . وشيد من جاء بعده الفنادق ودور الضيافة والخانات وكل ما يسهل العيش ويجلب الراحة .

وظل الدمشقيون يسيرون على خطة خليفتهم الوليد فى عمارة بلدهم فى القرون التالية ، لم ينزع منهم هذا الغرام ، حتى قال بعض المؤرخين إن للدمشقين فى ظاهر مدينتهم وداخلها من القصور الجميلة ما يدل على شدة ولوعهم باتقان مصانعهم والحرص على آثارهم . وهذه الخلة مشاهدة فيهم إلى اليوم ، وعندهم أن من النقص فى صاحب السعة ألا يملك داراً قوراء منجدة بالفرش الجيد ، مستجمعة أسباب الراحة والنعيم .

عمرت دمشق فى العهد الأموى عمراناً ما عهدت مثله فى القرون الغابرة ولا فى القرون اللاحقة ، فأبقى كل واحد من خلفاء بنى أمية أثراً فيها ، مع أن ملكهم لم يدم أكثر من ألف شهر . وجاء العباسيون فكان بعض المتقدمين من خلفائهم كالرشيد والمأمون يختلفون إليها ، كما قال ابن عساكر ، طلباً للصحة وحسن المنظر . فقد أقام بها المأمون وأجرى إليها قناة من نهر منين إلى معسكره بدير مران ، وبنى القبة التى فى أعلى الجبل وصيرها مرقباً يوقد فى

أعلاها النار لكى ينظر إلى ما فى عسكره . وصارت هذه القباب بعد ذلك للاعلام بحركات العدو ، وأقام أيضاً مرصداً فلكياً فى الجبل.

ومن أهم القصور القديمة القصر الذى بناه المأمون بين دمشق وداريا ، ولا يعرف اليوم محله ، وفيه نزل المتوكل العباسى لما نقل دواوين الخلافة من بغداد إلى دمشق . وكان المأمون معجباً بما ترك الأمويون من الآثار ولا سيما جامعهم . قال صاحب الأغانى إن المأمون دخل دمشق فطاف فيها وجعل يطوف على قصور بنى أمية ويتتبع آثارهم ، فدخل صحناً من صحونهم فإذا هو مفروش بالرخام الأخضر كله ، وفيه بركة يدخلها الماء ويخرج منها من عين تصب إليها ، وفى البركة سمك وبين يديها بستان على أربعة زواياه سروات كأنها قصت بمقراض من التفافها .

كانت صورة دمشق على شكل مربع الأضلاع مستطيل ولها ثمانية أبواب . وربما زاد عدد الأبواب فى بعض العصور وردمت بعض الأبواب الأخرى . وأحسن بعض المتأخرين من أهل دمشق منذ قال :

دمشق فى أوصافها جنة خلد راضيه
أما ترى أبوابها قد جعلت ثمانيه

وكانت متاجر المدينة وأسواقها داخل السور ، والبناء فى ربضها يكثر و يقل تبعاً للأمن وقوة السلطان . فقد كانت فى القرن السادس أحياء العقيبة والشاغور والمزاز وقبر عاتكة والشويكة والقنوات وسويقة صاروجا (سوق ساروجا) والعنابة من الأحياء الخارجة عن السور ، ثم اتصلت بالمدينة كما اتصل ميدان الحصا بها ، وكان الميدان قرية فى الجنوب تربطها بالمدينة تلك الجادة العظمى من باب الجابية إلى باب مصر أو بوابة الله .

وكان الشرف الأعلى والأدنى فى غربى المدينة عامرين بقصور الأغنياء ورجال الدولة ، وفيها المدارس الحسان والمساجد والأسواق إلى القرن التاسع ، فسطا عليها الخراب . وكذلك كان شأن محلة العنابة فانها خربت حوالى ذلك العصر . وعمرت الصالحية فى سفح قاسيون من الشمال فى القرن الخامس والسادس حتى أصبحت بمدارسها وجوامعها وأسواقها وخاناتها مدينة برأسها ، ثم تحيفها الخراب فى العصور التالية ، ونهضت قليلا فى العصر الحديث . فالعمران كان يمتد إلى الجنوب وإلى الشمال وإلى الغرب ، وربما حال دون امتداده إلى الشرق وجود محلتى النصارى واليهود فى ذلك السمت . وجاء زمن والعمران متصل

بدمشق من الغرب إلى الربوة ، وكانت هذه عامرة أشبه ببلدة صغيرة فيها مدارس وجوامع وأسواق ومقاصف وحمامات ، وفيها قصور الأغنياء وإلى جنبها قصر الفقراء الذى بناه نور الدين محمود ابن زنكى ليصطافوا فيه كما يصطاف السراة ، ووقف عليه قرية داريا من أعظم قرى الغوطة ، وفى ذلك يقول الوداعى :

إن نور الدين لما أن رأى ‏ ‏ ‏ فى البساتين قصور الأغنياء
عمر الربوة قصراً شاهقاً ‏ ‏ ‏ نزهة مطلقـــة للفقراء

وحرق قصر الامارة فى فتنة الفاطميين فبقيت دمشق بدون دار امارة ، ولما ملكها تاج الدولة تتش فى سنة ٤٧١ بنى دار الامارة فى القلعة وزاد فيها شمس الملوك دقاق وأنشأ بابين للقلعة مع دار المسرة فيها والحمام المحدث على صيغة اخترعها ، وبنية افترعها ، وصفة آثرها .

ولا أثر لما بناه جعفر بن فلاح لما فتح دمشق للفاطميين سنة ٣٥٨ ، وكان نزل بظاهر سور دمشق فوق نهر يزيد ، وأقام أصحابه هناك الأسواق والمساكن ، وصارت شبه مدينة ، واتخذ لنفسه قصراً عجيباً من الحجارة وجعله عظيماً شاهقاً فى الهواء ، غريب البناء ، وهذا القصر من المفقود ، كما أنه لا أثر لما بناه

الأشرف بن العادل من القصور والمتنزهات الحسنة فى القرن السادس . ولم يبق أثر لقصور السكسكى التى كانت بهجة الأنظار فى القرن الثالث فى إقليم بيت لهيا على نحو ميل من شمالى دمشق ، وكانت فى أملاكه هناك عدة قصور مبنية بالحجارة والخشب الصنوبر والعرعر ، فى كل قصر منها بستان ونهر يسقيه ، وكان كل جليل يقدم من الحضرة أى من بغداد ، أو من مصر يريد الحضرة ينزل عنده وفى قصوره . وما خلا عصر من مثل هذه القصور يقيمها أهل اليسار من التجار وغيرهم أو رجال الدولة وأصحاب الوجاهة . وفى العصور الحديثة شيدت قصور كثيرة فى المدينة وربضها ومنها ما أنفق عليه من أموال مغصوبة فخربت بعد قليل ، ( والحجر المغصوب فى البناء أساس الخراب ) كما قيل . وكان فى الصالحية محل يسمى القصر عمره أبو البقاء الصفورى سنة ١٠٣٥ هـ وكان يقال له صاحب القصر ، ولا يعرف هذا القصر ولا القصر الذى كان فى الصالحية أيضاً لحسين بن قرنق وعمره فى سنة ١٠٧٧ هـ وكان يضرب المثل بقاعته . وكان ابن قرنق صدر دمشق عمر الأماكن البهية ومن جملتها هذا القصر .

ومن أجمل أمثلة البناء الجميل الباقى أكثره دار أسعد باشا

العظم فى جوار جامع بنى أمية انتهت عمارتها سنة ١١٧٤ هـ وهى مثال من هندسة الدور فى العهد الأخير ، اشترتها حكومة فرنسا من ورثتها وجعلتها معهداً للدراسات العلمية ، وقد حرقت فى ثورة سنة ١٩٢٥ قاعتها وكانت أجمل ماحوت تلك الدار .

وفى القرن الخامس دخل دمشق طراز من دور العلم سموه بالمدرسة . وأول مدرسة أنشئت للقرآن فى سنة ٤٤٤ أنشأها رشأ بن نظيف المقرى الدمشقى ، وكثرت بعد ذلك دور القرآن ودور الحديث ومدارس الحنفية والشافعية والمالكية والحنابلة والزوايا والرباطات ، أنشأها الملوك وأتباعهم من الأمراء والعتقاء والجوارى وبعض أهل الخير من التجار والأغنياء . وختم تاريخ المدارس بانقراض ملوك الطوائف ودخول الدولة العثمانية .

ذكر صاحب كتاب الدارس وهو مما ألف بعد خمس سنين من دخول العثمانيين أن فى دمشق ٧ دور للقرآن و ١٨ داراً للحديث و ٥٧ مدرسة للشافعية و ٥١ مدرسة للحنفية و ٤ مدارس للمالكية و ١٠ مدارس للحنابلة . وكان بها أربع مدارس للطب ومدرسة للهندسة ، وفى دمشق وصالحيتها ٢٦ خانقاً و ٢٣ رباطاً و ٢٦ زاوية . وجميع هذه المدارس

والرباطات خربت على عهد العثمانيين ، ولما غادروا دمشق ما كان فيها من تلك المعاهد سوى بضع مدارس أكثرها خراب، سطا عليها أهل الجوار أو باعها أكلة الأوقاف . وكانت هذه المدارس مدة قرون أشبه بكليات لمدرسة جامعة كبرى ، تدرس فيها بعض علوم القدماء إلى جانب علوم الدين واللغة ومنها خرج أعاظم الملة ، وكانت من أجمل الأدوات فى إخراج المسلمين من الأمية ، تتعاور هذا الواجب مع الجوامع والكتاتيب التى يقفها أهل الخير لتعليم اليتامى والفقراء القرآن والخط ، وتكون على الأغلب على أبواب الجوامع أو على مقربة منها ليألف الصغار الصلاة منذ نعومة أظفارهم .

ولابن منقذ الكنانى فى المدارس :

ومدارس لم تأتها فى مشكل إلا وجدت فتًى يحل المشكلا
ما أمها مرء يكابد حيرة وخَصاصة إلا اهتدى وتمولا
وبها وقوف لا يزال مَغَلها يستنقذ الأسرى ويغنى العَيلا
وأئمة تلقى الدروس وسادة تشفى النفوس وداؤها قد أعضلا
ومعاشر تخذوا الصنائع مكسباً وأفاضل حفظوا العلوم تجملا

ومن القصور التى كان يقصدها الزائرون من الأقطار قصر الأبلق غربى دمشق ، وهو قصر عظيم بنى من أسفله إلى أعلاه بالحجر الأسود والأصفر بإحكام عجيب ، بناه الظاهر بيبرس (٦٦٨) قالوا وكان من عجائب الدنيا ، فرش بالرخام البديع الحسن المؤزر بالرخام المفصل بالصدف والفص المذهب إلى سجف السقف ، وكان على واجهته الشرقية مائة أسد وعلى الشمالية اثنا عشر أسداً منزّلة صورها بأبيض فى أسود . والأسد شعار (رنك) الملك الظاهر .

وعلى مثال قصر الأبلق بنى الناصر محمد بن قلاوون القصر الأبلق بقلعة الجبل بالقاهرة . وبقى أبلق دمشق عامراً إلى دخول العثمانيين ، وهو من عمل إبراهيم ابن غنائم المهندس مثل المدرسة الظاهرية الباقية إلى اليوم ، واسم هذا المهندس العظيم ما برح منقوراً فى الحجر فى زاوية باب الظاهرية على يسار الداخل إليها.

كثرت الجوامع والمساجد فى الدولتين النورية والصلاحية وزاد عمران هذه المدينة فى القرن السادس ، وفيه كانت كما قال الرحالة ابن جبير أكثر مدن الأرض سكاناً ، يضاف هذا إلى ما كان لها من الغنى الماثل فى مصانعها ومساكنها وجوامعها ومدارسها . ذهب كل هذا فى فتن الفاتحين المخربين ولم يبق منه إلا بعضه

وهو على تشعثه وخرابه يدل على ذلك العز الذى كان لدمشق.

ولقد اشتهرت دمشق بحماماتها لتدفق المياه عليها من كل صوب، واشتهرت حماماتها بأناقة بنيانها وحسن نظافتها، وفى حماماتها المحدثة فى القرن العاشر وما بعد مقاصير من القاشانى البديع، وآخر ما دثر منها حمام القيشانى وحمام الخياطين. وكان فى دمشق فى القرن التاسع مائة حمام وأربعة وستون خانا وأهم خاناتها القديمة اليوم خان أسعد باشا وخان سليمان باشا وخان الحرير.

وعمر السلطان سليم لما فتح دمشق سوراً وأبراجاً من قرية القابون شمالاً إلى آخر المدينة جنوباً، وجعل في ذلك السور أبواباً تغلق على المدينة، وعمر جامعاً ومدفناً على قبر محيي الدين ابن عربى بالصالحية ومدرسة قرب المدرسة السليمانية التى بناها ابنة السلطان سليمان القانونى مكان القصر الأبلق فى المرج الأخضر

اشتهرت دور دمشق بأن داخلها حوى الجمال برمته وخارجها لا ينبىء عن شىء كثير. وهذا يوم كان جلّ الاعتماد فى البنيان على الطين والخشب يوم قال فيها البحترى:

وتأملت أن تَظَلَّ ركابى بين لبنان طلَّعاً والسنير
مشرفات على دمشق وقد أعـــرض منها بياض تلك القصور

والبيت الدمشقى فى العادة عبارة عن صحن أو فناء فسيح فى وسطه حوض ماء يتدفق إليه من أنبوب أو فوّارة لا تنقطع جريتها ، وقد غرست من الرياحين والأشجار المثمرة كل جميل وعَطِر ، وعلى جوانب هذا الصحن المخادع والغرف والقاعات ، وفى القاعة بركة ماء أيضاً ، وربما جرت على قامة فى الجدار لتزيد فى رطوبة المحل فى الصيف ، وفى الطبقة الثانية العلالى وهى خاصة بالشتاء على الأغلب . فبيوت دمشق القديمة حوت جميع المرافق ومنها الحديقة والأشجار والمياه . والغالب أن الزلازل فى الدهر السالف دعت الأهلين ألا يستخدموا الحجر فى بنيانهم إلا نادراً ، أما اليوم فالمعول عليه فى البناء الحجر والاسمنت المسلح والآجر والقرميد . لكن الطراز القديم فى البناء أقرب إلى حفظ الحرارة واتقاء البرد من الطراز الحديث ، وأبان ابن منقذ الكنانى عن هذا العمران بقوله :

و إذا مررت على المنازل معرضاً عنها قضى لك حسنها أن تقبلا
إن كنت لا تسطيع أن تتمثل الـــفِرْدوس فانظرها تكن متمثلا
و إذا عنان اللحظ أطلقه الفتى لم يلق إلا جنة أو جـدولا
أو روضــة أو غيضة أو قبة أو بركة أو ربوة أو هيكلا

أو وادياً أو نادياً أو ملعبـاً أو مِذنباً أو مَجْدلا أو موئلا
أو شارعاً يزهو بربع قد غدا فيه الرخام مجزعا ومُفَصلا

اشتهرت دمشق بأديارها قبل الإسلام ، ومن أعظمها دير مُرّان فى السفح الغربى من قاسيون ، كان مطلاً على مزارع الزعفران ، وقد ظلّ عامراً إلى القرن السابع ، وقال فيه الشعراء من القصائد والمقاطيع كل مرقص ، وكان مقصد الخلفاء والأمراء وأرباب اللهو والقصف وعشاق الطبيعة . وكان بالسفح فى محلة الصالحية أكثر من دير تطل كلها على المدينة وغوطتها ، وفيها أشجار السرو ، ولا نعلم فى أى قرن دثرت ، كما أنا نجهل الزمن الذى دثرت فيه أديار الغوطة . أما كنائس دمشق اليوم فكلها محدثة جددت بعد حوادث سنة ١٨٦٠ وليس فيها من الجمال ما كان للبيع القديمة ، وللقديم أبداً روعة ليست للجديد .

ومن أجمل ما أبقت الأيام عليه من البناء الفائق بهندسته المستشفى النورى المعروف بالمارستان داخل المدينة ، والمستشفى القَيْمرى فى السفح ، فان واجهتيهما وواجهة المدرسة الظاهرية من أجمل ما سلم من العاديات . قال رحالة كبير قديماً إن هذين

المستشفيين من مفاخر الإسلام . وقد جرى مؤخراً ترميم واجهتيهما ترميما خفيفاً وأعيدا إلى النحو الذى كانا عليه ، كما رممت عدة جوامع ومآذن وقبور فعاد إليها بعض رونقها القديم ، ورممت واجهة المدرسة الظاهرية ، وفيها دفن الملك الظاهر وابنه الملك السعيد . وفى الظاهرية دار الكتب الوطنية وهى قبالة العادلية أعظم مدارس الشافعية ، حرق ثلثها وحرقت خزانة كتبها فى فتنة تيمورلنك ، واستصفى أهل الجوار جزءاً منها بعد حين والباقى منها متعة الأنظار ، وهى اليوم دار المجمع العلمى العربى ، وفيها خزانة كتبه ومكتبه وردهة محاضراته . ومن آثار الظاهر بيبرس عدا المدرسة المنسوبة لاسمه ، وعدا القصر الأبلق الداثر ، ما جدده من شراريف رءوس قلعة دمشق ورءوس أبراجها ، وبنى الطارمة التى كانت على سوق الخيل ، وبنى حماماً خارج باب النصر . وجدد ثلاثة اصطبلات على الشرف الأعلى ، وجدد مشهد زين العابدين فى الجامع الأموى ورءوس الأعمدة والأساطين وذهبها ، وجدد باب البريد ودور الضيافة للرسل المترددين .

وما خلا عصر المماليك والعثمانيين بعدهم من آثار جميلة ، ومنها جامع تنكز سنة ٧٤٠ وهو الآن مدرسة دينية ، وكان تنكز كيلبغا

و برسباى وكافل سيباى وجقماق مولعين بإقامة المصانع التى ازدانت بها دمشق فإن يلبغا أنشأ جامعاً عظيماً سنة ٨٤٧ وهو اليوم مدرسة نموذجية ، وأقام برسباى سنة ٨٥٢ جامعه المعرف بجامع الورد ، وأقام كافل سيباى جامعه الذى سماه العلماء « جمع الجوامع » لأن صاحبه لم يترك مسجداً ولا مدفناً معموراً إلا وأخذ منه الأحجار والرخام والأعمدة ، وهو فى باب الجابية ، جُعل مدرسة ابتدائية منذ أواخر القرن الماضى . ومن مشهور جوامعهم جامع التوبة فى العقيبة ، وجامع منجك فى الميدان ومدرسة الجقمقية ، أمام المدرسة السُمَيْساطية على الباب الشمالى من الجامع الأموى والمدرسة الصابونية أمام تربة باب الصغير . ومن مدارس العثمانيين جامع السنانية من إنشاء سنان باشا ، وجامع الدرويشية من عمارة درويش باشا ، وجامع مراد باشا فى السويقة ومدرسة إسماعيل باشا العظم ومدرسة عبد الله باشا العظم ومدرسة سليمان باشا العظم . وأهم مصانعهم التكية السليمانية والتكية السليمية وجامع ابن عربى . وفى المعاهد الثلاثة الأخيرة نموذجات مهمة من القاشانى . وللتكية السليمانية نسبة لسليمان القانونى روعة عظيمة ولها مئذنتان جميلتان . وقيل إن هذه المدرسة العظيمة من بناء المعمار سنان التركى المشهور

ودفن فيها مؤخراً بعض ملوك بنى عثمان ، شغلت الجامعة السورية قسماً منها و بقى القسم الأكبر جامعاً .

ومن المآذن العظيمة المئذنة الغربية بالجامع الأموى ، عمرها سلوان بن على المعمار فى عهد المماليك ، ومئذنة جامع كافل سيباى ومئذنة جامع المعلق سنة ١٠٥٨ ، وهذا الجامع أجمل بناء فى دمشق. وأجمل منابر دمشق منبر جامع الجراح فى السويقة ومنبر جامع الحنابلة فى السفح ومنبر جامع مراد باشا ومحرابه ومحراب جامع التوبة ومنبر جامع الشيخ عبد الغنى النابلسى وسقفه وشعريته فى السفح.

كل هذا من عمل الأفراد ، ومنه ما عمل رجاء الثواب وحب الخير ، ومنه ما أريد به الظهور وحماية أموال البانى بوقفها على ما بنى . وكان عمران المدينة أيام العثمانيين كئيباً ، وتكدس الناس فى رقعة ضيقة يجعلون الأزقة ملتوية ليختبئوا وراءها وتكون لهم متاريس ساعة يدور القتال فى الشوارع والحارات . وكان من نصيب الدور القديمة أن اختبأت فى هذه الأزقة ولا ينم ظاهرها إلا عن فقر وخصاصة .

ومن أهم الآثار النفيسة فى العهد التركى الأخير سكة حديد الحجاز وطولها ١٣٠٣ كيلومترات ، كانت تمتد من دمشق إلى

المدينة المنورة ، عمرت بإعانات العالم الإسلامى، ومحطتها من أجمل الآثار الحديثة هندسة ، و بالسكك الحديدية التى ربطت دمشق بحيفا و بيروت وحلب والموصل، و بالترام الذى ربط شمال دمشق بجنوبها وغربها بشمالها الشرقى حتى بلغ دومة حاضرة الغوطة ، أصبحت دمشق كالقاهرة مرتبطة مع الضواحى ، وتتم هذه الشبكة متى جرى تمديد النور والترام إلى الغوطة الوسطى والغوطة الغربية .

ولقد اتسعت المدينة من الشمال منذ أنشئ المستشفيان الاسكتلندى والفرنسى فى حى القصاع ، ولولا نشوب الثورة السورية سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٦ لبلغ العمران أرض العنابة على ما كان فى القرن التاسع .

وامتد العمران فى الجنوب فعمرت عدة محلات وأحياء جديدة وأهم ما تم من العمران كان فى الشمال والغرب من دمشق ، وفيه قامت الدور الجديدة والقصور المنيفة ، منها قصر العابد وهو قصر رئاسة الجمهورية السورية وقصر ناظم باشا وغير ذلك من المصانع وبعضها عمر بأموال التجار على طراز البيوت ذات الطبقات الثلاث والأربع ، فخرجت هندسة البيوت عن طراز البيوت أمس ذات الطبقتين فقط . ولولا الحرب وصعوبة تناول مواد

البناء لبلغت البيوت المنشأة حديثاً نحو ربع أو ثلث المدينة الحالية . هذا والقوم زهدوا فى سكنى البيوت العتيقة على جمالها وكرهوا البيوت الواسعة فى أحياء عامة وأزقة ضيقة يقل فيها النور والشمس وتحتاج إلى خدمة كثيرة . وعلى ما خرق فى الحارات القديمة من أزقة ومنافذ لا تزال المدينة تحتاج إلى شوارع صحية ليظهر بها ما بقى فيها من القصور والقاعات المزخرفة بأجمل الصناعات الدمشقية ، وما فيها من مدارس وجوامع أثرية

ومن أهم ما يستلزمه اتساع العمران ووفرة السكان أن تنشأ لدمشق مقبرة عظيمة بعيدة عن أقصى حدود المدينة يلزم الأهلون بأسرهم بالدفن فيها بعد الآن ، وتغرس المقابر القديمة التى أصبحت ممتزجة بالدور والحوانيت أشجاراً ورياحين بحيث لا يمضى خمسون سنة حتى تندثر معظم القبور القديمة وتبقى قبور العظماء الراقدين فى تلك التُرَب . و بذلك تجمع دمشق إلى رعاية الصحة زينتها بحدائق تليق بعظمتها التاريخية . وهذا من أعمال المجالس البلدية . وقد آن أن يطلب منها مثل تلك المطالب بعد أن دخلت فى طور البلديات فى الجملة ، أى أصبحت ذات قانون وذات هندسة ، ولها تصميات ومصورات . والواجب على الأهلين أن يعاونوها

على تحقيق رغائبها ، ولو فعلوا مختارين لا مكرهين لما قامت بعض العمائر المستحدثة متشابكة متراصة فى بنائها . والبلدية هنا خطت خطوات ، وقد رأيناها قبل أربعين سنة تبيع العرصات الواقعة فى جادة الميدان وتسمح للأهلين أن يبنوا حواصل وحوانيت ودوراً أمام واجهات الجوامع والمدارس ، فتورث تلك الجادة العريضة بشاعةً وشناعةً . وكان ديوان الحسبة قبل تأسيس البلديات فى القرن الماضى يتولى من المدينة كل ما له صلة بالبناء والطرق والصحة وغير ذلك ، ثم ضعفت هذه الحركة وضعفت مشخصاتها وأهمها الهندسة ، فقد فقدت فى أكثر ما قام من العمران فأصبح كل بان يبنى كيف يشاء بما شاء من مواد البناء .

ومن الأبنية الحديثة سراى الحكومة والمجلس البلدى ودار الشرطة والثكنة الحميدية ومدرج الجامعة السورية ودار التوليد ودار الآثار ودائرة الأملاك العقارية ودار الأوقاف ودار الصحة ودار الندوة (البرلمان) ومدرسة التجهيز ووكالة العابد. ومن الفنادق الحديثة أوريان بالاس وفندق أمية وهما أعظم الفنادق . والفنادق القديمة تتداعى وتخلفها فنادق من الطراز الحديث ، كما خربت فنادق القرون الوسطى ودور الضيافة ولم يعرف لها أثر ولا خبر .

عرفنا بما أسلفنا أن عمرانْ دمشق كان يمتد كثيراً فى الأيام التى تنجو فيها من آفات الطبيعة وعدوان الظالمين ، ويظهر عليها الغنى والرفاهية . ومن شأن الخلق إذا أمنوا واطمأنوا أن يتوسعوا فى عيشهم ويظهروا فضل النعم عليهم .

### خطط دمشق ومصانعها

تنقسم[1] دمشق اليوم إلى قسمين متجاورين، المدينة القديمة والمدينة الحديثة . يقوم القسم القديم حول جامع بنى أمية والقلعة داخل السور وظاهره . وقد حافظت أحياؤها على مظهرها القديم وعلى ما كانت عليه منــذ مئات من السنين . ويخترق هذه المنطقة من الغرب إلى الشرق شارعان الأول شارع الملك فيصل يمتد شمال سور المدينة ويصل ساحة الشهداء بمحلتى القصاع وباب توما ، ويمر فيه خط ترام طوله أحد عشر كيلومتراً يصل دومة بدمشق . وفى هذا الشارع حوانيت العلافين والحدادين وبائعى البقول والأثمار وحواصل الخشب وفيه سوق الخضراوات

(١) أشكر لأصدقائى الأساتذة الأمير جعفر الحسنى والسيد بدر الدين دياب والسيد هانى الجلاد على تفضلهم باعطائى معلومات حديثة عن خطط المدينة وصناعتها وتجارتها .

وفيه جامعان أثريان جامع السادات وجامع المعلق .

والشارع الثانى سوق مدحت باشا يقع إلى الجنوب وداخل السور وهوجزء من الشارع المستقيم القديم الذى يصل باب الجابية بالباب الشرقى . وتكثرفى هذا الشارع متاجر النسيج الوطنى والأعبئة والكوفيات والعقل والنحاسون ، و بين هذين الشارعين شارع ثالث وهو سوق الحميدية جنوبى القلعة و ينفذ منـه إلى جامع بنى أمية ، وهو من أهم شوارع المدينة تتمركز فيه الحركة التجارية ، وفيه أكبر مخازن المصنوعات الأجنبية . و بين هذا الشارع وشارع مدحت باشا تتجدد اليوم محلة سيدى عمود التى قضى عليها حريق عام ١٩٢٥ . ويعارض هذه الشوارع عدد كبير من الطرق والأزقة ليسهل اتصال هذه الشوارع بعضها ببعض . وهنالك عدة شوارع متسلسلة تمتد من شمال المدينة إلى جنوبها تبتدىء من ساحة الشهداء فتخرق محلة السنجقدار و باب الجابية والسنانية والسويقة و باب المصلى والميدانين التحتانى والفوقانى ، وتنتهى عند باب مصر الواقع فى أقصى جنوب المدينة ومنه كان يخرج حجاج بيت الله الحرام . فى هذا الشارع خط ترام طوله ثلاثة كيلومترات ونصف كيلومتر وفيه عدد كبير من المتاجر

البسيطة معظم علاقتها مع القرويين ولا سيما الميدان وباب المصلى مركز تجارة الحبوب .

وقد حافظ أكثر أقسام هذه الشوارع الأخيرة على حالتها القديمة ، ونصيبها من التجدد والعمران ضئيل ، ويخيم عليها مظهر الكآبة والفقر . ولولا وفرة الأبنية الأثرية التى تزين هذه الشوارع لما امتازت عن عمران قرية من القرى . وأشهر آثارها إذا ابتدأنا من الشمال جامع درويش باشا وتربته والمدرسة السباهية ( كافل سيباى ) وجامع العجمى وتربة بهادر آص والمدرسة الصابونية وتربة الشيبانى وتربة الشيخ حسن وجامع جوبان وجامع صهيب وجامع منجك وجامع فلوس وزاوية سعد الدين والمدرسة الفونشلية والمدرسة الرشيدية . وقد أحيطت المدينة القديمة منذ عهد قريب بشوارع جديدة إحاطة السوار بالمعصم حتى يتجه العمران إليها وتخف وطأة الازدحام فى شوارع المدينة الرئيسة .

لا يتأتى لمن يجول فى المدينة القديمة أن يظفر بجميع محاسنها على وجه السرعة ، اللهم إلا ما يشاهده من مساجد وخانقاهات وحمامات وبيارستانات عمرت فى شوارع ضيقة وبين أبنية

وضيعة ، قد يستغرب المرء تشييدها بينها ، ويدهش للبون الشاسع والتناقض الصريح بين مظهريهما . ولا يمكن أن يدرك سر وجودها فى هذا الوسط الحقير بمظهره ما لم يجتز هذه الجدران البسيطة ويطلع على ما وراءها ليرى دوراً شرقية كصور ألف ليلة وليلة ، فيها باحات واسعة مرخمة بالمرمر تظللها الأشجار والرياحين وإيوانات شارعة وقاعات مزخرفة وبرك ماء جارية تبهج الأبصار وتنعش النفوس . وعندئذ تتجلى له حقيقة دمشق وما كانت عليه من العظمة فى العصور القديمة ويدرك سبب شهرتها وافتتان الناس قديماً بمحاسنها ، وإكثار الشعراء من وصفها .

وعلى ذكر الشوارع لا بد من الإشارة إلى أن بعض أسواق المدينة لا تزال مغطاة غير مكشوفة على نحو ما كانت الشوارع فى معظم بلاد الشرق قديماً . ومن الشوارع المسقوف بجملون من حديد أو حجر أو خشب وطين مثل سوق مدحت باشا وسوق الذراع وسوق الأروام وسوق الحرير والقوافين والسكرية وسوق القطن ومصلبة باب السريجة وباب الجابية والسنانية .

وقد امتد البناء الجديد فى غرب سفح جبل قاسيون حتى اتصل بمحلة الصالحية وحى الأكراد وساحة الشهداء . وتقدر

مساحة ما تجدد من المساكن فى هذه المنطقة بثلث مساحة المدينة القديمة . ويربط الأحياء القديمة بالأحياء الجديدة خطٌ ترام طوله ٣٢٠٠ متر يمر من جادة الصالحية حتى المهاجرين ، ويتفرع عنه خط ثان من الجسر متجهاً إلى حى الشيخ محيي الدين طوله ١٠٠٠ متر . ومصور الأحياء الجديدة والصالحية يشبه طيارة مطاردة، جناحها الأيمن حى الأكراد والصالحية ، وجناحها الأيسر حى المهاجرين ومؤخرتها محلة عرنوس والشهداء . وهذه الأقسام خالية من كل أثر قديم . أما محلة الأكراد والصالحية فغنية بالأبنية الأثرية ، وأشهرها المدرسة العمرية والتربة الخاتونية والبدرية والمدرسة الأتابكية والجامع المظفرى والمدرسة الجهاركسية والركنية والصاحبة والبيمارستان القيمرى وتربة السيدة حفيظة والخاتونية والمدرسة المرشدية والتربة القيمرية والتكريتية وجامع محيي الدين بن عربى ، ومعظم هذه الأبنية من العهد الأيوبى .

وأما أحدث الأبنية وأجمل القصور فتقوم غربى محلتى الشهداء وعرنوس حيث تنشأ أحياء غربية مجردة من الطابع الشرقى . وقد أصبح الفرق بين أحياء المدينة القديمة والحديثة عظيماً جداً من حيث طراز البناء والعادات . فبينما نرى المدينة القديمة لم تزل

حريصة على تقاليدها الشرقية الإسلامية نرى عكس ذلك فى الأحياء الجديدة حيث أصبح السفور ولبس القبعات وكشف الرأس ولبس ( الشورت ) وحف الشاربين من الأمور المألوفة التى لا تنكر .

إن الأقسام الجديدة هى مناطق سكن ، ليس فيها سوى حوانيت بسيطة فى جادة الصالحية . وقد اختار الأجانب هذه المنطقة لسكناهم . وفيها البرلمان السورى والقصر الجمهورى ودوائر السلطة الإفرنسية والقنصليات والمعاهد الأجنبية .

وقد خطت دمشق منذ عشرين سنة خطوات سريعة فى سبيل العمران وأنشئت فيها أحياء حديثة وتجددت أخرى ، مما يبشر المدينة بمستقبل زاهر ، لا سيما بعد أن وضع لها مخطط روعى فيه أحدث أساليب العمران ، وقد أنجز أثناء هذه الحرب تنظيم مدخل دمشق ، فصار يدخل إليها القادم من بيروت من شارع عريض طوله خمسة كيلومترات بين الحدائق والأشجار ، يطل منه على ملعب المدينة ودار الآثار والجامعة السورية ومدرسة التجهيز وتكيتى السلطانين سليم وسليمان ، وهو أحد متنزهات المدينة التى تغبط عليها . وقد دعى مؤخراً شارع فاروق الأول .

وتمتاز دمشق عن غيرها من المدن بكثرة متنزهاتها ، تحدق بها الأشجار من كل جهة وحيث خرجت منها لا ترى إلا متنزهات وأشهرها وادى الربوة ودمر والمزة وسهل القابون والغوطة . وأما ملاهى المدينة ودور السينما والفنادق فهى بجوار ساحة الشهداء حيث أكثر المصانع الرسمية . ولا يمضى على دمشق وقت طويل حتى تصبح فى طليعة المدن الشرقية عمراناً وتنسيقاً ، وتستعيد مركزها القديم الزاهر تجمع بين القديم والحديث فيجد فيها كل غاوٍ هواه بعون الله .

### بعض الكتابات والنقوش الأثرية

يقول الأثرى ( ڤان برشم ) إن فى الجامع الأموى فى دمشق نصوصاً عربية وكتابات عجيبة من عهد السلجوقيين كتبت بالقلم الكوفى ، وسلسلة من أوامر سلاطين المماليك ، وأبواب المدينة عبارة عن متحف لملوك الشام منذ عهد نور الدين والملك العادل إلى زمن الغورى . وفى وقفيات هذه المعاهد المزبورة على المساجد والمدارس والمستشفيات والأديار والقبور تفاصيل غريبة فى إدارة هذه الأبنية وجغرافية ضاحية دمشق . وفى هذه المدينة يتيسر

للناظر فى بعض الكتابات الباقية من عهد نور الدين تعيين الزمن الصحيح الذى خلف فيه الخط المدور الخط الكوفى .

ولقد كشفت فى الأعوام الأخيرة واجهة عظيمة من الحائط الغربى فى الجامع الأموى معمولة بالفسيفساء ، ويرد عهدها إلى أوائل بناء الجامع ، كما كان عثر فى قبة صحن هذا الجامع على رقوق من أهم ما ظفر به الباحثون . وكانت هذه القبة القائمة على سوارٍ عالية معلقة لم تفتح منذ قرون طويلة ففتحت سنة ١٣١٧ هـ بأمر السلطان عبد الحميد الثانى العثمانى ، وإجابة لمقترح الإمبراطور جليوم الثانى الألمانى ، فوقعوا فيها على قطع من الرقوق كتبت فيها سور من القرآن الكريم بالخط الكوفى ومنها قطع من مصاحف وربعات ومقاطيع من الأشعار بالأرمية الفلسطينية وكتابات وأدبيات دينية وقصص رهبانية ، ومزامير عربية بالحرف اليونانى ومقاطيع من شعر أوميروس ، وكراريس وأوراق بالقبطية والكرجية والأرمنية فى موضوعات دينية ، وجزازات عبرانية وسامرية فيها نسخ من التوراة وتقاويم أعياد السامريين ، وصلوات وصكوك بيع وأوقاف وعقود زواج ، بينها مقاطيع لاتينية وإفرنسية قديمة ، وقصائد يرتقى

عهدها إلى أيام الحروب الصليبية ونسخ إنجيل بِرُقوق .

فأهدى السلطان قسماً منها إلى إمبراطور ألمانيا ، والباقى ما زال مخبوءاً فى مستودع وزارة الأوقاف فى الآستانة ، وأهدى بعض رجال السلطنة فى دار الملك وفى عاصمة الأمويين بعض الرقوق من القرآن منها مجموعة حفظت فى دار الآثار بدمشق بينها قطعة كوفية مكتوبة على رق من ربعة شريفة وقفها عبد المنعم بن احمد سنة ٢٩٨ وعلى الوجه الثانى نقش مذهب باسم واقفها .

و بعد فإن من ألقى نظرة عجلى على بعض المساجد الأثرية يقرأ خطوطاً جميلة و يسقط على نقوش بديعة من صنع أهل الفن من الدمشقيين . فى جامع التيروزى والدرويشية والسنانية والمرادية وجامع أقوش النجيبى فى السويقة نماذج من القاشانى البديع ، وفى جامع التبان بالمناخلية عمودان من القاشانى على طول متر وله منبر مهم ، وفى مدفن الصحابى بلال الحبشى تابوت صنع سنة ٦٢٥ وفيه قاشانى من صنع كوتاهية . وفى جامع تنكز قبران فى حجرة واحدة ولها محراب من الفسيفساء ونافذتان جميلتان .

و يكثر القاشانى فى الجوامع التى بنيت فى عهد العثمانيين وفى

بعض الدور القديمة التي يرد عهد بنائها إلى أكثر من قرنين. ولا تكاد قاعة قديمة في البيوت القديمة التي بناها أر باب اليسار تخلو من القاشاني البديع. وفي زقاق السقطي في الصالحية بيتان باسم وقف السقطي تجد في الأول منهما ١٦ قطعة مربعة من القاشاني على صورة محراب كتبت عليه أسماء الخلفاء الراشدين، وفي الثانية قطعة مسدسة الشكل و ٤ قطع مربعة. وفي جامع الشامية معرشات بديعة وخطوط. وتابوت السيدة سُكينة في مقبرة الباب الصغير عُمل سنة ٥٦٠، ونقش بخطوط كوفية داخل حروف ونقوش وحروف أخرى بالكوفية، وتابوت سيدي صُهَيْب في الميدان من توابيت القرن السادس، وتابوت بخت خاتون المعروفة بالسيدة حفيظة جميل بديع. وفي الصمادية في حي الشاغور عدة سقوف مهمة. وفي بعض الأحياء القديمة سقوف بديعة باعها أصحابها من عشاق الآثار، كما باعوهم الصناديق القديمة المكتّبة وأكثرها من خشب الجوز المتين. وفي المدرسة التكريتية أمام دار الأشرفية البرانية بالصالحية مقرنصات جميلة ذات تعاريش وكتابات.

## وصف القدماء والمحدثين لدمشق

قيل لإسحق بن يحيي الختلى من ولاة دمشق ٢٣٥ هـ : لم سكنت دمشق وفلحت أرضها وأكثرت فيها الغروس من أصناف الفاكهة ، وأجريت المياه إلى الضياع وغيرها ؟ قال : لا يُطيق نزولها إلا الملوك . وقيل له : كيف ذلك ؟ قال : ماظنكم ببلدة يأكل فيها الأطفال مايأكله فى غيرها الكبار ؟ وحق لهذا الوالى أن يقول ذلك ، فإن دمشق معروفة منذ القديم بأنها بلدة رفاهية يكاد الفقير يعيش فيها عيش الغنى إلا قليلاً ، و يتفنن أهلها فى مآكلهم ومشاربهم وقصفهم ولهوهم .

وصف المقدسى فى القرن الرابع مدينة دمشق بأنها مصرالشام ودار الملك أيام بنى أمية ، وثمَّ قصورهم وآثارهم و بنيانهم خشب وطين . . أكثر أسواقها مغطاة ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن . . لا ترى أحسن من حماماتها ولا أعجب من فواراتها ، ولا أحزم من أهلها ، ومنازلها ضيقة وأزقتها غامة.. تكون نحو نصف فرسخ فى مثله فى مستوى ، والجامع أحسن شيء للمسلمين اليوم ، ولا يعلم لهم مال مجتمع أكثر منه . .

ووصف ابن جبير فى القرن السادس هذه المدينة فقال : « إنها بلد ليس بمفرط الكبر ، وهو مائل للطول ، وسككه ضيقة مظلمة و بناؤه طين وقصب ، طبقات بعضها فوق بعض ، ولذلك كثيراً ما يسرع الحريق إليه ، وهو كله ثلاث طبقات فيه من الخلق ما تجمعه ثلاث مدن لأنه أكثر بلاد الدنيا خلقاً »

ووصفها ياقوت فى القرن السادس أيضاً قال: « ومن خصائص دمشق التى لم أر فى بلد آخر مثلها كثرة الأنهار بها وجريان الماء فى قنواتها ، فقلّ أن تمر بحائط إلا والماء يخرج منه فى أنبوب ، إلى حوض يشرب منه ويستقى الوارد والصادر ، وما رأيت بها مسجداً ولا مدرسة ولا خانقاهاً إلا والماء يجرى فى بركة فى صحن هذا المكان ، والمساكن بها عزيزة لكثرة أهلها والساكنين بها وضيق بقعتها ، ولها رَبَض دون السور محيط بأكثر البلد يكون فى مقدار البلد نفسه » .

ووصفها شيخ الربوة وهو ابن دمشق أوائل القرن الثامن فقال : « إنها مقسومة ثلاث طبقات قسم مبثوث العمارة فى غوطتها لو جمع لكان مدينة عظيمة ، ما بين جواسق وقصور وقاعات واصطبلات وطواحين وحمامات وأسواق ومدارس وترب وجوامع

ومساجد ومشاهد غير القرى والضياع الأمهات ، وهذا الذى ذكرناه لا يوجد بغيرها أصلاً . والقسم الثانى تحت الأرض منها مدينة أخرى من متصرفات المياه والقنى والجداول ومسارب ومخازن وقنوات تحت الأرض كلها ، حتى لو حفر الإنسان أينما حفر من أرضها وجد مجارى المياه تحته مشتبكة طبقات يمنة ويسرة شيئاً فوق شيء . والقسم الثالث سورها وما فيه وحوله من المعمور . وكأنما هى فى وصفها طائر أبيض فى مرج أخضر ، يترشف ما يصل إليه من الماء أولاً فأولاً » اه . وهذا أصدق وصف ينطبق عليها إلى اليوم . ووصفها ابن فضل الله العمري الدمشقى فى القرن الثامن فقال : « إن غالب بنائها بالحجر ، ودورها أصغر مقادير من دور مصر لكنها أكثر زخرفة منها ، وإن كان الرخام بها أقل دائماً ، فهو أحسن أنواعاً ، وإن عناية أهل دمشق بالمبانى كثيرة ، ولهم فى بساتينهم منها ماتفوق به وتحسن بأوضاعه ، وأجل حاضرتها ما هو بجانبها » . وقال ابن بطوطة فى هذا القرن أيضاً : « إن أهل دمشق يتنافسون فى عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد » . ووصفها القلقشندى أوائل القرن التاسع فقال : « إنها مدينة حسنة الترتيب جليلة الأبنية ذات الحواجز ،

بنيت من جهاتها الأربع ، وبها الجوامع والمدارس والخوانق والرُّبط والزوايا والأسواق المرتبة والديار الجليلة المذهبة السقف المفروشة بالرخام المنوع ، ذات البرك والماء الجارى ، وربما جرى الماء فى الدار الواحدة فى أماكن منها ، والماء مُحكم عليها من جميع جهاتها بإتقان محكم . »

وعرض لوصفها الظاهري فى القرن العاشر بقوله : «إنها مدينة حسنة إلى الغاية تشتمل على سور محكم وقلعة محكمة ، وبها طارمة مشرفة على المدينة فيها تخت المملكة مغطى لا يكشف إلا إذا جلس السلطان عليه ، وبها جوامع حسنة ومدارس وأماكن مباركة وشوارع وأسواق وحمامات و بساتين وأنهر وعمائر تحير الواصف ، و بها مارستان لم ير فى الدنيا مثله قط . وأما جامع بنى أمية فهو أحد العجائب الثلاث ، ولقد رأيت فى بعض التواريخ أن عجائب الدنيا ثلاث : منارة الإسكندرية وجامع بنى أمية وحمام طبرية . أما الميدان الأخضر وما به من القصور الحسنة فعجيبة من العجائب ، وأما مفترجات دمشق فيعجز الواصف عن حصرها » اه .

هذا قليل مما قاله الأقدمون فى وصف دمشق ، وما منهم إلا

المعجب بما زانتها به الطبيعة ، وما عملته يد الإنسان فى أديمها .
وقد بالغ الشعراء وأكثروا فى وصف طبيعتها ، وربما بلغ ما مدحت به مجلداً برأسه ، فمنهم من قال مخاطباً لها :

ولكم أحدث عنك من لاقيته وجميع من سمع الحديث يصدق
والأرض فى عرض وطول دائماً لم يحو مثلك غربها والمشرق

ومنهم من وصفها بقوله :

يغذى بها القلب أنفاساً بلا كدر فلن يحلّ الوبا أطرافَ ثاويها
إن الهواء إذا رقّت مناسمه فى بلدة لَطفت أخلاط أهليها
فكل صورة أنس فى منازلها وكل نزهة نفس فى روابيها
لولا أُمور وأرزاق مقدرة لم يرتحل عن دمشق حاضر فيها

وفيها يقول البحترى فى قصيدته للخليفة المتوكل التى مطلعها :

العيش فى ليل (داريّا) إذا بردا والراح نمزجها بالراح من (بَرَدَى)

إلى أن قال :

أما دمشق فقد أبدت محاسنها وقد وفى لك مطريها بما وعدا
إذا أردتَ ملأتَ العين من بلد مستحسن وزمان يشبه البلدا
يمسى السحاب على أجبالها فرقاً ويصبح النبت فى صحرائها بددا

فلست تبصر إلا واكفاً خضلاً أو يانعاً خضراً أو طائراً غردا
كأنما القيظ ولى بعـد جيئته أو الربيع دنا من بعد ما بَعُدا

ومن أجمل ما قيل في مدحها قصيدة أمير شعراء العصر أحمد شوقى . وها هى برمتها :

قُمْ ناجِ جِلِّق وانشد رسم مَن بانوا مشت على الرَّسم أحداث وأزمان
هذا الأديم كتاب لا كِفاء له رثُّ الصحائف باقٍ منه عُنوان
الدين والوحى والأخلاق طائفة منه وسـائره دنيا وبهتان
ما فيه إن قلبت يوماً جواهره إلا قرائح من « راد » وأذهان
بنو أميـة للأنباء ما فتحوا وللأحاديث ما سادوا وما دانوا
كانوا ملوكا سرير الشرق تحتهم فهل سألت سرير الغرب ما كانوا
عالين كالشمس فى أطراف دولتها فى كل ناحية ملك وسلطان
يا ويحَ قلبى مهما انتاب أرسمهم سرى به الهمُّ أو عادته أشجان
بالأمس قمت على (الزهراء) أندبهم واليوم دمعى على (الفيحاء) هتان
فى الأرض منهم سماوات وألويةٌ ونيِّرات وأنواء وعِقْبان
معادن العز قد مال الرَّغام بهم لوهان فى تربه الإبريز ما هانوا
لولا دمشق لما كانت (طُلَيْطِلة) ولا زهت ببنى العباس (بغدان)

مررت بالمسجد المحزون أسأله ... هل فى المُصَلى أو المحراب مَروان
تغيّر المسجد المحزون واختلفت ... على المنابر أحرارٌ وعبدان
فلا الأذان أذانٌ فى منارته ... إذا تعالى ولا الآذان آذان
آمنت بالله واستثنيت جنته ... دمشق رَوْحٌ وجنات وريحان
قال الرفاق وقد هَبَّت خمائلها ... الأرض دار لها (الفيحاء) بستان
جرى وصفق يلقانا بها (بَرَدَى) ... كما تَلَقَّاك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيها زُمُرُّدة ... والشمس فوق لجين الماء عِقْيان
والحور فى (دُمَّر) أو حول (هامتها) ... حُور كواشف عن ساق وولدان
و(ربوة) الوادِ فى جلباب راقصة ... الساق كاسيةٌ والنحر عُريان
والطير تصدح من خلف العيون بها ... وللعيون كما للطير ألحان
وأقبلت بالنبات الأرضُ مختلفاً ... أفوافه فهو أصباغ وألوان
وقد صفى (بردى) للريح فابتردت ... لدى ستور حواشيهن أفنان
ثم انثنت لم يزل عنها البلال ولا ... جَفَّت من الماء أذيال وأردان
خلَّفتُ (لُبنان) جناتِ النعيم وما ... نُبئت أن طريق الخُلد لبنان
حتى انحدرت إلى فيحاء وارفة ... فيها النَّدى وبها (طيّ) و(شَيْبان)
نزلت فيها بفتيان جَحاجحة ... آباؤهم فى شباب الدهر غسَّان
بيضِ الأسرّة باق فيهم صَيَد ... من (عبد شمس) وإن لم تبق تيجان

يا فتية الشام شكراً لا انقضاءَ له | لو أن إحسانكم يَجزيه شكران
ما فوق راحاتكم يوم السماح يدٌ | ولا كأوطانكم فى البشر أوطان
خميلةُ الله وَشَّتْها يداه لكم | فهل لها قيِّمٌ منكم وَجنَّان
شِيدوا لها الملك وابنوا ركن دولتها | فالملك غرس وتجديد و بنيان
لو يُرجِع الدهر مفقوداً له خَطَر | لآب بالواحد المبكى ثَكلان
الملك أن تعملوا ما اسطعتمو عملاً | وأن يبين على الأعمال إتقان
الملك أن تُخرِج الأَموال ناشطة | لمطلب فيه إصلاح وعُمران
الملك تحت لسان حوله أدب | وتحت عقل على جنبيه عرفان
الملك أن تتلاقَوا فى هوى وطن | تفرّقت فيه أجناس وأديان
نصيحة مِلؤُها الإخلاص صادقةٌ | والنصحُ خالصه دِينٌ و إيمان
والشعر ما لم يكن ذكرى وعاطفة | أو حكمةً فهو تقطيع وأَوزان
ونحن فى الشرق والفُصْحى بنو رَحِم | ونحن فى الُجْرح والآلام إخوان

وصف الافرنج منذ القرن الماضى دمشق وصفاً يختلف باختلاف معرفتهم وسياسة دولتهم ، وها كم نموذجات منها . فمن أول من وصفها ( ڤولنى ) الرحالة الفرنسى ، زارها حوالى سنة١٧٨٨ ، ومما قاله فيها : إن العرب لا يذكرون دمشق إلا معجبين بها ،

ولا يفتأون يمتدحون خضرة حدائقها ولطافة نسيمها وكثرة فاكهتها وتعدد أصنافها ، ووفرة مياهها العذبة وصفاء فواراتها وعيونها . وهى إلى هذا متفردة بوجود أماكن للنزهة فى الخلاء وسط الريف والفلاة . وما من مدينة كدمشق تحوى قنوات وسلسبيلات . ونقل عن نيبور الذى وصف خططها ومسحها فكانت ٣٢٥٠ أرتوازاً ( مقياس قديم طوله ست أقدام ) أى أن استدارتها أقل من فرسخ ونصف ، قال : وإذا حكمنا على هذا القياس بمقابلتها بحلب أرى أن دمشق تحتوى على ثمانين ألفاً من السكان ( سكانها اليوم نحو ثلاثمائة ألف عدا الضواحى )

وطلب رولان دورجلس ( من كتاب فرنسا المعاصرين ) إلى مولاه وهو يحدق نظره فى مئذنة عيسى المطلة على جامع بنى أمية أن يكتب له عدم التعب وألا تتم له رغبة فى البحث حتى يأتى على آخر رحلته التى لم يكن يخلو فيها من عجب دائم وحب أخاذ . وهذا معناه أنه دهش بمناظر دمشق . أما ( الأخوان تارو ) فقد صغرا من قدرها وقالا أن ليس فيها ما تروق مشاهدته كثيراً ، وقصرا مدهشاتها على ما حبتها به الطبيعة فقط . ومما قالاه : « وهل الثرثرة الدائمة ، والتقلب فى حدائقها ، وخصب جنانها هى التى

تخفى على الدمشقيين مبلغ الهرم الذى حلّ ببلدهم ؟ فهم يعمون عن انحطاطها وجمالها الذليل ، وما برحوا مع هذا يعتقدون أنه سيعود إليها بهاؤها الذى كان على العهد الأموى . وفى أيام السلطان صلاح الدين ، وهم منذ خمسة قرون يخضعون لحكم الترك على حين هم أشد ذكاء وأكثر مضاء منهم . »

وقال ( موريس باريس ) إن دمشق عتبة البادية يجتمع بها على الدوام مائة ألف بدوى إلى ثلاثمائة ألف حضرى مسلم ، وفيها حلم قديم ينبعث من تحت ظلال أشجارها على شاطىء التيار السريع . وإن دمشق لتستهوى قلوبنا فترقّ لشيخوختها وفتوتها ، وهى تبدى ما أصابها من حوادث الأيام ، وما لها من سحر خالد ، ضامة بين جوانحها تلك الآكام الجرداء . دمشق موطن من مواطن الفكر ، ومعهد من معاهد الشعر ، وقصر من قصور الروح ، فيها يجتمع الغرب والشرق ، لا يحاول كل منهما أن يصرع صاحبه ، بل يجنح إلى التفاهم معه والامتزاج به . قال : ولقد حدثتنى راهبة شريفة من راهباتنا أن الأسر الإسلامية على غاية من الأخلاق العالية ، وأن الإسلام دين يأمر بأمور صالحة .

والغربيون يكتبون حقائق دمشق إذا طال مقامهم فيها ،

ولكن أكثرهم يصرف فيها أياماً أو ساعات محدودة و يطلع على قرائه بكتاب مرتجل . وما أدرى كيف يحكم مؤلف على مثل هذه العاصمة فى زورة قصيرة يقضيها فيها ، ولا يجتمع فيها إلا إلى الرجال الرسميين يلقنونه ما يوافق منازعهم ، أو إلى أصحاب الفنادق والتراجمة والأدلاء ، وهؤلاء أيضاً لا يدركون ما يجب أن يعرف من سحر هذه المدينة .

وقال رامبر السويسرى : إن دمشق فى نظر سكان البادية ومن ينزل فى أطرافها الأربعة التى تصهرها الشمس جنة ذات مياه دافقة ، وظلال وارفة ، وثمار غضة جنية . ولا يشعر المرء بأسف شديد فى أى مكان نزل ، كما يشعر إذا رأى قطعة من الأرض بلغت هذا الحد من الجمال ، وكان حظها أن يديرها العثمانيون المعروفة إدارتهم بالجهل والجشع .

## سكان دمشق وخصائصهم

من الصعب تحديد المقدار الذى دخل فى الدمشقيين من دم الآراميين أو الروم ، أو من دم الأنباط والعرب ، أو من سائر العناصر الأخرى التى تديَّرت هذه الحاضرة ، وامتزجت بسكانها الأصليين . ذلك لأن من العادة أن تدخل فى الحواضر الكبرى أجناس مختلفة من الخلق فى كل دور من أدوار الدول ، وفى كل عصر من عصور التاريخ ، فيتعذر وضع إحصاء لكثرة ما يدخل فيها و يخرج منها فى كل عقد ، فما الحال بعشرات من العقود أو عشرات المئات من الأعوام .

اتصلت هجرة العرب قبل الإسلام و بعده إلى هذه الديار اتصالا لم ينقطع ، وكان من أكبر الحوافز إلى ذلك شؤون اقتصادية وآفات سماوية . ور بما جاءت القبيلة برمتها أوأكثرها ، وتفرقت فى أحشاء القطر فأصاب حاضرته قسط غير قليل منها . لا جرم أن الكتلة الأولى من العرب الذين أووا إلى دمشق كانوا من غسان على كثرة ، ومن التنوخيين والسبأيين والنبطيين على قلة . يقول اليعقوبي وكانت دمشق منازل غسان و بطون

من قيس وبها جماعة من قريش . وقال غيره : إذا جزت جبل عاملة تريد قصد دمشق وحمص وما يليها فهى ديار غسان من آل جفنة وغيرهم . وإلى قيس ويمن يرجع مجموع أصول القبائل العربية المهاجرة ، وهم الذين يطلق عليهم اسم العشران جمع عشير .

كثرت العناصر فى الشام على عهد الإسلام فنزل فى بعض أرجائها جاليات من الفرس وبعدها قبائل التركمان ، نزلوها منذ عهد السلجوقيين ، ثم انهال عليها الأكراد والقوقازيون من الجراكسة والطاغستانيين والكرج ، ثم الهنود والافغانيون والمغاربة والأرمن ، يتكلمون بلغتهم أولاً ويتعلمون لغة البلاد حالا . وفى هذا العصر انتشرت الفرنسية والانكليزية وغيرهما من لغات الغرب ، إلا أن العربية ما زالت تستغرق كل طارىء ، وكل غريب نزل دمشق يلقف هو وأولاده هذه اللغة ، ويندمج فى أهلها فتصيِّر منه البوتقة العربية رجلا عربى اللسان ، يصبح بعد بطنين عربياً بلسانه وعواطفه .

وانتفع الدمشقيون بهذا الاختلاط ، وكان من تمازج الجنس الآرى بالسامىّ خاصة نسل جميل متين فيه أجمل خصائص هذين الجنسين ، أو الأجناس السائرة التى امتزج دمها بدماء أخرى .

وبهذا الاختلاط كثر الذكاء والمضاء ، وتوفر في أهلها الحزم والعزم ، على ما أشار إلى ذلك الباحثون في طبائعهم .

ورأينا الدماشقة يجدّون ويهزلون ، وجدهم جدّ وهزلهم هزل . ورأيناهم وقد جعلوا لبلدهم طابعاً خاصاً في مرافقها ومصانعها ومساكنها ، يكاد لا يجتمع مثله في عاصمة من عواصم الشرق القريب . وكان الدمشقيون على الأيام إذا عانوا التجارة جاءوا في الصف الأول بين تجار الأقطار المجاورة ، وإذا مارسوا الصناعة بَذّوا غيرهم وأتقنوا عملهم ، وإذا انقطعوا إلى الزراعة قلبوا وعمروا وغرسوا ، وإذا تولوا الأعمال الإدارية والحربية والدينية كانوا على الأغلب مثالاً صالحاً . وها نحن نرى رجالا منهم استولوا في عهدنا على التجارة في شرق الأردن وفلسطين ، وكانت امتدت أيديهم إلى قسم عظيم من تجارة بيروت ، كما استولوا على جزء من تجارة مصر ، فنازعوا فيها الرومي والإيطالي وغلبوهما في بعض الأحيان . ومنهم مئات كان لهم من صبرهم ودءوبهم ما أعانهم على الاستئثار بقسط من تجارة العراق وإيران . أما في الْمَهَاجر فليسوا فيها دون سائر الشاميين ، إلا أن سكان الجبال أصبر على شظف العيش من سكان السهول . ويغلب على التاجر الدمشقي النظام كما يغلب عليه

التدقيق والحرص فى الغالب ، لا يُفرط ولا يفرّط ، ويحافظ على شرف توقيعه فيؤدى ما يُفرض عليه أداؤه من دين فى حينه . وفى بعض الإضرابات الأخيرة فى سبيل الاستقلال وهو إضراب دام خمسين يوماً جملة ماتلكأ تاجر واحد عن تأدية ما استحق عليه للمصارف،وحاولت السلطة أن تكره التجار على فتح مخازنهم وحوانيتهم فلما أبوا فتحت هى محال تجازاتهم وصرفت منها الحراس وقطعت عنها النور لتحمل أصحاب الأسواق على معاودة أعمالهم متى أوجسوا خيفة من اللصوص على أموالهم ، فما مد أحد يده إلى شىء ، لأن السارقين والطرارين تعاهدوا كما تعاهد المومسات ألا يمارسوا عملهم ما دام الإضراب ، وما شكا أحد من الفقراء جوعاً فى بلدة كان رزق أكثر سكانها مناط عملهم اليومى ، فقام أهل السعة بإطعام أرباب الفاقة فلم يسمع حِس تذمر ولا تأفف ، ولم يسجل غير دبيب المطالبة الصامتة بالحق المسلوب . وهذا مما يستغرب من مدينة عظيمة فيها أصناف من الخلق ، وسكانها مع الضواحى لا يقلون عن نصف مليون من النفوس .

والدمشقيون من أكثر العرب حنيناً إلى بلادهم ، إذا اغتربوا وإذا اغتنى الدمشقي قليلا لايلبث أن يعود إلى مسقط رأسه .

وفى الدمشقى قوة التمثل، إذا دخل بلاد الترك أو الهند أو فارس أو أرض الافرنج ، تعلّم فى الحال لغة البلاد التى نزلها . أما من تعلموا لغة من تلك اللغات الغربية فى المدارس فإنهم يتكلمون بها ويكتبونها كأهلها ، وهكذا كان لنا أدباء بالتركية وأدباء بالفرنسية وأدباء بالإنكليزية . ويشبه استعداد الدمشقى فى باب إتقان اللغات الأجنبية استعداد أهل بولونيا فى أوربا لتلقف اللغات .

ومع كثرة إقبال الدمشقيين على الأخذ من مدارس الترك آخر عهدهم ، ليكون منهم قضاة وضباط ورجال إدارة ، حتى ليظنهم من يراهم فى عهد العثمانيين الأخير أنهم تتركوا جملة واحدة هم وذراريهم ، فإنهم ما لبثوا فى الانقلاب العثمانى سنة ١٩٠٨ أن عادوا إلى العناية بلغتهم ، وبدأوا يقلبون أسماء أولادهم ، وكان بعضها تركياً ، إلى أسماء عربية صرفة ، ورجعوا عن مدحت ورفعت وحمدى ورمزى ورشدى وكزيده وناديده وباكيزه إلى زهير وعدنان وغسان وزياد وصفوان وأسامة ومروان وربعة وتميمة ورباب .

وينطوى الدمشقى على شىء من حب التقليد ، ويتلقف الأمور الجديدة برحب صدر ، وإن كان فى مشخصاته أقرب إلى المحافظين ، ويبعد فى الجملة عن الإسفاف ، وينزع إلى

التجمل والاستغناء ، وفيه شيء من عزة النفس والتمجد والكرم، وكثيراً ما تراه يتوسع فى عمله و يتسع فى الإنفاق حبّ الاستكثار من المكاسب . وأنت إذا جئت تبحث فى نفسه تجده من العامة أو ممن يقرب منهم ، دعا إلى ما دعا ، وعُنِى بما عُنى ، تقليداً لأبيه أو عشيره أو جاره . وفى الغالب أن يكون للرؤساء الذين يخاطبونه باللسان الذى يفهمه سلطان عليه . ولهذا كانت دمشق أول بلد طالب بالوحدة العربية بعد الحرب العالمية ؛ وأول بلد صبا إلى الجامعة الإسلامية ، وأول بلد ساءه تقسيم الديار الشامية إلى دويلات صغرى ، وسعى جهده لضم الشمل بعد انبتاته . و إذا وقع حيف على العراق أو على فلسطين بكت دمشق أول الباكين ، وعاونتهما ما استطاعت فى تخفيف النكبة، و إذا أصاب المصرى والحجازى شيء من الخير فرحت كأنه لها . وفى دمشق خصائص القرى وخصائص المدن ، و بينا تراها راقدة كقرية آمنة إذا بها تهب هبة آنيّة لمطلب تريده وهى تراه حسناً، وأنت إذا أنعمت النظر فى الأمر وقلبت الرأى فى ثورتها تشهد أنها ابنة ساعتها ، ولكنها كانت تتخمر زمناً فى صدور العقلاء من بنيها ، وما ظهروا بما ظهروا إلا عند الضرورة الشديدة .

والدمشقي يعطف منذ القديم على الغريب حتى يكاد يفرط فيما تقتضيه واجبات الضيافة والمجاملة ، هكذا علمه بنو أمية على ما يظهر يوم كانت دمشق لا عاصمة الإسلام بل عاصمة الدنيا . والدمشقي يحنو على الفقراء ويكثر برّهم ، ولا سيما في الأعياد والمواسم والمآتم ، وما زال منذ خمس وعشرين سنة يعاضد الجمعيات الخيرية التي ألفها فريق من أهل الخير والحمية ، تعول الفقراء وتعلم اليتامى والأميين من الشباب . وقد قام المحسنون من تجارهم في هذا العام بمشروع المؤاساة فتبرعوا له بمبالغ عظيمة وسينشئون بما جمعوا مستشفى عظيماً وداراً للعجزة .

ومن طبع الدمشقي ألاّ يؤخذ بالعنف وهو يلين حتى مع خصمه ويهش في وجه من يكرهه . فكما أنه يحسن معاملة كل إنسان على اختلاف الدين واللسان ، يحب أن يعامل على هذه الصورة ، فإذا لم يلق مثل هذا من مخاطبه وعشيره وشريكه ينفر منه في باطنه ، ولا يظهر له عداوة ولا خصومة على الأغلب لأنه اشتهر برقة الحاشية واللطف والأدب ، مَثله في ذلك مَثل ابن القاهرة لعهدنا ، وعلى منوال هذا ينسج الدمشقي فيما ينقصه من مقومات الحياة العصرية .

ودمشق والقاهرة تتشابهان كثيراً ، ولو كان لدمشق من ينظم شؤونها

تنظيماً فنياً ويحمل جميع طبقاتها على مراعاة القوانين ـ وحبُّ القانون يقلّ في أبنائها كما يكثر فيها العطف على المسيء يوم تحق عليه العقوبة — لجاء من مدينتهم أجمل مثال في العواصم العالمية.

واشتهر النساء الدمشقيات بجمال طلعتهن، وحسن هندامهن، ورقيق لهجتهن، وهن في الإجمال ربات بيوت، ومربيات أولاد، عُرفن بصبرهن وجرأتهن على الاغتراب، وإذا اغتربت الدمشقية كوّنت لها بيئة خاصة، كأن تؤلف من بنات بلدها مجتمعاً، وتطبع البيت الذي تدخله بطابعها من النظافة وحسن الإدارة والاقتصاد على الأكثر، ومنهن أوانس وعقائل رحلن إلى القاصية وما نزلن عن مشخصاتهن بعد طويل الاغتراب، ولا نسين أهلهن وديارهن، ويزداد عطف الدمشقي على الدمشقي والدمشقية على الدمشقية كلما تناءت الديار التي صاروا إليها.

وإن الزي الذي تتزيا به المرأة الدمشقية ليسري إلى نساء القطر على أسرع وجه ويحظى بالقبول عندهن بدون مناقشة. وذلك لأن الدمشقيات كن يسارعن إلى النقل عن المرأة التركية وأمسين اليوم يقلدن المرأة المصرية، ويأخذن عن المرأة الغربية مباشرة، فيخرجن الزي الجديد كأنه من اختراعهن وبنات

أفكارهن . وما تخترعه دمشق فى هذا المعنى تقبل عليه النفوس ، كما يقبل الغرباء على التزوج من الدمشقيات لصفات فيهن قد لا توجد فى غيرهن . وحجاب النساء يضعف مع الزمن والسافرات فيهن قليلات إلى اليوم ، وما سفر منهن إلا المتعلمات من أهل الطبقة العليا والوسطى على الأكثر .

وعلى ذكر الأزياء لابد من الإشارة إلى أن الدمشقيين اقتبسوا الزى الغربى جميعاً ، والطربوش لباس الرأس عندهم كالمصريين ، والقبعة مستعملة على قلة ، ويقلُّ لبس العمامة والعقال والكوفية سنة عن سنة فى دمشق وغوطتها . وقد قلدت الغربيين فى معظم مرافق حياتها وفرش بيوتها وتلقفت مصطلحات أهل الحضارة .

أما عادات الدمشقيين فهى خليط من العادات العربية القديمة والغربية الحديثة ويدخلها التعديل على مر السنين ، وكثرة اختلاط الدمشقيين بالأمم الأخرى . ومن عاداتهم كسائر بلاد الشرق الجيد النافع ومنها القبيح الضار ، والقبيح يزول بالتدريج . والاحتفال بالأفراح والأتراح صائر حتماً إلى الاقتصاد ، وقد كانت من قبل إلى الإسراف والبذخ ، ويراعى الدمشقى الحالة الاقتصادية على كل حال ، ينام إذا أكسدت سوقه وينتبه إذا نفقت .

# الحياة الأدبية والفنية والصناعية

**العلم والأدب في دمشق**

ليس في الإمكان استقصاء أسماء جميع من نبغوا في دمشق قبل الاسلام بالعلوم والفنون . وقد عرفنا منهم بولودرا المهندس الدمشقي الذي أقام عمود تراجان في رومية و بنى جسراً على نهر الدانوب (الطونة) . ومنهم بوسانياس عالم المؤرخين في عصره ، والقديس يوحنا فم الذهب الدمشقي رجل البلاغة والوعظ ، و إليه نسبت الكنيسة العظمى التي أصبحت في الاسلام الجامع الأموي فيما روى بعضهم . ويقول سينيوبوس في تاريخ الحضارة : « حفظت في مدارس الروم في دمشق والاسكندرية علوم اليونان من فلك وجغرافيا ورياضيات وطب » . أما نحن فمن المتعذر علينا أن نشير فقط إلى النوابغ منهم في هذه الفنون ، فمن الأخبار ما لم يدون ومنها مادون وضاع ، وتاريخ هذه الديار قبل الاسلام يصعب تمحيصه . ولم يكن السريان أصحاب البلاد دون الرومان واليونان في الرغبة في العلم ، وكانوا منذ انتشرت النصرانية يجعلون من أديارهم بيوت علم وحكمة ، وكانت آداب

السريانية تدرس بعناية منذ القرن الخامس . واشتهر اليعاقبة والنساطرة بالعلم ، وكان علماء النساطرة أكثر عدداً ، واليعاقبة أكثر رسوخا وتبحراً . وجميع الشعوب التى تداولت حكم هذه المدينة كانت لها يد باسطة فى العلوم المعروفة لعهدها .

وفى الجاهلية أى قبيل الاسلام كان يختلف إلى دمشق رجال من شعراء العرب فينزلون على الرحب والسعة على أمراء الغساسنة وغيرهم من العرب ، ومنهم حسان بن ثابت شاعر الرسول نزل فى الجاهلية على جبلة بن الأيهم ملك غسان فأكرم وفادته ، ذلك لأن جبلة كان أيضاً شاعراً مجيداً وكذلك بعض أهل بيته ، ومنهم امرؤ القيس والمتلمس ، ونزل فى الاسلام بعض الصحابة والتابعين وآل البيت فى دمشق وتديروها ، وشغلت طائفة منهم بهداية الخلق والقضاء بينهم ، وهم الذين وضعوا أساس العلم العربى فى هذه الأرض . وكثر العلم فى زمان أمير المؤمنين معاوية فأصبحت دار قرآن وحديث وفقه . كان يأتى بالعلماء من القاصية فينزلون دمشق ، وممن دعاهم إليها أمد بن أبد وعَبيد بن شَرْيَةَ الُجرهمى ، وطلب إليهما أن يحدثاه بأخبار القدماء ، وأمر بعض كتابه أن يدونوا كلامهما ، فكان

أول تاريخ وضع فى الاسلام . ومعاوية أول من وضع الكتاب والكتب لتعليم كلام العرب ، وأول من أنشأ بيت الحكمة . وانتشر العلم على عهد عبد الملك بن مروان ، وكان من أوعية العلم ومن بلغاء العرب كسائر أهل بيته ، وكان متسعاً فى المعرفة والتصرف فى فنون العلم والفصاحة ، وكان « سنان قريش وسيفها رأياً وحزماً وعابدها قبل أن يستخلف ورعاً وزهداً » وهو الذى نقل الدواوين إلى العربية وكانت بالرومية فى الشام و بالقبطية فى مصر و بالفارسية بالعراق ، وهو أول من أحدث ضرب الدنانير والدراهم فى الاسلام .

وشعراء هذا القرن فى دمشق من أصل عربى ، ومنهم من كان يفد على بنى أمية ويرحل بعد مدة . ومن الشعراء الأخطل ونابغة بنى شيبان . ومن العلماء أبو الدرداء القاضى ، وهشام بن إسماعيل أول من أحدث رواية القرآن بدمشق ، وأبو إدريس الخولانى و بشر بن الوليد الأموى كان يقال له عالم بنى مروان ، « وكان خالد بن يزيد بن معاوية خطيباً شاعراً وفصيحاً جامعاً وجيد الرأى كثير الأدب ، وكان أول من ترجم كتب النجوم والطب والكيمياء » ولقبوه بحكيم آل مروان

وعالم قريش . وهو الذى زهد فى الخلافة وعشق العلم ( وأمر باحضار جماعة من فلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مصر وقد تفصح بالعربية ، وأمرهم بنقل الكتب إلى الصنعة من اللسان اليونانى والقبطى إلى العربى ) وهو أول من أنشأ خزانة كتب فى الإسلام ، والأرجح أنها كانت فى دمشق . وأمر عمر ابن عبد العزيز بنقل كتاب أهرن بن أعين فى الطب إلى العربية، وكان فيها روح بن زِنباع ورجاء بن حَيْوَة من رجال العلم والسياسة ، وغيلان بن مروان أول من قال بالقدر ، ومن علمائهم فى القرن الثانى والثالث مكحول وعبد الله بن عامر أحد القراء السبعة ويحيى بن يحيى الغسانى ويحيى بن الحرث الزيادى المقرى ، وعليه دارت قراءة الشاميين ، والوليد بن مسلم وصعصعة بن سلام كان أول من أدخل علم الحديث إلى الأندلس ومحمد بن الوليد الزبيدى . وأبو الحكم وابن أثال وعيسى بن حكم وتياذوق ، وهؤلاء الأربعة أطباء . ونشأ مثلهم من النقلة فانتقلوا فى القرن الثانى إلى العراق وهناك ظهرت خدمتهم للعلم واللغة العربية . وواضع أساس الكتابة العربيــة عبد الحميد بن يحيى الكاتب وعشرات كانوا على طريقته فى الكتابة .

وقام فى القرن الثالث والرابع والخامس أمثال هشام بن عمار خطيب دمشق وقاريها وفقيهها ومحدثها وأبو مسهر عبد الأعلى الغسانى وأبو زرعة الدمشقى ومحمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة. وعمر بن حسن الخرقى وعبد الله بن عطية المقرى الدمشقى المفسر كان يحفظ خمسين ألف بيت من شعر العرب فى الاستشهادات على معانى القرآن واللغة، ومحمد القيسرانى المهندس وأبو يعلى التميمى المعروف بابن القلانسى المؤرخ وعلى بن داود الدارانى الخطيب .

وجاء فى القرن السادس والسابع والثامن أيضاً رجال فى علوم الدنيا والدين خلدوا لهم ذكراً مؤبداً . وكان فى دمشق أيام صلاح الدين ستمائة فقيه يعطيهم من صدقاته . ومن الأطباء والمهندسين يحيي البياس ومحمد بن أبى الحكم وابن النقاش وابن البذوخ وابن المطران وعبد الكريم الحارثى المهندس وعلى بن غانم والحافظ بن عساكر محدث الشام ومؤرخها صاحب التاريخ المشهور والحسين الأسدى مسند دمشق وابن الخياط وطراد بن على وابن منير وابن عُنَيْن والوأواء وعرقلة ( حسان بن نمير ) وابن نمير المقيلى ، وهؤلاء من كبار الشعراء . ومن المهندسين ابراهيم بن غنائم ، ومن المؤرخين

بن خَلِّكان وابن أبي أصيبعة وأبو شامة وسبط ابن الجوزى ، ومن العلماء المفننين عبد المنعم الجليانى وعز الدين الإربلى وشمس الدين الخويى ورفيع الدين الجيلى وشرف الدين الرحبى والدّخوار واللبودى صاحب دار الهندسة وعلى بن أبى الحزم وابن النفيس وابن المؤيد العُرْضى والدولعى الخطيب وابن الساعاتى الشاعر وفتيان الشاغورى الشاعر والحافظ الزملكانى والحافظ اليلدانى. ونبغ كثير من المحدثات الدمشقيات ضاهين بعلو السماع الرجال ، ومنهن من جمعن إلى الحديث علم الأدب وقرض الشعر.

وكان فى القرن الأخير المصلح شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية والحافظ البرزالى والحافظ المزى والحافظ الذهبى. وجاء رجال برزوا فى التاريخ والعلوم الفلكية والرياضية والطبيعية مثل ابن كثير وابن فضل الله العمرى والصلاح الصفدى وشيخ الربوة وابن مفلح وابن شاكر وابن الشاطر الفلكى ومحمد بن إبراهيم المهندس والخطيب جلال الدين القزوينى وسليمان بن داود الطبيب

وبدأت طلائع الانحطاط فى العلم والأدب فى القرن التاسع وما بعده ، ومع هذا ما خلت دمشق فى دور من الأدوار من أعلام يشار إليهم بالبنان فى جميع العلوم الدينية ومعظم العلوم

الأدبية والمدنية . ومن المشهورين ابن قاضى شهبة والحسبانى وابن عربشاه ويوسف بن عبد الهادى وهؤلاء اشتهروا بالتاريخ وإبراهيم البقاعى وأحمد الطولونى المهندس وابن الجزرى المقرى والبدر الغزى المؤرخ ومحمد بن على بن طولون المؤرخ وعائشة الباعونية المحدثة الشاعرة صاحبة التآليف والنجم الغزى المؤرخ وأحمد بن سنان القرمانى المؤرخ والحسن البورينى وابن الشاهينى والصفورى وابن الحكيم الصاحب والشاعران المنجكى والكيوانى وحامد العمادى وأحمد المنينى والمحبى والمرادى وعبد الغنى النابلسى وكمال الدين الغزى ومحمد العطار صاحب الرسائل بالفنون الحربية والفلك والرياضيات ومحمد عابدين صاحب الحاشية فى الفقه وعبد الغنى الميدانى الفقيه النظار ومحمد الطنطاوى وميخائيل مشاقة ومحمود الحمزاوى وطاهر الجزائرى ورفيق العظم وجمال الدين القاسمى وعبد الرحمن شهبندر وتوفيق طارق المصور المهندس وغيرهم

وهبت دمشق بعد انتشار القانون العثمانى سنة ١٩٠٨ وتمتع العناصر العثمانية بحرياتهم ، تريد أن تستعيد بالعلم سالف مكانتها وتستمر فى تخريج رجال ممتازين على ما كانت فى سابق العصور ، فتعلم مئات من أبنائها العلوم العالية فى ديار الغرب

ولا سيما فى فرنسا ، فجاء منهم نوابغ فى الطب والحقوق والتعليم والهندسة والزراعة والكيمياء وغير ذلك ، ومنهم من وضعوا الرسائل والكتب التى لا تقل عن كتب المصريين المحدثين ، وأما العلوم الدينية فأرادوا إحياءها فأسسوا بأنفسهم عدة مدارس تعلمها على الطرق الحديثة فى الجملة ، ويرحل طلاب الاختصاص إلى القاهرة يتلقون فى الأزهر ودار العلوم والجامعة ما ينقصهم من علوم الدين وغيرها . وفى أحيائنا طائفة كبيرة من الرجال الذين تعلموا وعلموا فى مختلف العلوم والفنون والصناعات حتى قال هريو: « لقد أصبحت دمشق بفضل همة علمائنا (علماء فرنسا) مركزاً علمياً من الطراز الأول بمكانتها ».

والتعليم فى دمشق منتشر كثيراً ويقلُّ فيها الأميون وفيها مدارس مختلفة الدرجات وجامعتها السورية هى الجامعة الوحيدة فى العالم التى تدرس الطب باللغة العربية . وقد رسخت العربية خطابة وكتابة وشعراً فى العهد الأخير رسوخاً لا عهد لها بمثله منذ أجيال ، والفضل فى ذلك للمدارس والجوامع والمعابد والصحف ولرخص الكتب والمجلات

الفنون الجميلة

نشأت الفنون الجميلة بدمشق فى زمن يصعب تعيينه، وكانت الأمم التى استولت زمناً طويلا على هذه العاصمة كاليونان والرومان من أقدم الأمم التى أتتها بموسيقاها ، ولما انتشرت النصرانية فى القرن الثالث للميلاد عُنى منتحلوها بالموسيقى فى كنائسهم عناية اليهود بها من قبل فى بيعهم . وكانت موسيقى العرب لأول أمرهم إلى السذاجة شأنهم فى معظم أوضاعهم ، فلما جاءوا هذه العاصمة أخذوا من موسيقى الروم ومن موسيقى الفرس وتوسعوا وأجادوا حتى قال بعضهم : ولم تكن أمة من الأمم بعد فارس والروم أولع بالملاهى والطرب من العرب .

والغناء العربى فى دمشق قديم منذ كانت غسان وتنوخ فيها ، وكان غناؤهم الإنشاد والترنيم والحداء . وكان التقليس وهو الضرب بالدف والغناء مما يعمد إليه فى استقبال الولاة عند قدومهم المصر . وحدثنا التاريخ أن بعض خلفاء بنى أمية وأمرائهم وساداتهم فى دمشق وضعوا ألحاناً وأولعوا بالموسيقى والغناء ، ومنهم عمر بن عبد العزيز فإنه دُونت له صنعة فى الغناء أيام إمارته على الحجاز وكان أحسن خلق الله صوتاً ، ومنهم يزيد بن

عبد الملك والوليد بن يزيد ، وما زالت الموسيقى والغناء ينتشران والدمشقيون يزدادون غراماً بهما كلما ارتاحوا وارتاشوا، وكان لهم فى كل قرن أناس مشهورون ممتازون ولكن التاريخ أغفل نقل أخبار هذه الطوائف من الناس . ذكروا أنهم تفننوا كثيراً فى الإيقاع والآلات ومنهم من عمل أرغناً ، وهو غير الذى عرفه الإفرنج ، يعمل من ثلاثة زقاق كبار من جلود الجواميس يضم بعضها إلى بعض . وفى القرن السادس كثر الموسيقيون والطنبوريون والقانونيون وظهر نوابغ فى هذا الفن . وفى القرن الثامن نبغت غير واحدة من المغنيات ، وما خلت هذه المدينة من عوادة وطنبورية وكراعة وربابية وصناجة ورقاصة . وكان الخلفاء والعظماء يتنافسون فيهن ويُفْضِلون عليهن وعلى كل صاحب معرفة بهذا الصنف . ومن الرجال والنساء من كانوا يمارسون هذه الصناعة للتكسب وهم المحترفون ، ومنهم من يولع بها حباً بها وهم الهواة .

وأدركنا الدمشقيين لا تخلو سهرة من سهراتهم ولا نزهة من نزهاتهم ولا فرح من أفراحهم من موسيقيين ومغنين وأحيانًا مغنيات ، وما كان بعض أرباب المظاهر يستنكفون من رفع

أصواتهم بالإنشاد والغناء ولا من الضرب على العود والطنبور والقيثارة . وفى العهد الأخير اقتبست الموسيقى فنوناً من الموسيقى الغربية ، وكادت دمشق فى موسيقاها وغنائها تكون عالة على مصر تقتدى بها ، ومع ذلك بقيت لها بقايا خاصة بها . وما برح للموسيقى والإنشاد عند بعض أرباب الطرق شأن عظيم كشأنهما منذ القديم وإلى اليوم فى الكنائس والبيع عند أهل النصرانية جميعاً .

أما فن التصوير فالعرب كانوا فيه عالة على الروم والرومان ، والإسلام لأول أمره شدد فى التصوير ، ولما ذهبت الخشية من عبادة الصور أخذ التصوير ينتشر فى البلاد الإسلامية ، وقد صنعت الصور فى دار مروان بن الحكم وسعيد بن العاص وكل منهما ولى امارة المدينة وكانا من التابعين ، مما دل على أن التصوير كان شائعاً منذ عصر الصحابة ، وكان للخلفاء فى قصورهم صور وتماثيل ، ولم يحظروا بادىء بدء إلا تجسيم الصور الآدمية ، وعمدوا إلى التصوير فى الكتب والثياب والجدر بكل مايغرى ويفتن ، وكانوا على كل حال مقلين من صور الآدميين ، وقد ظهر فى مصر فى عهد الأيوبيين والمماليك مصورون شاميون أبدعوا فى التصوير على

الجدران وعلى الكتب . وكان من الحمامات المصورة بدمشق حمام سيف الدين وصفه عمر بن مسعود الحلبي المعروف بالمحار بقوله :

وخُطَّ فيها كل شخص إذا لاحظته تحسبه ينطق
وَمثَّل الأشجار فى لونها ولينها لو أنهـا تورق
أطيارها من فوق أغصانها بودها تنطق أو تزعق
وهيبة المُلك وسلطانه وجيشه من حوله يحدق
هذا بسيف وله عبسة وذا بقوس وبه يعلق

وللمحار أيضاً فى تمثال من النحاس على صورة شخص يخرج الماء من أعضائه ، وكان على الأرجح فى بعض دور دمشق :

وشخص على ساقه قائم مشير بساعده الأيمن
له صورة حسنت منظراً على بدن صيغ من معدن
يكاد يحدث جلاسه ولكن به خرس الألكن
إذا بث من صدره سرّه فتسبقه أدمع الأعين
ولم يبك حزناً على نازح ولم يصب شوقاً إلى موطن
صبور على الحر والبرد لم يسرّ بحال ولم يحزن

وجاءت العصور الحديثة فكثر النقاشون والمصورون ، ومنهم المصورون على الخزف ، تجد نموذجات من أعمالهم بدار الآثار العربية بمصر . ومن النقاشين من ينقش على المعادن كالذهب والفضة والنحاس ، ومنهم من ينقشون المنازل ويعرفون بالدهانين .

وعدوا الرقص من الفنون الجميلة ، وقد ارتقى منذ عرف تاريخ العرب إلى أن فتحوا الأندلس ونقلوا إليها رقصهم الذى لا يزال إلى اليوم شائعاً فيها بعد خروجهم منها قبل خمسة قرون ، وكذلك الموسيقى الاسبانية ، يرقصون بالصنجات كما كان يرقص الراقصات فى دمشق ، وكان لهم فى الشام رقص يسمونه السماع يرقصه عدة أشخاص على نغمات متساوقة من الأوتار وترديد جميل من الموشحات فقط ، وهو أشبه بالأوبرا أو الأوبريت عند الافرنج أى القصائد الملحنة التى تمثل على نغمات الموسيقى ، ويزيد رقص السماع على الأوبرا كونه ترفع فيه الأصوات بأنغام مألوفة ، وقال بعض العازفين إن رقص السماع هو الذى يعرفه الأفرنج بالباليه

ونبغ فى دمشق فى القرن الماضى سنة ١٢٨٢ هـ رجل من أبنائها البارعين فى الموسيقى والغناء ونظم الشعر ، وهو أبو خليل أحمد القبانى ،

فأنشأ قاعة للتمثيل حازت القبول عند العارفين ، ثم اضطهدته الحكومة بإغلاق محله ، فانتقل بفرقته إلى مصر ووضع هناك أيضاً أساس التمثيل العربى الذى كان وضعه فى دمشق على غير مثال احتذاه . ومن تآليفه روايات إلى اليوم تمثل فى دور التمثيل وتجد لها قبولا من نفوس المشاهدين . وكان لرقص السماع فى رواياته التمثيلية قسط عظيم من العناية . وحاول كثيرون من أربعين سنة تأليف فرقة للتمثيل فأخفقوا مع أنه خرج من دمشق عدة ممثلين بارعين تفرقوا فى أرجاء مصر والشام .

## صناعات دمشق

عُرفت دمشق فى معظم عصورها بأنها مدينة صناعية ، كما هى مدينة زراعية تجارية . ويرجع توفيقها فى صناعاتها إلى وفرة المواد الأولية المستخرجة من أرضها ، وإلى أن كل صنعة يتسلسل العمل بها فى بيوت مخصوصة على الأغلب . فالصوف والقطن والكتان والقنب والحرير والوبر والمِرْعِزّى تنسج منه بَزّها وديباجها وأطلسها وأعبئتها وأغطيتها ، والحديد والفولاذ والنحاس تصنع منه نحاسها وآلاتها وقِرَبها ، ومن أخشابها تصنع مقاعدها

ومناضدها وأصونتها ومرافق بيوتها وقاعاتها ، ومن تربتها تعمل زجاجها وآنيتها وقاشانيها وآجرها . وهكذا فى كل ما تنبت الأرض ، ويدفن فى بطنها من المعادن . قال الإدريسى : ولكل بلد ومدينة خاصية تحتفظ بها فى نوع من الصناعة ، وأهَمُّ ما كان منها فى مدينة دمشق .

كانت هذه المدينة فى القرن الرابع الهجرى جامعة لضروب من المحاسن وصنوف من الصناعات ، وأنواع من الثياب الحرير كالخز والديباج النفيس الثمين العجيب الصنعة ، يحمل منها إلى كل بلد ، ومصانعها فى كل ذلك عجيبة ، وقد احتوت طرُزها على أفانين من أعمال الثياب النفيسة ، ومحاسن جمة فلا يعادلها جنس ولا يقاومها مثال . وقيل إن اسم الدمقس مشتق من اسم مدينة دمشق ، وان الثياب التى يسمونها ( داماسكو ) وتصنع برسوم فى جسم الثوب معمولة غليظة تنسب إلى دمشق . وكان الغزل والنسج مما يعانيه جمهور الناس فى الحاضرة والضاحية حتى شهدلهم بالبراعة فى ذلك . ولكل قرية ولكل مدينة اختصاص بصنع شىء تُعرف به ويعرف بها وينفق ما يحاك من ذلك فى بلاد الشام ، وما زاد يصدر إلى الخارج .

قام فى القرن الماضى والقرن الحالى أناس ممن يعانون صنع الثياب والنسيج من القطن والصوف والحرير فوقفوا بما اخترعوا من الأنوال فى وجه الثياب المصنوعة فى الغرب، وعملوا « الديما » و «الألاجة» و «الشال» . وما برحت الصناعات الشامية على كثرة منافسة البضائع الأجنبية لها رائجة لمتانتها وجمالها، وثبات ألوانها، ورخص أسعارها ، فان ما يعمل فى دمشق وضاحيتها من الشال والأطلس والأعبئة والملاءات والسجوف والشفوف والقطيفة المخمل، ما هو زينة القصور وربات الخدور. ومن ذلك معامل كثيرة فى هذه المدينة . وأنشىء فيها معملان لصنع الجوخ، لا تقل جودة مصنوعاتهما عما يصنع من نوعهِ فى معامل الغرب . وتوفرت الأنوال لصنع البسط والطنافس ، تروج مصنوعاتها لرخص أسعارها . وكانت صناعة زركشة القصب رائجة إلى القرن الأخير، وهى مما كانت دمشق تختص به .

وخصت أيضاً بدبغ الجلد تعمل منه الأحذية والسروج والروايا والزكرات والصناديق وما شاكل ذلك وهى جميلة ورخيصة .. وأسس مؤخراً معمل عظيم لدبغها أخذ يخرج الجلد الجيد الذى يباع ويروج فى الشرق والغرب .

واشتهرت دمشق بالنجارة منذ الزمن الأطول ، وما زال أهلها يتفننون فيها و يماشون الزمن فى نشوئها، ينجرون الأبواب والدرفات والنوافذ وأصونة الثياب وخزائن الزينة والمناضد والكراسى والمقاعد والأرائك والمكاتب والاطارات والمغاسل والصناديق والتوابيت والرحال وألواح درس الحبوب وأعواد الطرب . تعمل من خشب الجوز والزيتون والليمون والميس والعَرْعَر والدَّردار والشربين . والتنوب والسرو والصَّنُوبر مما يكثر فى الأرض الشامية ، أو من خشب الجوز الأميركانى والخشب الرومانى والقيليقى وغيرها من الأخشاب المجلوبة .

كان يعمل كل ذلك بأدوات بسيطة تحركها الأيدى ، وقد أقيمت معامل لنشر الأخشاب وتقطيعها وتجفيفها وتليينها وتزيينها ورصفها ونقشها . ومما يدل على متانة خشب الحور المعروف بالرومى تلك النموذجات التى بقيت منه محفوظة من القرن الخامس فى دار الآثار ، وكانت الصناديق تصنع إلى القرن الماضى من خشب الجوز فتقوى على القرون ، وتحفر فيها نقوش وصور جميلة ، ومن قبل كانت صناديق السرو مثال الصناعة المتينة ، ومن الخشب المتين كانت تعمل الحلقات فى القصور

والقاعات القديمة . وقد بيع كثير من هذه الصناديق وهذه الحلقات من الغرباء وهم يعدونها من أظرف الطرائف ، لما خصت به من المتانة والجمال . وسر الإبداع فى هذه الصناعة أن النجارين كانوا ينجرون أصلب الخشب ، فأصبحوا اليوم يعتمدون على الكريش والشوح ، وفيهما مواد قطرانية وتفعل فيما يصنع منها الرطوبة والحرارة ، وهـذا الخشب سهل على النجر وسريع إلى البلى .

وكان الدهان من الصناعات الدمشقية المتفردة بها هذه المدينة ويكون ذا ألوان ثابتة لا تنصل بالحرارة ولا بالبرودة ، ولا ينال منها السوس ولا الحشرات . والدهان المعروف اليوم بالعجمى مما تفردت به دمشق . وأهل هذه الحرفة يزينون بما يدهنون اليوم قصور العظماء فى الشام ومصر والعراق ويعملون منها مناضد ومقاعد وبعض أدوات الزينة ، فتجيء طُرْفة من الطرَف .

وأزهرت صناعة التنزيل فى خشب الخزائن والأصونة والمقاعد والكراسى بالصَّدَف أو بقطع الليمون ، وكانت مصنوعاتها تزدان بها الأندية والردهات وتباع منها مقادير عظيمة فى أميركا وغيرها . ويقال لصناعة الحفر والتنزيل (الأبلق) وهى من

أجمل الصناعات أيضاً ، تدهن الحجر بالنقوش والأشكال و يحفر ويدهن بصبّ الأصباغ فى الشقوق ، ثم يجلى و يصقل ، فيأتى صبغها براقاً ثابتاً كأنه من أصل الحجر . وكانت الأصباغ القديمة فى الجدران والأبهاء ثابتة ذات بهاء ولمعان ، وهى من نباتات البلاد وموادها ، فلما نازعتها الأصباغ الأفرنجية الرخيصة التى تنصل بسرعة ، بطل استعمال الأصباغ القديمة ، وكاد يفقد سرها و يندمج فى صناعة التنزيل صناعة النقش بالجبس على الجدران . ومنها نموذجات صبرت على حوادث الدهر .

لما حرق الجامع الأموى حريقه الأخير ، أخذ العارفون يفكرون فى إرجاعه إلى رونقه السابق ، فأحييت صناعات دقيقة فى النقش والحفر والترخيم كادت تضمحل ، ومحراب جامع بنى أمية مثال ظاهر منها . واخترع إذ ذاك أحد أرباب الصناعات مَرْكَبة تجرها بضعة ثيران ، فتنقل الأعمدة والسوارى من مقالعها مهما عظمت على أيسر وجه . والحاجة أم الاختراع .

ومن القديم كانت دمشق تفاخر بما تصنع من السيوف المحلاة لما اختصت به من الصفاء والاخضرار ، تكتب فيها آيات وأشعار بماء الذهب ، ومثل ذلك الخناجر والرماح . وتطريق الحديد

مما عرفت به دمشق قبل الإسلام ، وما زالت صناعته متوارثة في بيوت معروفة إلى اليوم . وذكر التاريخ أن الأمبراطور ديوقلسيانوس الروماني أنشأ في دمشق في القرن الثالث للميلاد معملاً للأسلحة ، فاستدل من ذلك أن المستخرج من حديد هذه الديار كان كثيراً يفي بحاجة الدولة والأمة . والقيانة أو القردحة أي صنع السلاح ، مما كانت له أسواق رائجة ، عرف الصليبيون ذلك ونسبوها في عهدهم إلى دمشق ، وكان العرب نقلوا هذه الصناعة أي صناعة صقل السيوف إلى الأندلس ، فنسبت إلى دمشق حتى يوم الناس هذا ، ويقال لها بلغات الأفرنج إلى اليوم ( دامسكيناج ) و ( داماسكينري ) أي تنزيل الذهب والفضة في الفولاذ . وكانت الدروع والخوذ والسابرية تصنع في دمشق حتى لكأنها كانت معملاً عظيماً من معامل السلاح على الطريقة التي وصلت إليها أدوات القتل والتوقي منه في تلك الأعصر . وتفنن صناع هذا تفنناً شوهد أثره في صنع القذائف والنسافات . فقد ذكر المؤرخون أن الصليبيين يوم عكا اصطنعوا ثلاثة أبراج من خشب وحديد وألبسوها الجلود المسقاة بالخل ، وجعلوها على عجل يسع الواحد منها من المقاتلة ما يزيد على خمسمائة نفر ويتسع

سطحه لأن ينصب عليه منجنيق ، فأراد صلاح الدين إحراقها وجمع الصناع من الزراقين والنفاطين ، وكان من جملة من حضر شاب نحاس دمشقي ، فذكر أن له صناعة فى إحراقها وأنه إذا حصل له الأدوية التى يعرفها ، وطبخها مع النفط فى قدور من النحاس وقذف بها الأبراج تحترق لساعتها وكذلك كان

وما برح كل ما يصنع من الحديد يعمل فى معامل دمشق كالمردان والمغازل والصنارات والأسياخ والعُقافات والقيود والزَّرد والمباضع والمبازع والمشارط والآنية والنعال والمسامير والمعاول والمساحى والمناجل والمطارق والأقفال والمفاتيح والمغالق والمناصب والملاقط والسكاكين والمُدَى والمناشير والمراكن والمراجل والدِّلاء والبراميل والمقالى والمواسى والمبارد والصناجات والدرابزون والكلاليب واللوالب والقدوم والفؤوس والمقاريض . وفى العهد الحديث أدوات المركبات والعجلات والسيارات والدراجات والمُضخّات والمدفئات والسكك والمحاريث والآبار الارتوازية وغيرها ، والاعتماد فيها كلها على الحديد المستبضع من الغرب . وكان أرباب الصناعات فى القديم يُجزئهم ما يستخرج من حديد البلاد

ومن النحاس تعمل أوانى البيوت كالقدور والمغارف والأطباق والمناقل والدلات ( أوعية القهوة ) والطسوت والصوانى والصحون والصحاف والمصافى والملاعق والسطول والمساخن والهواوين والمدقات وغير ذلك . وقد أنشئت أوائل هذا القرن معامل لصنع أوانى النحاس المكتّب والمعرق ، ومنها الزهريات والمصابيح والثريات والتعاليق والكؤوس والمباخر والقماقم والصحاف والبواطى و بعض أدوات الزينة ، فراجت رواجاً عظيما فى الممالك الأجنبية ، وتنافس أرباب الذوق في اقتنائها ، ومنها ما يعمل بالمينا ، ومنها ما يعمل بالفضة وهى على غاية الإبداع .

واشتهرت هذه العاصمة قديماً بالزِّجاجة(صناعةالزجاج) ، وكان يضرب المثل بصفائه ، يتخذ للزخرفة والزينة ، ومنه الأكواب والآنية على اختلاف ضروبها ، والأباريق والجامات والسكرجات والمضخات والأقداح والقوارير والكيزان والبواطى، كانت لها معامل مهمة فى دمشق . وفى الحرب الأخيرة أخذت معامل الزجاج تصنع الكؤوس والفناجين وزجاجات المصابيح وصراحيات الماء وغيرها ، وراجت رواجاً كثيراً واستغنت بما صنعت عن مصنوعات تشيكوسلوفاكيا وغيرها . وكانت معامل

الزجاج ممتدة على طول الجامع الأموى ، رآها الرحالة بوجيبوجي سنة ١٣٤٦ م . ويظهر أن البنادقة توصلوا إلى سر هذه الصناعة فى القرون الوسطى وأنشأوا يخرجون أنواع الزجاج ، ومنها المرايا التى بطل عملها بعد ذلك هنا ، ثم أخذ بعضهم بأخرة يقلد المرايا المصنوعة فى الغرب فتباع لرخص أثمانها . وزهد أرباب هذه الصناعة فى صنعتهم ، لما بدأ الغرب يخرج المصنوعات الزجاجية رخيصة الثمن بديعة الشكل ، ومن قبل كانت المصنوعات الزجاجية من عمل البلاد رائجة . وتعلقت الهمم قبل الحرب العالمية بتأسيس معمل للزجاج ، وأخرج مصنوعات جميلة ، وحال الاختلاف بين المساهمين دون سيره ، كما كانت اتجهت النية إلى تأسيس معمل للسكر فحال رخص أثمانه دون المضى فى إنشاء معمل لاستخراجه .

كان يعمل من الخزف القلل والخوابى والاجانات والدوارق وأصاصى الزهور وغيرها . ويعمل القاشانى لرصف الجدران والمحاريب والحمامات والفساقى والسلسبيلات والباذهنجات والقماقم والزهريات وغير ذلك . ويظهر أن سر صناعة القاشانى فقدت من دمشق منذ قرنين بانقراض البيت الذى كان مستأثراً

بصنعه . وفى القرن الأخير نشأت صناعة جديدة كأنها أخت القاشانى القديم . وهى الخزف الملون يتخذون منه بلاطاً للدور والغرف والمستحمات ، وقد تفننوا فى صنعه فأجادوا ، وله معامل كثيرة ، وله رواج فى الأقطار المجاورة لمهاودة أسعاره وجماله وصلابته ، و به استعيض فى أكثر العمائر الجديدة عن الأحجار الملونة فى التبليط وعن رخام إيطاليا .

ومما اشتهرت به دمشق صناعة الصياغة ، أى صناعة الذهب والفضة ، والتفنن فى تصويرها بوضع الأحجار الكريمة خلالها ، تعمل منها الأكلة والتيجان والأقرطة والشنوف والخواتيم والدمالج والقلائد والأطواق والخلاخل . ولما كسدت مصنوعاتها هنا جلا كثير من صناعها إلى بلاد أخرى . ومع هذا لا يزال ما يخرج الصياغ على اختلاف أسمائه وأشكاله وأحجاره رائجاً مقبولاً ، ويتوقف رواج هذه الصناعة على تكاثر النقد من الذهب والفضة فى الأيدى وتوفر أسباب الغنى .

ومن أهم الصناعات صناعة البناء والنحت ، ومدارس القرون الوسطى فى دمشق مثال بديع مما نحت ورصف . وقد ساعد على تجويد البناء تعدد مقالع الحجر بالقرب من المدينة ، وتسلسل

صناعة النحت والبناء والهندسة فى بيوت بعينها . ولما اخترع الاسمنت المسلح بدأ القوم يعتمدون عليه فى البناء أكثر من الجبس والكلس والآجر، فأنشىء لصنعه معمل فى ضاحية المدينة ، وثبت أن مادته قوية جداً ، وهو يقوم بحاجة البلاد الداخلية .

هذا إجمال حال الصناعات بدمشق ، وغالبها تتبدل عليها أيدى الصناع من الواحد بعد الواحد إلى أن ينيف على عشرة صناع حتى يتم ، وقد قيل إن صناعات دمشق تبلغ نحو ٣٤٠ صنعة وحرفة . ولا تزال تحدث صناعات وتموت صناعات . فمن الصناعات التى أحدثت خلال الحرب العامة الأخيرة حفظ الثمار والبقول فى علب ( كونسروا ) وقد أنشىء لها معمل فى دمشق، وصادراته تباع فى بلاد العرب و بلاد الغرب . وسبب الإقبال عليه جودة ثمار دمشق ولذيذ طعمها .

ومن الصناعات المهمة التى دثرت ولم يعد يعانيها أهلها منذ زمن طويل الوراقة أو صنع الورق . وكانت لها معامل فى دمشق منذ القرن الثانى . وقد تعلم صنع الورق فى دمشق أسيران أفرنسيان على عهد الحروب الصليبية ، ونشرا هذه الصناعة فى فرنسا ومنها انتقلت إلى أوربا . وكان العرب حملوا سر هذه الصناعة معهم

منذ أوائل القرن الثالث إلى الأندلس وصقلية . ومن هاتين الجزيرتين كانت أوربا الوسطى والغربية تستبضع ورقها قروناً .

ومن الصناعات التى كان لها شأن عظيم فى دمشق ويعيش بها خلائق ، وذلك قبل اكتشاف النفط ( البترول ) واختراع الكهرباء ، صناعة صبِّ الشمع وسكبه وقلَّ من يعنى بها اليوم . وكانت تصنع فى دمشق الشموع العظيمة التى تجعل على جوانب المحاريب فى المساجد العظمى كأنها سارية من السوارى . وفى دمشق كانت تصنع شموع الحرمين الشريفين وتحمل إليهما كل سنة . ومن الصناعات التى ضعفت لقلة مايصدر منها صناعة عطر الورد وما يستقطر من زهر دمشق . فهذه الصناعة كانت تصدر مقادير كبيرة منها إلى الصين والهند فى القرن الثامن . وقد ذكر شيخ الربوة فى كتابه « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » ما كانت تغل هذه الصناعة من مال وما تنشره فى موسم الزهر من الروائح الذكية فى أماكنه بعد استخراج روحه ، ووصف صورة استقطارها والأنابيق التى تستخدم لها .

ودعت الحاجة خلال الحرب الأخيرة وبعدها إلى إدخال صناعات جديدة أو إتقان صناعات كادت تفقد منها لقلة من

يرغب فيها . وإنا وقد رأينا اليوم ما قام من معامل النسيج والحياكة وما شاهدنا من معامل الجوخ والدباغة والخزف والاسمنت المسلح وحفظ البقول والثمار وصنع المربيات والحلويات وغير ذلك من الأعمال التي برّزَ أربابها فيها على ما شهد لهم بذلك أعاظم العارفين بهذه المسائل في بلاد الغرب — إنا وقد رأينا هذا فلا يصعب علينا أن ندعي أن دمشق تخرج الآن جميع حاجياتها من مأكول وملبوس ومسكون ومفروش . وإذا اضطرت ذات يوم إلى الاكتفاء بما تخرج وما تصنع ، لاينقصها غير بعض الكماليات . وكل بلد مهما بلغ من رقيه ينقصه شيء أو أشياء تجود عند جاره ، ولا غضاضة عليه إذا قايض عليه ، بما يستخرجه مما تفرد هو بصنعه .

وبعد فقد عرفت الشام في معظم عصورها بأنها بلاد صناعية أكثر منها تجارية وكانت مدينة دمشق تفخر بأنواع من الصناعات اليدوية النفيسة حتى في الأسواق العالمية ، ومنها المصنوعات الحريرية والقطنية والصوفية التي كانت موادها الأولية من منتجات القطر، وكذلك المصنوعات الخشبية والنحاسية والفضية والجلدية التي عرفت بطابعها الشرقي وبسلامة الذوق والمتانة . ثم تطورت

الصناعة بعد الحرب العالمية الماضية تطوراً يدعو للتفاؤل بأحسن النتائج ، وكانت السباقة لهذا التطور مدينة دمشق ، إذ تطلع أهلها إلى إنشاء صناعات آلية ( ميكانيكية ) مختلفة لم يكن الشرق الأوسط يعهد نظيرها كصناعة الأسمنت والثقاب ( الكبريت ) وحفظ الفواكه والخضراوات وصناعة الجوخ والحرير بأنواعه ، وأصبحت هذه المعامل على حداثتها تضاهى بإنتاجها الصناعة الغربية التى هى من نوعها ، كما أنشئت فى حلب مؤسسة لصناعة خيوط الغزل ونسجها كانت عاملا قوياً فى إحياء مساحات واسعة من الأراضى بزراعتها من القطن الأميركى أو الهندى .

وتبع ذلك فى دمشق وحلب بالإضافة إلى الصناعات المار ذكرها وخصوصاً صناعة النسيج الحريرى التى نمت نمواً مطرداً ، تبعها صناعات التريكو والجوارب والقمصان الكتان والمستحضرات الكيمياوية الصناعية والأدوية والمستحضرات الصيدلية والمستحضرات الغذائية والمعكرونة والبسكويت والزبدة والسكاكر والشوكولاتة . والمصنوعات الحديدية والتلبيس بالمعادن والمرايا السكب والبلاط والجبس والدباغة الفنية والصباغة والمطاحن والطباعة والفرش ( الموبيليا )

إن التجدد الذى أدخلته دمشق على صناعتها فى غضون عشرين عاماً رغم العقبات التى لاقتها بسبب الحواجز الجمركية ونكبتها بثروتها من جراء خسارتها بالنقد الأجنبى فى سنة ١٩٢٠ والأزمات الاقتصادية التى توالت وأثرت فى التجارة والزراعة والأراضى والعقارات لجدير باعجاب المنصفين .

ولو أن الحكومات التى تولت الحكم فى الشام اهتمت قليلا بالمشاريع الصناعية وشجعتها وحمتها لحصلت البلاد إبان هذه الحرب الضروس على ما يمكن الحصول عليه من الرخاء والتوازن الاقتصادى فى الإنتاج الصناعى كما هى الحالة فى بعض الأقطار المجاورة ، على أن الوقت لم يفت والأمل معقود على مستقبل يقوم على استقرار يضمن ازدهاراً اقتصادياً ، فتنمو صناعاتها وتجارتها وزراعتها ، وينعم أهلها بثروات القطر الطبيعية الكامنة التى لا تسمى ثروة لنا إلا إذا أثبتنا مقدرتنا فى استثمارها .

## تجارة دمشق

كان سكان هذا البلد بما فطروا عليه من ألمعية وذكاء قبل أن يدوى فى أرجائه نبأ هذه الحرب ، يسمعون حسيسها و ينظرون

إليها كأمر واقع فأعدوا عدتهم لمواجهتها . ومنذ انقطعت العلاقات التجارية بين اليابان والولايات المتحدة أواخر عام ١٩٣٨ زادوا فى مستورداتهم بقدر ما تصل إليه قدرتهم من مال وجهد و بقدر ما تمكنهم الاعتمادات الممنوحة لهم فى البيوت المالية والمصارف الأجنبية ، داخل البلاد وخارجها ، مستفيدين من الدروس الاقتصادية التى ألقتها عليهم الحرب الماضية بين عام ١٩١٤—١٩١٨ ، فما جاءهم أيلول عام ١٩٣٩ إلا كان عندهم وعلى أرضهم من مختلف أنواع البضائع والسلع التى تشتد الحاجة إليها ما يعد كثرة تضيق بها محال التجارة ومستودعاتها وأنابر الجمارك . وما شاع نبأ الحرب حتى سارعوا يطلبون إلى عملائهم ووكلائهم فى كوبا ومنشستر ونيو يورك أن يبذلوا قصارى جهدهم فى شراء ما يقع تحت أيديهم من البضائع مطلقين لهم العنان فى غشيان الأسواق العالمية كيفما اتفق لهم السعر والشروط . وعندما دخلت اليابان الحرب وانقطعت البواخر التى كانت تجوب البحار إلى شواطىء الشرق الأدنى أخذ السوريون بعد أن نزل الحلفاء أرضهم يولون وجوههم شطر مرافىء الهند الجنوبية جاعلين من بومباى دار هجرة تجارية يحملون منها عن طريق الخليج الفارسى

أولاً وقناة السويس ثانياً ما تمس حاجتهم إليه من خيوط وأنسجة ومواد غذائية ، فما عَضَّتْهم الحرب بقلة كما وقع لهم فى الحرب الماضية وأحسنوا الاستفادة من كل معاونة يعاونها البريطانيون فى كل بلد ينزلونه .

مضى العام الأول والعام الثانى من أعوام هذه الحرب ودمشق خائفة ، كأنما تعيش بين أجفان الردى وهى يقظانة نائمة ، فلم يتسع لها طريق العمل بشىء يتفق مع ميراثها الصناعى ، وفى الأعوام التالية أخذت قدرتها على الإنتاج تزيد وكانت فى زمن السلم تطغى عليها المصنوعات الخارجية ، والأعمال وليدة الحاجة وربيبة الضرورات . ولما كان الشعب السورى تجارياً بالفطرة ، والمغامرات فى دمه وروحه فقد تقلب فى تجارته خلال هذه المدة صاعداً وهابطاً ، فإذا نُبِّئَ بما يشعر بطول الحرب ترتفع عنده الأسعار ، وإذا ثبت له قصرها تهبط وتتدنى .

وذهبت دمشق فى هذه الفترة بقيادة الحركة الاقتصادية ، وأخذت تعين الاتجاه هبوطاً وصعوداً وحركة وجموداً ومنها ينتقل هذا الاتجاه إلى كبريات المدن والحواضر ، فهى أُذُنٌ تستمع لكل ما يحمله الأثير من نبأ تُقلِّب فيه الفكر ، وتحكم به على

الغاية ، ولولا تقلب أسعار النقد الذهبي وارتباطه بقلوب أبناء هذه البلاد الذين يؤمنون به إيماناً أوحت به الأعوام الخالية ، لما اختلفت الأسعار وارتدت التجارة طابع المضاربات البعيدة عن الطريق السوى .

إن طبيعة الحرب توفر الرزق لأصحاب الحظوظ الذين تواتيهم الأحوال أكثر مما توفره للمفكرين الذين يستخرجون النتائج من المقدمات ، والتجارة فى الحرب تتمشى مع المغامرات أكثر مما تسير بالحزم والأخذ بالأحوط . وساعدت المناسبات أصحاب اليد الأولى من المستوردين ، فكان نصيب مدينة بيروت تتلوها مدينة حلب أوفر قسطاً فى الحصول على المنافع الرئيسة بالنظر لوقوف تجار هذين البلدين فى طليعة الفئات المستوردة والمدخرة ، ويأتى حظ دمشق وأخواتها بقيـــة المدن السورية فى المؤخرة لأن العاملين فى تجارة هذه المدن يستبضعون على عادتهم من أصحاب المتاجر القاطنين فى الثغور والمرافىء .

نحن على مثل اليقين بأن البلاد السورية سترتدى بعد الحرب الطابع الصناعى أكثر من الطابع التجارى الذى كانت ترتديه قبلها ، فهى بلا شك ستقيم المعامل الصناعية على اختلاف أنواعها

متى توفرت لها الأسباب ولان لها الحديد الذى يستعصى عليها وجوده اليوم ، وهى كبيرة الأمل فى الحصول على المواد الأولية التى تستلزمها الصناعات ، متى تهيأت الأسباب للقائمين بالأمر أن يستنبتوا الأرض حق الاستنبات و يعدنوا المعادن المركومة فى أحشائها ، وتتعاون فى القطر القوى الثلاث : القوة الإنباتية والمعدنية فى أرضه ، والقوة الفكرية فى سكانه ، والقوة اليدوية التى خصها الله بالإبداع ، وأجرى لها ما أجرى من حسن الذوق . فإذا ما تم لهذا القطر أن يكون وحدة اقتصادية ففى مائه وهوائه وتناسق فصوله قوة كامنة تأتى بالعجب العجاب .

خرجت البلاد من الحرب الماضية وفيها القناطير المقنطرة من الذهب الذى دعت إلى إنفاقه الضرورات العسكرية ، وما أسرع ما أضاعت بعد تلك الحرب ثروتها الأصلية والفرعية ، فكانت أشبه بأم توفى عنها زوجها فترك لها مالاً ولم يترك لها عقلا يدبره و يحسن القيام عليه . فإذا قدر لهذه الأرجاء أن تعتبر من الماضى وقد رزقتها هذه الحرب مالم تكن تحلم به من مال أنفقته فيها الجيوش الحليفة فارتفعت نسبة الأموال المتداولة إلى حد لم تبلغه فى عهد من العهود ، فإن مستقبلا مليئاً بالآمال الجسام

ينتظرها فتتبوأ عرش الاســتقلال الاقتصادى الذى فقدته دهراً طويلا .

هنالك ساحات اقتصادية تتآزر فيها بعد الحرب الجماعات القاطنة فى هذه الديار والجماعات الذين يوافونها ، فما على السوريين إلا أن يأخذوا أُهبتهم للنزول إلى تلك الساحات ، وإذا نزعنا الروح الفردية التى تأصلت فينا ، وتقمصنا روح التعاون فى الأعمال الصناعية الكبرى ، يضعف تأثير الجماعات التى ستغزو المرافق الحيوية ، مستندة إلى نظام تعاونى مستمد من أقوى النظم المالية القائمة على مبدأ المنافع المشتركة ، فالمال قوة وأقوى ما فيه حسن القيام على تصريفه فى وجوه الأعمال المستندة إلى نظام قويم .

أصبحت الثروة العامة موزعة بين الجميع فى هذه الحرب ، فالمنتجات الزراعية ومكاسب أصحاب المتاجر والأعمال الحرة هى فى الجملة على غير ما كانت عليه قبل الحرب ، ومتى صارت الأموال إلى اليد التى تحسن القيام عليها لا تعمدَ إلى دفنها وهّاجة تحت الأرض أو حبسها فى صناديق مقفلة ، فإن الانتفاع بها يعم جمهرة الشعب وعامة طبقات الأمة .

إن دمشق تتمتع بعد أن مضى على الحرب خمسون شهراً بأكثر ما تحتاجه من غذاء وكساء، لم يعدم فيها إلا ما لا بال له ، ولئن تصاعدت قيم أكثر الحاجيات فذلك ناشىء عن أن مستوى المعيشة العامة قد ارتفع جملة ، وارتفعت معه النسب فى الأشياء المنقولة وغير المنقولة، والمقياس فى أزمنة الحروب هو وجود الحاجيات الضرورية أو عدم وجودها ، والفضل فى ذلك لدمشق وللمنتج الدمشقى ، وللتاجر الذى خاطر بماله ونفسه لتموين بلده ، وللحلفاء الذين مونوا هذا البلد، وخاصة فى الأيام التى كانت فيها أمواج البحر المتوسط تتلاطم بالدماء

## غوطـة دمشق

لا بد للباحث فى دمشق أن يعرض للكلام على غوطتها . فالغوطة ودمشق لازم وملزوم ، ومعنى الغوطة من الغائط وهو المطمئن من الأرض . والغوطة ما أحاط بدمشق من بساتين وقرى ، وسقى على الأكثر بمياه بردى ومشتقاته . يبدأ أحدها من فوّهة الوادى عند الربوة غرباً ممتداً إلى المزة وداريا وصحنايا والأشرفية وسبينة وسبينات فى الجنوب ، وينتهى فى الشرق بالريحان والشفونية وحوش مباركة وحوش الأشعرى وحوش المتبن وحوش خرابو والفضالية والنشابية وبيت نايم ، وينتهى فى الشمال بجبلى قاسيون وسنير . ويشرف الجبـل الأسود وجبل المانع على الغوطة من الجنوب كما يشرف عليها جبل الثلج أو جبل الشيخ من الغرب ، ويحدها شرقاً إقليم المرج ، ومن هنا تفتح حدودها فتحة طويلة حتى الحماد أراضى بادية الشام . ويقدر طول الغوطة بنحو عشرين كيلومتراً تقريباً ، ويختلف عرضهـا بين عشرة وخمسـة عشر كيلومتراً وتبلغ مساحتها نحو ٤٠٦٠٠ هكتار أى نحو خمسة وستين ألف فدان

بفدادين الغوطة أو نحو مائة ألف فدان مصرى ، ومدينة دمشق داخلة فى هذه المساحة وتحتوى الغوطة على اثنتين وأربعين قرية عدا الحدائق والبساتين المحيطة بهـا ، وهى يتألف منها عشر قرى كبيرة . وفى الغوطة قرى كالمدن مثل دومة وحرستا وعربيل وجوبر وداريا وكفرسوسية والمزة . ومجموع نفوسها لا يقل عن مائة ألف نسمة . وتربتها أجود تربة تُسَمَّدُ كلما أرويت لأن أنهارها تدخل دمشق وتحمل قاذوراتها ، وهذا مما يعاون على خصبها وإمراعها . وفى الغوطة تجود جميع الحبوب والبقول وعامة الأشجار المثمرة ، ما خلا النخيل والحوامض بسبب برد الشتاء . والغوطة تمون دمشق ومنها أكثر مادة حياتها، ولولا الغوطة ما كانت دمشق . وهى فى مجموعها من أجمل متنزهات العالم بما حبتها به الطبيعة من جمال أشجارها وخصب أرضها ، لا تتعب من إخراج خيراتها صيف شتاء . واشتهرت فاكهة الغوطة بلذيذ طعمها وعجيب نكهتها . فكمثراها ودراقها ومشمشها وتفاحها وسفرجلها وأعنابها مضرب الأمثال ، قال الصلاح الكتبي : وروى عن بعضهم أنه اتفق أن مر يوماً ببعض شوارع القاهرة ، وقد ظهرت جمال كثيرة حمولتها تفاح فتحى.

من الشام ، فعبقت روائح تلك الحمول فأكثر التلفت لها ؛ وكانت أمامه امرأة تسير ففطنت لما داخله من الإعجاب بتلك الرائحة ، فأومأت إليه وقالت : هذه أنفاس رَيا جِلقا . وهذا الشطر من أبيات لطراد بن على الدمشقى المعروف بالبديع ، اشتهرت وغنى بها المغنون وهى :

يا نسيماً هب مسكاً عبقاً هـذه أنفاس رَيا جلقا
كفَّ عنى،والهوى، مازادنى برد أنفاسك إلا حُرَقا
ليت شعرى نقضوا أحبابنا يا حبيب النفس ذاكَ الموثقا
يا رياح الشَّوق سوقى نحوهم عارضاً من سحب عينى غدقا
وانثرى عقد دموع طالما كان منظوماً بأيام اللقا

قال ياقوت : وبدمشق فواكه جيدة فائقة طيبة تحمل إلى جميع ما حولها من البلاد ، من مصر إلى حَرّان وما يقرب ذلك فتعم الكل . وما برحت الغوطة مقصد أهل دمشق للنزهة والقصف ، وقدأخرجت طائفة كبيرة من العلماء والأدباء فى مختلف العصور، وهى فى الواقع بمثابة أحياء تبعد قليلاعن العاصمة الكبرى ، ولاغنى لأبنائها عن الاختلاف إلى العاصمة كل يوم ، فالاختلاط

بين الغوطيين والدمشقيين متصل ، يألف بعضهم بعضاً ويتزوج بعضهم من بعض ، والغوطية تصبح دمشقية بعد مقامها قليلا فى دمشق ، والدمشقية تصبح فلاحة غوطية إذا أقامت فى الغوطة سنين . نقول فلاحة أى متمرنة على الأعمال الزراعية والأعمال البيتية التى تستلزمها حياة القرى . وفى الغوطة نزل كثير من العرب ، تشهد لذلك الفُصَحُ الباقية فى لهجتهم ، ومن العرب الذين نزلوها غسان و بطون من قيس و بها قوم من ر بيعة و بعض بطون من كلب ، ومن بنى زبيد فرقة وآل فضل والحريث من ز بيد من القحطانية .

وللنواجى الشاعر فى الغوطة :

ألا إن وادى الشام أصبح آية محاسنه ما بين أهل النهى تُتلى
و إن شرفت بالنيل مصر فلم تزل دمشق لها بالغوطة الشرف الأعلى

والشرف الأعلى موضع نزه من غر بى دمشق يعلو عن قرارة الوادى . وليس لك فى الغوطة أن تقول هذا المكان يفضل ذاك ، فكل محالها ومنازلها جميل تأخذ بمجامع القلوب كما قال أحدهم :

أنى اتجهت رأيت ماء سابحاً متدفقاً أو يانعاً متهدلا

وكأنما أطيارها وغصونها نغم القيان على عرائس تجتلى
وكأنما الجوزاء ألقت زهرها فيها وأرسلت المجرة جدولا
ويمر معتل النسيم بروضها فتخال عطاراً يحرِّق مندلا

أو كما قال فتيان الشاغورى :

كأن طيور الماء فيه عرائس جلين على شاطيه خضر الغلائل
إذا كرعت فيه تيقنت أنها تزق فراخاً وهى زغب الحواصل
وكم سمك فيه عليه جواشن من التبر صيغت وهو بادى المقاتل
جريح بأطراف الحصا نخريره أنين له من حسّ تلك الجنادل
إذا قابل النهر الدجى بنجومه أرانا بقعر الماء ضوء المشاعل
تغلغل فى الوادى فوافى كقينة منعمة حسناء ليست بعاطل
فعانقها حتى انثنت مشمعلة تقل على ظهر الصفا بطن حامل

يروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما قدم الشام رأى الغوطة ونظر إلى المدينة والقصور والبساتين ، فتلا قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين » . ويروى أن أمير المؤمنين المأمون العباسى أقسم يوماً وقد نظر إلى أشجار الغوطة

ونباتها ، أنها خير مغنى على وجه الأرض ، وقال : عجبت لمن يسكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذى لم يخلق مثله .

وحى الغوطة

أتى لى فى الغوطة ستون سنة ، تسلمنى الطفولة إلى الشباب ، والشباب إلى الكهولة ، والكهولة إلى الشيخوخة ، ولاقيت ربيعها وصيفها وخريفها وشتاءها ، وما لقيت منها إلا نضرة وسروراً .

أنعشنى هواؤها ، وأدهشتني أرضها وسماؤها ، وما فتئت منذ وعيت أقرأ فى صفحة وجهها الفتان آيات الإبداع والإعجاز .

فى ربوعها شهدت الطبيعة تقسو وتلين ، وتغضب وترضى ، وتشحُّ وتسمح ، فراعنى جمالها وجلالها ، وشاقنى تجنيها ووصالها .

نشقت أنفاس رياها وهى ترفل فى زهرها وودها ، واستهوتنى مجردة من ورقها وثمرها ونباتها ، فأخذت بها كاسية عارية ، وطابت لى مُطَيَّبَة وتَفِلَة .

تربة تقبل وتمحل ، وأدواح تعقم وتثمر ، وجداول تفور وتغور ، وآبار تفيض وتغيض ، وجو يغيم ويصحو ، ودوّ

يعبس و يضحك . وهناك هناء ، وهناك يسر ، وهناك شقاء ، وهناك عسر .

أتى الجراد غير مرة على زرعها وثمرها ، وسطت الحشرات على خضرها وشجرها ، وأحرق الصقيع حبوبها وفاكهتها ، وعدا الموتان على دواجنها وماشيتها ، وطغى الماء على أدنى بقاعها ، فأودى بما أنبتت و بسقت ، وعادت هذه الأم الرءوم تدر على أبنائها لبناً سائغاً ، وتفيض عليهم من عطفها وحنانها كل جميل .

عهدى بها ودِمَن عشرات المزارع الخربة ، بما توالى عليها من نكبات الزلازل والسيول والأوبئة والمجاعات ، إلى جانب ألوف الأفدنة تصبح بالدءوب حدائق غُلباً ، وكانت بالأمس بين مستنقع و بيل ، ومرج أفيح . فى الغوطة قرى كبيرة تداعت ، وقرى كبيرة لم يَعْفُ رسمها ، وفيها أشجار لا تعيش غير بضع سنين ، وأُخرى مباركة يحسب عمرها بالقرون .

همت بسحرها فى سَحَرها ، و بشمسها تأفل وراء شَجَرها ، وراقنى وابلها وَطلها ، ونداها وضبابها ، وجليدها وجَمَدها ، وثلجها وبَرَدُها ، ودَمَقها وزمهريرها ، ونسيمها وأعاصيرها .

غنتنى طيورها بأطيب الأنغام ترددها من وكناتها فى جناتها، وما تبرمت الأذن بنعيق البوم ونعيب الغربان ، وعواء بنات آوى ، ونباح الكلاب ، ونقيق الضفادع ، فى المظلم والمقمر من لياليها ، واهتززت للديكة تصيح ، والغنم تثأج ، والمعيز تثغو ، والبقر يخور ، والخيل تصهل ، والحمير تنهق .

أقبلت مرة أقلب حديقة لنا أنقى أدغالها ، وأعزل صخورها وأحجارها ، فنبشت على ذراعين من سطحها مقبرة فيها قليل من عظام نخرة ، وكثير من خواتم وأقراط وأساور ودمالج ، كانت فضتها ونحاسها وحديدها وزجاجها تتفتت لساعتها بأيدينا .

وما فرقنا بين الرجل والمرأة من نزلاء مدينة الموتى ، وما بان معنا الشاب من الفتاة ، ولا الشيوخ من العجائز ، ولا إذا كان من لحدوا فيها مجوساً أو صابئة أو نصارى أو مسلمين ، ولا إن كانوا من العرب أو السريان أو اليهود أو الروم ، وغاية ما نمّ عليه ذاك العظم الرميم أنه بقايا أشلاء بشرية كان أربابها يهيجون ويسكنون ، ويَلوُمون ويبرون ، ويشقون ويسعدون .

وأبصرت على خُطى قليلة من المدفن أثر حوض بديع شيد بالآجر والحجر النحيت ، يظهر من ترخيمه أنه بناء بان صناع اليد، وانتهيت إلى ديماس عميق فيه جرار عظيمة ، وأدوات نشأت من مدنية كانت بنت هذه التربة الزكية ، نَعِمَ بها أهلها ما قدر لهم أن يَنعموا ، فلما ناداهم حادى الرحيل تخلوا عن مصانعهم ومرافقهم ، وغادروا ديارهم كأن لم يغْنَوا فيها

أدركت أجيالاً ثلاثة من الناس ، وقبلى رأى الراءون ألوف ألوف الألوف ، وكلهم كان شأنهم كشأننا ، خُلقوا على صورتنا ، وركبت فيهم أحاسيسنا وغرائزنا ، واستحكمت فيهم الشهوات والمطامع ، وكانت لهم آمال وأحلام ، نزح صالحهم وطالحهم ، وراح لطيفهم وكثيفهم ، وما عرفوا لِمَ جاءوا ولا إلى أين ذهبوا ، ولِمَ جَدُّوا وجهدوا ، ولم انصرفوا على ألا يرجعوا . أما أجسامهم فقد نخرت وتبخرت ، وتبعثرت ذراتها فى الفضاء . وأما أرواحهم فانتقلت إلى عالم لم ندركه بالحس ، ولا قُدّر معنا بحساب ، وما علمنا عنه إلا ما أشار إليه الكتاب .

ذهب من درجوا على هذا الصعيد الطيب ، تاركين ما كدحوا

وجمعوا ، ناسين من أحبوا وأبغضوا ، وما حال دون قفولهم عطف الأمهات والزوجات ، ولا بكاء الأولاد والأخوات . هلك الغنى والفقير ، والصحيح والمريض ، والحبيب والبغيض ، وناح النساء على الأعزة الذاهبين يندبون ويولولون ، ثم لحق النائحات والنوادب بالصحاب والصواحب .

***

حقاً أن الغوطة كانت على الأيام ساحة تحوّل ، تحوّلت فيها حتى أزياء الجنسين من سكانها ، فغيّر الرجال فى هذه الحقبة لباس رؤوسهم ثلاث مرات ، وكذلك كان دأب النساء بملاآتهن .

شاطرت القوم أفراحهم وأتراحهم ، وكاثرتهم فى مواسمهم وأعيادهم ، ورأيتهم يلبسون الخلق البالى ، ورأيتهم يلبسون الزُّواقَ الحرير ، رأيتهم يطعمون أطيب الطعام وأمرأه ، ورأيتهم لا يشبعون من خبز الذرة والشعير ، راقبتهم فى سكونهم وهوشاتهم ، وفى تلاتلهم ومشاكلهم ، وفى سعتهم وضيقهم ، وعاشرتهم وسامرتهم ، على نقص محسوس فى تربيتهم .

أدركتهم يستعيضون عن اللّبِنِ والطين والقصب والكلس في بنيانهم بالقرميد والآجر والحجر والاسمنت، وعهدتهم يمتطون الفُره من الخيل والبغال والحمير، ويحملون أثقالهم على الجمال، ويجرونها بالثيران، ثم اتخذوا المركبات والعجلات، وركبوا الدراجات والسيارات.

أدركتهم تبيض الأميّة وتفرّخ في رءوسهم، ويعم الجهل كبيرهم وصغيرهم وذكورهم وإناثهم، وما كانت عقول الأذكياء منهم تصل إلى أبعد من القرى المجاورة، واغتبطت أن صار بضعة في الألف من شبانهم وكهولهم يتلون الصحف والكتب، ويستطلعون طلع الأخبار، ويعنيهم النظر في المصالح العامة، ويظهرون في مظهر من يحاول مجاراة الزمن في حضارته، يستبدلون الأدوات الحديثة في الحرث والتذرية والعصر والاستخراج بأدواتهم القديمة التي جمدت على حالة واحدة لم تتبدل من عهد عاد وثمود. وكل ذلك ببطء وتثاقل ليناسب اقتباسها قانون الزروع والغراس عندهم: تنمو بحرارة معتدلة وإذا سُقيت سقيت بمقدار.

إقليم تتصادم عناصر الطبيعة فيه بلا انقطاع ، الفناء رابض أبداً إلى جانب البقاء والتبدل على قيد غلوة من الاستقرار . عاينت كل هذا فرجعت بمناظر متشاكلة ، لا تزال تتكرر على مرّ الجديدين ، لم أهتد سبيلاً إلى تعليلها ، ولا أدركت ولا أدرك أرباب المدارك هذا السر الدفين فى صدر الليل والنهار .

هنا يبدو للعين كفاح الغوطىّ فى كسبه ورزقه ، وصراعه فى سبيل شهواته وأثرته ، هنا تلمح جور القوىّ على الضعيف ، وأن الإنسان فى هذه الأرجاء كان على نحو ما هو فى كل مكان ، ظالماً ومظلوماً ، وقاتلاً ومقتولاً ، وعزيزاً وذليلاً .

لحظت الغوطىّ موسَّعاً عليه ، ولاحظته مقتراً عليه . عهدته مرهقاً بضروب الجبايات ، وألفيته يؤدى الجباية طيبة بها نفسه ، وأدركت الفقير ينوء بحمل كل عبء ، والغنىّ يكاد يعفى نفسه من أداء كل شيء .

وجدت الفلاح لا ينسل القدر اللازم من الأولاد يستعين بهم على استخراج خيرات حقوله ، ولقيته وقد زاد السكان ستة أضعاف فى ستة عقود ، وإذا بأرباب الضياع تضيق بهم رباعهم

فلا يجزئهم ريع ما يملكون ، وعادوا يقتنون الأرض بالثمن الغالى ، ويغلون فى الغرام بها ، وهم الذين كانوا يحاذرون امتلاك شبر من ترابها فراراً من المغارم والعوارض .

***

حزنت على الغوطىّ عبداً ، وفرحت له حراً ، آلمنى عبوسه وتشاؤمه ، وسرّنى ضحكه واستبشاره . كان يرمضنى كلما وقعت عينى عليه يُسَخّر كالبهائم ، ويقنَّع بالسياط ، ويلطم ويلكم ، وهو صابر خانع . ثم ابتهجت يوم نُفِّس خناقه ، وعومل معاملة الإنسان . أما هو فلم ينشب أن نسى ما كان يحل به ، وعاد يتمرد ويطغى .

نظرت إليه يتهافت على تجويد زراعته ، ونظرته يهمل إثارة تربته ، ويزهد فى رعية ماشيته ، طالعته يحيي الليالى لا يبالى أذى البرد ، إذا كان ذلك فى سقى زرعه وجمع حَبه وثمره ، وطالعته فى حَمارّة القيظ يكد وسط حقله فى حرّ يزهق الأنفاس ، وهو جدّ طروب كأنه فى مجلس أنس يلذه ما يسمع ويرى .

وسجلت أن ضوارى الغوطة لا تستشرى، والشرّ فى أرجائها محكوم عليه بالزوال ، ثبت لى هذا بعد أن رأيت ثعالبها وضباعها توشك أن تبيد ، و بعد أن أيقنت أن كواسرها وجوارحها أقلّ من عصافيرها وحمامها . وقيدت من أخبار الغوطة أنها منعمة محسنة على وجه الدهر ، وأن بنيها أصحاب مضاء يعدون لكل يوم قسطه من العمل ، و يقسمون جهودهم أقساماً بحسب المواسم ، على ما قسمت الفطرة سنتهم إلى فصول ، استوفى فيها كل فصل حكمه ، وأن فى أرضهم المحبو بة كمعظم بلاد العرب قوى منظمة مستثمرة ، إلى جنب قوى ضائعة منتشرة .

# اقرأ

## كلمة شكر

نتقدم بخالص الشكر إلى القراء الذين تفضلوا بإبداء ما لديهم من اقتراحات وملاحظات على هذه السلسلة ، وإننا نرحّب دائماً بآراء القراء وانتقاداتهم لأننا نعدّ هذا خطوة موفقة فى سبيل التعاون على الوصول بهذه السلسلة إلى الغرض الذى من أجله أنشئت ؟

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

# اقرأ

## آراء بعض القراء

## فى هذه السلسلة

من مصر :

- إنها خير ما قدمته لنا هذه الحرب ...
- ليس لدينا ما نقوله إلا أن نشكر إدارة مطبعة المعارف ومكتبتها على أن أتاحت لجمهور القراء فرصة لارتشاف منهل من مناهل الثقافة العالية والأدب الرفيع ...
- إن سلسلة اقرأ رأس مال قومى عظيم ، ندخره لمستقبلنا وفضلا عن ذلك فانها كلها ممتعة كبيرة الفائدة ...
- إنه لحدث عظيم فى تاريخ الكتاب العربى قفز به إلى الأمام شأوا بعيداً فى نهضة مباركة شاملة لألوان النشاط العقلى والفكرى ، فشكراً للقائمين على ابراز هذه السلسلة ...
- إنها حديقة شعبية لثمار الأفكار قطوفها دانية يرتادها ويتناول ثمارها الجميع بأرخص الأسعار ...

من السودان :

- لا عيب فيها غير أنها متقنة الطبع رخيصة الثمن غزيرة الأدب الذى يتذوقه الخاص والعام ...

## من فلسطين :

- أهم حادث أدبي مبتكر فى الشرق العربي ...
- أظهرت هـذه السلسلة للغرب أن فى الشرق أدباً يماشى أدبهم وسيسبقه ...

## من شرق الأردن :

- فاتحة طيبة لوحدة عربية ثقافية متوقعة ...

## من سوريا ولبنان :

- كنت أنتظر أن أقرأ فى سلسلة اقرأ كيف أن الأدب فى مصر صار تجارة ، لكن الواقع كذب ظنى . فإن فكرة إخراج هذه السلسلة لأقرب مورد يستطيع المتعطش أن يغترف منه ...
- لاشك أن هذه السلسلة التي هي الأولى من نوعها فى الأدب العربي وبما جاءت به من بعض المبتكرات قد أفادت الأدب إفادة جليلة ...

## من العراق :

- مجهود جبار تقدمه المعارف لخدمة القراء فى البلاد العربية كافة ...
- سلسلة قربت القراءة المجدية إلى أكبر عدد ممكن من أبناء العروبة ، لتعش مصر وليعش أدباؤها ...

## أدب رفيع يغذو الضمير ويثير الفكر



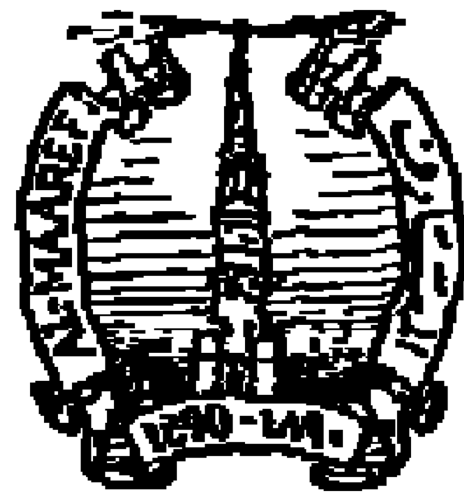
من تأليف

الدكتور بشر فارس




ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



رمز

الطباعة الأنيقة
والمؤلفات القيّمة
التى تمتاز على الدوام
باستحسان جمهور القراء
فى جميع الأقطار العربية

# اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك فى تأليفها
أشهر الكتاب فى مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



## الثمن بالنسخة

| | | | |
|---|---|---|---|
| مصر | ٥٠ مليما | سوريا ولبنان | ٦٠ قرشا |
| السودان | ٥٥ مليما | العراق | ٦٠ فلسا |

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ مــلا

الكتاب التالى يظهر فى مايو ١٩٤٤

اقرأ

محمد فريد أبو حديد
زكي نجيب محمود
أحمد خاكي

# شكسبير

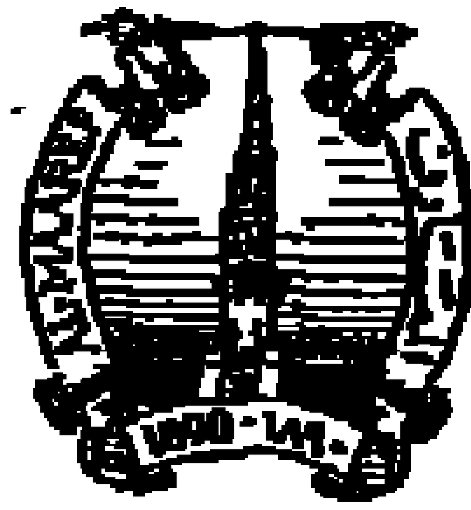
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

محمد فريد أبو حديد
زكي نجيب محمود
أحمد خاكي

# شكسبير

اقرأ ١٧

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف





ولیم شیکسپیر

# حياة الشاعر

للاستاذ زكي نجيب محمود

## ١ — أوروبا تنهض بعد ركود :

عُدْ بالسنين القهقرى قروناً ثم قف بأوروبا وقد أطبقت عليها دياجير العصور الوسطى ظلمات فوق ظلمات ، وانظر إلى الأوروبى إذ ذاك وهو يرنو إلى الطبيعة من حوله ببصر مشدوه وفم فاغر ؛ لا يكاد يميز بين خرافة وحقيقة ؛ فها هم أولاء مؤرخوهم يخلطون بين الحق والخيال ، وعلماؤهم السذّج يؤمنون بصدق ما يرويه الرواة ، ولم يَدُرْ فى خلد إنسان أن يتناول الطبيعة بالتحقيق والتدقيق ؛ فإن تقحّمَ باحث جرىء فضرب فى ثنايا الكون بعلمه ، حقّت عليه اللعنة وحلّت به ألوان العذاب ، كأنما أراد بعلمه للناس ضلال الساحرين ؛ ودع عنك تلك الأصفاد الثقيلة التى كبلت بها الكنيسة عقول الناس فأنقضَتْ بها ظهورهم وأبهظت نفوسهم حتى بات حراماً على العقل أن يركب إلى آفاق

الأرض أو أجواز السماء جناحا من فكر أو خيال .

ولكن لم يشأ ربك لهذه الغاشية أن تدوم ، ولهذه الجذوة الخابية ألاّ تعود إلى الوهج والبريق ؛ فلم يكد يدنو القرن الخامس عشر من ختامه حتى تبدلت الحال غير الحال ، وشرع الناس يحطمون ما كان يثقلهم من قيود وأغلال ؛ فيُخضعون للنقد كل ما كان موضع الإيمان والتسليم ، ويهتدون فى الأمور بهدْى عقولهم ليس عليها من سلطان ولا رقيب ؛ وألهبتهم الحماسة أن يغوصوا فى معمعان الحياة إلى آذانهم ؛ فطوى العلم صفحة غابرة تسودها الأباطيل ، لينشر صفحة جديدة عمادها الملاحظة والتجريب ؛ ونفض الناس عن أنفسهم سلطة دينية أذلت النفوس وأعقمت العقول ، ليعتنقوا مذهباً دخلته عوامل الإصلاح ؛ واستدبر القوم نظاماً سياسياً يقسم أوروبا إلى طبقات ولا يقسمها إلى دول ، لتنهض كل أمة وحدةً قائمة بذاتها ، شاعرة بقوميتها واستقلالها ؛ وحطم الناس قيود المكان فضربوا فى البحار يجوبونها طولاً وعرضاً ، ويكشفون الغطاء عما استتر طوال العصور من أصقاع الأرض ؛ وخرجوا على قيود الزمان فعادوا أدراجهم إلى الماضى يبعثون روائع الأقدمين من مراقدها ؛ وشاء الله أن يبارك هذا

النهوض العقلى ، فأتاح للإنسان مطبعة تنشر فى العالمين نتاج القرائح وثمرات العقول .

ولو أردت لهذا النهوض بدايةً فى التاريخ ، فاعلم أن قد تواضع المؤرخون على أن يكون العام الذى سقطت فيه القسطنطينية فى أيدى الأتراك ( ١٤٥٣ ) فاتحة النهضة الفكرية ؛ وذلك لأن طائفة من العلماء اليونان كانت تقيم بذلك البلد عنـد سقوطه ، وكانت قوّامةً فيه على شعلة خافتة من تراث اليونان والرومان الأقدمين ، تصونها فلا تخبو ؛ ولما سقطت المدينة حملوا كنوزهم العلمية ويمموا بها شطر إيطاليا وغيرها من بلاد الغرب ، فكانوا بمثابة البذور الطيبة انتثرت فى أرض صالحة ، فأينعت ثمارها ، ودنت قطوفها ، وآتت أكلها بعد حين ؛ وما كان هؤلاء العلماء ليفلحوا فى استنبات بذورهم ، لولا أن صادفوا هنالك فئة من النبلاء اعتزمت أن تكون للنهضة الفكرية رعاةً حماة .

بهذا أصبحت إيطاليا معيناً دافقاً تفجّر منه الفكر الجديد ؛ ولم يكد يضرب القرن الخامس عشر فى نصفه الثانى ، حتى أقبل عليها الراغبون فى العلم من غرب أوروبا ليردوا حياضها ؛ ولئن فاض هذا المورد الجديد بثقافة اليونان والرومان معاً ، فقد كان

للثقافة اليونانية أكبر الأثر ؛ إذ كانت العصور الوسطى قد أَلَمَّتْ بشذرات من الفكر اللاتيني ، ولكنها أوشكت ألا تعلم من كنوز اليونان شيئاً ؛ فلما أراد أهلها — مثلا — أن يطالعوا « هومر » لم يرجعوا إليه فى أصوله ، بل قرءوه مترجماً إلى اللاتينية ، محذوفاً منه هنا ومضافاً إليه هناك ؛ فها هو ذا أدب اليونان قد بات قريب المنال ، و إلى جانبه ما أنتجه العقل اليونانى من فلسفة وعلم .

ولئن وقف الحاجّون إلى هذا الكنز المكشوف ، ينظرون إلى روائعه نظرة المبهوت ، فقد كان العلماء الانجليز من بينهم أشد دهشاً و بهتاً ، إذ كانت بلادهم تعيش من تاريخها فى قرن مجدب عقيم ، لا يكاد يعلم عالموه إلا ملخصات لكتب الأقدمين ساء تلخيصها ، وها هم أولاء يلقون أبصارهم على عالم فكرى جديد لم يَدُرْ بخلدهم ذرةٌ مما فيه ، وصاروا بفضله علماء بمعنى الكلمة الصحيح ، ولم يعودوا — كما كانوا — أوعية خزنت بها أكداس من الحقائق الميتة الجامدة .

وما إنْ وجدت هذه الثقافة القديمة سبيلها إلى النشور حتى بثت فى النفوس روحا جديدة ، فرفع الإنسان ، لأول مرة بعد

محنة العصور الوسطى ، بصره المكدود من طول ما نظر إلى القبور ، وكثرة ما فكّر فى يوم البعث والنشور ، رفع بصره ليستمتع بجمال الحياة فوق هذه الأرض الفاتنة ، بعد أن أغمض ناظريه طوال العصر الوسيط عن جمال الحياة ؛ إذ أوحت الكنيسة إلى الناس بأن الجمال رجس من عمل الشيطان ، وأن الحياة الدنيا بأسرها دار مفر وسبيلٌ تؤدى إلى الدار الآخرة ؛ فما ينبغى لمؤمن أن يفكر فى غير ذنوبه وهول الموت والحساب ؛ أما وقد نشروا أمام أبصارهم روائع اليونان الذين كادوا يعبدون الجمال عبادة ، فسرعان ما سَرَتْ فى نفوسهم روح أولئك اليونان ؛ وتفتحت عيونهم إلى فتنة الحياة من حولهم ، ونعموا بها ما وسعهم أن ينعموا ؛ فتغيّر فى تقدير الناس مثلهم الأعلى ، ولم يعد يتمثل لهم فى المسيحى المتبتل الزاهد ، بل أصبح مَثَلهم المنشود عالماً يحلل ظواهر الطبيعة ، أو مغامراً يركب الصعاب ويجوب البحار ، أو رجلا يغوص فى متعة الحياة إلى أذنيه ؛ ولو أنت أمعنت النظر فى هذه الخصائص ألفيتها هى بعينها خصائص الشباب ، فلسنا نخطىء إن زعمنا أن عصر النهضة من العصور الحديثة مرحلة شبابها الفتىّ الطموح ؛ ففيه تحطيم القيود

كعهدنا بالشباب ، وفيه الأمل الباسم ، وفيه الجدة والنضارة ، وفيه الرغبة الملحة فى تحصيل العلم ، وفيه الخروج على معايير الأخلاق ، وفيه حب الاستطلاع وركوب المخاطر ، مما نراه فى فتوة الشباب — فإن اجتمعت لرجل واحد هذه الصفات ، فكان محباً للفلسفة والعلم والأدب ، مقاتلا باسلا ، منغمساً فى ألوان الرياضة والصيد ، عاشقاً توفرت فيه شروط الحب الصحيح فذلك هو المثل الأعلى ، وقد جاهد الأدباء فى عصر النهضة أن يصوّروه ؛ ورأى الناس أن هذه الصفات قد تجسدت فى رجل بعينه من رجال النهضة فى انجلترا ، هو « السير فِلِپْ سِدْنى » فخلدوه نموذجاً يحتذى .

هكذا أفلتت العقول بعد إسار ، فهل تظنها تمضى على أوضاع الدين السائدة مغمضة الأبصار ؟ كلا ، فلا بد أن ينهض من هؤلاء الأحرار من ينقد الكنيسة وشعائرها ، ويهاجم السلطة الدينية التى لبثت حتى ذلك الحين سيدة تمسك بزمام التفكير توجهه كيف شاءت ؛ ومن هذا الفريق الناقد الناقم كان المصلحون الدينيون الذين أخذوا على أنفسهم أن يطهروا العقائد من شوائبها ؛ فخرجوا بذلك على البابوية ، وانقسم المسيحيون فريقين :

فريقاً يحتفظ بالعقيدة القديمة وأولئك هم الكاثوليك ، وفريقاً يجدد ويصلح وهؤلاء هم البروتستنت ، وكان لهذا الفريق الثاني الغلبة في انجلترا الناهضة على الفريق الأول .

وكانت كنيسة روما قبل ذاك تسلك العالم المسيحي كله في وحدة لا فرق فيها بين أمة وأمة . فهؤلاء هم جنود الجيوش الصليبية تتألف صفوفهم من فرنسيين وانجليز وأسبانيين وألمان ، لكن هذه الفروق القومية لم يكن لها شأن إلى جانب العقيدة المشتركة بين الجميع ؛ فلما دَنَتْ العصور الوسطى من ختامها ، تغير الوضع وتنبهت كل أمة إلى نفسها ؛ وما كان لانجلترا — مثلاً — أن تصنع غير هذا وقد لبثت تقاتل فرنسا قتالا دام قرناً كاملاً ، انتهى بغير شك إلى شعور قوي بالقومية المستقلة عن سواها — فإذا ما انبثت هذه القومية في النفوس ، انعكست على الأدب آثارها ، وطبعته بطابع متميز ؛ وحسبك أن تجيل البصر في أدب الأعوام الأخيرة من القرن السادس عشر في انجلترا ، لترى أنه انجليزي صميم ؛ وإن شئت فاقرأ شيكسبير ، تجد هذا الأديب العالمي مرآة تعكس الروح الانجليزية في صدق وجلاء .

ها نحن أولاء قد بسطنا لك خصائص ثلاثاً تميز أوروبا الناهضة ؛

فثقافةٌ جديدة خرجت من بطون أسفارها لتنفخ الحياة فى النفوس ، وإصلاحٌ دينى يتناول أوضاع العقيدة القائمة بالتحوير والتغيير ، وشعورٌ بالقومية يميز الأمم الأوروبية بعضها من بعض ؛ ونريد الآن أن نختم لك الحديث فى النهضة بخصيصة رابعة ، هى الكشف الجغرافى الذى وسّع من آفاق الأرض والسماء جميعاً ، فبينا كان المغامرون يشقون العباب وينشدون المجهول ، حتى كشف كولمبس عن القارة الجديدة غطاءها ، ودار ڤاسكودا جاما حول رأس الرجاء الصالح ، كان الفلكيون يديرون مجاهرهم فى صفحة السماء فيكشفون أفلاكها ويتعقبونها فى مسالكها . فلم يعد بالناس حاجة أن يقرءوا القصص والأساطير ليلتمسوا فيها ما تتوق إليه نفوسهم من أعاجيب ، إذ بات فى مستطاعهم أن يكونوا هم المغامرين تُرْوى عن بطولتهم الأساطير ، فَفِيمَ القعود وهذه الأقطار الغنية الجديدة تفتح للناس أبوابها ، ومَنْ لم تسعفه إلى ركوب المخاطر قواه ، فلينصت إلى ما يحكيه عنها من رآها ؛ ولئن وَسِعَ عالم الواقع أن يدهش المنصتين بقصصه ، لحرِىٌّ بالخيال أن يطير بجناحيه إلى بلاد أشد غرابة ؛ ومن ثم راح فريق كبير من أدباء النهضة يصورون فى أدبهم رحلات مليئة

بالعجائب ؛ وما نحسب النظارة حين كانوا يشهدون « العاصفة » — إحدى روايات شيكسبير — تمثل أمامهم جوب البحار إلى جزيرة مسحورة ، إلا أنهم طاروا مع الشاعر بخيال قوى هيأته لهم حوادث عصرهم ، وليس فى وسعنا اليوم أن نستشعره حتى فى عهد الطفولة ذات الخيال الجامح .

٢ — عصر اليصابات الزاهر :

تلك كانت مقوِّمات النهضة التى شملت أوروبا بأسرها ، فماذا شهدت انجلترا فى نهوضها من تلك العناصر ؟ شهدت روحاً قومية جارفة ازدادت جذوتها اشتعالاً إذ خرجت ظافرة من حرب « الأرمادا » ، وهى أكبر قتال بحرى شهدته فى تاريخها حتى ذلك اليوم ، فكتب لها نصرها ذاك سيادة على البحار دامت لها إلى يومنا هذا . فالتهبت نفوس الناس التهاباً بالعزة الوطنية التى تشهد آثارها فيما جرَتْ به أقلام الشعراء والكتّاب . فهذا « چون لِلى » يخرج كتابه « يوفيوز » وهذا « سپنسر » ينشىء قصيدته « تقويم الراعى » ، ثم ينتج آيتــه الكبرى « ملكة الجن » ، وهذا « سِدْنى » ينشد شعراً ويكتب نثراً ؛

وهذا شيخ شعراء العالمين « شيكسبير » يطالع الناس برواياته التاريخية الخالدة واحدة فى إثر واحدة ، وكلهم مدفوع بتلك الروح الوطنية المشتعلة التى زادتهم إيماناً ببلادهم وحفزتهم أن يطمحوا بها إلى مكان الزعامة بين بلاد الأرض جميعاً .

وما ظنك بروح قومية تتخذ العقيدة الدينية وسيلة لبلوغ غايتها ؟ فالناس يعتنقون البروتستنتية أفواجاً أفواجاً ليخرجوا بها على سلطان البابوية تمكيناً لاستقلالهم ؛ بل أسرفوا فى حبهم للوطن إسرافاً جدا بهم أن يجعلوا للواجب الوطنى المكانة الأولى ، ولهم بعد ذلك أن يؤدوا ما يجب نحو الله . أراد الانجليز فى عصر النهضة أن يكون لبلادهم السبق فى كل شىء ؛ فرأت انجلترا سواها من الدول الأوروبية تغامر فى البحار وتكشف الأسرار ، فما هو إلا أن ضربت فى هذا الميدان بسهمها ، وإذا هى السبّاقة بين المغامرين الكاشفين ، فوضعت بكشوف أبنائها فى ذلك العصر أساس مُلكها العريض . ورأت سواها من الدول الأوروبية ينتج أدباً جديداً فيه نضارة النهوض ، ما إن أدْلَتْ بدلوها فى الدِّلاء حتى خرجت للعالم بآيات روائع فن صنوف الأدب ، وحَسْبك أن تعلم أن كان شيكسبير بين

من أنجبت إذ ذاك من أرباب القلم . وأعجب العجب أن سرى في الناس على اختلاف طبقاتهم حبٌّ للأدب كاد يبلغ في عنفه نشوة الخمور ، فكان إذا ما تلفت النبيل الرفيع أدهشه أن يرى إلى يمينه وإلى يساره رجلا من غمار الشعب يستمتع بما يرى وما يسمع كما يستمتع هو ، كأنما بات يدرك سر الجمال بوحى من الله . ولعل ذلك ما أراده شيكسبير حين أجرى على لسان هاملت في وصف هذه الروح الفنية التي سَرَتْ في الناس :

« لقد جاور الزارع بقدمه الحافية حذاء النبيل من حاشية الملك » .

وشهدت انجلترا كذلك في نهوضها شيوعاً في التعليم تناول شطراً كبيراً من أبناء البلاد ، وهذه حقيقة لا يجمع عليها المؤرخون ، فلَسْتَ تَعْدِمُ بين هؤلاء طائفةً تصور عصر النهضة في انجلترا وقد ضاق فيه نطاق التعليم ، حتى إن هؤلاء ليخرجون شاعرنا شيكسبير من فئة المتعلمين ؛ ولكنا سنقيم الحجة على رأينا من شيكسبير نفسه ، ففي « قصة الشتاء » فصل صور فيه الشاعر حياة الريف والرعاة تصويراً جميلاً دقيقاً ، فتراه يعرض على قرائه حَفْلاً أقامه الرعاة السذج في ريفهم إحياءً للفصل الذي يجزّون فيه صوف الغنم ؛ فيدخل على المحتفلين بائع جوّال ، أتدرى

ماذا كانت بضاعته التى أقبل عليها الحضور إقبالاً نفقت معه البضاعة فى مثل اللمح بالبصر ؟ حكايات شعبية منظومة طبعت فى لفائف من الورق ! فهل كان الشاعر العظيم من الغفلة بحيث يصور لنظّارته قوماً يقرءون ، ونظّارته يعلمون أن مثل هؤلاء القوم يجهلون القراءة ؟ و إن جاز أن يكون رعاة الريف على علم بالقراءة ، فحرىّ أن يلم بها أهل الحضر ؛ وفى « حلم ليلة فى منتصف الصيف » يظهر لنا الشاعر كذلك جماعة من غمار الناس وفى عزمهم أن يمثلوا رواية ، فكُتبت أدوار الممثلين ووزعت بينهم ليحفظوها استعداداً لتمثيلها ، وما كان ذلك ليدور فى خلد الشاعر لولا أنه يعلم أن أمثال هؤلاء من القارئين ؛ وفى «هنرى الرابع» مهرِّج مشهور فى عالم الأدب لما بلغه الشاعر فى تصويره من روعة و إبداع ، هو « فولستاف » ، يعرضه الكاتب فى موقف وقد أخذه النعاس ، فأخرج أميره هنرى ما بجيبه ، و إذا هو أوراق ومذكرات وقوائم فيها حساب ، وما كان ذلك ليكون لو لم يتصور الشاعر والنظارة جميعاً أن « فولستاف » على علم بالقراءة ؛ بل إن موجة التعليم لم تقتصر على أبناء الأمة الذكور . فجاوزتهم إلى بناتها ؟ ففى « الليلة الثانية عشرة » ترى خادماً

تدبر مكيدة لرجل مثقف ، فكتبت إليه خطاباً فى خط مولاتها تنفض إليه فيه لوعة فؤادها ، ويقع المخدوع فى أحبولة الماكرة ويذهب إلى سيدته يبادلها حباً بحب ؛ فماذا تقول فى تعليم يشمل فى نطاقه الخادمات ؟ وفى « جهد الحب ضائع » عبارة موجهة إلى مدرس يعنى فى مدرسته بتعليم البنات ؛ وفى « حلم ليلة فى منتصف الصيف » نبأ عن فتاة بأنها كانت « ثعلبة فى أيام الدراسة » وحسبنا هذا دليلاً على شيوع التعليم فى عصر شيكسبير

كان الشعب — إذن — فى عصر النهضة العظيم شعباً قارئاً ، فأىَّ كتبٍ قرأ ؟ كان الإنجيل أشيع ما تداولته أيدى القراء ، ثم طائفة من إنتاج الإنجليز فى القرون التى سلفت ؛ أما الجزء الأعظم فترجمات لتراث اليونان والرومان وكتّاب الدول الأوربية المعاصرة ، وإنه لأيسر علينا أن نذكر لك ما لم يترجم من كتب أولئك وهؤلاء من أن نسمّى كل ما ترجموه ؛ فقد نقل إلى الإنجليزية فى عصر اليصابات الزاهر كل ما خلفه الأقدمون وما أنتجه المعاصرون ، إلا أفلاطون فى عالم الفلسفة ، واسخيلوس وسوفوكليز وأكثر يوربيد فى عالم الأدب المسرحى ؛ ذلك فيما يختص بتراث اليونان ، وإنه لأمر يستوقف النظر ، فعجيب

ألا ينقل أفلاطون فى عصر سادت فيه الروح الأفلاطونية وأوحت إلى كثير من الشعراء بما أوحت ، وعجيب ألا تترجم روائع الأدب المسرحى اليونانى فى عهد ازدهر فيه المسرح ازدهاراً قلّ أن تجد له ضريباً فى تاريخ الأدب ؛ وأما عن الأدب الرومانى فلم يترجموا بعض كتّاب المسرحية اللاتينية ، مع أنهم نسجوا على منوالهم ؛ ولم ينقلوا كتاب « الأمير » لمكياڤلى مع أنه كان هادياً لكثير من السّاسة فى سلوكهم العملى ، وعن المعاصرين لم يترجموا « رابليه » (ظهرت أول ترجمة لكتاب رابليه سنة ١٦٥٣ ) ولو أنهم عرفوا كتابه العظيم « جارجانتوا وپانتا جرويل » وقلدوه ؛ إذن فاستثن هذه القائمة الضئيلة ثم قُلْ فى غير تحفظ إن عصر النهضة فى انجلترا قرأ ترجمة انجليزية لكل ما أنتجته القرائح الإنسانية ؛ فإن كان لا بدلنا أن نخصّ بالذكر طائفة من روائع الأدب التى شاعت ترجماتها عندئذ ، فلنذكر عن الرومان « إنياذة » ڤيرچيل ، و « تغيرات » أوڤد ، و « أورلاندو فيوريوزو » لأريوستو و « إنقاذ بيت المقدس » لتاسو ؛ ومن اليونان « الإلياذة » و « الأوذيسيه » لهومر ، و « حيوات متوازية » ، لفلوتارخوس ، وعن الفرنسيين

المعاصرين « المقالات » لمونتيني ؛ ولهذين الكتابين الأخيرين أعظم الشأن فيما نحن بصدده ، لأنهما معين استقى منه شاعرنا شيئاً كثيراً .

روح وطنية ملتهبة ، وموجة من الإصلاح فى الدين ، ونزوع قوى إلى المغامرة وحب شديد للجمال ، وعقول أنضجها التعليم ، ومكتبة زاخرة بما أُلِّف أو ترجم ، هذا هو الجو الذى عاش فيه شيكسبير وتنفس ؛ ولكن مَنْ عسى أن يكون هذا الشاعر العظيم الذى عمّ ذكره وشاع حتى ملأ نبوغه القلوب والأسماع ؟

## ٣ — وليم شيكسبير :

على نهر آفُنْ الذى ينساب خلال المروج ، تقع مدينة ستراتفورد عند ما ينعطف مجراه فى قوس جميل ؛ وهنالك على ضفة النهر ترى كنيسة بنيت على غرار الفن القوطى الجليل ، وعلى مقربة منها حديقة غناء فسيحة الأرجاء ؛ ولا يزال بالمدينة إلى يومنا هذا طائفة من الدور خلفها لنا عصر اليصابات ، بأوجهها الخشبية إلى نصفها ؛ ولا تزال المنازل منتشرة فى ضواحى المدينة كما كانت ، تنهض دليلا على ما كان للقوم من

ذوق مهذب رقيق ؛ ويحيط بستراتفورد ريف فاتن رائع ، تعلو فيه الأرض تلالاً وتهبط وهاداً ، تكسوها الخضرة فى كل أرجائها ، فإن ارتفعت على السفوح وجدت قطعان الضأن ترعى و إن هبطت إلى بطون الوديان رأيت الماشية زرافات ؛ والحياة الريفية فى تلك المنطقة زاخرة بصنوف النشاط ففيها الرعى كما رأيت ، وفيها الزراعة ، وفيها صيد الحيوان

لم تكن ستراتفورد قرية ضئيلة منعزلة عن ضجة العالم فى ركن هادىء كعهدنا بالقرى ، بل كانت فى عهد اليصابات أقرب إلى المدينة ، تموج برجال التجارة والأعمال وأصحاب الأراضى الموسرين ؛ وقد سَرَتْ بين الشباب من أبنائها نزعة تحفزهم إلى الضرب فى معمعان المغامرة على اختلاف صنوفها ، متأثرين فى ذلك بروح العصر كله ، فمن أبنائها جماعة ارتحلت إلى لندن فذاع اسمهم فى الحيـاة العملية ؛ فهذا أحدهم غادر ستراتفورد ليشتغل فى العاصمة الصخّابة طابعاً وناشراً ؛ وهو الذى طبع لشيكسبير قصيدتيه « ڤينوس وآدونيس » و « لوكريس » ؛ وهذا رجل آخر يرحل عن ستراتفورد تاجراً ، وما زال يكبر شأناً ويكثر مالا حتى أصبح « عمدة » على لندن — كانت

مدينة ستراتفورد هذه مهبط الشاعر العظيم وليم شيكسبير ، فى كنيستها القوطية عُمِّد ، وفى ريفها الجميل نشأ وتربى وعرف ما الرعىُ والرعاةُ وما الأرض وزارعوها وكيف يكون صيد الحيوان ، وفى حديقتها الفسيحة كان يقضى أماسيه إن صافَ الجو وعَذبَ الهواء ؛ وسبيلنا الآن أن نقصّ عليك قصة حياته

وإنما تستمد قصة حياته من أصول أربعة ؛ أولها الوثائق الرسمية التى تثبت لنا طائفة من الحقائق والتواريخ ، فتنبئنا متى عُمِّد فى الكنيسة ومَنْ إخوته وأخواته ، ومتى لفظ النفس الأخير وأين رقد جثمانه ؛ وتذكره لنا فى وثائق القضاء مُدَّعياً مرة ومُدَّعىً عليه مرة أخرى وشاهداً مرة ثالثة ؛ وما إلى ذلك من شذرات متناثرة ؛ وثانى المصادر ما يرويه الرواة ؛ والرواية تختلف قيمتها باختلاف راويها ، وكثيراً ما نقف حيالها فى حيرة لا نستطيع لها نفياً ولا إثباتاً ؛ وقد بدأ يروى عنه الرواة بعد موته بما يقرب من قرن كامل ، ومن هنا كانت روايتهم فى كثير من الأحيان لا تستند على أساسٍ قوى متين ؛ ولم يُرْوَ عنه فى حياته إلا خبر واحد ، لعله أقرب إلى المزاح منه إلى الجد ،

نسوقه كما قيل لطرافته ، فقد يصور لنا جانباً من الشاعر :

« حدث ذات يوم ، حين كان « بير بِدْج » يمثل « رتشرد الثالث » ، أن كان بين الحضور امرأة شغفت به حباً ، فضربت له موعداً قبل أن يفرغ من تمثيله أن يزورها ذاك المساء باسم رتشرد الثالث ؛ وأنصت شيكسبير إلى ما اتفقا عليه ، فسبقه إلى الزيارة وأُحْسِنَ استقباله ، وأمسك بالقنيصة قبل أن يجيء «بير بِدْج» ؛ ثم جاءت رسالة أن رتشرد الثالث ينتظر الدخول ؛ فأمر شيكسبير الرسول أن قل لرتشرد الثالث إن وليم الفاتح كان أسبق »

وما دمنا بصدد ماروى عن شيكسبير ، فحرىٌّ بنا أن نذكر أشهر الرواة ، فمنهم « چون أوْبرى » الذى اشتهر فى أواخر القرن السابع عشر بجمع ما يدور على أفواه الناس من أنباء ، فسجل فيما سجل أخباراً عن شيكسبير ؛ ومنهم « بِتَرْتُنْ » وهو ممثل معروف فى أواخر القرن السابع عشر كذلك ، قصد إلى ستراتفورد فجمع من أهلها ما يعلمونه عن الشاعر ، ثم أعطى ما جمعه لـ « رو » فصاغه تاريخاً لحياة شيكسبير ؛ وجاء بعد ذلك أعلام من الأدباء ، مثل « پوپ » و « الدكتور « جُنسُنْ » فتلقفوا ما وقع لهم من أنباء الشاعر وسجلوه

وثالث المصادر أدب معاصريه ، وأما رابعها فما خلفه لنا شيكسبير نفسه من روايات ومقطوعات شعرية ؛ فأما رواياته فنستشف منها بعض جوانبه ، وهنا يجب أن يكون المؤرخ على حذر ، إذ ليس من اليسير على المتعقب وهو يستعرض في رواياته ذلك الحشد العظيم من أشخاصها ، أن يعلم في يقين أين من الحقائق المذكورة ما أفرغ فيه الكاتب خلجات نفسه وأين منها ما خلقه خلقاً لتتسق له صورة الشخص الذى يصوره ؟ وأما مقطوعاته الشعرية فهى قطعة من نفسه تشف عما يطويه بين ضلوعه من مشاعر وتنم عن جوانب حياته الخاصة

فماذا تحدثنا تلك المصادر الأربعة عن وليم شيكسبير ؟

أبوه « چون شيكسبير » ، لم يكن من أبناء ستراتفورد ، إنما هبط إليها سليلا لأسرة كانت من مُلاّك الأرض يوم كانت الأرض عَصَبَ الحياة ؛ فكانت لجد الشاعر « رتشرد شيكسبير » مزرعة فى « إسْنِتَر فيلد » التى تقع على المرتفعات الناهضة إلى شمالى ستراتفورد ؛ جاء أبو الشاعر إلى هذا البلد وهو ما يزال فى شرخ الشباب ، فبدأ حياته العملية بصناعة القفازات وغيرها من المصنوعات الجلدية الدقيقة ؛ وهنا يزعم الرواة أن كان للرجل

صناعاتٌ أُخَر ، فكان إلى جانب صناعة الجلد يتاجر فى الصوف وكان بالإضافة إلى هذا وذاك قصّاباً ؛ فأما تجارة الصوف فنبأ رواه عنه مؤرخ بعد موته بما يربى على قرن كامل ، والأرجح أنه إذ علم بأن تلك التجارة كانت نافقة فى الأقاليم الوسطى من انجلترا ، وكان يشتغل بها كثيرون من أهل الريف ، عمم الحكم حتى شمل به « چون شيكسپير » عن تغليب لا يستند إلى يقين ؛ وأما أنه كان قصّاباً فخبر نميل إلى رفضه ، إذ لا نستطيع فى غير عسر وتكلف أن نجمع ذبح الجزور وصناعة القفازات فى رجل واحد لكن الذين يؤرخون للعظماء يفتنهم دائماً أن يَرْقَوا بعظيمهم من الحضيض الأسفل إلى الأوج الأعلى ، فقصة العظيم تكون بغير شك جذابة رائعة تثير فى قارئيها الإعجاب ، لو بدأ العظيم قصاباً ابن قصاب ، ثم مهر وبرع واشتجر مع ولى أمره ولاذ بالفرار وهنالك فى مهربه تسنم ذروة المجد ؛ وذلك ما صنعه مؤرخو الشاعر ، كما سنروى لك بعد حين

ولم يلبث « چون شيكسپير » طويلاً حتى اختار شريكة حياته « مارى آردن » وهى ابنة تاجر غنى كان يقيم فى بلد قريب من ستراتفورد ؛ وهو سليل أسرة من أمجد الأسر فى انجلترا

وأعرقها أصولاً : فورث الأرض والحدائق ، ولم يكن له ابن يؤول إليه ماله ، إنما كانت له بنات كثيرات ، صغراهن هذه الفتاة التي كتب لها أن تنجب أعظم شعراء العالمين ؛ وكانت أحبَّ البنات إلى أبيها فأوصى لها أبوها بما يملك من فسيح الضياع ، ولولا أن هذا الإرث قد ضاع رهينةً لدَيْن لانتهى أمره إلى شاعرنا وليم شيكسپير

استهل « چون شيكسپير » حياته العملية فى يُسْر وتوفيق ، فصناعته مربحة وأرض زوجته تدر مالاً غير قليل ؛ وسرعان ما أصبح عَلَماً بين أبناء ستراتفورد فَنُصِّبَ أميناً يدبر الشئون المالية فى الإقليم ، وألبسوه كساء السادة الممتازين ، ثم أقاموه عمدة على بلدهم سنة ١٥٦٨ ؛ ومن بين عقار كان يملكه بيت لا يزال قائماً فى شارع هنلى ، فيه ولد الشاعر ، وإليه يحج الزائرون ألوفاً كل عام

ففى تلك الدار ولد « وليم شيكسپير » فى الثالث والعشرين من ابريل عام ١٥٦٤ ؛ وإنما نحدد هذا التاريخ استنتاجاً من هذا السطر الذى نراه مثبتاً فى سجل التعميد فى كنيسة « الثالوث المقدس » فى ستراتفورد ، وهو « ١٥٦٤ ، ٢٦ أبريل ، وليم بن

يوحنا شيكسبير » — ولما كان العرف أن يقع التعميد بعد الميلاد بأيام قلائل ، كان الأرجح أن يكون تحديد مولده بالثالث والعشرين صواباً

جاء « وليم » ثالث أبناء أبيه ، إذ سبقته إلى الوجود أختان ؛ فأما السنوات السبع التى استهل بها الوليد حياته، فقد انقضت — كما يقضى سائر الأطفال سنيهم الأولى — فى الاستماع إلى ما يحكى حول المدافىء من قصص الجن والسحرة وأشباح الموتى التى زعموا أنها تسرى هائمة فى أرجاء المكان إذا ما أقبل الليل؛ وما أدراك ما ليل الشتاء فى عهد شيكسبير ، إذ لم تكن ليالى الشتاء تضاء بالمصابيح فكان لليل رعب مخيف فى نفوس الناس لشدة ظلامه وزمهرير برده ، فيجتمعون حول المدافىء يصطلونها ويسمرون بأمثال تلك القصص عن الجن وأشباح الموتى ، التى تلعب بخيال الأطفال لعباً قوياً ؛ فلا عجب أن رأينا شاعرنا ، إذ حمل القلم فى رجولته ليكتب لم يزل من الليل فازعاً ، فلا يكاد يذكره إلا وهو مرتعد الفرائص ؛ فهو عنده فترة تمكن للمغتال أن يفتك بعدوه ، وللساحرة أن تزيد من قوة سحرها ، وللأحلام المزعجة أن تفزع النوم الهادىء المستكن وراء الستائر ؛ وأصوات الليل مخيفة تبعث على التشاؤم ،

وظلامه يرمز للموت بسواده الدامس ؛ وترى الشاعر فى مقطوعاته الشعرية ينعت الليـل كلما ورد على سنان قلمه « بالبشاعة » و « اللوث » و « شحوب الموتى » . ومن أروع ما قاله فى الليل عبارة أجراها على لسان « بَكْ » فى ختام « حلم ليـلة فى منتصف الصيف » :

ها قد زأر الهزبر الجائع
وعوى الذئب فى وجه القمر
وغطّ الحراث المنهوك غطيطاً
وقد أذهب العمل المضنى قواه
ها هى ذى جذوات النار الخابية ما تزال تتوهج
ها قد نعق البوم نعيقاً عالياً
فذكّر المنكود الذى أوى إلى مخدعه حزيناً
ذكّره بأكفان الموتى
ها قد آن أوان الليل
ففغرت القبور أفواهها
وأطلقت القبور أشباحها
تهيم فى الطرق المؤدية إلى الكنيسة

فليس من شك فى أن الشاعر هنا يعبر عن مخاوفه فى طفولته ، لا سيما إن ذكرنا أن قائل هذه الأسطر هو جِنّى كان المعقول أن يرحب بالليل ولا يخشاه ، لكنها زلة من الشاعر أخرجت دخيلة نفسه

قضى « وليم » أعوامه السبعة يستمع إلى مثل ما يستمع إليه الأطفال من قصص الجن والأشباح ، حتى لقد أكثر فى رواياته من ذكر الأشباح والجن فى صور مختلفة ؛ فإذا ما بلغ عامه السابع ، أرسله أبوه إلى المدرسة فى ستراتفورد حيث تعلم اللاتينية وطالع أجزاء من الأدب اللاتينى كان لها أبلغ الأثر فى تكوينه الأدبى ؛ ولبث « وليم » فى مدرسته ما يقرب من ثمانية أعوام أدار المدرسة خلالها خمسة رجال ، لا نحسب أن الشاعر قد أضمر لهم شيئاً من الإعجاب أو اعترف لهم بالجميل ؛ إذ لا نراه يعرض فى رواياته لمعلم إلا صوّره على هيئة تدعو إلى السخرية وتبعث على الزراية والتحقير ؛ وحسبنا أن نذكر من ذلك صورة حية ناصعة وردت فى « الزوجات المرحات » تصور معلماً يمتحن « وليم » الصغير فيما وعاه من كتاب النحو اللاتينى الذى كان شائعاً بين أبناء المدارس الانجليزية فى ذلك الحين

وأتمّ الفتى عامه الرابع عشر وهو ما يزال يطلب العلم فى المدرسة الثانوية ، لـكن الأيام قلبت لأبيه ظهر المجن وأفقرته بعد يسار ، فترك الطالب الشاب مدرسته لينغمس فى الحيـاة العملية ، فماذا أفاد من علم ، وكيف سارت به الحياة بعدئذ ؟

وإذا ما بحثنا فيما حصّله شيكسپير من علم من بطون الـكتب واجهنا مشكلة عسيرة ، إذ جرى أكثر من أرخ للشاعر على أنه لم يفد من الـكتب قليلا ولا كثيراً ، وقد زعموا ذلك لسبب لاندريه ، أو لعلنا ندرى ، فقد ذكرنا لك فيما سلف أن طبيعة من يؤرخ للعظيم تميل به إلى تصوير بطله وقد صعد إلى أعلى عليين من درك أسفل ، وعلم علماً واسعاً بعد جهل مطبق ؛ لكن روايات شيكسپير شهود عدول على اطلاعه الواسع بأدب الأقدمين .

فهنالك عشرات من الأدلة على أنه قرأ « أوڤد » — الشاعر الرومانى — وتأثر به ؛ ففى « ترويض المتمردة » أسطر بأكملها مأخوذة عن أوڤد ، وفى « تاجر البندقية » يقول « لورنزو » : « فى ليلة كهذه ، جمعت ميديا أعشابها المسحورة ، وأعادت إلى چيسنْ العجوز نضارته » وقصة ميديا وإعادتها الشباب لزوجها

چيسنْ أسطورة وردت فى كتاب أوفد « التغيرات » ؛ ويظهر أن الشاعر حين كتب « حلم ليلة فى منتصف الصيف » كان قد فرغ لتوه من قراءة « التغيرات » إذ ترى آثاره منثورة فى كل أجزاء الرواية : تراها فى اختيار الأسماء ، وفى الإشارة إلى ما جاء فى « التغيرات » من أساطير ، ثم استمع إلى هرميا فى هذه الرواية تقسم لحبيبها قائلة : « أقسمت بأقوى قوس يحملها كيوپد ، أقسمت بخير ما يحمل من سهام ذهبية السنان » . واقرأ بعد ذلك هذين السطرين لأوفد ، يذكرهما بعد أن يقول إن لدى كيوپد نوعين من السهام : « أما أحدهما فينفث الحب ، وهو مصنوع من الذهب ، وهو لامع طرفه حاد ، وأما الذى يَصُدّ الحب فمثلوم وفى جوف قصبته رصاص » فلا تشك أن هذا التقسيم لأنواع القسىّ التى يحملها كيوپد ، كان ماثلا لشيكسبير حين كان يكتب الرواية ؛ وفى « قصة الشتاء » شخصية مأخوذة من أوفد ، وأريد بها « أوتولِكَسْ » (النشّال) البارع الذى مهر فى السرقة إلى حد بعيد ، وفى الرواية عينها يقيم الرعاة احتفالا يزينونه بأنواع الزهر ، وتنظر « پيرديتا » الراعية إلى هذه الزهور ، فتتذكر أسطورة « پروزَرْپين » التى كانت تحمل

الزهر فى طرف ردائها فباغتها إله جهنم فى عربته واختطفها فانتثر الزهر ؛ والأسطورة مذكورة فى « التغيرات » لأوفد ؛ وكذلك فى رواية « جهد الحب ضائع » ورواية هاملت ترى إشارات لأوفد — فأى دليل بعد هذا على أن شاعرنا كان قد قرأ الشاعر الرومانى قراءة فاحصة دقيقة ؟

ننتقل الآن إلى كاتب رومانى آخر ، هو « پلوتس » كاتب الملهاة فى الأدب اللاتينى ، لننظر إلى أى حد تأثر شاعرنا به ؛ فروايته « ملهاة الأخطاء » ليست سوى تحوير لإحدى روايات الكاتب الرومانى ؛ و « ترويض المتمردة » متأثرة برواية أخرى لسلفه الرومانى فى بنائها واختيار أسماء أشخاصها ؛ ثم استمد شاعرنا من « پلوتس » طريقة فى الفكاهة استخدمها فى بعض رواياته ، وهى أن يبادل النكات بين سيد وخادمه ؛ وفوق هذا كله تعقب أثره فى جانب له أهميته ، لأنه يحل مشكلة تعترض المؤرخين لشيكسپير ، وتميل بهم إلى نفى العلم الصحيح عن الشاعر العظيم ؛ وذلك أن شيكسپير كثيراً ما يفترض فى إحدى المدن الداخلية أنها ميناء ، وأن القادمين منها إنما ركبوا ظهر البحر فى السفن ؛ وتعليل ذلك أن شاعرنا تأثر بطرائق الفن المسرحى

فى الملهاة اللاتينية ؛ فقد كان « پلوتس » يفرض وجود ميناء خلف ستائر المسرح ؛ فإن ظهر على المسرح أحد قادماً من الميناء ، فذلك رمز إلى قدوم المسافر من خارج البلاد ، وكان يُخَصَّصُ لهؤلاء باب معين ، أما إن جاء إلى المسرح أحد من الباب المقابل فذلك معناه أن القادم آت من جهة معينة فى المدينة نفسها ؛ وقد استخدم شيكسبير هذه الطريقة تقليداً لسلفه ، لا عن جهل بما يقع من البلدان على ساحل البحر وما لا يقع ؛ أفبعد هذا ننكر أن شاعرنا كان على علم دقيق بالمسرح اللاتينى وأوضاعه ، وأنه قرأ « پلوتس » فى دقة وإمعان ؟

وننتقل إلى كاتب رومانى ثالث ، هو « چوڤنال » ؛ فيدخل «هاملت» المسرح وفى يده كتاب يقرؤه ؛ ويسأله «پولونْيَسْ» : « ماذا تقرأ يا مولاى ؟ » فيجيبه بعبارة بنصها من چوڤنال ؛ ويستعير هاملت فى موضع آخر جزءا من الشاعر الرومانى نفسه ، وذلك حين يخاطب «أوفيليا» بزراية يوجهها للنساء وما يتصفن به من غرور وتكلف ؛ فهل نسرف إن زعمنا أن شاعرنا قد درس چوڤنال ؟

من هذا وأمثاله ترانا أميل إلى الترجيح بأن شيكسبير غادر مدرسته الثانوية على إلمام دقيق واسع باللغة اللاتينية وأعلام أدبها ؛ لا ، بل سنذهب إلى أبعد من هذا فنزعم أنه فى أغلب الظن قد عرف مبادىء الفرنسية والإيطالية المعاصرتين ؛ وأن الطبقة المثقفة كلها كانت تلم بهاتين اللغتين إلماماً يسيراً ؛ ودليل ذلك عبارات منثورة هنا وهناك بهذه اللغة أو بتلك ، وأقرب إلى المعقول أن يكون الكاتب فاهما لما يكتب وأن يكون السامعون على علم بمعنى ما يسمعون ؛ وقد يحتج المنكرون بقولهم : وأنى له هذه اللغات وهو لم يدخل جامعة ؛ والجواب على ذلك هو أن عدم دخوله الجامعة أمر مشكوك فيه ، فإن قطعنا بأنه لم يدرس دراسة جامعية ، لم يكن لنا أن ننفى عنه العلم بلغات يكفى للعلم بها أن يتصل بالجاليات الأجنبية فى لندن ، وقد حدث ذلك الاتصال — وخلاصة ما نريد أن نؤكده هى أن ننفى عن الشاعر تهمة الجهل التى لحقت به عند طائفة كبيرة من مؤرخيه.

غادر « وليم شيكسبير » مدرسته الثانوية فى ستراتفورد وله من العمر أربعة عشر عاماً ، فكيف سارت به الحوادث بعد ذلك ؟

هنا تكتنف حياة الشاعر سحابة دكناء لا نستطيع أن نتبين

خلالها شيئاً ؛ فلسنا ندرى على وجه الدقة ما صناعته وماذا صادف من تجارب فى صدر الشباب ؛ ولكننا نرسل الخيال إرسالا لنراه بين أترابه فى تلك السن مرحا لعوبا يضطرب فى حياة الريف فيشاهد أنواع الزهر والطير والحيوان ، وتنتهى به المشاهدة إلى علم فيه كثير من الدقة أحياناً ؛ فلا تكاد تخلو رواية من رواياته من ذكر الجياد وكلاب الصيد والغزلان والصقور ؛ فاقرأ مثلا مايقوله فى وصف جواد مريض فى « ترويض المتمردة » تعلم كم بلغ فى علمه من الدقة التى لا تتوفر إلا لبيطرى ماهر ؛ واقرأ ما يقوله فى كلاب الصيد هنا وهناك لترى بأى عين كان يشاهد الدقائق ويسجلها فى ذهنه الجبار ؛ وراجع رواية « كما تريدها » وانظر إلى هذه الصورة الرائعة لغزال جرحه الصائدون فأخذ يبدى من أمارات الألم ما يبدى ؛ ثم اقرأ فى قصيدته « ڤينوس وآدونس » صورة أخرى لأرنب مسكين جمدت فيه الحركة وتولاه الفزع حين رنتْ فى أذنيه صيحات الكلاب المتعقبة آتية من بعيد ؛ ومع ذلك كله فقد لاحظ النقاد أن علمه بالحيوان لم يجاوز ما يمس حياة الإنسان ، فهو لا يعلم منها إلا ما يهتم له الصائد أو الفارس ، أما إن جاوز هذا النطاق فالأرجح أن يلقف

حقائقه من أفواه العامة فيزلّ فى كثير من الخطأ ؛ ففى « هنرى الخامس » قطعة مشهورة عن النحل بارعة الجمال فى شعرها ، لكنها مليئة بالأغلاط عن حياة النحل ؛ وقد تجد من مؤرخيه — مثل برانديز — مَنْ يدافع عن دقة علمه بالحيوان كأنما هو عالم من علماء التاريخ الطبيعى ، حرصاً منهم على أن يكون الشاعر عظيما فى كل شىء ؛ لكن ميزان النقد السليم يَقْدُرُ عظمة العظيم بكل هفواتها ، فلئن فات شاعرنا أن ينقل عن الطبيعة نقلا صحيحاً فيما يختص بالحيوان ، فلأنّ فى تصوير الإنسان يتركز نبوغه ؛ وإن أخطأت عينه بعض دقائق القطة والبلبل والنحلة ، فهى لم تخطىء دقيقة واحدة من عادات الرجال والنساء على اختلاف طبقاتهم وصناعتهم

كانت إذن تلك السنوات التى أعقبت خروجه من المدرسة فترة تقلب خلالها فى أحضان الطبيعة مع أترابه من الشباب ، يَعُبُّ من خضمها عبًّا ، حتى امتلأت بها نفسه ، فإذا ما آن أوان الكتابة أخذ ينثر علمه الواسع بأجزائها هنا وهناك ؛ ولكل فنان فى حياته أعوام ذهبية تكون الروح فيها مرنة طيعة ، كأنما يصلها بالطبيعة التى حولها سيّال من الكهرباء ، فلا تفتأ تَرِدُ

إلى نفسه مؤثرات من الخارج ولا يفتأ هو يجيب تلك المؤثرات بطريقة الفنان ، حتى إذا ما نضجت ثمرة الفن فى نفسه تفرغ إلى التعبير والإجادة ، بعد أن امتلأ منه الوعاء ؛ وقد كانت تلك السنوات الأولى من شباب شاعرنا عهده الذهبى فى الكشف عن أسرار الطبيعة والحياة ؛ ونقول : وهل يكفى بلد صغير وما حوله من مراع وحقول ليملأ نفساً رحيبة الجنبات متعددة الجوانب كنفس شيكسبير ؟ وجواب ذلك عند شاعر رومانى قديم ، هو « چوڤنال » الذى يقول : « حَسْب الذى يريد دراسة الطبيعة البشرية أن يخالط أسرة واحدة » ؛ وحَسْب شيكسبير أن يعيش فى بلد صغير كستراتفورد لينفذ خلالها إلى حقائق الأشياء وطبائع الأحياء ؛ ولا بد أن يكون شاعرنا قد أنفق تلك السنين فى لهو يعرفه الشباب ويذكره الشيوخ بالندم ؛ ولعله أراد نفسه حين أجرى على لسان الراعى « فى قصة الشتاء » قوله : « وددت ألا يكون عمرٌ بين العاشرة والثالثة والعشرين ، أو أن يغفو الشباب طوال تلك السنين ، فليس بين هذين العمرين إلا الفجور بالنساء والاساءة إلى السلف والنهب والقتال »

تلك كانت حياته بين أترابه حين غادر المدرسة ، فماذا كانت

صناعته التي يرتزق منها وقد أصاب أباه إفلاس أرغمه على إخراجه من دراسته ؟ هنا تضطرب الرواية ، فيقول « أو بْرى » — وهو أحد المصادر التي يرجع إليهـــا فى العلم بشيكسپير — روايتين مختلفتين ، فينبئنا مرة أنه اشتغل بالتدريس بمدرسة ريفية ؛ ويزعم لنا مرة أخرى أنه مارس صناعة أبيه فى القصابة ؛ وقد نفينا عن أبيه هذه المهنة الثانية فسقطت عنه ، وأما التدريس فلا نملك دليلا يؤيده أو ينفيه

وتتقشع السحابة التي اكتنفت حياته فى صدر شبابه قليلا ، فنعلم أنه فى شهر نوفمبر من عام ١٥٨٢ تزوج من « آن هاثاواى » وهى ابنة مزارع غنى كان يقيم على مقربة من المدينة ، وكان بين أبويهما صداقة قديمة ؛ وكانت الفتاة تكبره بثمانية أعوام تقريباً إذ كانت سنه عند الزواج ثمانية عشر عاما ونصف عام ، وكانت «آن» قد أكملت عامها السادس والعشرين ، هذا إن صدق المنقوش على قبرها ، وصدقه موضع شك عند الباحثين ؛ وما انقضى على هذا الزواج خمسة أشهر حتى ولدت لهما « سوزانا » فى السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٥٨٣ ؛ ويعلل بعض المؤرخين هذه الولادة التي جاءت بعد خمسة أشهر من الزواج ، بأن

الزواج فى القرن السادس عشر كان يتم على مرحلتين ، زواج قانونى وزواج شرعى ؛ وقد تفصل الزواجين فترة طويلة ؛ ولم يكن من الضرورى للزواج القانونى أن يتم بحضور القسيس، وإنما يكفى فيه الشهود بأن الفتى والفتاة راضيان عن الزواج ؛ وبعد ذلك يحتفل فى الكنيسة بالزواج الشرعى ويسجل فى ميثاق رسمى ، لكن كان للزوجين أن يجتمعا على زواج قبل هذا الحفل الشرعى ولم يكن فى سلوكهما مأخذ فى عرف ذلك العصر ؛ بل كثيراً ما كان يكتفى بالزواج القانونى ولا يقام فى الكنيسة اجتماع ولا حفل ؛ وربما تم زواج الشاعر على هذا النحو ، وربما عقد اتفاقا قانونياً ثم عقب عليه بزواج شرعى جاءت سوزانا بعده بخمسة أشهر — ومر عامان بعد ذلك ورزق الشاعر توأمين هما ولد أسماه « هامنت » وبنت أطلق عليها « چودِثْ »

وتعود سحابة جديدة فتكتنف حياته من جديد وتدوم سبع سنوات ، فلا ندرى عن حياته إلا نتفا وشذرات يؤيدها الدليل آنا ويعوزها آنا آخر ، بحيث لا نعود إلى رؤيته فى وضوح إلا عام ١٥٩٢ وهو فى لندن.

فى تلك السنوات السبع — بين عامه الحادى والعشرين وعامه

الثامن والعشرين— حدثت أحداث نقلته من بلده الريفى إلى لندن ، والتحق بعالم المسرح على نحو غامض ، وبدأ فى التمثيل ضئيل القدر قليل المنزلة ، ثم أخذ نجمه يسطع فيه و يسطع حتى رأيناه فى ١٥٩٢ علما بارزاً ؛ فكيف تم ذلك كله ؟

كان لا يزال وهو فى الحادية والعشرين متصلا بصحبة الشباب المستهتر الماجن وشاعت لهم ميعة شبابهم ذات ليلة — فيما يزعم الرواة — أن يتسوروا حديقة يملكها عظيم المنطقة « السير تومس لوسى » على مقربة من ستراتفورد ، ليسرقوا من غزلانه عدداً ؛ فكان وليم شيكسپير بين من أمسك بهم الحراس، ووضع فى محبس الاتهام حيناً ، وهنا أزهرت الباكورة الأولى من شعره ، فأنشأ حكاية منظومة يهجو بها السير لوسى انتقاما لما أصابه ؛ وقد ضاعت هذه الباكورة الأولى التى أثارت الغضب فى نفس المهجو فشدد عليه النكير ، حتى لم يجد شاعرنا بدًّا من الفرار إلى لندن

وصل الفتى هذه المدينة الكبرى فمال به الطبع والطبيعة نحو مسارح التمثيل لعله يجد عندها مرتزقاً ؛ ولنترك القول لأحد مؤرخيه الأولين — الدكتور جنسن :

« كانت العربات قليلة فى عصر اليصابات ، ولم يكن منها ما يستأجر ؛ فكان أولئك الذين يشمخون بأنوفهم ، أو تبلغ بهم رقة الجسد والكسل حداً يعجزون معه عن السير على أقدامهم، يمتطون ظهور الجياد إلى المكان البعيد يقصدونه للعمل أو التنزه ومن هؤلاء كثيرون كانوا يذهبون إلى مسرح التمثيل على جيادهم؛ فلما فر شيكسپير إلى لندن فازعاً من تهمة السرقة ، كانت أولى وسائله فى كسب عيشه أن يقف عند باب المسرح ليمسك بجياد من لم يكن لهم خدم لذلك ، ليعدوا الجياد إلى سادتهم عند نهاية التمثيل ؛ فتمكن شيكسپير بعنايته وحسن استعداده أن يبرز فى هذا العمل ، وما هو إلا أن صار كل مترجل عن جواده يصيح : وليم شيكسپير ! ، حتى أوشك ألا يعهد بجواد إلى سواه مادام حاضراً ؛ وكأنما كان ذلك أول بارقة للحظ السعيد ؛ فلما تكاثرت الجياد على شيكسپير ، استأجر صِبْيَةً يعاونونه ، فإذا ما نادى صاحب الجواد : شيكسپير ! ، سارع الصبى من هؤلاء قائلا : « أنا معاونه يا مولاى » ؛ وانتقل شيكسپير بعدئذ إلى مهنة أرفع شأناً ؛ لكن ظل خدم الجياد يحتفظون بهذه الكنية « معاون شيكسپير » ما بقى السادة يقصدون إلى المسرح بجيادهم »

لكن هذه الرواية لم تسلم من النقد، فقال كاتب من المحدثين : إنه فى نفس الوقت الذى كان يمسك فيه شيكسپير بالجياد خادماً ليكسب القوت — فى زعم أصحاب هذه الرواية — كان أبواه فى ستراتفورد قد تجمع لديهما شىء من المال، فحاولا أن يستعيدا أرضهما المرهونة : فهل كان يفكر الوالدان فى إنقاذ الأرض قبل إنقاذ الولد ؟ ثم ماذا كان من أمر زوجة الشاعر وأولاده الذين خلفهم وراءه فى ستراتفورد ؟ هل يرى أصحاب هذه الرواية أنهم كانوا يعيشون على إحسان المحسنين ، أم در إمساك الجياد على أبيهم مالا طائلا يزيد على حاجته ؟ وإن كانت هذه الرواية صحيحة فلماذا لا نجد فى أدب معاصريه إشارات قوية يعيرونه بها وكان منهم الأعداء الألداء وعلى رأس هؤلاء «روبرت جرين» الذى أخذ نجمه فى عالم المسرح يأفل بينما أخذ طالع شيكسپير فى سعود ، حتى لقد كتب «جرين» فى تجريحه لشيكسپير عبارة مشهورة سنوردها بعد قليل ، فكان حرياً أن يعيره بماض وضيع أنفقه عدوه فى ذبح الجزور وسرقة الغزلان وسياسة الجياد !

وسواء صحّتْ الرواية أو كذبت ، فقد وجد شاعرنا سبيله إلى جوف المسرح بعد فترة وجيزة ، وكان أول عمله به أن يعاون

الملقن ، فيعلن الممثلين أن يستعدوا للظهور على المسرح كلما اقترب دور أحدهم ؛ ثم ما لبث بعد ذلك حتى علا شأنه ممثلا وكاتبا .

ها نحن أولاء قد بلغنا مع الشاعر عام ١٥٩٢ ، وهو فى عامه الثامن والعشرين يستهل رجولة خصيبة منتجة ، فقد اشتدت الآصرة بينه و بين المسرح فأضحى بين رجاله نجما ساطعا ، حتى دبت فى نفوس منافسيه غيرة يضطرم أوارها بين الجوانح ، فدفعت بروبرت جرين — وكان من أعلام المسرح البارزين — أن يبعث هذه النفثة الحامية وهو على فراش الموت ، يحذر بها زملاءه الثلاثة كتّاب المسرحية — « مارلو » و « ناش » و « پيل » — يحذرهم من هذا الخطر الداهم الذى يوشك أن يكتسحهم جميعاً ، وينصحهم أن يتخلوا عن الكتابة للمسرح لأن طائفة من الممثلين تستغل ما ينتجونه من مسرحيات فى تكوين مجدها ، وهو إنما يهدف بسهمه نحو شاعرنا وليم شيكسبير بنوع خاص . قال « جرين » :

« توافه العقول ثلاثتكم إذا أنتم لم تتعظوا بشقوتى ؛ إن تلك الدبية لم ترِدْ أن تفتك بأحد منكم كما أرادت أن تفتك بى ، وإنما أعنى تلك الدمى التى تتحدث بأفواهنا ، وتلك الأمساخ

التى تزدان بألواننا الزاهية ..... لا تركنوا إلى هؤلاء الممثلين ، فإن بينهم غراباً ناشئاً يتحلى بريشنا ، ويظن أنه بمثل قوله « قلب نمر اكتسى بجلد ممثل »[١] قادرٌ على صياغة الشعر المرسل فى لفظ جزل كأحسن رجل بينكم .... »

وبينما كان شيكسپير فى مستهل حياته المسرحية ، يناضل فى معمعان اشتدت فيه المنافسة ، وينكر عليه شيوخ التأليف المسرحى قدرته على صياغة الشعر ، إذا به يكمّ أفواههم بآية خالدة من شعره ، أخرجها فى شهر ابريل من عام ١٥٩٣ ، وهى قصيدته « ڤينوس وآدونس » التى أهداها إلى نبيل من سراة القوم ، هو « إيرل سوثمبتن » طمعا فى رعايته ، فجاء فى الإهداء :

« لست أدرى على أى نحو أسىء باهداء هذه الأبيات ، التى لم يتناولها الصقل ، إلى سيادتكم ؛ ولست أدرى كيف ينحو العالم إلىّ باللائمة لاختيارى دعامة قوية كشخصكم ، لأدعم بها

(١) السطر مأخوذ من رواية هنرى السادس ، وهذا دليل على أن جرين يقصد بطعنه شيكسپير ، وهناك دليل آخر ورد فى بقية الخطاب لم نترجها ، وذلك أن « جرين » يشير إلى ذلك الممثل الناشىء الذى يعده خطراً عليهم بكلمة "Shakescene" وهو يريد بها أن الرجل سيرج أوضاع المسرح ، وفى الوقت نفسه يشير بها إلى اسمه « شيكسپير » اشارة واضحة .

عبئاً واهناً كعبئى ؛ أما إن صادف هذا منكم أدنى القبول ، فسأعدُّ أنى قد طاب ثنائى ، وآخذ على نفسى أن أستغل فراغى لا أدع منه لحظة ، حتى أكرِّمك بانتاج أقوم ، وأما إن تبين أن باكورة قريحتى شائهة الخَلْق ، فسيؤسفنى أن تبنَّاها رجل فى نبلكم ، ولن أعود بعد اليوم أحصد أرضا يبابا ، خشيةَ أن تعاودنى بمثل هذا الحصاد السىء . . . » .

ولم تكد تظهر القصيدة فى الناس حتى أقبلوا عليها إقبالا شديداً ، فطبعت تسع مرات فى أعوام قلائل ، ولم تدع مجالا لمرتاب فى شاعرية هذا العبقرى النابغ .

وكان عام ١٥٩٣ الذى ظهرت فيه هذه القصيدة مقفراً فى التمثيل ، إذ تفشى فيه الطاعون ، فأغلقت المسارح أبوابها ، وتبعثر رجالها أشتاتا فى أنحاء الريف ؛ ولما كان العام الذى يليه، أخرج شيكسبير دُرَّته الثانية ، وهى قصيدة « اغتصاب لوكريس» وأهداها — كسالفتها — إلى « إيرل سوثمبتن » فأغدق عليه النبيل مالاً طائلاً ، ضمن للشاعر يُسْراً أخذ يطّرد ويزداد ؛ وزالت غاشية الطاعون وعاد المسرح إلى نشاطه ، وكان شاعرنا عندئذ قد قطع من حياته فى التأليف المسرحى مرحلة من مراحل

أربع ؛ فأما إنتاجه المسرحى فى هذه المرحلة الأولى التى تنتهى عام ١٥٩٦ فطابعه الذى يميزه هو أن الشاعر لم يكد يصنع فى رواياته أكثر من تنقيح الموجود مما أنتجه سواه ؛ ومن روايات هذه المرحلة « تَيْتَس أَنْدرونكَس » و « هنرى السادس » بأجزائها الثلاثة ، و « ملهاة الأخطاء » و « جهد الحب ضائع » و « حلم ليلة فى منتصف الصيف » و « رتشرد الثالث » و « سيدان من فيرونا » — ولما كانت هذه الروايات من إنتاج الشباب ، كانت فياضة بالعاطفة رنّانة العبارة ؛ ثم أعقبتها فى المرحلة عينها روايات « روميو وجوليت » و « رتشرد الثانى » و « الملك حنا » وكلها يدل على ما أوتيه الشاعر فى مستهل حياته الأدبية من قدرة على التعبير ، حتى تراه فيها كثيراً ما يصوغ الفكرة الواحدة فى عبارات كثيرة مختلفة ، ويستخدم كل ألوان البيان والبديع ليزيد عبارته قوة على قوة .

وأقبل عام ١٥٩٦ فبدأ الشاعر مرحلة ثانية فى حياته الأدبية امتدت إلى سنة ١٦٠٢ ؛ ففى مستهل هذه المرحلة أخرج « تاجر البندقية » فأقام بها البرهان ساطعا على أنه قد برع فى الفن المسرحى براعة العبقرى الموهوب ؛ وفى هذا العام نفسه (١٥٩٦)

نزلت به طامة كبرى سيكون لها أبلغ الأثر فى إنتاجه فى المرحلة الثالثة من حياته الأدبية ، وأعنى بها موت وحيده من الأبناء الذكور « هامنت » وهو يافع فى العاشرة من عمره ؛ وكذلك يسجل له التاريخ فى تلك السنة أنه ابتاع لأبيه رَنْكاً ؛ وكانت الرنوك لا تبيعها الحكومة إلا لسراة القوم وعليتهم ، فما له لا يسلك أسرته فى زمرة السادة وقد أثرى وتكاثرت أمواله ؟ . . . وجاء العام التالى (١٥٩٧) فأخرج « هنرى الرابع » بجزئيها و « زوجات وِنْدزَرْ المرحات » ؛ ولا بد لنا أن نسجل فى هذا الموضع ما أبدته الملكة عندئذ من إعجاب شديد بشخصية « سير چون فولستاف » فى هذه الرواية ، حتى طلبت من الشاعر أن يصور لها هذه الشخصية التى طغت عليها الأثرة طغياناً جارفاً ، وقد وقع فى شرك الحب ، لتنظر ماذا عسى أن يصنع العاشق الأنانى ، والعشق يتطلب التضحية بطبيعته ؛ وفى (١٥٩٩) أخرج « هنرى الخامس » وفى العام نفسه أنشىء « مسرح جلوب » وكان شيكسبير شريكا فى ملكيته ، وبهذا أصبحت موارد دخله ثلاثة ، فهو يكسب المال لأنه الأديب الكاتب ، وهو يكسب المال لأنه ممثل ، وهو

يكسب المال لأنه مساهم فى المسرح ؛ ثم تتابعت رواياته جعجعة ولا طحن » و « الليلة الثانية عشرة » و « كما تريدها » و « ترويض المتمردة » و « خير ، كل ما ينتهى بخير » وكلها ملاه من الطراز الأول — ها هو ذا فى هذه المرحلة الثانية قد ضخم ثراؤه حتى بلغ ربحه فى العام خمسمائة جنيه ، وهى تعادل فى أيامنا ألوفاً ؛ وابتاع فى ستراتفورد — حيث زوجه وابنتاه — أفخم دار بها ، ولا تزال حتى اليوم باقية يحج إليها الزائرون ؛ واشترى لأبيه رنكا يسلك الأسرة كلها فى الطبقة الممتازة ؛ وظفر بإعجاب مليكة البلاد اليصابات ؛ وصادقه شيوخ الأدب وأعلامه مثل « بِنْ جونسُنْ » ، فهل سعد الرجل بهذا كله ؟ كلا . إنه شقى بائس يبث بؤسه وشقاءه فى مقطوعات شعرية بلغ عددها أربعاً وخمسين ومائة ستكون موضوع الحديث فى الفصل الثالث من هذا الكتاب ، وقد أنشدها كلها فى عشر سنوات

وأقبل الشاعر على مرحلة ثالثة تقع بين عامى ١٦٠٢ و ١٦٠٨ وهو مرير النفس ممزق الفؤاد ، فماذا تريد من شاعر مرهف الحس تضطرم باللوعة جوانحه ؟ لا بد أن يجرى القلم بمآس باكية ، فأخرج لنا « هاملت » و « يوليوس قيصر » و « كيل بكيل »

و « أنطون وكليو بطره » و « كوريولانَسْ » و « ترويلس وكرسدا » و « تيمُنْ الأثيني » كما أخرج أعظم مآسيه « عطيل » و « ما كبث » و « الملك لير » — في هذه المآسي كلها يبسط لك الشاعر ما عسى أن ينتج عن الجرائم والخطايا من عذاب أليم وشقاء مقيم ؛ ويبين لك في جلاء روح الانتقام التي يحملها كل إنسان بين جوانحه

وفي أواخر هذه الفترة تزوجت كبرى ابنتيه « سوزانا » من طبيب مشهور في ستراتفورد ، ونَجَلَتْ له « اليصابات » التي كانت الحفيدة الوحيدة لوليم شيكسپير ؛ وكما اختتم الشاعر مرحلته الثانية بموت أبيه ، فقد اختتم الشاعر مرحلته الثالثة بموت أمه

وأقبلت آخر مراحل حياته الأدبية التي امتدت من ١٦٠٨ إلى ١٦١٣ ، فأنتج فيها « بركليز » و « سِمْبلين » و « العاصفة » و « قصة الشتاء » و « هنري الثامن » — وفي هذه المرحلة الرابعة ينزاح عن صدر الشاعر ذلك الهم الذي جثم عليه فأخرج تلك المآسي المفجعة ، فتراه هاهنا يعقد صلات الود والحب بين الناس ، لكن شيكسپير في هذه المرحلة الأخيرة لم يَعُدْ إليه مرح الشباب ؛ ففي ملاهيه الأولى كان كأنما يقهقه بفؤاد خليّ ، أما

فى هذه الملاهى فهو أقرب إلى الرجل تعلو شفتيه ابتسامة تخفى وراءها قلباً أترعته الحادثات

فرغ الشاعر من رسالته فأوى إلى بلده ، وأقام فى بيته الذى اشتراه ؛ وما هو إلا أن تزوجت ابنتــه الثانية « جودث » من « تومس كوينى » وهو ابن رجل كان يتجر بالخمور فى ستراتفورد ؛ وعندئذ كتب شيكسبير وصية ترك بها معظم أملاكه إلى ابنته الكبرى ، ثم لابنها إن أنجبت ولداً أو لابن أختها إن كان لها ابن ، فان لم يكن فى حفدته ذكور آل الإرث إلى اليصابات ابنة سوزانا ، وذلك ما حدث ، و بموت اليصابات انتهت أسرة شيكسبير وتبعثرت أملاكه أيدى سبا ؛ ولكن أين زوجته فى وصيته ؟ لم يذكرها إلا فى عبارة واحدة يوصى لها فيها بسرير ليس هو بخير الأسرّة فى الدار ؛ فلعل فى ذلك دليلا على فساد الحب بين الزوجين

* * *

و يروى الرواة أن زاره فى بلده ذات يوم صديقان من أعلام الأدباء ، هما « بنْ جونسُونْ » و « ميخائيل درايتون » وقضى الثلاثة ليلتهم فى شراب متصل ، فسقط الشاعر محموماً ، وما هى

إلا أيام حتى أسلم الروح فى الثالث والعشرين من ابريل سنة ١٦١٦ — وهو نفس اليوم الذى شهد مولده ؛ وكان له من العمر اثنان وخمسون عاما ؛ ودفن فى ستراتفورد ، ونقشت على قبره قطعة منظومة أعدها قبل موته لهذا :

قف يا صاح ! نشدتك الله

ألا تزيح عنى التراب

بارك اللهم فى رجل يصون هذه الصخور

ولعنة الله على من يزحزح رفاتى

ذلك هو شاعر الدنيا « وليم شيكسبير » ، الذى لم يكن رجلا بمعنى الكلمة المألوف؛ إنما كان عالمـاً بأسره تعددت فيه الجوانب والنواحى ؛ والرجل إن تآلفت فيه شتى النوازع كان نادرة النوادر فى الوجود ؛ فهو لا يمقت ديناً من أجل دين ، ولا يصرفه سحر الحضارة عن جمال الريف ؛ هو مقلد وحر طليق فى آن معاً ؛ هو ناسك ورع ومتشكك مرتاب ؛ يؤلمه الأرنب الصريع والغزال الجريح ، لكنه لا يحرم على نفسه لذة الصيد ؛ يسكن بخياله «قصوراً باذخة و بروجاً يعممها الغمام» لكنه سرعان ما يحدد طموحه بأوضاع الحياة العملية فيشترى داراً له فى الريف ؛

ويضحك من مظاهر الحياة الدنيا وعبثها ؛ لكنه يبتاع لأبيه شارة السيادة ليرفع أسرته فى معارج الطبقات ، وليس فى ذلك عجب ، فالطبيعة فيها هذه الأضداد ، وشيسپكير مرآة الطبيعة المجلوة الصافية

يقول « كارْلَيِلْ » :

« تُرى لو سئل الانجليز : أى الأمرين تفضلون ؟ أتتخلون عن أمبراطوريتكم فى الهند ، أم عن شاعركم شيكسپير ؟ أتوثرون ألاّ يكون لكم أمبراطورية هندية أو لا يكون لكم شيكسپير ؟ حقاً إنه لسؤال خطير ! ونحن على يقين مما يجيب به الساسة فى لغتهم الرسمية ، لكننا — إن لم نُرْغَمْ على الجواب إرغاماً — فسواء لدينا أكانت لنا أمبراطورية هندية أم لم يكن ، فلن يغنينا شىء عن شيكسبير »

# شيكسبير فى تمثيلياته

للأستاذ محمد فريد أبو حديد

## ١

ترجع نشأة المسرح الإنجليزى إلى العصر الاقطاعى عند ما كان الأمراء سادة فى ريف البلاد يسكنون قصورهم فى وسط ضياعهم ويحيطون أنفسهم بالشعب الذى كان لهم عليه حق الولاء . فكان من أتباع الأمراء من العامة جماعات أنسوا فى أنفسهم قدرة على التلهية والتسلية ، فكانوا يعرضون على سادتهم صنوفاً من القصص يمثلونها على مسارح ساذجة فى القصور ، يستمدون موضوعاتها من القصص الشعبية حيناً ومن الدينية حيناً ، وتتخللها أغان ورقصات وأضاحيك يدخلون بها المسرة إلى جو القصور الجاهم .

ولما اضمحل شأن الأمراء وقضى على نظام الاقطاع انتشر هؤلاء الممثلون من مقامهم بالريف ، فاتجه بعضهم إلى المدن وتنقل

بعضهم فى الأقاليم يحيون فيها المواسم والأعياد بما لديهم من القصص والأغانى والأضاحيك .

وكانت لندن أوسع المدن وأعظمها شأناً ، فكان الممثلون يجدون فيها فرصاً كثيرة لعرض ما عندهم ويتخذون الحدائق العامة وميادين الألعاب مسارح لهم أينما وجدوا نظارة يجتمعون إليهم . ثم بدأ عهد جديد بإقامة المسارح الدائمة التى كانت تقام من أبنية ساذجة من الخشب أو رقيق البناء .

وإلى جانب هذه المسارح الشعبية نشأت مسارح أخرى للعلية المثقفة ، وفيها نقلت قطع من التمثيليات اللاتينية بين ملاه ومآس تتخللها قطع مضحكة على لسان المهرجين الذين لا تكاد تخلو منهم تمثيلية .

وشجعت هذه المسارح على ظهور المؤلفين فنبغ منهم عدد بعد عدد ومنهم عظماء الأدباء الذين أدركهم شيكسبير مثل مارلو وپيل وجرين . وأدخل هؤلاء إلى المسرح أنواعاً جديدة من التمثيليات لم يسبق له عهد بها ، أخذوا بعضها عن الأدب القديم واقتبسوا بعضها من الأدب الأوربى المعاصر ، ومن ذلك مآسى مارلو العظيمة ( تيمور لنك ) والدكتور فاوستوس

ويهودى مالطه وادوارد الثانى . وهى فى الشعر المرسل الذى افتن فيه مارلو واتخـذه أداة للتعبير فمهد به السبيل للشاعر العظيم شيكسبير .

ثم كثر التأليف واتجه فى وجهه قدماً ، وزاد اهتمام الناس به والإقبال عليه ، وشارك الملوك أنفسهم فى الاحتفاء به فقد كانت الملكة اليصابات من أكثر الناس إقبالا على التمثيل فى مسارح القصور الملكية .

ولم يكن المسرح الشعبى الذى نشأ فى ظله فن شيكسبير فيما بعد مسرحاً مما يذهب إليه الظن إذا ذكر اسمه ، فإنه لم يكن سوى منصة متسعة عارية تبرز بين مقاعد الجمهور فيشاهد الناس التمثيل عليها من يمين وشمال وأمام . وكان الفناء الأوسط مكشوفاً للسماء يبدأ التمثيل فيه من بعيد الظهر إلى حوالى الغروب ، لا تضيئه أنوار ولا تزينه مناظر ولا تحجبه ستائر ، بل كانت المنصة المتسعة عارية ليس عليها سوى بنية من خشب فى أقصاها ، لها علية من فوق يصعد إليها، ولها حنية من تحت يحجب مدخلها ستار . فكانت هذه البنية الخشبية تستخدم أحياناً كقلعة وأحياناً كطنف فى منزل وأحياناً كبرج فى قصر . وأما الحنية

فكانت تتخذ أحياناً كهفاً أو مخدعاً أو شيئاً من مثل ذلك مما يحتاج إلى مكان مسقوف .

ولم تكن الملابس تتخذ للزينة ، بل كانت لإظهار حقائق الأشخاص كأنها رموز لتدل على المكانة أو الصناعة ، وتساعد على تخييل القصة للناظرين . فمسرح مثل هذا لا يستغنى فيه الكاتب عن أن يصور للناظرين جوه ومنظره ، حتى يغنيهم عن الستور الملونة والمناظر المصورة ، وكان لا بد له من أن يبين فى لفظه وقت الحادثة، فيظهر على لسان بعض أشخاص روايته ماينم عن أن الشمس طالعة فى كبد السماء ، أو أنها مشرقة فى أول الصباح ، أو أن القمر يزهر فى الليل، أو أن النجوم تلمع فى قبة الفلك، أو أن الجو عاصف والمطر منهمر . ولم يكن فى المسرح ما يمنع المؤلف من أن يجرى على مناهج القصص فيجعل الفصول متعددة و ينتقل من أحدها إلى الآخر سريعاً ، فيتمها عشرات وهو خفيف الحركة فى مختلف المعانى ، و بين المتباعد من المواضع ، لا تقيده المناظر وضرورة تغييرها بين فصل وآخر . وكان النساء لم يدخلن بعد إلى المسارح ، فأدوار النساء يمثلها الصبيان فى ملابسهن ، وكانوا بلا شك يعانون مشقة كبرى فى إبراز شخصيات لا معرفة

لهم بخصائص جنسها . وكان من الشائع فى هذا المسرح أن يلجأ الكاتب إلى تخفية النساء فى زى الرجال ، ولكن هذا كان يزيد فى موقف الممثل صعوبة ، لأنه كان عليه أن يتكلف الظهور فى هيئة من يعانى إخفاء الأنوثة مع السماح لأشعة منها أن تنفلت لتنم عنها . فكان على المؤلف أن يسد ذلك النقص كله بفنه ولفظه ، فينطق الشخص بما توحيه الغرائز ويورد فى حركته من اللفتات ما يعبر عن أدق الخلجات النفسية . فكان لا بد أن يكون المؤلف شاعراً إذا كان يراد بالتمثيلية أن تحيا على مسرح كهذا . كان على الشاعر أن يفتن فى التصوير اللفظى وفى التعبير الشعرى لكى يملأ الفراغ الذى لا يحسه الممثلون اليوم وهم فوق مسارحهم ذات الرسوم الواضحة الرائعة ، والأنوار الملونة والحيل المختلفة التى تخدع النظارة ولا يحتاج معها إلى تعبير من اللفظ .

وكانت التمثيليات لا تطبع قبل التمثيل ، بل تلقى على الناس جديدة لا عهد لهم بها ، ولذلك كان لا بد للمؤلف من أن يقدم بين يديها مقدمة يمهد بها لموضوعه ويعد الناظرين لما يسوقه إليهم من الحوادث .

هذا هو المسرح الذى دخل إليه شيكسبير وابتدأ فيه عمله

الضئيل ، ثم ما زال فيه حتى اجتمعت عليه أنظار العصر كله بعد أن قضى فيه عمره ووقف عليه جهده وبذل له كل فنه وشعره وروحه .

وكانت المدة الأولى التى قضاها فى ذلك المسرح من أكبر ما مهد له مستقبله العظيم ، فقد عرف أسراره وأحاط بدقائق ما يحتاج إليه ، فلما بدأ يؤلف ويؤدى بعد حين لم تغب عنه لفتة ضرورية ، ولم تفلته حيلة من الحيل التى يستعان بها على سد النقص فيه ، ووجد المسرح أخيراً فى شيكسبير الشاعر الأديب الذى يستطيع أن يحييه ويملأه فناً وشعراً وتصويراً . فكانت تمثيلياته آيات من الشعر يتبعها الخيال مختاراً فتنقله إلى عالمها الحى فى رفق جارف غامر ، بعضها لوحات للعين ، وبعضها أنغام للأذن ، وبعضها عواطف للقلب ، كل منها يخلق حياة فى ناحية وهى فى مجموعها تخلق عالماً متناسقاً نابضاً بالحياة .

ولقد كان بعض تمثيليات شيكسبير — تلك الروائع الإبداعية التى ألفها فى أواخر حياته — كانت أوسع وألطف من أن يؤديها التمثيل على مسرح محدود . فالخيال فيها ينطلق انطلاقاً يجعل قراءتها أمتع وأروع ، لأنها لم تكن فى حاجة إلى تكملة من

بعض حيل التخييل فوق المسرح، بل كانت قطعاً كاملة من نسيج الخيال الخالق العبقرى ، يعجز المسرح عن الاتساع لانطلاقها .

## ٢

عاصر شيكسبير أستاذه (مارلو) مدة سبع سنوات ، ولعله كان فى هذه السنوات يدخر فى نفسه أصول الفن ، وكان يرى الطريق أمامه ممهدة ، ولكنه كان يرى عظماء الأدباء قد سبقوه إلى قلوب الناس فلم يسرع طبعه إلى دخول الغمار حتى خطا فيها خطوات هينة على حذر ، وسنصف فيما بعد هذه الخطوات الأولى،وحسبنا الآن أن نشير إلى أنه قد أخذ عن أستاذه ( مارلو ) طريقته فى الشعر المرسل الذى جعله مطيته إلى البيان فى كل تمثيلياته .ولسنا نستطيع الإفاضة فى الحديث عن هذا الضرب من الشعر وعن تطوره فى ريشة الشاعر العبقرى ، فإن هذا من شأن اللغة الإنجليزية ونحن إنما ننظر إلى فن شاعر لا نُصيب منه إلا روعة الفن الإنسانى . ومجمل هذه الطريقة فى الشعر أنها لا تتقيد بالقافية بل تستعيض عنها بأنغام النظم وبحيل أخرى لا يستطاع وصفها ، لأنها من حيل البيان المطبوع الخاص باللغة الانجليزية .

وفى هذه السنوات التى كان فيها شيكسبير يعالج أول أدوات فنه ظهرت ميزته الكبرى التى نراها أول ما يوهب للشاعر التمثيلى العبقرى ، وهى تصوير الأشخاص ونفث الروح من صورهم . ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا أن براعة هذا الشاعر فى رسم أشخاص تمثيلياته قد بلغت الذروة لا يكاد يدانيه فيها أحد من أدباء العالم أجمع . فإنه استطاع فى حياته الفنية أن يخلق عالماً زاخراً من أحياء لا نكاد نفرق بين وجودهم فى عالم الخيال و بين وجود أبطال التاريخ الذين ساروا على أديم الأرض لحماً ودماً ، وعاشروا أجيال البشرية وعاملوها وشاركوها فى شئون الحياة . نعرف منهم هملت وعطيل ، وديدمونا ، وشيلوك ، وفولستاف ، وقيصر ، وأنطون وكليو بتره ، ورميو ، وجوليت ، ومالڤوليو ، وڤيولا ، وايرِ ، و پروسبرو ومئات غير هؤلاء فيخيل إلينا أنهم من جيراننا فى البشر نعرف خلجات نفوسهم ونأمات ضمائرهم ، ونعرف طبائعهم صريحة ناطقة باسمة حيناً وحزينة حيناً ثائرة طوراً وهادئة طوراً . بل إنا لنعرف هيئة أجسامهم ونظرات أعينهم ونسمع ضحكاتهم إذا ضحكوا أو نغم أحاديثهم إذا تحدثوا ، ونعرف فوق هذا كله آراء كل منهم وميوله ، فإذا نحن تمثلنا أحدهم ونحن فى حالة من

حالات تفكيرنا لم يبعد علينا أن نتصورهم فى مثل ما نحن فيه ونعرف ما قد يفعلون وما قد يقولون وما قد يحسون . إنهم أحياء فى عقل البشرية لأن الذى أبدعهم قد وهبهم من فنه الحياة .

وقد تساءل الكثيرون ، وحق لهم أن يتساءلوا ، أما كان شكسبير هو هؤلاء الأشخاص جميعاً ؟ وإذا كان كذلك ألا يكونون صوراً شتى من شخص واحد ؟ لا شك فى أن الفنان البارع إذا أبدع صورة من آيات فنه فهو إنما يبرز من نفسه صورة تمثل أمام عين البصيرة ، فهو يخلق ظلاً لنفسه يفكر بعقله ويحس بفؤاده . ولكنه إذ يصور هذه الصور لا يجعلها مُثُلاً متكررة ، لأن الفنان الموهوب ليس مبدعاً محدوداً ، بل هو يشمل العالم كله فى كيانه ، حتى لقد قيل إنه يشبه الجنى الذى يستطيع أن يتمثل فى صور شتى من الحيوان والجماد ومن الزهر والطير . هو يصور الأخيار والأشرار ، ويصور الثائر والهادىء ، ويصور الماكر والساذج ، وهو فى كل من هؤلاء يتخذ الصورة الطبيعية لما يتمثل فيه ، ويستمد تلك المثل جميعاً من أعماق عالمه المنطوى فى طبيعته .

كذلك قد تساءل الكثيرون: هل كان شيكسبير معلماً؟ هل كان يريد أن يلقى على الناس دروساً يعظهم بها؟ هل خلق هذه الأشخاص وصور فيها مواقف الحياة المختلفة لكى يبصر الناس بما ينبغى لهم أن يفعلوا فى حياتهم؟

هناك فرق كبير بين أن يكون للفنان فلسفة فى الحياة لا يملك إلا أن يجهر بها، و بين أن يكون واعظاً يتعمد أن يتخذ من فنه مطية لوعظه، فيخلق الأشخاص ويحركها كما يريد ويلقى على ألسنتها من الأقوال مايشاء. حقاً أن الأدباء قد يؤلفون الفكاهيات فيسخرون فيها من بعض سخف الحياة ويحملون الناس بالضحك الرفيق على إصلاحها، وقد يؤلفون المآسى فيتعظ الناس بما فى طيها من الآلام التى تهز عواطفهم، وتشير عليهم بما يجنبهم هذه الآلام. وهذا بغير شك جدير بأن يكون من أبواب الأدب، و بأن تقوم عليه طوائف من الأدباء. ولكن هذا كله لم يكن من قصد شيكسبير لأنه لم يكن واعظاً.

ومع ذلك فقد أضاف شيكسبير إلى العالم فلسفة شائعة فى أدبه كله. فلسفة يعرضها وهو هادىء متواضع لا يدعى تعليما ولا نصحاً، بل يتركها للأفهام لتنتزعها كما تنتزع الآراء الفلسفية من صور

الحياة . وقلما نجد فى أشخاصه صورة مجردة من مثال خلق معين ، بل نكاد نجدها جميعاً مزيجاً من عناصر الطبائع ، تختلف فيها نسب العناصر بين شخص وآخر ولكن لكل منها عناصره الإنسانية المتمازجة . فهو لا يصور النبل فى شخص كاملا ولا الضعف فى آخر شاملا ، ولا نملك إذا رأينا أشخاصه تتحرك أمام أعيننا إلا أن نعطف عليها ونحبها على ما يكون فيها من ضعف لأنها تشبهنا ، وقلما ننحاز إلى واحد منها دون واحد بل نعطف على عطيل القاتل وعلى ديدمونا ضحيته معاً ، ويتعلق خيالنا بكاسيوس كما يتعلق بقيصر ، ونتأثر بما أصاب أنطون وكليوبتره جميعاً ، حتى شيلوك المرابى لم يخل من لفتات تثير عليه العطف والرحمة فى بعض مواقفه . فنحن إذا أردنا استخلاص فلسفة شيكسپير من ثنايا أدبه كان علينا أن ندرس أشخاصه كما ندرس الناس لنستخرج منها أسرار الطباع ، ولنا بعد ذلك أن نتعظ ونتعلم إذا شئنا ، ولكن الفنان العظيم يبقى منصرفا إلى تصويره عاكفاً على فنه وحده .

وكان شيكسبير فى تصويره يعتمد على الحوار كما هو ضرورى للكاتب التمثيلى . ولكن ذلك الحوار لم يكن كله من الجمل التى

اعتاد الأدباء أن يكتبوها . بل كانت تتخللها اللفتات البعيدة يثب إليها الشخص وراء الحديث إلى ما يتداعى له من المعانى ، وتعترضها الكلمات المفردة التى تنم عن اضطراب النفوس أو مخاوفها أو أفراحها. فكانت الكلمة الحزينة تثب بين عبارات السعادة فتبدو كأنها دخيلة غريبة ، ولكنها تنم عن أخفى حركات النفس وأدق نأمات الغرائز . ذلك لأنه كان لا يكتفى بأحاديث العقول ، بل كان يتغلغل إلى الحس الخفى من الإلهام . ولهذا كانت صورة المرأة فى تمثيلياته من أكمل ما خلقه الأدب العالمى ، لأنه استطاع أن يحرك نساءه بهذه الغرائز التى تميز النساء . فاذا نحن وازنا بين مخلوقات شيكسبير و بين الأشخاص التى رسمها أساتذة الفن الأدبى فى كل العصور وكل اللغات ، أمكننا أن ندرك إلى أى مدى سما فن شيكسبير و إلى أى الآفاق حلقت به عبقريته

٣

لكل تمثيلية موضوع يختاره المؤلف ويجعل له سلكا ينظمه فيه حتى يجعل القصة كاملة محبوكة . فهو ينزع الموضوع من الحياة ويضعه فى بؤرة واحدة كأن العالم كله قد ركز فيه .

ويختلف الأدباء فى إحكام خططهم ، فمنهم من يحتفل بها ويحبكها ويجعلها تنتقل بالخيال إلى الغرض الذى يقصده من القصة ، ومنهم من يستعين بمختلف الحيل والمفاجآت ، ومنهم من يعمد إلى المواقف التى تثير الاهتمام النفسى وإلى المناظر الفاجعة التى تهز القلب ، لكى يحدث التأثير الأعظم فى نظارته .

وقد أخذ على شيكسبير أنه كان من أقل المؤلفين احتفالا بخطط تمثيلياته وحبك نظامها . فكان يختار الموضوع الذى يروقه حيثما يجده ، ثم يعمد إليه فى ذهنه الخصيب فيحيي أشخاصه ، ثم يدعها على سجيتها لا يتدخل فى أمرها كأنه بعيد عن توجيهها . فكانت تتحرك بما تمليه عليها الطبائع البشرية وهو يتبعها بريشته يرى منها ما يدق ويخفى ، ويرسمه فى شعره الرائع بغير أن يدبر خطة أو يفكر فى حبكة ، حتى تنتهى إلى نهايتها التى تحتمها عليها مقاديرها .

فكان فى أول التمثيلية يمهد لموضوعه تمهيداً يسيراً ليحمل نظارته إلى حيث يريدهم أن ينتقلوا بالخيال معه ، ثم يوقفهم حيث يريدهم أن يروا ، ويترك الأمر بعد ذلك للأشخاص لتشق خطتها كما تشاء . وكان لا يعنى بأن يجعلها تنتهى إلى النهاية التى يستحقها مسلكها

الخلق ، فقد يدع شخصاً مثل هملت يتردد إلى غير نهاية ، ويدع شخصاً مثل عطيل يصدق كلام الواشى فى زوجته الطاهرة التى يحبها ، لأنه كان كما أسلفنا لا يريد الوعظ . ولا يستطيع الناس إذا رأوا هملت وعطيل إلا أن يمتلئوا عليهما عطفاً واهتماماً لأنهم يرون فيهما قطعا من الحياة . فمن الناس من يزعزعه الفكر فيشل فيه الإرادة، ومنهم من تزعزعة العاطفة فتحمله على بوادرها، وتغطى على عقله وتجرفه إلى القضاء الفاجع . هذه هى طبائع البشر منذ القدم ، ولا يستطيع شيكسبير أن يدافع عن نفسه إذا أراد دفاعاً إلا بأن يقول « هكذا الانسان ! » .

وقد أخذت عليه مآخذ أخرى فى سلك الخطة ، فإنه لا يجعل لها أحياناً وحدة تمسكها ، ولـكن المنصف لايسعه إذا رأى قصته إلا أن يقر أنها دائماً تملك عليه اهتمامه . وفى هذا أقوى دليل على أن الرباط الذي تمسك به أشخاصه أطراف الخطة أقوى من كل احتيال فى حبك السلك و إحكام نظامه .

ولعل أعدل نقد وجه إلى خطط شيكسبير هو أنه كان أحياناً يفرق فى رعايته بين أشخاصه ، فكان أحياناً يفرغ عبقريته فى تصوير بعضها ، ثم يغفل البعض الآخر فلا يجود عليه إلا بخطوط

ضئيلة من ريشته . والكاتب التمثيلى مضطر إلى شىء من ذلك، لأن من الأشخاص من لا يكون له إلا خطر فى القصة قليل ، وقد يكون من العيب أن تبرز جميعا واضحة فتلفت إليها الانتباه وتصرفه عن أشخاص أخرى أجدر به منها .

على أن هذه العيوب لم تكن إلا قليلة وكلها فى تمثيلياته الأولى، وكفاه فخراً أنه بلغ الذروة فى روائعه بغير أن يتكلف فى اختيار قصصه أو يتعسف فى حبك نظامها .

٤

عند ما اتصل شيكسبير فى أول أمره بالمسرح الشعبى كان ممثلا ثانويا يقوم فيه بعمل ضئيل ، ولم يكن ذلك المسرح سوى معرض للغناء والرقص والفكاهة ، تنطلق فيه الضحكات من قلوب لا تطلب فناً بل تلتمس البهجة والتسلية . وكان جو بهو المسرح بلا شك مائجاً صاخباً ، تختفى فيه الألفاظ أحياناً فى أصوات طقطقة قشر البندق ، وصرخات النظارة الذين كانوا يشاركون المضحكين فى فكاهاتهم . وكان أكثر ما يعجب الحاضرين أضاحيك المهرجين ومصارعة المصارعين ومناظر المبارزة الصاخبة .

ولم يدخل الشاعر العظيم إلى ذلك المسرح برأس مرفوع ينظر إلى الناس متنازلا ويصيح فيهم « هلم استمعوا إلى فنى فانني الشاعر الخالد ! » . ولو قال كلمة مثل هذه لكانت فكاهة تزيد سامعيها ضجيجاً، وتمدهم بمادة جديدة من التندر، لأن شيكسبير لم يكن عند ذلك سوى الممثل الصغير الفقير الذى أتى إلى مسرح ( التياتر ) يطلب رزقه المتواضع من إدخال السرور على هؤلاء السادة ، الذين كان كل منهم يبذل نصف الشلن أو الشلن والشلنين يلتمسون من وراء ذلك المسرة . فكان لا بد له من أن يشارك فى تمثيل مناظر المعارك والمصارعات والمبارزات ، بما استطاع من قدرة على الإجادة فيها .

ثم بدأ يؤلف لهذا المسرح الصاخب ، فكان لا بد له من أن يذعن لما يتطلبه نظارته ، ولهذا لم يكن من العجيب أن يبدأ تأليفه بسلسلة من الملاهى الفكاهية التى تقوم على الأضاحيك والمفارقات ، ويكثر فيها النضال والضجيج . فكان يعمد إلى قصص قديمة من تأليف من سبقه من الأدباء ، فيصوغها فى أسلوب جديد ويقدمها إلى سادته يرجو أن تفوز عندهم بالقبول . ولكنه مع كل ذلك لم يستطع إلا أن يكون الشاعر المبدع .

فكان يعرض الصور فى إطار رائع من شعره ، ويخلع عليها من روحه ، فتكون مزيجاً عجيباً من الإبداع والابتذال . ولسنا نستطيع أن نعرف الحقيقة الكاملة فى أمر هذه المحاولات الأولى فبعض النقاد يثبتها له و بعضهم ينكرها .

ومهما يكن من الأمر فإنه ألف بعد ذلك فكاهيات أخرى لا شك فى نسبتها إليه ، وهى تختلف فى ألوانها وفى أسلوبها حتى ليكاد كل منها يكون مثلا لمذهب من مذاهب التأليف . وذلك راجع إلى أنه كان يتحسس خطاه قبل أن يعثر على أول السبيل المقدورة له . فكتب أولاً ( ملهاة الأخطاء ) وموضوعها منقول عن بلوتس اللاتينى ، وتعرض فيها لما يتعرض له كل من يتأثر خطى غيره من المؤلفين السابقين . فالتمثيلية الفكاهية لا بد لها من أن تهز الناظرين إلى الضحك بما تعرض أمام أعينهم من مناظر يعرفونها و يضحكون من سخفها أو يتفكهون بمفارقاتها . ولكن ملهاة بلوتس كتبت لعصر مضى منذ قرون ، وكان موضوعها وفكاهتها مما يناسب الرومان ولا يمت بسبب إلى عصر شيكسبير ، فجاءت تمثيلية بعيدة عن أن تكون فكاهية حقيقية حية . ولكنها مع ذلك كانت تتلألأ ببعض قطع من

الشعر الرائع الذى يدل على أن المؤلف كان منذ أول أمره يملك مفاتيح الكنوز التى تفتحت له فيما بعد. ولم يلبث شيكسبير أن عدل عن هذا الاتجاه الأول، وألف تمثيلية ( السيدان من فيرونا ) وكان فى هذا منساقاً مع الروح الجديد الذى هز أوربا فى ذلك العهد ؛ الروح الإبداعى الذى قوامه الحب والمغامرة . ولكنه كان لايزال مقيداً بالمثل المتخلفة من القرون الوسطى ، فصور المرأة كما صورتها التقاليد الموروثة من عهد الفرسان ، معبودة طاهرة تتمثل فيها الرقة والنبل ، وجعل لها محباً مغامراً شجاعاً لا يبالى ما يصيبه فى سبيلها ، و يستمسك بالشرف و يقدس الواجب . فكانت الأشخاص تتحرك كما تتحرك الدمى ، وتنطق بعبارات مفخمة تحشى بها أفواهها حشواً . فالحب « أمير ذو سلطان » والحبيبة « أميرة على مخلوقات هذه الأرض » « والويل لمن يتجرأ على أن يمسها بأنفاسه» . و يقف الحبيب عند صورتها متعبداً تثور منه الأنفاس الحارة، وتنحدر دموعه الغزار كالسيل، و إذا جفته الحبيبة لم يكن له إلا أن يهيم على وجهه فى الغاب أو القفر ليناجي شجونه .

فهاتان المحاولتان تنمان عن أن الشاعر لم يتمكن بعد من فنه ، فقد كان حيناً ينقل عن القدماء وحيناً ينطلق فى الخيال مع

المغامرات ناطقاً بعواطف مصطنعة موروثة من عصر الفرسان ، ولم يكن فيهما من شيء يستحق التقدير إلا شعرهما ، فقد كان دائماً رائعاً . فاذا كانت المقدرة التمثيلية لم تنضج فيه بعد فقد كان الشعر المنبعث من قلبه يملأ مناظره جمالاً وبهاء .

ثم بدأ بعد ذلك تحول ظاهر فى فن شكسبير ، منذ كتب تمثيلية ( ترويض المتمردة ) وأخذ فيها عن الكاتب الايطالى ( أريوستو ) ، ثم كتب ( جهد الحب الضائع ) وتباعد فيها عن روح القرون الوسطى ، ثم انطلق بعد ذلك فى سبيله يكتب ملهاة تصور ما يقع تحت الأنظار ويخلق فيها من الأشخاص ما يستطيع الناس أن يعرفوا فيها ملامح الأحياء . ويمكننا أن نقف هنيهات عند أول قصة اتجه فيها شيكسبير إلى حقيقة فنه وجمع فيها بين المقدرة التمثيلية والمقدرة الشعرية ومزج بينهما مزجاً رائعاً وهى تمثيلية روميو وجوليت .

٥

تمثيلية روميو وجوليت مأساة حب من ذلك النوع الذى يكون بين شاب وشابة عند أول نظرة ، ألفها الشاعر حوالى سنة

١٥٩١ على بعض الأقوال وحوالى سنة ١٥٩٥ على بعض أقوال أخرى، وطبعت أول مرة فى سنة ١٥٩٧ وهى مستمدة من أصل قديم يرجع إلى القرن الثانى عشر، وجاءت فى مجموعة قصص (باندللو)، وكان شيكسبير يستمد من ترجمته الانجليزية التى نقلها أرثر بروك سنة ١٥٦٢ .

فى هذه المأساة جمع الشاعر بين الشعر الرائع والفن التمثيلى، فجعل منهما قطعة متناسقة منسجمة، لايغلب فيها الشعر على سبك القصة ولا تخرج القصة على الروح المفهاف الشعرى . وهى بغير شك ثمرة فن فى ريعان الشباب، لا يشك من يقرؤها فى أنها تنبض بالدماء الحارة والحياة المتدفقة . فهى وإن كانت مأساة، لا تكاد تشبه المآسى فى تصوير النضال بين العاطفة والعقل، وليس فيها ما فى المآسى من تصوير الإنسانية التى تتجه مع ضعفها أو نضالها إلى نهايتها المحتومة، بل يكاد من يراها يحس أنها ملهاة حب شعرى، لا بد أن ينتهى إلى السلام والسعادة، فليس فيها انحراف فى ثورة العاطفة .

ولم يقترف فيها الشابان خطأ ولم تزل بهما دفعة مدمرة من الثورة العمياء، ولم يغرر بهما عقل مخدوع مغرور بتفكيره المحدود،

ليس فيها شيء من هذا كله ، فكان من المنتظر ألا تعبث الأقدار بالحبيبين فتحطمهما مثل هذه الحطمة التي تصورها القصة . ولكنها مع ذلك صورة رائعة لنوع من عبث المقادير ، التي تعصف أحياناً بالأبرياء وتهوى بهم إلى الكوارث بغير جرم يستحقون عليه ذلك الجزاء .

وكانت هذه التمثيلية من أحب مؤلفات الشاعر إليه ، ولا عجب في ذلك فهي تمتاز بما فيها من إبداع في الشعر ومقدرة على تصوير العواطف المشبوبة ، وتلوين أخفى صفات الأشخاص . فالأشخاص فيها يبلغون مرتبة الكمال الفني إذا استثنينا منهم روميو الذي لم يبلغ من الوضوح والحياة ما بلغه بعض التوابع من الأشخاص الثانويين في القصة .

فكابوليت أبو چوليت شيخ طيب ساذج يندفع مع غضبه اندفاعاً صاخباً ، ثم لا يلبث أن يهدأ ويبسم ويتجه بفكره إلى تحية هادئة باسمة يلقيها إلى بعض ضيوفه ، فهو يتحدث غاضباً مع قريبه ( تيبولت ) فاذا ما جاء إليه ضيوفه توزع بين كلمة حانقة يلقيها إلى الشاب وبين لفتة باسمة يومئ بها إلى ضيفه . ثم هو أب محب يعرض الزواج على ابنته في نشوة من الفرح فاذا

ما رآها ترفض الزواج هاج وثار وقال لها : « فلتكسر رقبتك قبل أن تعصى لى أمراً » ثم يأخذ فى سب البنات ونكبة الآباء فى ولادتهن . فهو أينما ظهر شخص مملوء حياة وحركة لينة طبيعية . ثم هذه ظئر جوليت وهذا هو الراهب وهذا هو تيبولت ابن عم جوليت وكثير سواهم ، يشتركون جميعاً فى صفة الإبداع والاتقان مع أنهم لا يزيدون على توابع فى القصة ليس لهم شأن كبير فى خطتها . وأما جوليت فقد بلغ شيكسبير الذروة فى تصويرها والتعبير عن حبها، وهو حب طبيعى ليس فيه أثر من الروح المتكلف المتخلف عن القرون الوسطى ، وهو حب عذرى سامى النزعة لا نكاد نسمع فى مناجاته لفظاً ينم عن فكر ملوث .

والشعر الرائع يتخلل التمثيلية ويسرى فى كل ما ينطق به أشخاصها ، ويخلع عليها بهجة تكاد تنسى القارىء أنها مأساة فيها حب مفجوع وفيها موت ذريع . فالشاعر يجلو مناظر الكون باهرة،ويشيع فيها التجاوب بين هذا الكون وبين الذين يعيشون فيه ،وينطق أعمق الغرائز حتى تبدى للعين أدق الأحاسيس ، ولم يبخل الشاعر صاحب القلب الكبير بصورة إنسانية كريمة على الراهب الكاثوليكى فيسمو بذلك فوق صغائر الأحقاد

التى كان يبعثها التعصب الدينى فى عصر اليصابات .

يرى روميو فتاة فى الرابعة عشرة من عمرها فى حفل رقص ، فاذا به ينطق كالمأخوذ : « نورها الباهر فى لمعته جعل الأنوار تزداد سنا ، وبدت فى صفحة الليـل كما يلمع الجوهر فى قرط الزنوج . إن هذا الحسن لا أحسبه حسن أهل الأرض ، حاشا أن يكون . » ثم يقع حبها فى قلبه فلا يستطيع انصرافاً إلى داره بل يحتال على العودة إليها ليلا ، فيثب على سور البستان ويدخل حتى يقف نحو نافذتها وهى جالسة تنظر إلى القمر مفكرة . فيحدث نفسه وهو ينظر إليها : « أى نور يتلألأ باهراً من خدرها ! إن هذا أفق الشرق وقد أشرقت جوليت من أعلاه شمساً ! أيها الشمس تعالى فى السماء . واقتلى بدر الدجى من غيظه ، فهو يبدو شاحباً فى حقده ، مذ رأى حسنك أبهى منظراً » ، ثم يستمر يناجى نفسه حتى يقول : « ليتنى كنت فى يديها شعاراً أو غطاء أمس تلك الخدودا » فاذا سمع صوتها صاح : « اسمعى صوتك حلواً اسمعى ! يا ملاكا من ضياء الأفق . أنت فى الليل تلوحين كما سبحت فى الجو أملاك السماء » . ثم تراه جوليت وتحدثه حتى تقول له :

« كيف أقبلت ؟ وماذا تبتغى ؟ حائط البستان عال واعر ، ولقد جئت إلى بيت عدى ، لن ترى فيـــه سوى الموت إذا وقعت عين من القوم عليك »

فيرد روميو : « حملتني أجنح الحب هنا فوق هذا السور ، فالحب إذا شاء لم تمنعه أسوار البناء . والهوى يركب فيما يبتغى كل ما يصعب من وعر مخيف . إن عندى دون أهليك حمى من غرامى . لا أبالى خطراً . »

فتقول له : « لو رآك القوم لم يبقوا عليك »

فيجيب : « إن فى عينيك لحظاً فاتكا وقعه أقتل من ضرب السيوف . فانظرى نظرة عطف عذبة لا أبالى بعدها خوف العدى »

ثم إذا قامت جوليت داخله تلبى نداء ظئرها قال روميو :

« هذه الليلة ما أسعدها ! ليلة ليس لها الدهرَ قرين . غير أنى كلما فكرت فى أنها ليل عرتنى وحشة ، فلعلى بين أحلام كرى ، فهى أحلى من لذاذات الحقيقة »

واتفقا على الزواج وعقد لهما راهب شيخ ، عقده سراً خوفا من معارضة أهليهما . ثم حدثت أحداث قذفت بروميو فى وجه تيبولت ابن عم جوليت فقتله ، فاذا بلغ النبأ إلى چوليت ثارت عند أول

صدمة النبأ فقالت تشتم روميو : « قلب أفعى من تحت وجه مليح ! ليت شعرى أكان كهف الأفاعى ليغطى بمثل هذا الرواء ؟ أيها الظالم الجميل المحيا ! أنت جن فى صورة للملاك ، أنت ذئب قد جئت فى شكل شاة ، وغراب أتى بريش حمام . أنت نذل فى مظهر الأطهار . لحت للعين جنة ونعيما ثم أخفيت دون ذاك جحيما ! يا ولياً مدنساً ، وشريفاً فاجر النفس ! »

واستمرت تهدر فى غضبها فجاءت ظئرها تشاركها فى السباب فقالت :

« ذاك روميو أخزاه ربى ! »

فما كادت چوليت تسمع ذلك السباب حتى عاد إليها وعيها، فاندفعت تسب ظئرها وتعاتبها : « قدح الله فى لسانك قدحاً إذ تقولين مثل هذا المقال . إن روميو ما كان أهلا لخزى أو هوان . حاشا لمثل حبيبى أن يذوق الهوان . إن حبيبى خلق الله وجهه للمعالى كى تكون العلا له إكليلا وتكون الدنا لعلياه ملكا ، ويل نفسى ! ماذا دهانى حتى قلت ما قلت فى سبابى وطعنى؟ »

وعوقب روميو على جريمته بالنفى فجاء خلسة لتوديع حبيبته وقضى الليل يناجيها حتى طلع الصباح . فأراد الانصراف فقالت له چوليت :

« ذاهب أنت ! لم يلح بعد فجر . إن هذا الذى يغنى قريباً فوق غصن الرمان بلبل ليل، لم يكن قنبر الصباح، فصدق ياحبيبى ولا تفارق سريعاً »

فقال روميو مراجعاً : « إنه قنبر الصباح لعمرى ، فانظرى مشرق السماء منيراً مثل خيط بين السحاب مضىء ، أطفأ الليل شمعه وتجلى ، والصباح الضحوك شب مطلا فوق تلك الجبال يرنو إلينا ، فدعينى أسر بعيداً وأحيا أو ذرينى هنا ألاقى هلاكى . »

فراجعته جوليت قائلة :

« ليس هذا ضوء الصباح لعمرى ، إن هذا شهاب نور مضىء أرسلته إليك شمس النهار . أرسلته لكى يكون دليلا فى دجى الليل إذ تسير وحيداً نحو منفاك . فابق عندى قليلا ، لم يحن بعد موعد التفريق »

فأجاب روميو : « فليكن ما يشاء منى حبيبى . أنا راض بأن أكون أسيراً فى يد الشانئين، بل أنا راض بدمائى تسيل هدراً مضيعاً . لن أقول الصباح لاح ، فهذا هو ضوء الهلال هل مساء. ليس هذا الذى يغنى علينا ، صادحاً يملأ السماء رنيناً ، قنبر الصبح منذراً بالنهار . لاأود الذهاب ، لست أبالى ما ألاقى هنا ، سأبقى

مقيما إذ رأيت الحبيب يرضى بقائى . فهلمى إلى حديثى فإنا فى دجى الليل لم يلح لى صباح » .

ولكنه انصرف أخيراً وسار الى منفاه ، وخطبت چوليت فى غيبة روميو ، وزوجها أبوها قسراً من باريس الجميل السرى . فذهبت چوليت إلى الراهب الشيخ تبثه مخاوفها حتى قالت له :

« إن خيراً لدى موت ذريع بوثوبى من رأس برج منيف . ولخير لدى أن أتردى فى مهاوى اللصوص، أو أن أعانى أكبر الهول فى جحور الأفاعى ، من زواجى بخاطب غير زوجى . بل لخير لدى صحبة دب ، قيدنا واحد يزمجر قربى ، أو أقضى الليل الطويل بجُبٍّ فوق فرش من عظم موتى رميم ، و بقايا جماجم باليات . أو أُدَهدى فى طى لحد جديد ، وأنيسى به رفات دفين ، يقطع الدهر فى جوارى شريكا . كل هذى مخاوف بشعات ، ذكرها يفزع الفؤاد ، ولكن أشتهى لو يكون هذا جميعاً ، لا أرى فيه رهبة أو عذاباً ، كى ألاقى زوجى الحبيب و إنى لم أدنس طهارتى بمشين »

فلم يجد الراهب إلا أن يحتال لإخراجها من المأزق باعطائها جرعة مخدرة تؤثر فى الجسم فتجعله فى هيئة الأموات ، حتى إذا ما ظن أهلها أنها ماتت ودفنوها ، بعث إلى روميو لكى يفر

بها . ولكن الأقدار لم تشأ ذلك ، فسمع روميو بنبأ موتها قبل أن تبلغه رسالة الراهب وجاء يسعى إلى مدفنها ووقف يناجيها :

« ياهوى مهجتى ! وزوجى ! سلاما ! إن يك الموت قد سطا بك واشتفَّ رحيق الشفاه من أنفاسك ، فلعمرى هذا جمالك رطب ، أعجز الموت ، لم يزل فى بهائه . تلك أعلامه ترفرف حمراء على خده وفوق شفاهه . وأرى الموت تحت راياته الصفر كليلا ملفعاً فى صفاره. أى جُوليت ! ياحبيبة قلبى! كيف يبقى الجمال بعد الحمام ؟ أترى الموت ذلك الشبح المرهب ، هذا الكريه يضمر حبك ؟ فطوى جسمك الحبيب رطيباً فى دياجيره يريد وصالك ؟ لأقيمن هاهنا أبد الدهر قريباً إليك دون غريمى . ثاوياً فى ظلام قبرك هذا راضياً لا أريد عنه انصرافاً .

فانظرى نظرة المودع عينى ! وذراعىَّ ! وَدِّعَا بعناق . وتروَّى بقبلة من حبيبى أيها الثغر، مدخل الأنفاس ! »

ومال عليها فقبلها ، ثم أخرج زجاجة سم كانت معه فشربها وسقط إلى جانبها ومات وهو يقول:

« أنا هذا أموت ريان حباً ، زودتنى للموت قبلة حب »

## ٦

سار شيكسبير فى فنه قدما نحو قصاراه . فألف طائفة من التمثيليات التاريخية — رتشارد الثانى والملك جون وهنرى الرابع وهنرى الخامس — وكان العصر يحيي هذه القطع تحية تمتزج بما فى قلبه من عواطف وطنية متأجبة . وقد سمت هذه التاريخيات باسمه حتى أبلغته ذروة الشرف الأدبى ، فتحدثت باسمه النوادى ، واتصل بالبلاط الملكى، وصار يعرض آثاره على علية القوم من رجال القانون أهل الوقار فى ( جريز إن ) وفى ( مدل تمپل ) وهما من مجامع الخاصة ، وأصبح مساها فى مسرح الجاوب الذى بنى على صورة أوفى من (التياتر)، وكرمته الملكة ذاتها عند ما مثل لها فى قصر رتشمند وقصر جرينتش وويتهول ، وبلغ إعجابها بشخصية فولستاف فى هنرى الرابع أن أمرته بمواصلة وصف هذه الشخصية فى تمثيلية جديدة يكون فيها هذا الفارس الأنانى السمين الطيب القلب الذى لا يعبأ بشىء محباً مدلها .

وصار الشاعر من بعد أملأ ثقة بنفسه، وتخلص من أثر الأدباء السابقين الذين كان يعدهم أساتذة له ، أمثال (مارلو) ، وألف من

غير التاريخيات طائفة من الملاهى، بين إبداعية مثل ( حلم ليلة فى منتصف الصيف ) وبين ملهاة أصيلة مثل ( تاجر البندقية ) و ( جعجعة ولا طحن ) و ( زوجات وندسور المرحات ) و ( كما تريدها ) و ( الليلة الثانية عشرة ) .

ولم يكن فى هذه الملاهى أديباً ساخراً يريد أن ينتقد ما يرى من الناس من حماقات أو سخافات ، ولم يكن فيها متعالياً يلذع بفكاهته حاقداً على ما فى نظام المجتمع من قسوة أو خطأ أو اضطراب . لم يكن شيكسبير ممن تنطوى نفوسهم على مرارة ولا ممن يريدون أن يحملوا الناس على النظر من حيث تنظر عيناه ، بل كان شاعراً امتلأ قلبه بالمحبة والحياة ، وهو يريد أن يملأ قلوب الناس محبة وسعادة . فهو يصور لهم الحب ويصف لهم ما فى الحياة من بهجة، ثم هو يمس قلوبهم فيملؤها عطفاً ورقة، ويصور لهم الحياة الوادعة والجمال الذى خلقه الله لهم ليكون متعة . فملاهيه يغمرها ضوء الشمس أحياناً وينتشر عليها ضوء القمر أحياناً وتحيط بها مناظر الغاب والمرج ، وتتحرك أشخاصها بالعواطف الرقيقة والأشجان الإنسانية ، يبدو فيهم الذكاء حيناً والجمال حيناً والسمو حيناً، ثم يبدو منهم الضعف أحياناً، فاذا أضحك الشاعر الناس من

حماقاتهم الصغيرة ، لم تخل ضحكاتهم من عطف عليهم ، لأن ضعفهم ليس سوى مظهر من مظاهر الطبع الإنسانى الذى تنطوى عليه قلوبهم .

ومهما يكن من أمر هذه الملاهى ، فإنها تنم عن تطور جديد فى فن شيكسبير ، لن يلبث أن يظهر أثره بعد حين . وذلك أنه أخذ يتجه نحو نوع جديد من التمثيلية ، نوع منتزع من كل وطن ومن كل بيئة ، بعيد عن المجتمعات والوطنيات ، لا يعبأ فيها الشاعر بالكبرياء القومية ولا برغبات النظارة المتعطشين إلى الأضاحيك ومناظر المصارعات والمبارزات . لقد طالما أحنى فنه بعض الإحناء لكى يسر نظارته، وكان يدخل عليهم فنه ملفوفاً فى الزخرف الذى يحبونه ، ولكنه أحس أنه قد آن له أن يبرز لهم فنه مكشوفاً على حقيقته . فأخذ بعد ذلك ينظر إلى الإنسانية ويصورها إذ تتلاعب بها العواطف وتسيرها نحو قضائها . ففى هذه الملاهى نجد بذور المآسى العظمى التى تقترن بها عظمة الشاعر الخالد وتحلق معها فوق آفاق الدهور .

كانت آية الانتقال من جو الملاهى والتاريخيات إلى جو المأساة العظمى، تمثيلية من نوع جديد، يمكن أن نعدها وسطاً بين التاريخية

والمأساة ، وهي ( يوليوس قيصر ) . لم تكن هذه التمثيلية تاريخية بالمعنى الصحيح للجمهور الانجليزى ، لأنها لم تكن مما يحرك فيه عاطفته الوطنية ، ولكنها لم تكن المأساة الخالصة التي يوجه فيها الشاعر شعاع إلهامه كله إلى أغوار الطبائع لكي يطلعنا على ما هناك من أسرار إنسانية .

والقصة ليس لها بطل بالمعنى الصحيح يكون موضوع البحث وبؤرة الاهتمام . فليس قيصر بطلها ، بل إنه ليس من أكابر أشخاصها ، وهو يقتل فى منتصف القصة ولا يبقى منه إلا طيف يظهر مرة أو مرتين .

ولعل بروتس أجدر منه بأن يكون بطل القصة ، لأنه أقرب إلى أن يكون عماد خطتها ، ولكنه لم يكن الرجل الذى يستطيع أن يجمع إعجاب الإنسانية وعطفها . فهو رجل قد حاول أن يسير نفسه فى الحياة على هدى مبادىء جامدة من الفلسفة ، افتتن بها ، وهو يقدر عقله مغروراً به ، ويقدس وحى هذا العقل الإنسانى المسكين . فدفعه هذا إلى أن يشارك فى مؤامرة لقتل صديقه قيصر دفاعاً عن حرية روما . ثم دفعه هذا العقل بعد ذلك إلى أن يختلف مع شريكه كاسيوس على أمور تافهة لا يصح أن تكون مثاراً

لخلاف بين شريكين فى حرب على الموت أو الحياة، حرب يعلم أنه لو انهزم فيها المتآمرون لضاعت الجمهورية التى ضحى بصديقه قيصر من أجل المحافظة عليها. فشخص مثل هذا لا يمكن أن يكون بطل القصة، لأن البطل لا بد أن يفوز بأكبر الاهتمام. لا بد أن تكون شخصية البطل جارفة تستغرق قلوب النظارة بقوتها سواء أكانت قوة متجهة إلى الخير أو منحرفة إلى الشر.

ويمكن أن نعتذر عن هذا النقص بأن الشاعر قد أراد أن يحيي حادثة، فقنع من إحيائها بأن نفث الروح فى أشخاصها جميعاً، ولم يكن بعد قد عثر على سر المأساة العظيمة، فكانت تمثيلية قيصر على إبداعها وعظمتها إرهاصاً لما سيخرجه بعدها.

ولم يتكلف شكسبير عناء فى رسم خطة لقصة قيصر، بل كان فيها على عادته التى نعرفها فيه دائماً لا يعبأ كثيراً بسلك الخطة، بل يدع أشخاصه يتجهون حيث يشاءون، ويقولون ما توحيه إليهم طباعهم التى أحياها فيهم. فكل ما فى هذه التمثيلية يشير إلى أنها كانت محاولة تحسس فيها طريقه إلى المأساة الكبرى. ولعله عندما بدأ كتابة (يوليوس قيصر) قد رأى فى أشخاصها من هم جديرون بتحليله واهتمامه، فأخذ يصورهم ويعقد حولهم حوادث

القصة ، فساقته السليقة إلى أولّ خطوة فى درب المأساة .

وقد استمد شيكسبير قصة قيصر من ( تاريخ حياة العظماء ) للمؤرخ فلوتارخوس ، ولزم فيها الأصل لزوماً كثيراً فى مواضع شتي ، وكان ظهورها فى سنة ١٥٩٩

ويصح لنا أن نعرض بعض مواقفها ، لنظهر كيف كان الشاعر يعالج فيها تجلية المعانى على ضوء فكرة التجاذب بين العقول والعواطف :

لقي بروتس صاحبه كاسيوس فى الميدان الذى أعد للاحتفال بعيد الربيع .

فقال كاسيوس : « أتحب الذهاب للميدان ؟ »

فقال بروتس بهدوء : «لست ممن يحب الملاهى. لست باللاعب الطروب كأنطون ، ولا بى فؤاده الوثاب . فانصرف أنت » الخ .

فأخذ كاسيوس يستدرجه فى الحديث حتى قال له :

«أى بروت النبيل! عمرك قل لى. أترى تستطيع تنظر وجهك؟»

فأجاب بروتس : « لن ترى العين وجهها يا صديقى، بل ترى صورة لها فوق شيء غيرها إن بدت عليه خيالاً » الخ .

فقال كاسيوس : « هو هذا . وإنه لأليم أن تلك المرآة ليست

حيالك . ليت تلك المرآة كانت تؤدى لك مالا تراه من أفضالك. إننى طالما سمعت رجالاً من سراة الرومان — قوماً كراماً ، قد رماهم هذا الزمان بويل من أذاه وجوره، فتعالت منهم ضجة يئنون حزناً ، ويقولون : ليت عين ( بروتٍ ) تبصر اليوم ما دهانا الزمان . . » الخ .

وما زال يفتله فى الذروة والغارب حتى قال له :

« أى صديقى بروت . أصْغ لقولى: أنا هذا مرآة صدق، سأبدى لك مالم تكن ترى من خلالك . لا تظن الظنون بى يا صديقى . لست بالضاحك اللعوب مجوناً ، لا ولا بالمهين أبذل حبى وولائى لكل من يلقانى، لا ولا بالذى يهش ويلقى أحسن القول للحضور رياء ، فإذا ما مضوا أساء حديثاً . لا ولا ما جن أضيع وقارى فى اصطخاب الكؤوس والندمان . فلئن كنت من أولاء فدعنى واطّرحنى فان قربى بلاء »

وما زال به حتى أقحم عليه ذكر قيصر وافتتان الناس به وسأله : « لعلك ترجو منع هذا فلا يكون مليكاً »

فقال بروتس : « لست أرضى به مليكاً ، ولكن هو عندى له مكان وحب . غير أنى أطلت عندك مُكثى، لست أدرى ،

لعل عندك قولاً تبتغى قوله ، فإن كان خيراً لصلاح البلاد ، فاعلم يقيناً أننى إن أر المكارم يوماً ، وأرى دونها الهلاك ، فانى سوف أمضى إليهما مرتاحاً . . » الخ .

فجعل كاسيوس ينفخ فى جذوته ثم جعل يصف قيصر وطغيانه فقال :

« عجباً منه يا أخى ! هو هذا يقف اليوم عالياً مشمخراً ، هيكلا مشرفاً ، وفى موطئيه عالم ضيق ، وما نحن إلا نفر هين من الناس ، نسعى تحت رجليه لا نرجّى رجاء غير أن نبتغى لنا فى حماه حفرة نستقر فيها رفاتاً . يا صديقى ! ما الذنب للأقدار . فزمام الأقدار قد يتدلى ليد الناس ، كى يهبوا إليه و يسيروا لقصدهم فى الحياة . إنما الذنب للأنام إذا ما أصبحوا فى الهوان والإذلال . » الخ .

فما انتهى كاسيوس من ذلك الحديث الطويل حتى تحول بروتس إليه وصار من شركائه فى المؤامرة .

و يصور الشاعر قيصر فى مكان الاحتفال وهو يتحدث إلى أنطون قائلا :

« إننى لا أحب حولى رجالا غير أهل الجسوم والأبدان ، هؤلاء الأولى ينامون ليلا ، لا يضيقون بالهموم صدوراً . إن هذا

كاسيوس حمْش نحيل ، أسقمته الهموم والأفكار . مِثله فى الرجال ضارٍ مخيف »

فقال له أنطون : « لا تخفه فليس فيه ضِرار . إنه من كرامنا وصديق . »

فقال قيصر : « كان أولى لو كان عبلا بديناً . غير أنى بمثله لا أبالى . أنا لو كنت للمخاوف عبداً كان هذا النحيل أولى بخوفى . إن كاسيوس قارىء ألمعىٌّ نافذٌ فاحص له نظرات فى خفايا الصدور والأعمال . لا يحب المجون مثلك أنطون ولا يسمع اصطفاق الأغانى . وجهه جاهم قليل ابتسام ، فإذا ما رأيته بساماً خلته ساخراً كأن من العار عليه إذا تبسم يوماً . مثل هذا لا يستريح فؤاداً ما رأى فى الأنام من هو أعلى منه قدراً . أليس ذاك مخيفاً ؟ غير أنى أقول هذا مخيف . ليس هــذا الذى أخاف . فانى أنا لا أزال دهرىَ قيصر »

ثم يصوره فى موضع آخر فى يوم احتفال ، وقد جاء المتآمرون فأحاطوا به وتعمدوا أن يبعدوا عنه أنطون ، وتقدم بعضهم يشفع عنده فى إعادة رجل نفاه من رومة ، فرد قيصر فى كبرياء :

« دع رجائى . فلست مثلك نفساً ، أنا لو كنت أستطيع رجاء

وخشوعاً لكنت أقبل ممن جاءني خاشعاً يلين فؤادي . لست هذا فان قلبي ثبيت مثل نجم الشمال ، يبقى مقيما مستقراً بين النجوم فريداً لا يدانيه فى السماء قرين »

ثم تمت المؤامرة وقتل قيصر واستطاع بروتس بأثر شخصيته أن يحمل الشعب معه حتى هتف له وحياه على تخليص حرية الرومان من طغيان قيصر. ثم استأذن أنطون أن يقوم ليرثى صديقه ، فأذن له بروتس فألقى خطبته المشهورة التى اخترعها شيكسبير اختراعا .

واستطاع أنطون بهذه الخطبة أن يحول الشعب من الهتاف لبروتس ومن معه من قتلة قيصر ، إلى الهتاف بسقوطهم وقتلهم . ولعل هذه الخطبة من أبدع آيات الشعر والتعبير فى الأدب ، لأنها تسير على موجات الانفعالات النفسية الطبيعية ، وكأننا بالشاعر قد اخترق حجب القرون وسمعها من صاحبها ، إذ لم يرد منها حرف فى تاريخ فلوتارخوس . قال أنطون :

«أى صحابى أبناء روماو إخوانى أعيروا أسماعكم لحديثى. لست آتى أصوغ قيصر مدحا ، بل لأسعى مشيعاً لرفاته. إنما تخلد الذنوب وتبقى بعد من خاضها، على حين تثوى حسنات الماضين بين القبور .. فليكن ذاك حظ قيصر منا . قد سمعتم بروت وهو كريم قال يا قوم

إن قيصر طاغ . ولئن كان ما يقول صحيحاً كان لا شك فيه وزر كبير، ولقد ناله الجزاء الأليم . فلندع ذكر ذاك . إني مدين لبروت وصحبه إذ أجازوا أن أقوم الغداة أرثى صديقى . فبروت كما علمتم كريم وذووه كما عرفتم كرام . قيصر كان لى صديقاً وفياً . لا ولكن بروت ينقم منه أنه طامع حريص وأنتم قد عرفتم بروت شهماً نبيلا . قيصر قد أتى بأسرى كثار وحبانا فداءهم أموالا ملأت بالغنى خزائن روما . أبهذا ترون قيصر يطغى ؟ كان إما يرى المساكين تبكي يذرف الدمع رأفة ، ولعمرى إن قلب الطغاة عات صليب . غير أنى أقول هذا وأنتم قد سمعتم بروت وهو كريم قال قد كان قيصر طماحاً . أرأيتم تلك الغداة وأنا يوم عيد الربيع ، إذ قد شهدتم كيف قدمت نحوه التاج أرجو لو تلقاه بالقبول ثلاثاً فأباه ؟ أكان ذلك حرصاً ؟ لا ولكن بروت قد قال فيه إنه طامع ولا شك فيه . فبروت كما علمتم شريف . ولئن قلت ما علمت فانى لست فيه مكذباً لبروت . أيها الناس ! كان قيصر فيكم في ثنايا القلوب وهو جدير ، فلماذا أرى العيون صلابا جامدات ، وفيم هذا الجفاء ؟ لاه ! قد أصبح الرجال سواماً منذ طارت أحلامهم، وكأنى بوحوش الفلاة أرجح عقلا . أى رفاقى ! لا تعذلونى وعفواً

إن تعديت في المقال ، فإني ضاع لبي وضل عني فؤادي . فغدا عند نعش قيصر رهنا . فدعوني حتى ألاقي فؤادي ! أنظروني حتى يعود جناني ! »

وما زال يحرك الشعب حتى اطمأن إلى أنه قد استسلم إليه فصاح به : « إن يكن في العيون دمع فهيا واسكبوه ، فالآن حق البكاء » الخ .

فما انتهى من خطبته حتى ثار السامعون وصاحوا بالقتل والانتقام من بروتس وأصحابه .

وقامت الحرب بين الفريقين ، وصور شيكسبير كيف يزل الناس إذا تمسكوا بالمعاني التي يزخرفها لهم خداع العقل ، وصور بعد الخلاف بين نظرتي بروتس وكاسيوس ، حتى انتهى بهما إلى الكارثة الأخيرة ولكنه جعل وداعهما الأخير كريماً .

قال بروتس : « أي صديقي كاسيوس لا تحسبنّي ! أرتضي عودة لرومة عبداً في قيود الهوان . لا إن عقلي فوق هذا المكان قدراً وأسمى : سوف يمسي هذا النهار ختاماً لقتال خضناه منذ قتلنا قيصراً في الربيع في يوم مارس . . . »

فقال كاسيوس يرد عليه بعد حديث طويل :

« أى صديقى الوداع خير وداع ! و إذا كان فى القضاء لقاء ، نلتقى باسمين حقاً . و إلا فعزائى أنا افترقنا كراماً » .

ولما حلت بهما الهزيمة الأخيرة صور الشاعر أن ضمير كاسيوس كان يعذبه قبل أن يقتل نفسه لأنه كان لا يزال يذكر جريمته و يثور على نفسه من أجلها فقال :

«قيصر اهدأ، قد نلت ثأرك منى بالسلاح الذى أصاب فؤادك»

وقال بروتس كذلك قبل أن يقتل نفسه :

« اهدأ الآن روح قيصر ، إنى لم تكن طعنتى لقلبك أرضى لفؤادى من طعنتى اليوم قلبى » .

## ٧

أوغل شيكسبير بعد هذا فى فنه وأخذ يبدع فيه بما شاءت له القوة الكاملة فى الشعر والفن التمثيلى والتعمق فى فهم الحياة . وهناك بلغ القمة التى لا يدانيه فيها إلا الأفذاذ القلائل من البشر . فقد خلق للعالم تلك المآسى الرائعة التى خلدت على الدهر ولن تزول روعتها ما بقيت طبائع الإنسان : هملت ، عطيل ، الملك

لير، مكبث، أنطون وكليو بتره . وإنه لمن العسير أن يبين ما فى هذه المآسى العظيمة من السمو الفنى إذا لم تعرض كلها بما فيها من أسرار لغتها ودقائق ألوانها، إذا كان ذلك مستطاعاً فى لغة غير اللغة التى ولدتها .

ولكنا نجترئ بأن نتحدث عنها حديثاً قصيراً ثم نعرض مواقف محدودة منها .

منذ ألف شيكسبير تمثيلية (قيصر) اتجه بإلهامه إلى تصوير الحياة الإنسانية بما فيها من القوى الدافعة .

فصور الإنسان يتحرك بعاطفته ، والنساء يتحركن بعاطفتهن وغريزتهن التى تلهمهن ، وصور لنا كيف تسير هذه الطبائع أفراد البشر من أعلى وتدبر لهم مقاديرهم فى الحياة . وهو كما قدمنا من قبل لا يحاول تعليما بل يصور قطعاً من الحياة ، ويبين كيف كان الإنسان مخلوقاً وجد على الأرض حيناً لكى يزول ، ثم كيف يضطرب فى أثناء حياته القصيرة الفانية كما تشاء له المقادير الكامنة فى عواطفه وطباعه . ويبين لنا كيف تعمل المصادفة المحضة أو الظروف التى لا يستطيع الإنسان أن يتحكم فيها وكيف تؤدى إلى تحطيم كل نظمه وكل خططه التى دبرها . فهو يصور هملت فيرسم

شخصاً و يبين طريقه فى الحياة وتوجيه الطبائع له نحو قضائه . وهو يصور عطيلا فلا يريد من وراء ذلك إلا أن يرسم شخصاً و يقودنا من أيدينا لكى يطلعنا على سيرة هذا الحى الذى يضطرب مع طباعه نحو قضائه المحتوم . وهكذا يمكن القول عن مكبث وعن لير وعن سائر شخوص مآسيه .

فهو لا يقول للناس اعتبروا ، بل يقول لهم هذه صورة من البشرية الضعيفة فتأملوها واعطفوا عليها وعلى أنفسكم فيها . ولا يستطيع النظارة الذين يرون هذه المآسى إلا أن يخرجوا بقلوب امتلأت عطفاً تشمل فى رحابها المعتدى والضحية ، لأنهما جميعاً فرائس لضعف الطباع البشرية الكامنة فى أعماق قلوبنا . وقد نقده كثير من الأدباء فى قلة عنايته بحبكة خططه ، وقد تحدثنا من قبل عن ذلك المعنى . وحسب الشاعر أنه ربط تمثيلياته بروح مستمد من حياة أشخاصه . فان الخطة المحبوكة لا تخلق التمثيلية الخالدة ، بل هى عدة الأدباء الأوساط فى النجاح على المسرح . والحياة الطليقة ليست سلسلة من قصص ذات خطط محبوكة . فاذا كانت القطعة التمثيلية قطعة من الحياة البشرية فحسب الشاعر أنه استطاع فيها أن يتغلغل إلى أعماق الطبيعة

الإنسانية ويستخرج أسرارها ويملأ قلوبنا بوحي الحقيقة، ويحرك عواطفنا ويدمجها بهذه الإنسانية .

ويعد كثير من النقاد مأساة عطيل أعظم ما بلغه فن الشاعر من القوة . ومهما يكن من أمرها فهي مأساة كاملة . فعطيل جندي شجاع، بسيط الخلق صريح نبيل، أحب ديدمونا الجميلة ابنة برابانتيو شيخ البندقية وأحبته، وتزوج منها على كره من أبيها، وكان حبهما سامياً جديراً بهما، فلم تشبه شائبة حتى تدسس الواشي ياجو إلى عقل عطيل الساذج فأثار الشكوك فيه، وزعزعه وحيره ودفع به إلى الكارثة . فحطم الزوجة التي كان يحبها ، وكان حبه وهو يزهق روحها ما يزال على كل قوته . ثم استبان له الحق فلم يجد تكفيراً عن خطئه إلا بأن يقتل نفسه .

هذه خطة بسيطة، ليست مثـــل خطة هملت التي تزدحم بالأشخاص والحوادث، وهي في بساطتها تستغرق كل ذهن القارئ أو الناظر من أول منظر فيها إلى آخر منظر لا يكاد يجد فيهـا متنفساً يهدهد من عاطفته . ولذلك كانت من أقسى المآسي وأعنفها على الحس . وكمال هذه المأساة يرجع إلى اجتماع كل عبقرية الشاعر فيها، فشعرها يبلغ القمة في التصور

والعاطفة ، والأشخاص يتحركون على أتم ما تكون الحياة . والتغلغل إلى المعانى والطبائع يشيع فيها شيوع الماء فى العود الرطب . والشاعر ينشر الحوادث والأقوال تحت العين وأمام العقل فيمس بهما أخفى مواضع الإحساس .

عطيل رجل من ذلك الصنف من الناس شعراء الطبع الذين لا يعرفون الاعتدال ، كل ما فيه يتواثب . تدل على ذلك ألفاظه ولفتاته :

يتحدث إلى نفسه عند ما بدأ الواشى يسمم نفسه ويذكر امرأته قائلاً :

« لئن كانت خادعة ، إذاً فالسماء تسخر من نفسها ، ولن أصدق هذا » . ويقول فى حنقة : « إن قلبى قد صار صخراً إذا ما صكه الكف عاد منه وجيعاً » . ويقول وهو غاضب : « أيها الزهرة الرطيبة ماذا فيك من بهجة وطيب شميم ؟ هو حسن يعذب النفس يا ليتك لم تولدى وما كنت شيئاً . » ويقول فى حزنه بعد أن قتل امرأته : « زوجتى ! زوجتى ! ولكن ويحى ! أى زوج ! لا زوج لى ! ما دهانى ؟ إن قلبى ينوء بى ! وافؤادى ! أى نحس فى ساعتى من زمانى ! »

وكان سريع الغضب ، فإذا ثار غضبه كان مثل الزلزال المدمر فيقول في وصف نفسه : «إن هذا دمي يفور، وأخشى منه إن ثار أن يقود زمامي . »

وهو شجاع مهذب النفس يتعرض له برابانتيو أبو ديدمونا مع شرط البندقية ليسوقوه إلى ساحة القضاء لمحاكمته على أنه تزوج الابنة الجميلة بغير موافقة أهلها ، فلما سلوا السيوف ليحملوه على المسير معهم قال لهم في هدوء : « أغمدوا هذه السيوف لئلا يصدئ الطل والندى لألاها » . ثم يخاطب برابانتيو قائلا : « أيها الشيخ مر تجدني مطيعاً ، فجلال المشيب أكرم أمراً عند مثلي من أمر تلك السيوف »

وهو بسيط القلب ، إذا وثق لم تعرف ثقته حداً ، وإذا هاج لم يقف في سبيله شيء . وهو عظيم الثقة بنفسه ، سريع البت في أموره . فلما تبين له خطؤه في قتل زوجه آخر الأمر لم يتردد في قتل نفسه في سهولة وهدوء .

هذا الرجل كان هدفاً سهلا لوشاية ياجو الخبيث . فقد جاء إليه وجعل يدس له وشايته بالإشارة والإيحاء والتلميح ، حتى أثار أول شرارة من شكوكه . فلما سأله عطيل أن يفصح أجابه قائلا :

« اعفني بالله. إنى عالم أن بى طبعاً ذميا سيِّئاً ، هو سوء الظن »
ثم ما زال يلمح و يوحى بالشر حتى قال :

« ليس من نبل ولا من حكمة أننى أفشى شكوكى، وأرى أن هذا ليس مما يرتجى فيه خير لك الخ . » فدب السم إلى قلب الزوج وصاح : « ما الذى تعنى ؟ »

فأجاب ياجو : « شرف الإنسان أغلى سيدى ! من سواد القلب ، هذا يستوى فيه من كانوا ذكوراً أو إناثاً. إن من يسرق مالى يعترى تافهاً ، فالمال عندى عرض ، هو لا شيء ، فقد كان معى، ولقد صار إليه، مثلما كان قبل الآن عبداً لألوف ، إنما سالب عرضى نال ما ليس يغنيه وقد أفقرنى »

فثار عطيل وقال : « قسما لا بد من كشف ضميرك »

فجعل ياجو يتمنع متظاهراً بالتحدى وهو فى أثناء ذلك يدس فى حديثه التلميح والإيحاء والإشارة . حتى صاح عطيل : « وافؤاداه ! »

ولكنه لم يلبث أن عاد إلى نفسه فقال يراجعها :

« إنى لا أرى سبباً للريب عند امرأتى لو يقول الناس عنها إنها ذات حسن تشتهى الأكل اللذيذ، أوتحب الناس، أوثرثارة،

أو تغنى ، بل إذا ما زعموا أنها تلعب أو تحسن رقصاً . ليس هذا الوصف عيباً ، إنه صفة محمودة عند العفاف »

ثم قال للواشى : « أى صديقى ! إنما الشك إذا أبصرت عينى ، فإما أبصرت فدليل ، فإذا ما صدقت آية البرهان لم تبق الشكوك ، عند هذا سوف لا أبقى على غيرة بين ضلوعى أو غرام . »

وقضى عطيل حيناً فى حيرته يتألم بين حبه وشكه ، فلما رأى ياجو صاح به غاضباً : « أنت ماذا ؟ أخادعى ؟ »

فقال ياجو : « أى شىء مولاى ؟ »

فصاح عطيل : « بئسما قلت ، ثم بعداً لوجهك ! أنت عذبتنى عذابا أليماً . والخير للمرء أن يتردى فى مهاوى الشنار وهو جهول ليس يدرى بعاره . ذاك خير من شكوك وعلم شىء قليل من معراته وجهل بأخرى » . الخ

ثم ثار حتى قال : « أيها الوغد ! قم وحقق دليلاً ، أن محبوبتى بغى ، وأكد ببراهين بينات صحاح . ويميناً بحق رب البرايا ، قسماً مغلظاً ، لئن ثار غيظى لأذيقنك العذاب أليماً ، ونكالاً من دونه تتمنى ليتما قد وُلدت كلباً خسيساً »

ولكن ياجو كان يعرف المواضع التى يستطيع الهجوم منها ،

فدبر مكيدة وسرق منديل ديدمونا وألقاه فى سبيل كاسيو حبيبها الموهوم ، ثم ذهب فقال لعطيل يحدثه عن المنديل قائلا : لست أدرى من أين أتى به كاسيو ولكنى رأيته معه وهو يمسح به ذقنه

ولما استولى الشك على قلب عطيل ، لم يدع له سلاماً . فقال فى ثورة جنونية : « ليت دهرى بكل هم بلانى من عذاب ومحنة ، ورمانى فى مهاوى الإملاق ! أو ليت أنى صرت فى ذلة الإسار ، وحلّت فجعة الدهر فى أعز الأمانى ! كنت لو ذاك لست أعدم شيئاً من عزاء طى الفؤاد ، ولكن ويل نفسى ! قد صيرتنى الليالى هدف العار للزمان ، فيبقى ببنان الهوان نحوى مشيراً .. » الخ الخ

ثم صرخ من أعماق قلبه : « أين منى ما فيه أو دعت قلبى ! أين منى ما كان نبع حياتى يستمد الفؤاد منه معيناً ! » الخ الخ

ثم كانت الكارثة الأخيرة، وقضت ديدمونا ضحية الوشاية والثورة الجامحة . ولكن الحقيقة لم تلبث أن انجلت وأخذ عطيل ليحاكم على جريمته فقال : « لا تزيدوا فى القول حقداً وظلماً لا ولا تنقصوا شناعة جرمى . بل عليكم أن تنعتونى محباً مفرطاً فى الهوى ، ولم يك فيه مسرع الشك ، ثم قولوا دهاه مكر واش أصابه بخبال، فرمى جاهلا يتيمة در ، كسفيه الهنود ، يجهل منها

أنها درة أعز وأغلى من أبيه وقومه . ثم قولوا قد تركناه باكياً بعيون ترسل الدمع هاميات ، وكانت ذات كبر عصية التسكاب »

ثم أوهم من حوله أنه يريد الاستمرار في الحديث وأخرج خنجره وطعن نفسه فسقط على ديدمونا قائلا : « لقد قبلتك قبل أن أقتلك والآن أموت على قبلة منك »

## ٨

إذا كان علينا أن نعتذر عن ضرب الأمثلة العدة من مآسي شيكسبير فان عذرنا أن هذه هي التماثيل الخالدة للشاعر العالمي .

ومن بين هذه الروائع تحفة تمس روح مصر والشرق : وإذا كان النقاد يرونها قرينة عطيل فان لها بنا سبباً أقرب وصلة أوثق. كانت كليوبتره ملكة مصر العظيمة ، ويكفي أن يذكر اسمها لتثور في ذهن المصري والشرقي معان مختلفة من الحنين إلى المجد الغابر ، ويشرد خياله إلى عالم سحري انقضى أثره ولم تبق منه إلا أصداء موسيقية بعضها راقص رشيق وبعضها باك حزين .

فهناك على صفحة بحر الاسكندرية كان زورق الملكة الفاتنة ينساب في أشعة القمر أو أنوار الأصيل الرفيقة تدفعه المجاذيف

الذهبية وتخفق قلوعه الحريرية الزاهية مع نسمات الشمال التي تجعد مياه الميناء الهادئة . وكانت كليو بتره مع أنطون ينظران إلى الأفق الباهر غارقين فى نشوة حبهما القوى وأشجانهما العاصفة. وهناك كانت كليو بتره الملكة وكليو بتره المرأة وكليو بتره الساحرة تلف البطل الدموى بشباكها فلا يستطيع منها انفكاكا .

والأجيال لا تزال تنظر إلى صورتهما فى الخيال ، والأقدار تتلاعب بهما وتعبث فيهما بمصائر الدول ، وتحرك قلبيهما متجهة بهما إلى ما تشاء مما رسم لهما القضاء . هذه هى الصورة التى تعلق بها خيال شيكسبير منـذ قرأ سطورها القليلة . استولت على خياله فانطلق وأرخى العنان لفنه وأشخاصه غير عابئ بمفاجآت ، أو حبكة مسرحية ، أو نظام خطة . ولسنا نستطيع كلما تأملنا هذه التحفة التى أبدعها الشاعر العظيم إلا أن نقول إنها معجزة . لأنها تحلق فى الفضاء فوق طوق الأدباء . تتضاءل الحادثة التاريخية فى هذه المأساة حتى لتكاد تخفى فى ثناياها ، ولا يكاد يبدو من الحوادث كلها إلا قلبا أنطون وكليو بتره . فهى ليست مثل قصة روميو وجوليت — صورة لعاطفة حب ساذج تظهر فى إطار زاه من الشعر الرائع المضىء بنور القمر ، وتحيط بجوها موسيقى الطبيعة

الوديعة . ليست قصة أنطون وكليو بتره شيئاً من مثل هذا . بل هي مأساة رسمها عقل، كبير عرف الحياة وخبر طبائع البشر، وخرج من أعماق القلب الإنساني بعد أن استقر على معرفة كاملة بما فيه .

في هذه المأساة تنطلق صور شيكسبير في سهولة لا تكلف فيها ولا مبالغة ولا تأنق . وتبدو معانيها في الألفاظ القصيرة والسطور التي لا تبلغ كلماتها عَشْرًا . ويساير فيها الشعر المواقف المختلفة المتضادة، ومع ذلك يبدو في كل منها ملائما . فلا ينطق شخص من الأشخاص فيها إلا بما يصور أخفى مشاعره وأدقها وأصدقها .

تقول كليو بتره لأنطون : « إذا كان عندك حب صحيح فصف لي مداه »

فيقول أنطون : « أما إنه ذاك حب ضئيل إذا كان يوصف في ملفظ »

فتجيبه في عناد : «عزمت عليك لما قلت لي مدى ما بقلبك»

فيقول أنطون : « إذاً فابحثي عن فضاء براح من الأرض أفسح من أرضنا . وهاتي سماء تفوق السموات في سعة الأفق الأرحب »

بهذه الكلمات القصار أكتفي شيكسبير في إعلان حب

البطلين ، مكتفيا بذلك عن كثير من الضم والعناق والأنفاس الحارة والدموع الغزار . ثم صور الملكة مع أنطون وقد جاء إليه رسول من شريكه فى روما (أكتاف) فقالت له : « ها قد جاءت إليك الرسل تحمل أوامر أكتاف »

وما زالت بمثل هذه الكلمات القصيرة حتى قال أنطون :

« فلتذب روما فى مياه نهرها التيبر وليتفرط عقد دولتها فلست أبالى » .

ثم التفت إلى كليو بتره وقال : «سنخرج الليلة إلى شوارع الاسكندرية نجول فيها ونمرح ونطلع على هيئات الناس . فقد كنت تحبين أن نفعل ذلك بالأمس يا مليكتى . »

ففى هذا المنظر القصير صور الشاعر سحر الملكة ومقدار تدله أنطون بها وانصرافه إلى كل ما يرضيها كأن العالم كله قد أصبح رضاء كليو بتره .

وكان أنطون أحياناً يعود إلى نفسه ويريد تحطيم قيود هذه الساحرة . وصور الشاعر كيف تفعل كليو بتره فى مثل هذه الحالة .

أرسلت إليه رسولا يستطلع لها خبره وقالت له :

« سر إليه لكى ترى أين حلاّ . وترقب من عنده من

جليس، وتنبه لفعله وحذاراً ، لاتقل إنني بعثتك قصداً . فإذا كان في اكتئاب وحزن فلتقل إنني أفيض سروراً ، وإذا كان في سرور فحدث أن بي لوعة وهمًّا وحزناً . ثم عد مسرعا » .

فقالت لها وصيفتها : «أنت إن كنت تعشقين حبيباً ثم تؤذينه فقدت الحبيبا . »

فسألتها الملكة ممتحنة : « ما الذي كان ينبغي لي؟أجيبي . »

فقالت الوصيفة : « كان حقاً أن تخضعي وتلبي كل ما يأمر الحبيب »

فقالت الملكة ساخرة : « إن ما تنصحين حمق لعمري، لايؤدي لغير فقد الحبيب . »

ويصور الشاعر منظر توديع أنطون لمليكته وهو يريد الذهاب إلى روما تصويراً فذا ليس فيه ألفاظ التدله والوجد وإن كانت الشجون تتقد من باطنه :

قال انطون : مليكتي العزيزة !

فقالت : إليك عني !

فأقبل عليها معتذراً فانفجرت قائلة :

إن تكن ترغب البعاد فدعني لا تحاول تجملا واعتذاراً

أترى تذكر الليالى الخوالى
إذ تبث الهوى دموعا غزارا
كنت تزجي الكلام حلواً وكانت
لحات العيون أحلى حوارا
تتغنى أن الهوى سوف يبقى
أبد الدهر لا يقل استعارا
الخ الخ . . .

واستمرت تعتب وهو يعتذر حتى ضاق وغضب فصاح : « ألا حسبك ما قلت ! لقد حركت بى غيظى ! »

فشعرت بغريزتها أنه قد آن لها أن تلين فقالت :

لا تعر مسمعاً لقولى وحمقى واعف عنى لما بدا من مقالى
صاحبتك الأرباب طرا وما زال لك النصر عند كل مجال

ولما سافر أنطون بقيت كليوبتره مشتركة اللب ، تحدث وصيفتها وتسألها عن حبيبها لتعيد حديثه على سمعها فتقول : « ليت شعرى أواقف أم جليس ؟ أم على الخيل فى البلاد

ظعين ؟ يا جواد الحبيب لا زلت يسعى بك فى السير طائر ميمون ! »

وكانت ترسل إليه كل يوم رسولا وتقول للخادم :

«هات المداد والقرطاس فلأرسلن إليه كل يوم تحية جديدة ولو أخليت مصر من أهلها جميعاً » .

وجاء إليها رسول من عنده فبدأها قائلا : « مولاتى »

فلم تنتظر قوله بل صاحت به : « أى شىء وراء قولك هذا ؟ مات أنطون ؟ أنت إن قلت هذا أيها الوغد كان فيه هلاكى . ولئن قلت إن أنطون حر، سيد سالم ، فدونك منى أجزل البر من نضار كريم » الخ الخ . . .

وجعلت تستجوب الرسول ولكنها لا تدع له فرصة للقول ، فلما لم تسمع ما يطفىء لهفتها صاحت به : « ليس فى وجهك الكريه دليل منبىء بالسلام » الخ .

فقال الرسول : « أما تسمعينى ؟ »

فصاحت به قائلة : « لوددت الغداة قتلك قتلا قبل حرف تقوله ، غير أنى إن تعلمت منك أن حبيبى سالم مطلق عزيز فإنى

سوف أهمى عليك وابل غيث من نضار ومن كريم اللآلى » الخ

فجعل الرسول يحدثها وهى تقاطعه أحياناً مرحة وأحياناً قلقة حتى قال لها إن أنطون قد تزوج . فقامت إليه تضربه وهى تصرخ :

« ما الذى قلت أيها الوغد ؟ بعداً قبل نزعى عينيك » الخ الخ

وسلت خنجرها لتوقع به ، فهرب من بين يديها ولكنها بعثت إليه بعد قليل وجعلت تسأله عن زوج أنطون الجديدة .

قالت : أطولها مثل طولى ؟

قال : لا ، فليست فى مثل قدك قداً . .

فقالت : ثم صف صوتها . أكان رفيعاً ذلك الصوت أم خفيضاً ؟

فقال الرجل : خفيض !

فسرى عنها وقالت : ليس هذا مما يحب لعمرى . لا أراها تثير فيه غراماً . .

فتشجع الرسول وقال : إنها فى السير تزحف زحفاً ، لا يرى المرء إذ تسير خلافاً عن وقوف ، وليس فيها حياة ، يحسب المرء أنها تمثال !

فضحكت وسرى عنها وأغدقت على الرسول العطاء .

هناك كليوبتره المرأة ذات العاطفة العنيفة مصورة في صفحة أو صفحتين من كلمات مفردة أو قليلة ولفتات قصيرة ، ومع ذلك فهي شخص نابض سريع الحركة تكاد تحس اضطراب الهواء من عنف حركتها . والمنظر الأخير من هذه التمثيلية من آيات الشعر الرائعة .

قالت كليوبتره عندما رأت أنطون محمولا إليها :

أيها الشمس أحرقي الفلك حزناً     أيها الأرض دمت في إظلام

إلى أن قالت :

أنبل الناس هل تموت وأبقى ؟     أترى ذاك آية للجفاء ؟
أترى سوف أقطع الدهر وحدى     في حياة كريهة وشقاء ؟
بئس عيش من بعد فقد حبيبي     سوف أقضيه في جوى و بكاء
كنت تاجاً للأرض غُيِّب عنها     وتولى بوجهـــه الوضاء

ثم قالت :

ليس في الأرض بعد موتك شيء     أتمنــــاه أو يهز فؤادى

ولما أحست أخيراً بأنه لم يبق لها أمل في الحياة ، وأن

أكتاف يريد أن يسير بها إلى رومة أسيرة ، صرخت تلك الصرخة الجديرة بالملكة المصرية :

إن خيراً لدى موت بأرضى طى لحد فى أرض مصر كريم
بل لخير لدى موت بأرضى وغطائى بها مسارى النجوم
غرين النيل مضجعى وفراشى وطيور السماء تنهش جسمى
ثم تدوى القروح حتى يرانى ناظرى جيفة تقيح وتدمى
إن هذا خير لدى وأحلى فدعونى أموت فى أرض قومى

وكانت نهايتها يحيط بها جلال الملك . فتعطرت وأخذت زينتها ثم قالت :

« ما ضربة الموت إلا كقرصة من حبيب . إن أوجعت فهى تحلو لنفسنا وتطيب . »

وقالت كرمبون وصيفتها وقد رأتها ميتة :

« أحسنت صنعاً فهذا ما ينبغى لمليكة ، آباؤها الغر كانوا سلالة من ملوك ! »

## ٩

يميل بعض نقاد الأدب إلى أن يصلوا بين فن شيكسبير وبين ظروف حياته الخاصة ، فيزعمون أن تلك المآسي العنيفة لم تكن سوى منافذ وجد فيها الشاعر متنفسا لما كان فى صدره من هموم وشجون . ولسنا ننكر أن الشاعر إذا نطق فإنما هو يعبر تعبيراً صادقاً عما يحسه ، وليس أصدق من تلك المشاعر التي يتدفق بها شيكسبير على ألسنة شخوصه. ولعله قد صور فى بعض مآسيه مناظر لا يستطيع إنسان أن يصورها إلا إذا كان يحسها فى أعماق نفسه . ففى مأساة هملت وفى مأساة ( تيمون الأثينى ) لا يخطىء الحس سماع نغمات حزينة يائسة فيها كثير من الحنق على الإنسانية وفيها كثير من سوء الظن بها والنفور منها . بل إن هذه النغمات الحزينة تصدر منه فى بعض ملاهيه التى ألفها فى هذه الفترة من حياته، وإن كانت ألطف وأرفق رنينا . فلسنا نستطيع أن ننفى أن الشاعر العظيم قد يكون قاسى فى رجولته الناضجة من مرارة الحياة ما وجهه إلى تصوير هذه المواقف العاطفية الهوجاء ، وما لوّن شعره فى سائر مؤلفاته الأخيرة باللون الحزين العاتب على الحياة . ولكننا مع ذلك لا نستطيع أن نقول

ما هى تلك المحن ولا ما هى تلك الظروف القاسية التى مرت به ، لأننا لانعرف من حقائق حياته إلا خطوطاً ضئيلة، وحياة الشعراء العاطفية أخفى من أن تدرك مباعثها من مثل تلك الخطوط . على أننا لا نجد ضرورة تلجئنا إلى تصور هـذا كله أو إلى التعسف فى افتراض الفروض ، فالشاعر ليس من هؤلاء الذين لا يحسون إلا ما يصيب حياتهم الذاتية، بل لعلهم — وهم يفهمون كنه الحياة وحقارة ما فيها — لا يقدرون ما يصيبهم فى أنفسهم بقدر ما يقدرون ما يتعلق به خيالهم من آلام الإنسانية . فالشاعر الذى ينضج وتنفتح لبصيرته أسرار الحياة لا يحتاج إلى مقاساة الـكوارث فى نفسه لكى يتحرك ويبدع صوره ، فحسبه أنه يرى صفحة الإنسانية مكشوفة ، وحسبه تحرك نفسه بالرثاء لها أو العتب عليها . ومهما يكن من الأمر فإن الذى يعنينا هو أن شيكسبير فى هذا العصر من حياته كان يمتح من أعماق الحياة ، وكان يكشف الحقائق الإنسانية وهو ممتلىء بأثرها، فإذا كان وهو شاب لا يحس دبيب الفناء فى العالم ، ولم تنكشف له بعد آلام الحياة ومظالمها وأحقادها ودنا آتها ، ولا تتحرك نفسه إلا بالحب والتملى بالحياة والتمتع بمباهج الكون الغامرة ، فانه فى نضجه يمتلىء

بمعانى الحياة العميقة وزوال زخارفها و بطلان نعيمها ، ويتأثر أكبر التأثر بما فيها من آلام ، وما فى طباع الناس من ضعف ، ويتعمق حتى يكشف الدوافع التى تسوقهم إلى القضاء المقدور لهم .

وإذا كان الشاعر الشاب يضحك من سخافات الحياة ضحك الخلى الذى يطرب إلى تلك السخافات ، فانه إذا كشف ما تحت السطح واطلع على الأحزان التى تخيم بضبابها على القلوب البشرية ، لا يملك إلا أن يبكى وأن يعطف وأن يواسى . ثم لا يملك أحياناً إلا أن يضجر ضجراً يكاد يكون يأساً وأن يتوجع وأن يعتب فى عنف وازدراء . فشيكسبير الذى ملأ الأدب فى شبابه بالصور المرحة العاطفة وبالحب الخالص وبالتملى بالحياة وبالعطف على الإنسانية ، لم يملك إلا أن يملأ أدب رجولته الناضجة بأصداء ما تكشف له من الأحزان والضعف الإنسانى وبطلان زخارف الدنيا .

ولا عجب إذاً أن يكون الشاعر فى هذا العصر من حياته منصرفاً إلى المآسى وما يشبه المآسى من الملاهى الحزينة التى لا تكاد تشبه ما كان يبدعه من ملاهى حياته الأولى . فملاهى هذه الفترة من حياته مثل : ( كما تريد ) ، و ( خير كل

ماينتهى بخير) ، و (كيل بكيل) ، يسودها جميعاً جو حزين يكاد يجعلها أقرب فى روحها إلى المآسى. ولكن هل تغير قلب شيكسبير فأظلم بعد أن كان مضيئاً مستبشراً ؟ وهل خرج من الحياة وهو كاره لها ناع عليها ضعفها يائس من روح الخير فيها ؟ إن الذى يقرأ قصة (تيمون الأثينى) يكاد يعتقد مثل هذا ، وإن كان روح الشاعر فى كل مؤلفاته يشفع له ويدفع النقد عن تهمة مثلها. فهناك فى هذه القصة صرخات يائسة تتهم الحياة الإنسانية فى صراحة ، ويظهر فيها الألم من دناآت الإنسانية جاهما قاسياً . ولكن (تيمون الأثينى) لم يلبث أن توارى إلى الظهر بعد أن ألف شيكسبير روائعه الإبداعية الأخيرة : (قصة الشتاء) ، و (سمباين)، و (العاصفة) . ففى هذه الإبداعيات الأخيرة يعود الشاعر إلى الصفاء والهدوء . وينظر إلى العالم من عل بعد أن خرج من زغازعه وعرف أسراره ، ولهذا سمى هذا العصر الأخير من حياته عصر التسامى والتجلى، وأطلق عليه بعضهم لفظاً له دلالته وهو: «من أعلى القمم» .

فى هذه الإبداعيات الأخيرة يصور الشاعر الحياة تشملها سعادة منبعثة من السلام — تلك السعادة التى تستخلصها العقول الكبيرة من قسوة التجارب التى تمتحنها — فهى لا تشبه المرح

والتملي بالحياة ، وهي لا تشبه الخفة التي تصدح بالضحكة القوية ساخرة أو عابثة ، بل هي من روح السلام الذي تمتلىء به القلوب العارفة عند ما تصل إلى الأسرار العليا . فالشاعر يعرف الخطايا والدنايا ، ويعرف النبل والجمال الأسمى والحب الأصفى ، ويوسع قلبه الرحب للانسانية ، آملا في خيرها عافياً عن شرورها .

وقد اختار النقاد لهذه الملاهي اسم ( الإبداعية ) لأنها من إبداع الخيال الذي يصور من عنده عالماً منتزعا بعيداً عن حياة الواقع المادي. ففيها تكثر الشخوص غير الإنسانية من الأرواح والأشباح ، وفيها حياة الكهوف وحياة المروج والجبال والجزائر السحرية ، وفيها ينطلق الخيال من قيود الحقائق ويضرب في آفاق الأحلام التي لا تعرف الحدود .

وكان أسلوب هذه الإبداعيات كذلك طلقاً لا يتقيد فيه الشاعر بالقيود المتوارثة في اللغة أو قيود المسرح العملية ، فهي أقرب إلى أن تكون روايات تقرأ منها إلى أن تكون تمثيليات للمسرح ، وهي في قراءتها تمسك بزمام الخيال وتنطلق به إلى آفاق عالمها المنتزع ، على حين أنها على المسرح توقع العين على ممثلين لا يستطيعون أداء أدوارهم لأنهم من الأحياء الذين لا بد لهم

من قيود الحركة الطبيعية للانسان البطىء .

وقد تعالى الشاعر فى هذه الإبداعيات الأخيرة فوق كل اهتمام بالمناظر والفصول، فتبدو نهاياتها متراخية فاترة . وتعالى فوق الاحتفال بالأسلوب فلم يقيد نفسه بما تعارف عليه الأدباء من فنون الاستعارات والتشبيهات ، ولا بما أخذوا أنفسهم به من تركيب أبيات الشعر وفواصلها ومواقفها ، فكان إذا ازدحمت فى ذهنه الصور تدفق بها فى غير هوادة ولا احتفال بتناسقها أو اختلاط ألوانها . فكأننا به قد نزع نفسه جملة من زحمة الحياة وحلق فوقها يصدح وحده ناثراً عليها ذخائر كنوزه التى استمدها منها ، مبتسما بسمة العارف الهادئ غير مكترث لشىء مما تواضع عليه هؤلاء الذين لا يزالون يضطربون تحته فى الغمار . ولكنه مع ذلك كله لا يترفع عن أن يلتمس العطف والمواساة والتغاضى من هؤلاء الفانين الضعفاء، لأنه لا يزال يؤمن الإيمان كله بأنه إنسان من هؤلاء الضعفاء .

وقد مال شيكسبير فى خلق شخوص بعض إبداعياته الأخيرة إلى أن يجعلها صوراً خيالية ورموزاً للمعانى يصور فيها فلسفته وخلاصة مشاعره ، و يتخذها مطايا للتعبير عن كل ما ادخره فى أعماق نفسه .

ولهذا لم تكن من أشخاصه المعتادة التي يخلقها ويترك لها العنان لتسير على دفع عواطفها وطبائعها، بل كان هو الذي يحركها ويرسم لها سبلها.

ولم يكن شيكسبير في ذلك بدعة في الأدباء، فإن الأفذاذ العالميين منهم إذا بلغوا قصاراهم انتزعوا أنفسهم من غمار الحياة وعاشوا في عالم خاص بهم من المعاني، يتعاملون معها ويناجونها ويأنسون إليها كأنها لهم أخدان وأقران. فهم إذا وصفوا أشخاص عالمهم الجديد لم يصفوا سوى الرموز المعنوية التي يعيشون في وسطها ويعاشرونها.

ولعل تمثيلية العاصفة هي قصارى ما بلغه شيكسبير في فنه الإنساني. وإن كانت لا تبلغ في الروعة المسرحية ما تبلغه المآسي العظمى التي سبقتها. هذه الإبداعية ليست في نظرنا سوى صورة من حياة شيكسبير بين رموزه ومعانيه وما شيكسبير نفسه سوى بطلها ( بروسبرو ) الذي كان أميراً على ميلان ثم نزع من إمارته بخيانة أخيه، واستطاع أن يهرب مع ابنته ميراندا الجميلة النبيلة، حتى يبلغ جزيرة نائية ليس فيها أثر من مدنية الإنسان، واستطاع بعلمه وكتبه التي كان يعكف عليها أن يسيطر على قوى الأرواح فيسخرها. فاتخذ ( أريل ) الروح اللطيف المرح خادماً يؤدي له

ما يحتاج إلى الإبداع والدقة وحسن الحيلة ، وسخر كذلك ( كَلِبان ) ابن الساحرة ( سيكوراكس ) روح الفطرة الوحشية الدنيئة ، الذى لا يعرف إلا الأرض الكثيفة ، فجعله يخدمه فى قطع الأخشاب وما يشبه ذلك من الأعمال المبتذلة .

وساقت إليه المقادير وهو فى جزيرته بكل من آذوه من قبل ، وأخرجوه من إمارته ، فسخر ( أريل ) ليثير عليهم عاصفة ويسوقهم سالمين إلى الجزيرة ويجعلهم فى قبضة يده . ولكن أمره ينتهى معهم إلى العفو والتعالى عن الصغائر ، ويجتمع فى آخر القصة جيل الشباب ( ميراندا ) ابنته و ( فردناند ) ابن أعدائه ، ويؤلف الحب بينهما ويملأ قلبيهما بالأمل الجديد فى الحياة ، فيجدان فى الحب تلك السعادة التى ما زالت تجد موئلها تحت أجنحته الشفافة .

ولا ينسى الشاعر فى آخر هذه التمثيلية أن يجعل ( پروسپرو ) يحطم عصاه السحرية ، ويدفن كتبه الملأى بالأسرار ، وكأنا به يشير بذلك إلى اختتام حياته الفنية التى قضى العمر كله فى غمارها ، والتى اختتمها هذا الختام الرائع . وهو يشير فى نهايتها إلى زوال العالم كله بما فيه من مجد وزخرف فى عبارة نابضة بالعاطفة :

تقف ( ميراندا ) و ( فردناند ) ينظران إلى ( پروسپرو ، )

ويريانه مضطرباً في شجونه الثائرة، فيتأثران عطفاً عليه ورقة له ، فاذا ما أفاق إلى نفسه نظر إليهما وقال يخاطب (فردناند) :

«أى بنى! انشرح.أراك كئيبا ثائرالنفس، إنما هو حلم قدمضى وانقضى كرؤيا خيال . هؤلاء الأولى رأيت جميعاً لم يكونوا سوى سوابح روح مثلما قلت ، ثم ذابوا شعاعاً في ثناياهذا الهواء الرقيق.

ولعمرى لسوف تمضى جميعاً مثل تلك الأشباح في الأوهام، كل تلك البروج التى تخرق السحب ، وتلك القصور ذات البهاء، كل نخم من الهيا كل رفت فوقه روعة الجلال المهيب . كل هذا بل العوالم طراً، ما طواه هذا الفضاء الرحيب، سوف تفنى بما حوته جميعاً مثلما تنجلى مرائى الخيال . سوف تمضى فلا تخلف شيئاً وتعفى ريح الزوال عليها. هكذا نحن ، قد خلقنا جميعاً في حياة ضئيلة من خيال ، من نسيج الأحلام قدلفها السرمدمن حولها بنوم عميق.»

أليست هذه روح الشرق وفلسفته ؟ لقد سما الشاعر الانجليزى العظيم بعد كل إبداعه إلى ما هو فوق الإبداع . سما إلى الحقيقة التى تجعله شاعر الغرب والشرق معاً . سما إلى حيث يصاحبه المعرى والخيام .

# شيكسبير الشاعر

للأستاذ أحمد خاكى

## ١

بدأ شيكسبير يكتب الشعر وهو فى الثامنة والعشرين . وظل عشرين عاماً بعدها يرسل فيضاً من روائع الأدب الإنجليزى . وشعره موزع فى قصيدتين ، ومائة وأربع وخمسين مقطوعة ، وست وثلاثين مسرحية أو تزيد . لكنه — على الرغم من تعدد نواحيه — وحدة ذات سياق خاص .

لقد بدأ شعره عادياً لكنه لم يلبث أن كان شعراً ممتازاً . بدأ متكلفاً تظهر فيه المحسنات اللفظية ، لكنه انتهى مرسلا تتسابق فيه الأخيلة ، وتزدحم فيه التشبيهات والاستعارات والمجازات من غير أن تفسد المعنى . بدأ وشيكسبير يحتفل باللفظ أولاً ويعرض للمعنى ثانياً ؛ لكنه انتهى وشيكسبير يحتفل بالمعنى ؛ أما اللفظ فقد كان يواتيه من غير تكلف ولا عناء .

ولكن ما العوامل التى هيأت لتلك الشاعرية أن تنشأ وتنمو؟ لقد اختلف النقاد فى أمر الشاعر: أهو ثمرة من ثمرات العصر الذى يعيش فيه، أم هو عبقرية فذة تنبت وتنضج مهما تكن البيئة التى ينشأ فيها؟ اختلف النقاد فى تقدير العبقرية التى ترسل الشعر بوحى النفس كما يكون الإلهام، واختلفوا أيضاً فى أثر الوسط الذى ينشأ فيه الشاعر. وشعر شيكسبير شعر تمثيلى، فإلى أى حدٍّ يعبر عن تجاربه الخاصة؟ كل ذلك اختلف فيه النقاد. وعندنا أنه ينبغى ألا نسرف فى اتخاذ أحد المذهبين، فعلينا أن نقدر هذه العبقرية التى وُهبت من لدن الله سبحانه؛ وعلينا أيضاً أن نقدر العوامل التى هيأت لهذه العبقرية أن تنمو وتترعرع. علينا أن ندرس الوسط الذى عاش فيه شيكسبير لنقدّر شعره من كل نواحيه. فنفرق بين التجارب النفسية الصادقة التى يعبر عنها، وبين التجارب المصطنعة التى يقتضيها شعر التمثيل.

وقد كان شيكسبير شاعراً. أُلهم نفساً مُحسّة لها غرام بالجمال فى كل مظاهره. وعاش فى «ستراتفورد» وهو فتى. والبلدة تقع فى بقعة من أجمل بقاع الأرض. وقد أغرم غراماً شديداً

بالمراعى والغابات التى لعب فيها وجاس خلالها ؛ وكوّن بينه وبين الجداول والغدران علائق من المحبة والألفة ؛ ثم لقد رأى الأطيار والأزهار ، ولحظ الحيوان وهو يثب من مكان إلى مكان . كل هذه كانت تجارب الطفولة والشباب الأول . ثم لقد وُهب نفساً مُحسّة زكية فخرجت هذه الصور البراقة فى شعره . أنت تلمح هذه الآثار حين يصف الأشجار والحيوان ، وحين يصوّر ظواهر الطبيعة فيصف القمر حين يشرق ، والشمس حين تميل . وأنت تلمح صوراً لهذه البلدة الآمنة كلما حاول أن يصف غابة فى فرنسا ، أو جدولا فى بولونيا ، أو ليلة مقمرة فى ڤيرونا . فقد انعكست حياته الأولى فى بعض شعره كما تنعكس الصورة فى المرآة الصافية .

وقل مثل ذلك عن تجارب شيكسبير حين انتقل إلى لندن ، وحين اضطرب فى زحمة الحياة فيها . لقد كان ممثلا فطِناً ؛ عاش بين الجماهير يرتصد لحركات الناس وسكناتهم . وقد أدرك ما وراء الحكم وأبهته من المؤامرات التى تحاك خيوطها فى الظلام ، وقدّر عقلية الجماعة وما يتفاءل به الناس وما يتطيرون ، فصوّر هذه الجماعات وأخرج لنا فى شعره « أفلاماً » من حياة لندن

فى عهد اليصابات.. وليست المواكب التى يصفها فى روما والولائم التى يصورها فى الإسكندرية والبندقية إلا صوراً للجماعات التى اضطرب بينها وهو فى لندن .

وشيكسبير الشاعر يذكر الأحلام التى تدسّست فى وهمه وهو طفل ، وتبلّجت فى خياله وهو يافع . وفى «روميو وچوليت» يحاول أن يجمع بعض أحلام الطفولة فى صعيد واحد ، وذلك حين يتحدث مرْكيتو إلى روميو عن الملكة ماب . وهو خيال طفل ذلك الذى صوّر الملكة ماب كما صوّرها شيكسبير الشاعر . فهى مخلوق ضئيل جداً لا يبلغ هيكله حجم اللؤلؤة . وهى تسير فى موكب من المخلوقات الدقاق . وقد صُنعت مركباتها من خيط العنكبوت ، وغطاؤها من أجنحة الفراش . ويمضى شيكسبير أو مِرْكيتو — لسنا ندرى — فى وصف الملكة ماب . وليس كل ذلك إلا ذكرى مما عَلِق فى خيال شيكسبير من عهد الطفولة . فقد كانت هذه قصة شائعة فى أدب العامة ، وانتحلها شيكسبير فيما انتحل من مختلف القصص والخرافات .

فإذا أنت تركت حياة الريف وما كان ينعم به من أحلام الطفولة ، انتقلت مع شيكسبير إلى لندن ، فاستطعت أن ترى

صوراً شتى لحياة لندن موزعة فى تمثيلياته . وقد كانت لندن حين أقبل عليها شيكسبير فى سنة ١٥٨٦ تعج بصنوفٍ من الناس . وكان المجتمع فى عهد إليزابث ينطوى على كثير من الرعاع والنكرات والسفهاء ؛ وكان هؤلاء يروحون ويغدون فى لندن ، يكوّنون جماعات لها أوضاع خاصة . كانوا صعاليك يصطنعون الحيلة والمكر ، ويبتزون من العامة دراهمهم ومن الخاصة دنانيرهم . ولعله كان بين هؤلاء كثير من قطاع الطرق يسلبون الناس أموالهم كلما دعاهم إلى ذلك الخمر والنساء .

أمثال هؤلاء تستطيع أن تراهم فى الجزء الأول من تمثيلية « هنرى الرابع » . فقد اجتمعت فئة منهم تعاونت على العبث والفكاهة والإثم . وكان منهم فولستاف أقوى شخصية فكاهية صورها شيكسبير . وكان منهم الأمير هال ابن الملك نفسه . وكان هؤلاء عرابيد ، يصبحون ويمسون فى بيت من بيوت الخمر ، لا يريمون عنه إلا إذا أفاقوا . وكانوا يقطعون الطريق على الأغنياء ويسلبون مال الموسرين .

ألسنا نرى فى كل ذلك قطعة من الحياة على عهد اليصابات ؟ وألم يكن شيكسبير يصوّر لنا فى كل ذلك بيوت الخمر التى كان

يرتادها ؟ ثم ألم يلق شيكسبير فى حياته كثيراً من أمثال فولستاف والصعاليك الذين عاشوا معه ؟

وقد امتاز شيكسبير إلى جانب ذلك بتصوير الجماهير ، والجماهير التى صورها لم تكن — كما قلنا — إلا تلك التى اضطرب فى زحمتها وهو فى لندن . على أنه لم يتخذ نحو الجماهير وجهة سمحة ، ولم يقدر فيها ما يقدره أصحاب المذاهب الحديثة من أن لها سلطاناً يفرض الطاعة ، وعقلية تقتضى الاحترام ؛ فقد كانت عقلية الجماهير عنده قلقة جامحة سريعة التأثر ، يعصف بها الهوى فيطوّح بها من النقيض إلى النقيض ؛ وذلك الهوى هو الذى يفصِّله فى « يوليوس قيصر » حين يقوم مارك انطوان خطيباً على جثة قيصر ، فيستدر دموع العامة ، ويهتاج شعورهم الشخصى . ويكرر شيكسبير نفس الفكرة فى « كريولانس » . فقد كان هذا البطل الرومانى غرضاً لسخط العامة على الرغم مما أبداه من ضروب القوة والشجاعة والإقدام .

على أن العامة لم يكونوا وحدهم الذين أمعنوا فى ذلك الضلال البعيد ، بل لقد كان للخاصة شأن يماثل شأن العامة فى تمثيليات شيكسبير .

وكان من الخاصة فى عهده قوم مشاغبون صاخبون غير مبرّئين من الهوى ولا من الطيش ولا من النزق . يذكر لنا التاريخ شيئاً عن المؤامرات التى كانت تحاك بينهم ، وعن جرائم التعذيب والتقتيل وسفك الدماء التى ترتكب فى القلاع والقصور . وقد كانت الشحناء تبلغ بينهم حداً من القسوة والعنف يضطرب فيها الأمن وتمتنع الراحة ؛ وتضطر الحكومة إزاءها أن تتدخل لتؤمّن سائر السكان الوادعين . وترى صورة ذلك الشغب فى « روميو وچوليت » بين بيتين من بيوت النبلاء : أحدهما بيت مونتيجو والآخر بيت كاپيولت

وكان العامة والخاصة على السواء فى عصر اليصابات أغلظ قلباً وأشد قسوة من العامة والخاصة فى هذا العصر الذى نحن فيه . لقد كانت الحياة فى إنجلتره تنطوى على كثير من ضروب القسوة والعنف . كان يُشنق القتلة واللصوص فى الميادين العامة، وكان يساق هؤلاء وهؤلاء إلى مشنقة الجلاد تحت أعين الأطفال والنساء والرجال الذين أتوا ليرفهوا عن أنفسهم برؤية الأجساد البشرية وهى تتدلى من حبل المشنقة ! ثم كانت تقام فى الميادين العامة حلقات تتقاتل فيها الديكة ، وتتصارع فيها الكلاب

والدببة ، والناس من حول هذه المشاهد يضحكون و يتفكهون ! أعرفت الآن لِمَ كان يدخل شيكسبير فى تمثيلياته كثيراً من مشاهد القسوة التى يقشعر منها البدن . وحين ترى عطيل يقتل ديدمونا ، وما كبث يخوض بحراً من الدماء ، وهاملت يقتل اثنين أو ثلاثة قبل أن يموت ، فاذكر دائماً أن العصر كان وعراً غليظاً . وحينما تبرز أمامك تشبيهات القتل ومجازات الدم واستعارات التعذيب ، فاذكر أن هذه آثار العصر الذى عاش فيه الشاعر .

تلك بعض الصور التى تطالعك فى شعر شيكسبير . فهو حاول فى بعض ما كتب أن يصور أحلامه وخياله . لقد كان يرى العالم بأسره مسرحا يلهو عليه الناس ويلتقون فيه بالحزن والسرور ؛ والترح والفرح . وإذا كان قد ذهب بعض النقاد من أصحاب علم النفس إلى أن الشعر سجل للتجارب النفسية التى يتمرس بها الشاعر فشعر شيكسبير فى بعض نواحيه سجل لتجاربه . و إذا كان هؤلاء قد ذهبوا إلى أن التعبير عن هذه التجارب يجب أن يلتف بالخيال الجميل فقد كانت شاعريته تجعل هذه التجارب خيالا جميلا .

## ٢

نظرة عجلى نريد أن نلقيها على الشعر الذى أرسله شيكسبير أول ما أرسل . نظرة عجلى إلى القصيدتين الأوليين اللتين كتبهما الشاعر فى سنتى ١٥٩٣ و ١٥٩٤ .. فلعل هذه الفترة من تاريخ حياته كانت الفترة التى هجس بنفسه شيطان الشعر ، ومازال يهجس بنفسه حتى أخرجه من عالم الحياة الواقعة إلى عالم الأحلام . فى هاتين السنتين كتب شيكسبير «ڤينس وأدونيس» و «اغتصاب لوكريس » وفى هاتين السنتين أيضاً كتب أغلب مقطوعاته . وفى الشعر الذى كتبه فى تلك الفترة تظهر علائم العبقرية كما تظهر مثالب الشعر المبتدىء . تظهر فيها الصور الشعرية التى امتاز بتصويرها شيكسبير ، كما يظهر فيها التحسين اللفظى وكثرة الزخرف والإمعان فى الخيال والاندفاع وراء الاستطراد .

يقول النقاد إن «ڤينس وأدونيس» تمتّ بأسباب إلى الوسط الذى كتب فيه الشاعر . وهذا حق ؛ فأنت تحس فيها جواً «إنجليزياً» خاصاً على الرغم من أنها كانت تقليداً لبعض القصص

الإيطالية . وقد حاول شيكسبير أن يستعير قصة أدونيس من الأساطير الإغريقية القديمة .

وقد قيل إن أدونيس كان فتى جميل المحيا أحبته الإلهة ڤينس وأغرمت به غراماً شديداً ؛ لكنه جرح جرحا بليغاً إذ كان يطارد خنزيراً بريا . وقد فاضت روحه فحزنت عليه ڤينس حزناً شديداً، وما زالت بالآلهة حتى منحت الفتى ستة أشهر يعيشها على ظهر الأرض فى كنف الإلهة ڤينس . وفى هذه الأشهر الستة تنجاب ظلمات الشتاء ويتفتح الربيع، وتطالعك الأرض بوجه طلق وتزيّن الطبيعة . فالحب بين ڤينس وأدونيس يتألف الدنيا جميعاً . — تلك هى القصة التى ضمنها شيكسبير هذه القصيدة الطويلة . والنقاد على أنها لم تكن إلا تمريناً له على قول الشعر . فهو يحاول أن يستطرد ، وهو يحاول أن يلائم بين الألفاظ والمعانى ، وهو لم يبلغ بعد تلك الحرية المطلقة التى سيبلغها وهو شاعر ناضج .

على أن القصة فى كثير من نواحيها لم تكن إلا صوراً من الحياة الريفية التى عاشها شيكسبير . فأنت تحس هنا وهناك أنه يصف البلدة التى نشأ فيها وهو يافع . إنه يصف الربيع الطلق ضاحك المحيا ، ويصف أنواع الحيوان التى كانت تجوس خلال

الغابات حول بلده : الحصان والخنزير البرى والأرنب والقبّرة . وهو يصور كل ذلك تصويراً جميلا يدلك على علائم النبوغ الذى يوشك أن يتدفق بفيض من الشعر الخالص .

كانت القصيدة الأولى عن الحب بين ڤينس وأدونيس ، أما القصيدة الثانية فقد كانت عن الشهوة المعلنة ، كانت عن «اغتصاب لوكريس» ولوكريس لها قصة انحدرت من الأساطير الرومانية القديمة. فقد قالوا إنها كانت زوجة جميلة طاهرة الذيل، لكن فتى من أبناء تاركوين ملك روما يدلف إليها فيغتصب عفافها فى ساعة من ساعات الإثم . وتجزع السيدة لذلك جزعاً شديداً وتبعث إلى زوجها وأبيها وتفضى إليهما بما حدث ، وتدعوهما إلى الأخذ بالثأر ثم تقتل نفسها . هذه اللوعة التى أصابت قلب لوكريس هى التى تبرز لنا فى قصيدة شيكسبير . وهو بعد ذلك يحاول أن يعالج بعض ما فى الحياة من محن وما يدور حولها من فلسفات . فالقصيدة تمرين آخر من تمرينات النظم ، لكنه يبدو وقد خطا فيها خطوة أخرى للأمام .

قال هازلت إن هاتين القصيدتين لم تكونا فى نظره إلا بيتين بيوت الثلج . ولعله كان يقصد أن هناك شيئاً واحداً ينقصهما

وهو العاطفة . كان شيكسبير لا يزال شاعراً ناظما ، فلم يكن من شعره الأول إلا محاولة النظم . وسنرى عاطفته وهى تكبر وسنرى نظمه وقد أصبح شعراً فى بعض مقطوعاته ثم فى تمثيلياته .

٣

ينبغى لنا أن ندرس الآن مقطوعات شيكسبير . وليس من اليسير على الكاتب العربى أن يفصّل ما يعنيه أصحاب الأدب الأوربى حين يتكلمون عن « المقطوعة » ، وهى ترجمة فجة لكلمة sonnet ، فبنى هذه المقطوعات ومعناها غريبان عن الأدب العربى . وحسبنا أن نعلم أن المقطوعة الواحدة كانت تتركب من أربعة عشر سطراً ، وأن من بين هذه السطور ثلاث رباعيات ، وأن السطرين الأخيرين كانت لهما قافية واحدة . أما من حيث المعنى فقد كان يسرى فى كل مقطوعة فكرة واحدة تتألفها من أولها إلى آخرها . وقد انتقلت هذه المقطوعات من إيطاليا إلى انجلترة فيما انتقل من أنواع الأدب وفصائله . ألف بها بترارك ، وانتشرت على عهد اليصابات فى إنجلترة ، وكانت دائماً صلة بين المادح والممدوح .

واتخذها شيكسبير وسيلة من وسائل المدح على أرجح الأقوال .

وقد ألّف شيكسبير ١٥٤ مقطوعة من المقطوعات . والراجح أنه ألف أكثرها بين سنتى ١٥٩٣و١٥٩٤ ، وهو بين الثلاثين والحادية والثلاثين . وهى تنقسم — عند جمهرة النقاد — إلى قسمين . القسم الأول — وهو ١٢٦ منها — موجّه إلى نبيل صغير السن ، والقسم الثانى — وهو بقيتها — موجه إلى سيدة حسناء . لكن الحق أن كثيراً منها ليس موجّهاً إلى ذلك النبيل ولا إلى تلك السيدة . بل هناك أربعون منها يناجى فيها الشاعر نفسه ، و بعضها يعالج معنويات عامة مثل « الموت » و « الزمن » ؛ وليس فى كل هذه المقطوعات ما يدلنا على أنها كتبت لتؤلف موضوعا واحداً ، على الرغم من أن النقدة قد حاولوا أن يؤلفوا بين معانيها ، وأن يستخرجوا منها موضوعاً شعرياً له وحدة خاصة .

لكن هذه المقطوعات وموقعها من شعر شيكسبير وما كان يعنى بها شيكسبير نفسه كانت مصدراً لضروب الحدس والتخمين . ولعله لم يصرف الكتّاب والنقدة من وقتهم على موضوع واحد مثل ما صرفوا على هذه المقطوعات . فهل نظمها شيكسبير حقاً لتكون من قصائد المديح ؟ ومَنْ كان هذا النبيل الذى توجه

إليه بها ؟ أيكون « إيرل سوثامبتن » وهو فتى من النبلاء كان يرعى شيكسبير ؟ وإذا كان المقصود بها هو المديح فلمَ يتحرق الشاعر وجداً على ممدوحه ، ولِمَ يتحدث إليه حديث العاشق الولهان ؟ إن هؤلاء الشعراء — وخاصة مَنْ كان منهم فى عصر اليصابات — لم يكونوا يعرفون حدوداً للحشمة والوقار . بل لقد كانوا فى بعض الأحيان يمدحون الملكة نفسها فيصورون حبهم لها وغرامهم بها كما يصور العاشق حبه لعشيقته . أم يكون شيكسبير شاعراً متهتكاً فاجراً أغرم بهذا الفتى غراماً ، فهو لا يزال يشكو له ما يلقاه فى عشقه من الذل والهوان ؟ كل هذه قد أصبحت من مشاكل التاريخ الأدبى فى إنجلترة .

ففى القسم الأول من هذه المقطوعات يتقدم الشاعر إلى نبيل مجهول الاسم يعبّر عما يكنه له من الحب والعشق ، ويذكر ما يلقاه فى البعد عنه من الوجد والألم . ثم هو يريد أن يصف جمال الربيع وأن يحس ببهجة الصيف ، لكنه لا يجد إلى ذلك سبيلا حينما يخلو إلى عاطفته المشبوبة . إنه يعشق ويكاد يقتله الشوق إليه والإشفاق على هجره إياه . ثم هو يعتب على الفتى أنه خان الأمانة فسلبه عشيقته ، وهو يغفر له تلك الإساءة ويجزيه

بها إحساناً . ثم يطغى الحزن والألم بعض أحيان على الشاعر فيدب في نفسه اليأس ، ويثور بالرذيلة التي فشت في أيامه ، ويضيق بالتمثيل الذي اتخذه صناعة . كل تلك المعاني تنساب في خيالك وأنت تقرأ تلك المقطوعات التي اصطلح النقاد على أنها القسم الأول من مقطوعات شيكسبير .

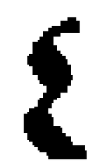
فإذا أنت أقبلت على القسم الثاني رأيت أن الشاعر قد خلّف الفتى النبيل والتفت إلى حبيبة ذات شعر أسود وإهاب أسمر . وهذه الغانية التي يستعطفها تتجاهل قدره ، وتتعالى عليه ، وتدعه فريسة بين الأمل الخائب والألم المبرح . بل هي تعشق الفتى النبيل وتبذل له من النفس والجسد ما كان يبتغيه الشاعر . ثم هو في محنة نفسية حادة : إنه موزّع بين الفتى والفتاة ، فهو يحب هذا ويعشق هذه . وهو يخرج من هذه المحنة خروجاً فلسفياً : لأنه يدرك أن الحب لا بد أن ينتهي إلى البوار ، وأن الشعراء من أمثاله ينبغي ألا يسرفوا في التهافت على الغواني ، وألا تستهلكهم الفتنة ، وتستذلهم الشهوة . فهذا أجدى عليهم وأحفظ لكرامتهم .

تلك بعض المعاني التي تتجلى لنا في مقطوعات شيكسبير . حاول الكثير من النقاد أن ينفذوا خلالها ليستنتجوا حياة

الشاعر نفسه . والحق أننا لو اتبعنا ما أسلفنا فى أول هذا الحديث من أن الشعر تجربة نفسية ملفّفة فى خيال جميل، لرأينا رَأْىَ هؤلاء الذين استنتجوا من المقطوعات بعض ما حدث فى حياته الخاصة . وعلى هذا الأساس حاول ناقدٌ حديث أن يضرب هذا مثلا للإباحة المطلقة التى كانت فى النهضة . إنه يرى أن هذا التوزع بين الفتى الجميل و بين المرأة الحسناء لم يكن إلا مثلاً للحرية الجنسية التى استباحها الأدباء فى عصر النهضة ؛ يؤيد ذلك أن ذلك العصر كان حراً أكمل ما تكون الحرية ، وأن المتفنن فيه كان يؤمن بالشخصية أو الفردية ، لا يتحرج من أن يحطم أوضاع المجتمع ؛ وكل هذا معقول . لكنّ طائفة أخرى من النقاد لا ترى هذا الرأى ؛ بل تنكره أشد الإنكار وتقول إنه لا يستند على دليل قاطع فى حياة الشاعر ، وترى أنه لا ينبغى أن نفرض علاقة بين الإباحة فى عصر اليصابات و بين حياة شيكسبير الخاصة ؛ إذ ربما كانت الإباحة التى يصورها مصطنعة أحب أن يقلد بها كتاب النهضة وشعراءها . وحسبه ذلك .

لا زالت هذه المشكلة قائمة ، ولا زال النقاد ومؤرخو الأدب فى خلاف عليها . ولعل شيكسبير لم يكن يتحدث عن حوادث بعينها ،

ولا عن أشخاص بعينهم ، ولعله أن كان يحتذى بعض التقاليد والأوضاع التى انحدرت مع المقطوعة من إيطاليا إلى انجلترة . فهى إذاً أخيلة مصطنعة مثل تلك التى يرسلها الشاعر على لسان العاشق ، وهى قد كُتبت وفقاً لهذه الأوضاع . وهى قد تحوى لمحات هنا وهناك من حياة الشاعر نفسه ، لكن أغلبها تخيل ومبالغة وإسراف . بل لعل الوجهة التى اتخذها شيكسبير عند نظم المقطوعات لم تكن وجهة ذاتية بل كانت وجهة تمثيلية . فكما أنه قرأ قصصاً إيطالياً وفرنسياً و إسبانياً ، وكما أنه انتحل تمثيليات من ذلك القصص، فقد استعار كيان المقطوعة وخيالها لمقطوعاته هو نفسه . زد على ذلك أن التصادم بين صداقة الرجل وحب المرأة كان من بين المعانى التى عالجها شعراء هذا العصر . وحينما نقدر هذا الوجه التمثيلى من شعر شيكسبير يصعب علينا أن نؤمن بأنها كانت تصور وجوهامن سيرته الخاصة .



## ٤

جدير بنا أن نقدر آثار عصر اليصابات فى شعر شيكسبير التمثيلى قبل أن ندرس هذا الشعر ، لأن أحوال هذا العصر هى التى

خلقت الجمهور الذى كتب له شيكسبير . لن نتحدث إليك عن المسرح ولا عما تهيأ للكتاب والشعراء من رعاية أدبية شجعتهم على المضىّ فى طريق التأليف والتمثيل . ولن نبسط لك الحديث فى شؤون السياسة والاقتصاد التى صحبت اليصابات فى حكمها الطويل ، فقد عرفت عن هذا شيئاً فيما أُسْلِفَ عليك من صحائف هذا الكتاب . ولكن لا بد لنا أن نقف قليلاً عند موضع أو موضعين من آثار هذا العصر حتى ندرك العلاقة بين شيكسبير الشاعر وبين القوم الذين كانوا يقرأون هذا الشعر ، ويسمعونه ممثّلا على خشبة المسرح .

لقد ذهب أصحاب النقد الحديث إلى أنه لابد للشاعر من جمهور يستمع له ويلتفت إليه ويعجب بشعره ويتفهمه . وأنه لابد للشعر من هذا الجمهور القارىء أو السامع . وبين الشاعر وبين قومه صلات من التفاهم لولاها لم يكن الشاعر شاعراً ولم يكن لشعره قيمة . ولقد كان لشيكسبير مثل هذا الجمهور السامع القارىء . وكان بينه وبين الذاهبين للمسارح من أبناء لندن كثير من وشائج الفهم . ولنبحث الآن بعض العوامل التى كوّنت هذا الجمهور الذى يعنى بالتمثيل ويهتز للشعر ويتلهف على سماعه،

فلعل هذا جميعه قد طوّع لشيكسبير أن يكتب ما كتب . فهو قد كان ممثلاً محترفاً وشاعراً يتكسب بشعره ، و إقبال السامعين والناظرين هو الذى هيأ له سبيل الارتزاق .

كان عصراً توطدت فيه أركان الحكومة ، وابتُنيت الملكية على أنقاض الإقطاعات التى تفانى أمراؤها ، ونشأت البلاد نشأة قومية تمثلها الملكة . ثم تبع ذلك الاستقرارَ الحكوميّ استقرارٌ اقتصادى . فقد تكثّرت الثروة التى كان ينتزعها ذئاب البحر الإنجليز من سفائن الإسپان ، وقام من بينهم قوم من أمثال ولتر رالى وفرو بشير وفرنسيس دريك ، فكانوا أول من ألقوا أساس الإمبراطورية الناشئة ، وحينما زادت الثروة استطاعت اليصابات أن تثبّت النقد الإنجليزى ، فكان هذا الاستقرار الاقتصادى مما هيأ للناس كثيراً من أوقات الفراغ . وحين تهيأت للناس أوقات الفراغ نما الأدب المسرحى ، فقامت فى إنجلترة حركة من التأليف والتمثيل فى وقتٍ معاً . وكانت الملكة نفسها على رأس تلك الحركة ، وكان النبلاء يرعونها ، وكل ذلك قد هيأ لشيكسبير أن يكتب ذلك الشعر المسرحى ليرضى حاجة أدبية فى نفس الجماهير ، وليشبع أبناء الشعب ممن أرادوا أن يقضوا أوقات فراغهم فى المسارح والملاهى .

ثم إنه كان عصر بطولة أيضاً . كان عصراً شاعت فيه بين الناس عقيدة شعرية تؤمن بالخيال وتجرى وراء الغرائب . وهؤلاء الذين ذكرنا من ذئاب البحر همُ الذين خلقوا بعض هذه العقيدة الشعرية . لقد كانت أمريكا قارة فجة ، وكان النزاع على استغلالها حاداً عنيفاً بين الأمبراطورية الإسبانية القديمة وبين إنجلترة الناشئة . وقام بين هؤلاء وأولئك نضال طاحن ، وكانت أخبار هذا النضال تصل إنجلترة بعد أن تزيد خيالاً ووهماً . وكانت سبائك الذهب والفضة ، تزدحم فى خزائنها ، وكانت أخبار الذهب والفضة تحدث رنينا فى أسماع القوم . كل ذلك أشاع بين الناس روح البطولة ، لكنه أشاع بينهم أيضاً أخباراً مغرقة فى المبالغة وممعنة فى الوهم .

لقد كانت منهم أمة تصدق كل ذلك : كانوا يصدقون ما يُحمل إليهم من وصف مدائن الذهب التى كان يبتنيها الإسبان فى أمريكا ، ومن أخبار الكفاح الذى كان يقوم بين قرصان البحر من الإنجليز والإسبان . وهذه الأخبار التى تسربلت بالوهم و التى اتشحت بالخيال البعيد هى التى كوّنت عند الناس على عهد اليصابات عقيدة شعرية خاصة ، كانوا يتذوقون بها

الشعر ، و يتعرفون بها آيات الأدب ؛ وحينما ملكت هذه العقيدة الشعرية قلوب الناس فى ذلك العصر ، دفعتهم إلى الاستزادة مما يقول الشعراء ، وأدت بهم إلى المسرح ليرضوا خيالهم الشيق . وكأنما كان بين شيكسبير و بين عصره كثير من الوشائج . فإذا كان الناس يتشوفون إلى الشعر فقد كان يؤلف لهم شعراً ، و إذا كان الناس يحسون حاجة إلى إرضاء خيالهم فقد كان يطير بخيالهم إلى حيث يريد أو يريدون .

كان شيكسبير فى كثير من شعره يميل إلى الإغراق فى الخيال . كان رومانتيكياً مبتدعاً . إذا تحدث فى شعره عما فعله عطيل وهو جندى ادعى أنه انتزع قلب رجل من بين ضلوعه ، و إذا تحدث عن الرذيلة صورها فى صورة الشيطان نفسه ، و إذا تحدث عن روميو جعله فتى يتقلب فى رغام الأرض غراماً بجوليت ، ويذهب بعض النقاد إلى أن فى ذلك مبالغة تخرج عن آفاق الشعر نفسه . ولكن ينبغى لنا أن نذكر هذه العيون الشاخصة التى كانت ترقب المسرح ، وتلك العقول الساذجة التى كانت تصدق كل ذلك .

ثم قد علمت أن لم يكن المسرح فى عهد اليصابات تاماً كالذى

نراه اليوم . بل لقد كان أقرب إلى الفطرة . والمخرج الحديث يصطفى الأضواء والأنوار والموسيقى لـكى يبلغ خداع النفس والنظر الذى لابد للمتفرج أن ينساق وراءه . إنه يصطفى المناظر الأخاذة والستائر التى تعلو وتهبط عند الحاجة . لكن المسرح فى عصر شيكسبير كان يخلو من كل هذه الأوضاع والحيل . وكان الشعراء ، ومنهم شيكسبير ، يصطنعون الشعر ليبلغوا هذا الخداع النفسى والنظرى الذى ذكرنا . كان الشعر يقوم مقام المناظر والزخارف والستائر والأضواء والموسيقى . بذلك الشعر كانوا يستطيعون أن يصوروا المناظر التى يريدون ، وبذلك الشعر كانوا يهيئون عقول الناظرين والسامعين ، وبذلك الشعر كانوا يتغنون وينشدون . وشيكسبير من أكبر الذين استخدموا الشعر فى هذه الأغراض . فهو فى « الملك لير » يصور بشعره عاصفة هوجاء تعصف بالملك نفسه . وهو فى « كما تريدها » يصور الأشجار والأنهار التى يتنقل فيها أفراد القصة ، وهو فى « روميو وچوليت » يصف الليل كأنك تراه . فلم يكن كل ذلك شعراً مسرحياً فحسب ، بل كان شعراً وصفياً يصور لك مناظر القصة ويتنقل بك من منظر إلى منظر حتى « يعلّق » خيالك

وحتى يمضى فى ذلك الخداع الذى لا بد منه عند رؤية القصة المسرحية .

واللغة الإنجليزية على عهد إليصابات كانت هى الأخرى مما يسَّر هذا الشعر الذى أرسله شيكسبير . ذلك بأن اللغة فى ذلك العصر كانت فى فترة انتقال سريع بين القديم الحديث . ولم تكن قد تأصلت أصولها بعد ، فهى كانت مبهمة معقدة . وقد هبط وحى شيكسبير عليها فلم تعقه عن استعمالها قواعد اللغة ، ولم تحل دونه أقوال النحاة واللغويين ممن يصرفون الشعراء بعض أحيان عن القول الجميل . ثم إنه كان حراً فى اصطناع الكلمات وفى اشتقاقها ، كما كان حراً فى نظم الشعر المرسل من غير أن يتقيد بالقوافى . ولذلك فقد استطاع شيكسبير أن يبلغ الذروة فى نظم الشعر المرسل ، وبخاصة حين ألف أكبر مآسيه « هاملت » و « ماكبث » و « الملك لير » و « عطيل » .

تلك إذاً هى العوامل التى أتاحت لشيكسبير أن يقول الشعر . عوامل تأثر بها لأنها كانت فى عصره . أرأيت إذاً أن حياة التأليف التى عاشها شيكسبير ليست إلا دليلا على أنه لا بد أن يكون بين الشاعر وبين جمهوره القارىء أو السامع صلات من

التعاطف والفهم ؟ لقد أثر شيكسبير فى الوسط الذى عاش فيه ، لـكنه تأثر بهذا الوسط . ولعل هذا هو الشأن فى كثير من حياة الشعراء والمتفننين . فإنهم يعطون ويأخذون ، ويؤثرون ويتأثرون ، ويفعلون وينفعلون .

٥

أنت تحلل شعر شيكسبير فتراه دنيويا لا يصف ما قبل الخليقة ولا ما بعد الموت إلا قليلا ، ثم تراه متأثراً بأفكار الفحول من رجال النهضة . وأنت تقرأ التمثيلية فترى أن لها أساساً من حياة الناس فى عصر اليصابات . وهـذه البطولة التى تطالعك بين كل بيت وبيت ، وهذه اللغة الحرة التى تتّسق أُلفاظها ، وهذه الحيوية الشعرية التى تمعن فى التخيل : كل هؤلاء آثار العصر نفسه . بل أنت تستطيع أن تحلل كل واحدة من تمثيلياته على أساس أنها قصيدة طويلة من الشعر . وليسُ ما كبث ولا الملك لير ولا عطيل ولا هاملت إلا شعراء ، ألفوا ذلك الشعر الذى يعبر عن أطواء نفوسهم : هو شعر مثل ذلك الشعر الذاتى الذى سماه أرسطو « شعر الغناء » . وهذا الطابع الغنائى أقل

النواحى حظا من التقدير فيما كُتب عن شعر شيكسبير .

وليس من اليسير أن نحلل لك أحسن ما فى هذا الشعر ، لأنه يفقد رواءه إذا هو ترجم إلى غير اللغة التى نظم فيها . فحسبنا أن نقف عند بعض مواضعه حتى نتخذ منها أمثلة . ولنذكر دائماً أن اللغة الإنجليزية تختلف فى طبيعتها وجرْسها عن العربية ، وأن الشعر إذا ترجم فإنه يفقد مبناه إن لم يفقد قليلا من معناه .

ففى تمثيلية « هاملت » يقع الأمير هاملت فى محنة نفسية حادة . وهو يفكر فى الانتحار لما أصابه من العجز والحزن والهوان والإخفاق. وهو يناجي نفسه بينما هو موزع بين حب الحياة وبين الإقدام على الانتحار . وهو يرى أن الوجود وعدمه مشكلة ، وأن الحياة بأجمعها ما هى إلا بحر زاخر يلتطم بالأمواج العاصفة . وهو يسائل نفسه : أيكون أكرم على المرء أن يتخذ العُدّة والعتاد أمام ذلك الخصم اللجب أم يستسلم لآلامه التى تحز فِي القلب؟ ثم هو بعد ذلك يشبه الموت بالنوم، ويعجب أى أحلام سوف تقلقه حين ينام . ثم يضرب بنظراته إلى ما وراء الموت . فيعلم أنه عالم لم يُكشف بعد ، يذهب إليه كل مسافر

فلا يؤوب . وذلك الخوف مما وراء الموت هو الذى يأخذ من شجاعتنا ويفتّ فى أعضادنا ، وهو الذى يضطرنا إلى أن نرضى بما نحن فيه من آلام . فذلك خير لنا من أن نطير إلى آلام أخرى لا نعرف شيئاً عنها .

وأنت تنتقل فى مثل تلك المناجاة من بيت إلى بيت فلا يخلو بيت واحد من تشبيه جديد أو صورة شعرية يانعة . فالحياة بحر زاخر كأنما هى جيش لجب ، والإنسان حين يصارعها . كالمحارب ، ثم الموت بعد ذلك نوم ، ثم إن الحياة الأخرى أرض لم تكشف بعد . كل هذه صور تنساب فى خيالك تأخذ كل واحدة منها بتلابيب الأخرى . فإذا أنت قدرتها جميعاً وجدت أن أهم ما يمتاز به شيكسبير هو الجرأة فى التشبيه والاستعارة .

وإذا ألقيت بنظرة أخرى على بعض الشعر الذى نظمه فى « ماكبث » طالعتك هذه الجرأة اللغوية التى رأيتها فى «هاملت» فماكبث طاغية . أخذ المُلْك غصباً وخاض إلى التاج بحراً من الدماء . لكنه فى أخريات أيامه يحس أنه قد أشرف على المصير الذى ينتهى إليه الطغاة دائماً . وهو يسمع بموت زوجه فتصغر

الحيـاة أمامه ثم تصغر وهو يقول هذا الشعر الذى أترجم لك بعضه :

« غداً وغداً ثم غداً ! إن الأيام لتزحف وئيداً يوما بعد يوم حتى تنتهى إلى آخر كلمة سجلهـا الدهر . وكذلك ينخدع الأغبياء من بنى البشر . يسوقهم أمس الدابر إلى الموت المظلم . انطفئى ! انطفئى أيتها الذبالة القصيرة ! ما الحياة إلا شبح يسير ، إنها ممثل مسكين يقضى ساعته فوق المسرح ، ثم لا يُسمع له رِكْز . إنها قصة يتلوها أبله ، تملؤها الضجة والغضب ؛ لـكنها لا تعنى شيئاً » .

وأنت تلحظ هنا أيضاً كيف تزدحم هذه الصور العقلية وكيف يلتقى كل خيال بكل خيال آخر . وهو يستخدم الحواس جميعاً ، وأخيلته متحركة عنيفة تـكاد تمتلخ الإحساس امتلاخا . فهناك ظلام دامس ، وهناك شبح يتحرك وذبالة أو شمعة قصيرة ، وممثل صاخب على المسرح ، وقصة يتلوها أبله ، تلك هى الحياة . لكن كل هذه صور عقلية تمتاز بالجرأة فى التشبيه ، وذلك كما قلنا أكبر ما يمتاز به شيكسبير .

ثم انظر بعد ذلك إلى هاتين القطعتين ، وسترى فيهما نفس

الجرأة فى التشبيه ونفس الحرية فى التعبير ونفس الإمعان فى الخيال .

أما الأولى فهى قطعة يصف فيها بلاده فى تمثيلية « ريتشارد الثانى » واستمع إلى شيكسبير الوطني حين يصف انجلترة فيمضى هذا الوصف فى الصـــور الشعرية التى تتراءى لك سريعة متألقة جميلة :

« هذا العرش الذى اعتلاه الملوك ، هذه الجزيرة ذات الصولجان ، هذه الأرض صاحبة الجلالة ، هذا المقعد الذى تربع عليه الإله مارس : جنة عدن الأخرى ، والفردوس الصغرى . هذه القلعة التى شيدتها لنفسها الطبيعة كيما تأمن غوائل الفتنة وتنأى عن يد الحرب ، هذا المهد السعيد الذى أخرج رجالا ؛ هذا العالم الصغير ، هذا الحجر الكريم الذى رُصِّعت به مياه البحر الفضى . . . . هذه البقعة المباركة ، هذه الأرض ، هذه المملكة ، هذه الإنجلترة . »

أما القطعة الثانية فهى عن الموسيقى وهى بعض سطور قالها لورنزو لحبيبته چسيكا فى ليلة مقمرة ساحرة من ليالى البندقية . وهو يقول لها وقد نظر إلى السماء :

« أى چسيكا ! اجلسى وانظرى إلى صفحة السماء كيف رُصعت بأطباق من الذهب الوهاج . ليس بين الأفلاك التى ترَين فلك واحد مهما صغر إلا وهو يغنى فى دورانه مع الولدان المخلدين فى الملأ الأعلى كما تترنم الملائكة . مثـل هذا النسق يتجاوب بين الأرواح الخالدة، لـكننا لا نستطيع سماعه مادامت قد ضُربت علينا حجبٌ كثيفة من الطين والقتام »

تلك إذاً لمحات من شعر شيكسبير . لقد كان إماماً فى فن الشعر ، وكان كما قلنا جريئاً فى اصطناع ألوان البيان . على أنك تستطيع أن تعتبر كل تمثيلية من تمثيلياته قصيدة منسقة الأطراف. وقد قام بعض النقدة فى العصر الحديث يبحثون لغة هـــذه التمثيليات ، ويسجلون أخيلتها . وقد ذهبت ناقدة منهم إلى أن فى كل واحدة منها نوعاً من أنواع البيان يخلق فيها وحدة لفظية ومعنوية خاصة تساوق بين أطرافها . فى كل واحدة من التمثيليـات نوع من التشبيهات والاستعارات يسرى فى كل أجزائها . ففى « روميو و چوليت » مثلا يميل شيكسبير إلى الاستعارة من « النور » ؛ فهو يشتق من النور والضوء أكثر الأخيلة التى يسوقها فى تلك القصة . فوجه چوليت هو الشمس

نفسها ، وهى تشرق فى الشرفة فتقتل القمر الأصفر الغيور . وأما الحب بينهما فهو سريع ، يومض فى لمح البرق ، ويمضى كالبرق الخاطف . ثم فى « ما كبث » ترى نوعاً آخر من تشبيهات الدم واستعارات القتل وأخيلة الظلام . والمسرحية جميعها غارقة فى الدماء والظلام . فأخيلة ما كبث نفسه تدور حول الدم ، وهو يصيح دائماً « الدم ! الدم ! الدم ! » ، وهو يرى أن يديه يدا جلاد ، وأن شيطان دنكان قد أهريقت عليه الدماء . ثم إن زوجه نفسها تستهين عند اقتراف الجريمة ببقع الدماء التى لوثت يديها ويدى زوجها ، لكنها تجن أخيراً ، فتحسب أن الدماء ما زالت تلطخ يديها ، وتخال فى سورة جنونها أن كل ما فى بلاد العرب من العطر لن يزيل تلك البقع الحمراء .

كذلك تستطيع أن تفصّل الأخيلة التى تبدو لك فى مآسى شيكسبير الكبرى . أما فى « هاملت » فهناك أخيلة تمتّ بأسباب إلى المرض والعلة . وهاملت نفسه يرى أن الفوضى التى يعانيها ملك أبيه . إنما هى كالعلة حين تخترم جسم المريض . ثم إذا بحثت فى « الملك لير » راعك منها تشبيهات اتخذت من أنواع الحيوان . والناس فيها ضعاف تلعب بهم الآلهة كما

يعبث الصبيان بصغار الطير ، والملك لير لايرى ابنتــه العاقة إلا كمثل الحدأة التى تنهش قلبه ، أو كمثل الحية الرقطاء التى تنفث فى جسمه السم الزعاف . وكذلك قل عن « أنطوان وكليوپاتره » ففيها تشبيهات من العظمة والمجد والجبروت . كل هذه فصائل من الأخيلة اختص بها شيكسبير كل واحدة من مسرحياته . فكان لكل واحدة منها جو خاص أشاع فيها وحدة المعنى ووحدة الخيال .

ثم لقد كان شيكسبير مصوراً يشخص هؤلاء الأفراد الذين تعج بهم تمثيلياته . لقد كان وليم هازلت يرى أن تمثيليات هذا الشاعر العظيم متحف من متاحف النحت والتصوير . وقد علمت أنه خلق عالماً خاصاً وأسكن هذا العالم شخصيات كل منها لهـا طابع خاص . ولكن أى طابع ذلك الذى يميز كل شخصية عن الأخرى ؟ ولقد كان يرى أن الحديث عنوان الشخص الذى يتكلم . لذلك يجرى على لسان هذا الفدم الرعديد ما لايجريه على لسان ذلك البطل الصنديد . ولذلك كان يختلف حديث الملوك عن حديث الصعاليك . هناك ذلك اليهودى الشيخ « شيلوك » إنه يتحدث كما يتحدث غيره من

بنى إسرائيل ؛ وهو يقتبس من التوراة ، ويذكر النبي دانيال ، ويستشهد بما كان يفعله يعقوب عليه السلام من استغلال الرعاء . كل هذه مشخصات لفظية استعملها شيكسبير حتى يختلق شخصياته ويجعل لها حياة خاصة . ولن تجد شخصيتين تتفقان فى الكلام الذى يجرى على لسانيهما إلا إذا اتفقتا فى بعض عناصر الخُلق .

وهذه الشخصيات على اختلافها هى التى مكنت شيكسبير من أن يحاول الابتداع فى اللغة . لكن شيئاً آخر فى المواقف المسرحية قد فتّق خياله . ذلك أن شيكسبير قد نبغ فى تصوير المواقف الشعرية التى كان يدبّرها على المسرح . وفى هذه المواقف الشعرية كان يرسل شعراً مطابقاً للأحوال التى قيل فيها . والشعر الذى يرسله فى مثل هذه المواقف لا يكون كامل الأثر إلا إذا قدرت الموقف أولاً . فالملك لير يلقى ابنته الصغرى كورديليا وهو مذهوب العقل لا يكاد يعى شيئاً ، وتحاول ابنته أن ترد إليه عقله ، فيثوب إليه الرشد رويداً رويداً ، ثم يصور لذعة الألم التى يحسها فى هذه الكلمات :

« إنكِ تسيئين إلىّ إذ تخرجيننى مِن هذا القبر . ما أنت

إلا روح من النعيم! لكنني موثق إلى عجلة من نار؛ وإن دموعي لتشوي وجهي حتى لكأنها رصاص مذاب »

ألست ترى أن قيمة هذا الشعر سامية في نفسها، وهل يكون أشد الألم البدني أكثر مما يحس الإنسان إذا هو شدّ إلى عجلة تنضح لهباً وناراً؟ لكنّ هذا التصوير المادي للألم ليس إلا رمزاً للألم النفسي الذي كان يحسه لير. ولا سبيل إلى تقدير هذا الألم النفسي حتى تعرف القصة التي وراءه. فإن الألم ليحز في نفس الملك الشيخ لأنه كان قد طرد ابنته الوفية كورديليا، وأحب ابنتيه الأخريين اللتين نبذتاه في العراء. لكن كورديليا ظلت وفية لأبيها عطوفا عليه. وهي تلتقي به هنا وهو مذهوب العقل. فما تزال تطامن من نفسه حتى يثوب إليه الرشد؛ فيدرك أن الذي يردّ إليه العقل إنما هي ابنته البرة التي أساء إليها، فيرسل هذا الشعر الذي نقلت إليك سطوراً منه.

ومثال آخر لتلك المواقف الشعرية أريد أن أحدثك عنه. فقد خاض ماكبث بحراً من الدماء في سبيل التاج، وأصبح ملكا على اسكتلندة بعد أن أعمل السيف والنار في غيره من الأمراء والنبلاء، وكان ماكدف قد هرب إلى انجلترة ليعد جيشاً

يلاقى به ما كبث ويرد التاج إلى ذويه . لكنّ ما كبث يعلم بالأمر فيقتل زوج ما كدف ، ويذبح أولاده ، ويدك قلعته دكًّا ، ويحيل حصونه ومنازله خرابا يبابا . ويذهب رسول اسمه رُسْ إلى ما كدف ليبلغه الخبر فيلتقى به عند الحدود بين انجلترة واسكتلندة . ويصب فى أذنيه الخبر صبًّا ؛ ليت شعرى فهل يبكى ما كدف وهل يولول وهل يتفجع وهل يتكلم ؟ كلا ! بل إنه لا يزيد على أن يشدّ بقبعته على جبينه وينظر مذهولا يكاد يذهب بعقله الأسى . ثم يتحدث إليه صديق اسمه مالكولم فيدور بينهما وبين رُسْ الحوار التالى :

مالكولم — يا أيتها السماء الرحيمة ! ماذا يا رجل ؟ أتُسبل قبعتك إلى ما تحت الجبين ثم لا تعبر عن حزنك . أعطِ حزنك بعض الكلمات . إن الفجيعة التى لا تنْطِق لتدل على أن وراءها قلباً مفعما يوشك أن يتحطم .

ما كدَفْ — أَقتِل أولادى أيضاً ؟

رُسْ (الرسول) — زوجك وأولادك وخدمك . وكل الذين استطاع أن يجدهم .

ما كدف — وأنا بعيد عنهم ؟ أَقُتِلت زوجى أيضاً ؟

رُسْ — نعم لقد قلت ذلك .

مالكولم — هوِّن عليك ! فلنتخذ من الانتقام الماثل الذى نعده علاجا نداوى به تلك الفجيعة القاضية .

ما كدف — ليس عنده أولاد ! كل أولادى الصغار ، أقلتَ كلهم ؟ أجل أيتها الحدأة التى هبطت من الجحيم ! كلهم ؟ ماذا ؟ كل فراخى الصغار وأمهم فى ضربة لازبة واحدة ! ؟

مالكولم — فكّر فى ذلك كما يفكر الرجال .

ما كدف — نعم ! ولكن دعنى أشعر بذلك كما يشعر الرجال .

ليس عنده أولاد ! دعنى أشعر بذلك كما يشعر الرجال ! تلك هى الذروة التى بلغها الشعر فى هذا الموقف . وليس هو شعراً إذا لم نحط علماً بكل الذى أراد شيكسبير أن يرسمه لنا . فينبغى لنا أن نتفهم الموقف نفسه قبل أن نقدر الشعر الذى يحيط به . فهنا رجل هو مالكولم يحاول أن يواسى آخر فقد بنيه وزوجه . ولكن هذه المواساة ليست تجدى لأن الآخر مذهول . أما فقد أولاده فهو الذى يكاد يذهب بعقله . لكنه لا يريد إلا أن يحس ذلك الحزن الفاجع . إنه لا يولول ولا يصرخ ولا يبكى ولا يفعل شيئاً مما يفعله الآخرون فى مثل تلك المواقف . بل هو يفتح قلبه

لذلك الشعور حتى ينسكب فى فؤاده انسكاباً . ومن ذلك خلق هذا الشعر الذى تراه .

* * *

نرجو أن نكون قد بلغنا بك حداً ترضاه فى حديثنا عن شعر شيكسبير . وقد رأيت كيف شبت هذه العبقرية وكيف لقيت جواً صالحاً فى حياة أوربا عامة وإنجلترة بوجه خاص . ولقد رأيت كيف كان الشاعر فناناً فى اختيار الألفاظ وكيف كان حراً جريئاً فى التشبيه والاستعارة . ولكن أين يكون شيكسبير الرجل من كل ذلك ؟ أنت تستطيع أن تلمح الشاعر فى كل قطعة تقرؤها وفى كل فصل تراه ؛ ولكنّ الرجل خفى خبىء . لقد قال فى آخر تمثيلية كتبها : « لقد صُنعنا من نفس المادة التى تصنع منها الأحلام» وحسبنا أن نبحث حياته كما لو كانت حلماً من الأحلام . إنها خيال ؛ وكلما زدت هذا الخيال نظراً زادك متعة وجمالا . وسوف يُذكر شيكسبير أبداً لا لأنه كتب قصصاً ، ولا لأنه ألّف تمثيليات ، ولا لأنه كان عَلَماً من أعلام القومية الإنجليزية ؛ بل لأنه كان شاعراً قبل كل شىء ؛ وحسبه أن كان ذلك .

# آثار شيكسبير

## للاستاذ أحمد خاكى

## ١

اصطلح النقاد على أن شيكسبير أحد الشعراء الخمسة الفحول فى الأدب الأوربى . وقد اختلفوا فى شأن الأربعة الآخرين لكنهم لم يختلفوا فى شأن شيكسبير . فجميعهم على أنه جدير بأن يكون فى عداد الخمسة البارزين من شعراء أوربا . على أن لكل عصر ، ولكل فئة من النقاد نظرة خاصة إلى شيكسبير . لذلك كان أثره متشعباً متبايناً يختلف باختلاف وجهة النظر التى يتخذها نقاد العصر . ثم إن دراسته قد انتقلت إلى كثير من ممالك أوربا ، وبخاصة فرنسا وألمانيا ، فكان له فى كل واحدة منها شأن . وكان له أثر عميق فى الأدب الألمانى خاصة . ويجمل بنا أن نحدد لك أثره فى اللغة الانجليزية أولاً وفى الأدب الانجليزى ثانياً ، ثم أثره فى الأدب الأوربى بوجه عام . على أننا سنوجز لك بعض مذاهب النقد التى عالجت آثاره فى معرض حديثنا عن كل ذلك .

كان لشيكسبير أكبر الأثر فى تاريخ اللغة الإنجليزية . فقد نشأ فى عصر كانت اللغة فيه فى فترة انتقال عنيف . وفى تاريخ كل لغة من لغات العالم ، فترة تبدو فيها متبهّمة تريد أن تتضح ومعقدة تريد أن تتبسّط . وقد أتى على الإنجليزية حين من الدهر كانت فيه لغة موجزة محدودة . وكانت قد استعارت من اللغات الأخرى بعض مفرداتها : استعارت من اللاتينية ومن اليونانية ، واستعارت من بلاد الشمال ومن فرنسا ، واستعارت من إيطاليا واسبانيا . لكن لم يتح لها كاتب قبل شيكسبير استطاع أن يجمع شملها ، وأن يضع كل تلك الكلمات المستعارة فى فصائل خاصة تتقبلها الجماهير . وقد كان شيكسبير هو الذى فعل ذلك . فقد أقبل على اللغة وهى متشعبة موزعة ، فكان جريئاً فى انتحال تلك الكلمات الغريبة ، وكان جريئاً فى إقحامها فى الشعر ، ثم كان جريئاً فى اختلاق الكلمات نفسها . ولعل كتاباته لم تزل إلى اليوم من أكبر المراجع التى يرجع إليها فقهاء اللغة حين يبحثون أصل كلمة من الكلمات . والقاموس الإنجليزى نفسه يردد اسم شيكسبير ، أكثر مما يردد اسم أى كاتب آخر ، لأن شيكسبير قد أدخل فى اللغة الإنجليزية كلمات كانت حائرة

من قبل ، واصطلاحات كان يقولها العامة و يترفع عنها الخاصة ، وأمثلة وحكما كانت قلقة حتى عرفت مكانها فى شعره . زد على ذلك ما كان يفعله من استعمال الاسم مكان الفعل ، ومن استعمال الفعل مكان الاسم ، ومن الاشتقاق الذى لم يكن يعرف له حدوداً إلا ما وُهبه من السليقة اللغو ية والذوق السليم (١) .

على أن أثر شيكسبير كان عميقاً فى صميم اللغة لذلك المدى الواسع الذى تقلب فيه . فقد أنتج شيكسبير نتاجاً هائلا ، واستخدم فيما أنتجه زهاء عشرين ألف أصل من أصول الكلمات ، وعالج فى كل الذى كتبه أفكاراً شتى متباينة ، وصوّر فيما صوره شخصيات روائية بعضها فَكِه مرح ، و بعضها الآخر حزين مكروب . وهو فى كل هذا قد حاول أن يغيّر من أساليبه فى الحين بعد الحين . ثم إنه كان كما أسلفنا جريئاً فى التشبيه والاختلاق . وهو بين هذا وذاك كان مشغولا بما يفعله الأدباء

---

(١) من بين هذه الكلمات الجديدة التى استعملها شيكسبير وأصبحت جزءاً لا يتجزأ من اللغة هذه الكلمات : barefaced, assassination, aslant, eventful. enthrone, dwindle, courtship, brothers, hint, gust, fretful, fount, excellent, perusal, laughable, indistinguishable, hurry,

دائماً من اختيار اللفظ الذى يطابق المعنى . فكأنما كان شيكسبير
فى نفسه «معملا» لصناعة الكلمات . أما الكلمات القديمة فقد كان
يصقلها فتخرج براقة متألقة ؛ وأما الكلمات الحديثة فقد كان يصبها
فى قوالب جديدة كما تُصب قوالب الآجر . وتخرج اللغة من بين
يديه وقد تحولت كما تتحول المعادن الصدئة إلى ذهب نفيس .

أتيح شيكسبير للغة الإنجليزية فى ذلك العصر، كما أتيح
هوميروس للغة الإغريقية فى مثل ذلك العصر، وكما أتيح دانتى
للغة الإيطالية الحديثة فى القرن الرابع عشر. فهؤلاء جميعاً قد
أقبلوا على لغة عامية فضفاضة فحاولوا أن يجعلوها لغة أدب وشعر.
وحينما أنتجوا ما أنتجوا من آيات الأدب ذهبت لغتهم نموذجاً
يحتذيه خلفاؤهم . والأثر الذى خلفه شيكسبير فى اللغة الإنجليزية
هو نفس الأثر الذى خلفه هوميروس فى اللغة الإغريقية القديمة
ودانتى فى اللغة الإيطالية الحديثة . فقد جاء فى آثارهم شعراء
حاولوا أن يمضوا فى نفس السبيل . فتأصلت بذلك تلك اللغات .
فشيكسبير من هذا الوجه أحد الذين صنعوا اللغة الإنجليزية ،
وأحد الذين بذروا بذورها ونموها حتى ربت وامتدت فروعها
فى ثلاثة القرون التى تلت عصر إليصابات .

## ٢

وهذا الذى قلناه عن أثر شيكسبير فى اللغة الإنجليزية ينطبق على أثره فى الأدب الانجليزى بوجه عام . فقد كانت التمثيلية قبله ضيقة الحدود تتقيد بالقواعد الدينية التى انحدرت من مسرحيات الكنائس ، وتحرص على جملة الأوضاع التى يؤمن بها أصحاب القديميات . لكن شيكسبير خرج بالتمثيلية إلى طريق حر . وأدخل فيها هذا الشعر الغنائى الذى رأينا طرفاً منه فيما أسلفنا . ثم إنه عنى بأن يصور شخصياته الروائية وبأن يمثل القصة ، وكل ذلك كان له أعمق الأثر فى الأدب الإنجليزى بوجه عام .

لكن آثار شيكسبير كانت ظاهرة فى مدارس الرومانتيك أكثر مما كانت ظاهرة فى مدارس الكلاسيك . ولقد تعلم أن الأدب الأوربى كان عرضة لموجات رومانتيكية وموجات كلاسيكية تتناوبه الواحدة بعد الأخرى . أما الفرق الأساسى بين المذهب الرومانتيكى والمذهب الكلاسيكى فهو أن الأول ينطوى على حرية الاصطناع والابتداع فى اللغة ، وعدم التقيد بالأوضاع الخاصة التى وضعها القدامى ؛ أما الثانى فهو ينطوى على اتباع

هذه الأوضاع . المذهب الأول يمد للشعراء الخيال و يفتح أمامهم آفاقاً من الشعور والوجدان . والمذهب الثانى يقيم معاييره من الفكر وحده ، ويقوم على ما يمليه المنطق والعقل . آثار المذهب الأول تكاد تكون فيضاً من النفس ، أما آثار المذهب الثانى فتكاد تكون فرضاً على النفس .

ولعلك تدرك من كل ذلك فى أى الناحيتين نستطيع أن نضع شيكسبير . فهو يمثل المذهب الرومانتيكى فى ذروته . وهو لم يتقيد فى كتابة تمثيلياته إلا بالقليل من أوضاع المسرح . أشار أرسطو فى كتابه عن « فن الشعر » إلى وحدة الزمان ووحدة المكان ووحدة العمل ، لكن شيكسبير ، وكثيراً من معاصريه لم يكونوا يحتفلون بكل هذه الوحدات . ثم هو لم يتقيد فى نظم الشعر بالقوافى ولا بأصول المنطق ؛ بل كان الشعر فيضاً من نفسه لايكاد يرتبط إلا بالأوزان . لذلك كان شيكسبير إمام المدارس الرومانتيكية التى سادت الأدب الانجليزى والأدب الأوربى فى بعض العصور . وحينما كان يضيق النقاد بقواعد الكلاسيك ، وحينما كان يثور الشعراء على قواعد المنطق وأصول الفن ، كانوا دائماً يفزعون إلى شيكسبير . فكان لشيكسبير أعمق الأثر

فى تغذية المدارس الرومانتيكية التى قامت فى إنجلترة وفرنسا وألمانيا خلال العصر الحديث .

ولعله لم تعرف إنجلترة مدارس الكلاسيك إلا قليلا ، ولعل ذلك يرجع قبل كل شيء إلى أثر شيكسبير . فقد طبع شيكسبير الأدب الإنجليزى بطابعه الرومانتيكى وجعله حراً طليقاً فى أكثر عصوره . كان أدباء الإنجليز فى بعض عصور الأدب يحاولون أن يدخلوا قواعد الأدب إلى إنجلترة ، كانوا يحاولون أن يحاكوا المدرسة الكلاسيكية التى قامت فى فرنسا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لكنهم ما يلبثون أن يعودوا إلى طابع أدبهم وهو طابع الحرية والتخفف من القيود والتحلل من القواعد الذى خلفه شيكسبير .

على أنه لقد كان فى شعر شيكسبير عناصر اتخذت سبيلها إلى الأدب الإنجليزى . وحسبنا أن نذكر لك منها ثلاثة ، وحسبنا أن نذكرها لك فى إيجاز . وهذه العناصر تتصل بالشعر أولاً وبالتشخيص الروائى ثانياً وبالقصة ثالثاً .

أما شعر شيكسبير فقد كان نموذجاً يحتذيه الشعراء سواء منهم مَنْ كان يكتب شعراً مسرحياً أم مَنْ كان يكتب شعراً غنائياً .

فلغة شيكسبير واصطلاحاته وأساليبه ، بل تشبيهاته واستعاراته ، كل ذلك قد وجد سبيله إلى شعر من جاء بعده . وقد حاول أن يقلده دْرَيْدن فى القرن السابع عشر ، وتأثر به شعراء الرومانتيك أشد التأثر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر . وقد بدأت هذه المدرسة بالرجوع إلى شيكسبير ، فكان هذا كفيلاً بأن يمدها من حرية الابتداع وأن يوثق بين الشعر وبين الطبيعة وأن يقرب بين لغة الشعر ولغة النثر . و إذا نحن حاولنا أن نحلل شعر أفراد هذه المدرسة وجدناهم جميعاً متأثرين بالنسق الذى ابتدعه الشاعر الأول .

وأما فيما يتصل بتصوير الشخصيات الروائية أو قل التشخيص فقد كان لشيكسبير كل الأثر فيما امتاز به الأدب الإنجليزى فى هذا الوجه . وقد كان شيكسبير يصطنع حيلاً خاصة فى خلق شخصياته الروائية . كان يصطنع أساليب الكلام وكان يصطنع المواقف . ثم لقد كان يجمع فى الشخصية ألواناً من المتناقضات ؛ أو يبرز خلقاً خاصاً ويبالغ فى تصويره كل المبالغة حتى يخرج من كل ذلك بشخصية فكهة مرحة ، يسرك دائماً أن تلقاها . وقد كان التشخيص الروائى عند شيكسبير نموذجاً احتذاه كتاب القصص وأفادوا منه كل الإفادة . وكاتب مثل تشارلز دكنز لم

يكن يستطيع أن يخلق هذه الشخصيات الروائية التى خلق لو لم يُفدْ من شيكسبير .

أما عن القصة فقد علّم شيكسبير كلّ من جاء بعده من مؤلفى القصص كيف ينتقلون بالقصة نفسها وكيف يسردون حوادثها . وكيف يُمضون فى تعقيدها حتى تبلغ « أزمة » خاصة . ثم كيف تنفرج هذه الأزمة وكيف تنتهى القصة بحل قد يكون سعيداً وقد يكون شقياً . وحينما نشأت الرواية فى الأدب الإنجليزى بعد ذلك أفاد الروائيون من فن شيكسبير . فقد تعلموا منه فوق كل ما ذكرنا أصول الحوار .

* * *

على أن شيكسبير شاعر إنجلترة القومى قبل كل شىء . ففى شعره تتمثل العبقرية الإنجليزية . لقد خرجت بلاد أوروبا من النهضة ولكل منها قسط خاص . خرجت إيطاليا بالنحت والتصوير ، وخرجت ألمانيا بالإصلاح الدينى ، وخرجت إسبانيا بالكشف الجغرافى ؛ لكن إنجلترة خرجت بالأدب التمثيلى . وقد كان شيكسبير يمثل ذلك الأدب أصدق تمثيل . لذلك أصبح منذ ذلك الحين علماً من أعلام القومية الإنجليزية ، ولذلك

كان النقد الذى التف حوله يمثل عصور الأدب الإنجليزى من عصر لعصر .

ففى كل عصر من عصور الأدب الانجليزى خلال القرون الثلاثة الماضية كان شيكسبير يُقدَّر تقديراً خاصاً ؛ لأنه كان مثال العبقرية الإنجليزية . فنى القرن الثامن عشر كان النقاد يبحثون لغته ويحاولون أن يضعوها فى فصائل . وكانوا يؤمنون بأصول النقد ويحاكون المدرسة الفرنسية الكلاسيكية . لذلك لم يحتفلوا كثيراً بالقصص ولا بالتمثيليات . وإنما احتفلوا باللغة . فدرسوا شيكسبير اللغوى وحاولوا أن يضبطوا كتاباته وأحاديثه وقصائده . أما فى القرن التاسع عشر فقد ظهرت مدرسة النقد الرومانتيكى التى كانت تعبد شيكسبير . كانت تعبده لأنه كان يمثل عندها الشعور المتوفز والعاطفة المشبوبة . ثم لأنه كان شاعر انجلترة القومى .

عبر عن ذلك كارليل أصدق تعبير فى حديث له عن « البطل كشاعر » . وقد كان كارليل يبحث عن البطولة فى مختلف وجوه الحياة ، وقد وجد بطولة الشعر فى شيكسبير الشاعر؛ وحاول أن يسرد المميزات التى يمتاز بها شيكسبير . إنه يضعه

إلى جانب بيكون فيما كشفه من حقائق الحياة وخوالج النفس ، وإلى جانب المصورين فيما صوره من شخصيات روائية . وهو يتحدث عنه كشاعر خلق . ثم إنه يكاد يبلغ به مرتبة النبوة ، لأن شعره يدعو إلى دين جديد يشيع فيه التسامح ويخلو من الإلحاد والتعصب . ولم يكن شعر شيكسبير فى نظر كارليل إلا وحياً مقدسا استروحه الشاعر من كهف الطبيعة .

ثم ماذا؟ ثم إن كارليل يوازن بين شيكسبير وبين إمبراطورية إنجلترة فى الهند ! أيكون أجدى على انجلترة أن يكون لها هذه الإمبراطورية الهندية الشاسعة الأطراف ، أم خير لها أن يكون لها شاعر مثل شيكسبير ؟ وقد علمتَ أنه يقول إن إمبراطورية الهند من أولها إلى آخرها لا تعدل شيكسبير ، ولو أن انجلترة خُيِّرت بينه وبين إمبراطوريتها لوجب أن تختار الشاعر ، فانجلترة تستطيع أن تعيش من غير الهند لكنها لا تستطيع أن تعيش من غير شيكسبير .

إلى هذا الحد بلغت عبادة شيكسبير فى انجلترة . ولم يكن كارليل فى كل ذلك إلا فرداً من مدرسة متعددة الأفراد : كل منهم عبّر عن تقديره لشيكسبير بطريقته الخاصة . لكن كارليل

كان يلقى محاضرته عن شيكسبير فى الثانى عشر من مايو سنة ١٨٤٠ . وما انتهى القرن التاسع عشر حتى ظهر نقاد آخرون حاولوا أن يدرسوا شيكسبير على أساس علمى خالص . كان النقد الأدبى قد تقدم نحو العلم وكانت فكرة التطور قد شاعت بين الأدباء كما شاعت بين العلماء . لذلك دُرس شيكسبير على أساس أنه كائن عضوى تأثر بالأوساط التى نشأ فيها . دُرس على أنه شخصية تأثرت بالبيئة والزمن والجنس : درسه علماء اللغة والتاريخ والأدب على هذا الأساس، فدرسوا العلائق بينه و بين عصره. فهل خفف ذلك من عبادة شيكسبير ؟ لقد ظل شيكسبير كما كان دائماً علماً من أعلام القومية الإنجليزية لأنهم درسوا القومية الإنجليزية وحللوها وفصّلوها حينما درسوا شيكسبير .

ثم إن ثائراً من ثوار هذا العصر ثار على شيكسبير وحاول أن يحطم ذلك التمثال السامق الذى أقامه له النقد الأدبى . أما ذلك الثائر فهو برنارد شو . ولكن حسبنا أن نذكر ذلك لأننا نريد أن نوجز لك أثر شيكسبير فى فرنسا وألمانيا .

٣

والحق لم يكن برناردشو أول من ثار على شيكسبير ، بل لقد ثار عليه ڤولتير من قبل . كان ڤولتير متشبعاً بمبادىء النقد الكلاسيكى ، ذهب إلى انجلترة ومكث فيها بضع سنين وكشف شيكسبير وعرّف به جمهور الفرنسيين حينما رجع إلى فرنسا . ثم توالت ترجمات لشيكسبير وظهر فى الميدان نقاد يوازنون بين شيكسبير و بين كورنى ، فثارت ثائرة ڤولتير ونصب نفسه عدواً لدوداً لكل من يعجب بشيكسبير . ولعله أحس أن الإعجاب بهذا الشاعر الرومانتيكى سوف يقوّض دعائم النقد الفرنسى . وأصدر نشرة لأمم أوروبا جميعاً يناشد الناس فيها ألا يدرسوا شيكسبير ! ثم إنه كتب رسالة ألقيت أمام المجمع الفرنسى فى سنة ١٧٧٦ يعدد فيها الأخطار التى تنجم إذا تركت دراسة شيكسبير حرة فى فرنسا ، وهو يدعى أن العبقرية الفرنسية فى خطر من هذا الشاعر الوحشى الذى تصدر عنه بعض لمحات النبوغ كما تسرى الشرارة فى ظلمة الليل البهيم . وكان عجباً أن يطالب ڤولتير — وهو بطل من أبطال حرية الفكر — أن

يتقيد النقاد فى حديثهم عن شيكسبير بما يمليه عليهم .

وقد كان ڤولتير فى كل ذلك يمثل اتجاه الفرنسيين نحو شيكسبير بوجه عام . ولقد علمت أن فرنسا — وهى صاحبة المجمع — كانت تتقيد فى النقد الأدبى بالأوضاع الكلاسيكية الدقيقة . فكان لا بد أن يلقى «شيكسبير» ما لقيه من الهوان . وقد ترجمت بعض تمثيلياته فى القرن الثامن عشر ؛ لكنه بقى خصما لدوداً للمسرح الفرنسى . على أنه استطاع أن يثنى النقد الفرنسى بعض عشرات السنين . استطاع أن ينفذ إلى الأدب الفرنسى وأن يؤثر فى المسرح الفرنسى عنـد ما تهيأت الحركة الرومانتيكية التى قامت فى فرنسا فى القرن التاسع عشر . ولعل دراسة شيكسبير كانت ذات أثر فعال فى خلق تلك الحركة . درسه قوم مثل جيزو وشعراء مثل ڤكتور هيجو ولامارتين . وكان للترجمات التى قام بها ألفريد دفنى وألكسندر ديما أشد الأثر . على أن هذه الحركة كانت قصيرة الأمد ، ولم يلبث المسرح الفرنسى أن تحلل من شيكسبير ورجع إلى مسرحياته القومية .

وكان الأمر على الضد من ذلك فى ألمانيا . فقد كان لشيكسبير أكبر الأثر فى خلق الأدب الألمانى . أو قل إن

شيكسبير نفسه أصبح شاعراً ألمانياً كاد ينافس شيكسبير الإنجليزى أشد المنافسة . ولعل هذا مثل نادر لما يستطيع شاعر أجنبي أن يخلفه من الأثر فى حياة أمة بأسرها . لقد بدأت دراسة شيكسبير فى ألمانيا سنة ١٧٤١ حينما ترجمت بعض آثاره، لكنها لقيت ناقداً ممتازاً حينما أقبل لسنج يبحث إنتاج شيكسبير . اشترك لسنج فى النقاش الذى دار فى فرنسا ثم لم يلبث بضع سنين حتى أبدى فكرتين كان لهما أعمق الأثر فى حياة ألمانيا الأدبية . فقد حاول أن يجد صلات وثيقة بين تمثيليات شيكسبير و بين تمثيليات العامة فى ألمانيا ، ودعا إلى دراستها حتى يقام عليها أدب قومى يَمُتُّ بصلات إلى حياة ألمانيا نفسها . ثم إنه حاول أن يوازن بين شيكسبير وبين كورنى ، فخرج من الموازنة بأن شيكسبير — حتى من حيث القواعد التى أشار إليها أرسطو — خير من كورنى ، وأنه لا يفضله من بين كتاب المسرح إلا سوفوكليز .

وكانت آراء لسنج دافعاً قوياً لدراسة شيكسبير ؛ فلم يأتِ القرن التاسع عشر حتى كان لشيكسبير فى ألمانيا مدرسة من النقد هى أقوى مدارس العالم . كانت قد ترجمت تمثيلياته فى القرن

الثامن عشر، لكن شليجل ترجمها من جديد فى السنوات العشر الأولى من القرن التاسع عشر. ثم إن شيكسبير أصبح بعد ذلك شاعراً ألمانيا، فقد مثلت تمثيلياته ونقدت وبحثت أصولها بحثاً دقيقاً وكتبت مئات الكتب عن تاريخها. وكأنما تحققت نبوءة لسنج حين قال إن الأدب القومى الألمانى يجب أن يقوم على دراسة شيكسبير.

ولو لم يكن شيكسبير الشاعر «الألمانى» لما اتخذ الأدب الألمانى الوجهة الحرة التى ميزته فى القرن التاسع عشر. فقد نأى به «شيكسبير» عن القواعد المتزمتة التى تقيد بها الفرنسيون، ثم إنه أنشأ مسرحا ألمانيا قومياً هيأ لتمثيليات أخرى ألمانية خالصة أن تمثل عليه.

٤

بقى أن لشعر شيكسبير أثراً عالمياً هو الذى استجاب له الإنجليز وغير الإنجليز من سائر أمم الأرض. وقد رأيت أن قوماً فى فرنسا قد أقبلوا على قراءته وأن قوماً آخرين فى ألمانيا قد اتخذوه شاعراً يكاد يكون قومياً. وقد لقى شيكسبير هذه الاستجابة أو مثلها فى كل بلاد العالم، حتى لقد سئل مرة طالب يابانى: لِمَ يحب شيكسبير؟ فأجاب: لأننى أحس فى شعره روحاً يابانياً خاصًا.

هذا المعنى العالمى هو الذى حبب الناس فى شعر شيكسبير. وقد رأى الدنيا جميعاً خلال منظار ذى ناحيتين إحداهما كانت البلدة الطيبة الآمنة التى ولد فيها، والأخرى كانت البلدة الصاخبة الضخمة التى هاجر إليها. وقد أقبل الناس على شعر شيكسبير فكشفوا فيه العناصر الثلاثة التى كانت تتألف منها منتجات النهضة. رأوا فيه العنصر الأدبى الذى انحدر إلى أوربا من أدب الإغريق وأدب الرومان، ورأوا فيه العنصر الفنى الذى أنتجته الإفلاطونية الحديثة، ثم رأوا فيه العنصر الفكرى الذى كان يميز عقلية النهضة. وهذه العناصر الثلاثة بما تمتاز به من الحيوية هى التى تتراءى لنا ولكل قارىء لشيكسبير وهى التى خلدت اسمه فيمن خلدت أسماءهم من الشعراء والأدباء.

وجهت النهضة الناس إلى البحث فى شئون دنياهم، وأقامت حداً بين أمور الدين وبين أمور الدنيا. وكانت عقلية العلماء والأدباء فيها موضوعية أكثر منها ذاتية، كانت مجردة للبحث الخالص أكثر مما كانت مسوقة بالحافز الشخصى؛ ثم كانت دنيوية حية. وهذه الحيوية الفنية هى التى أنتجت كولمبس وجليليو وبيكون وشيكسبير.

أين إذاً أثر شيكسبير من ذلك كله ؟ لقد ركب كولمبس البحر، وكشف أمريكا؛ وكشف جليليو أصول الفلك، وتخفف بيكون من قيود الفلسفة المدرسية وكشف أصول المنطق، فأين يكون شيكسبير من هؤلاء ؟ لقد امتاز شيكسبير بنفس هذه الحيوية التى مالت إلى الكشف العلمى. فعالج أمور الدنيا ومثلها على المسرح. ولم يلتفت فى شعره إلى ما قبل الخليقة كما فعل دانتى، ولم يشرئب إلى ما بعد الموت كما فعل ملتن. بل هو قد صور الحياة الدنيا، وهو قد دب إلى سرائر النفس البشرية فكشف ما وراء الحوادث الواقعة من شعور وإحساس. إنه يصور السرور والحزن والعطف والقسوة، والحب الذى يملك النفس، والبغض الذى ينهش الفؤاد. كل ذلك قد جعل لشعره أثراً يقدره الناس من مختلف الأجناس والشعوب. وكل ذلك كان كشفاً جديداً فى القرن السادس عشر أى قبل أن تظهر مدرسة التحليل النفسى الحديثة بثلاثة قرون.

## ٥

ثم بقى أن نقول كلمة عن أثر شيكسبير فى البلاد المتكلمة بالعربية. ولقد ترجمت أغلب مآسى شيكسبير إلى اللغة العربية

ومثلت على المسارح المصرية . ولأن الأدب العربى نفسه ينقصه الأدب التمثيلى ، فقد أقبل الكثير على رؤية هذه المآسى . لكن المبالغة فى الإخراج كانت تفسد دائماً من الجو الشعرى الذى ينبغى أن يتوفر فى كل واحدة من تمثيليات شيكسبير . ثم لقد تأثر شوقى فكتب «مجنون ليلى» و «مصرع كليوپاتره» وغيرهما وحاول أن يخلق فيها ذلك الجو الشعرى وقد أفلح فى ذلك إلى حد كبير . ثم إن بعض الشعراء ترجموا قطعاً غنائية من شيكسبير ونسجوا على منواله فى بعض ما نظموا . لكن أثر شيكسبير فى مصر و بلاد الشرق العربى يقف عند هذه الحدود ، فلم تقم بعد المدرسة التى تبحث آثاره بحثاً دقيقاً ، ولم تقم المدرسة التى تفيد من هذه الآثار وتغذى بها الأدب العربى .

على أنك قد رأيت أن ألمانيا لم تكن لتفيد من دراسة شيكسبير إلا بعد أن ترجمت آثاره جميعاً ترجمة وافية محققة ، وسيظل شيكسبير حائراً بيننا ، وسيظل حديثنا عنه مقتضباً حتى تترجم آثاره جميعاً إلى اللغة العربية .

اقرأ

يحيى حقي

# قنديل أم هاشم

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

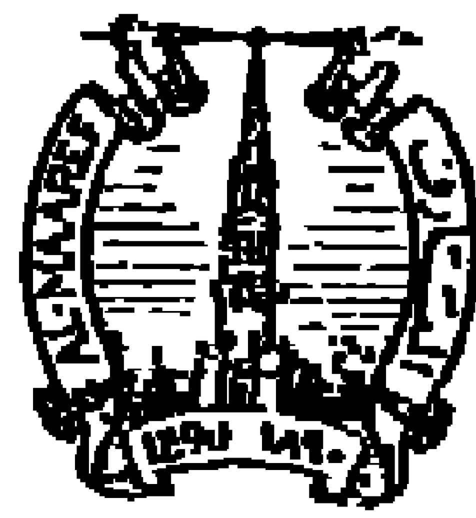
# قنديل أم هاشم

يحيى حقي

# قنديل أمّ هاشم

اقرأ ١٨

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف


AL-MAAREF
١٨٩٠

# « قنديل أم هاشم »

## ١

كان جدى الشيخ رجب عبد الله إذا قدم القاهرة وهو صبى مع رجال الأسرة ونسائها للتبرك بزيارة أهل البيت ، دفعه أبوه إذا أشرفوا على مدخل مسجد السيدة زينب — وغريزة التقليد تغنى عن الدفع — فيهوى معهم على عتبته الرخامية يرشقها بقبلاته ، وأقدام الداخلين الخارجين تكاد تصدم رأسه . إذا شاهد فعلتهم أحد رجال الدين المتعالمين أشاح بوجهه ناقما على الزمن ، مستعيذاً بالله من البدع والشرك والجهالة . أما أغلبية الشعب فتبسم لسذاجة هؤلاء القرويين ورائحة — اللبن والطين والحلبة — تفوح من ثيابهم ، وتفهم ما فى قلوبهم من حرارة الشوق والتبجيل ، لا يجدون وسيلة للتعبير عن عواطفهم إلا ما يفعلون : والأعمال بالنيات . وهاجر جدى — وهو شاب — إلى القاهرة سعياً للرزق ، فلا عجب أن اختار لإقامته أقرب المساكن لجامعه

المحبب . وهكذا استقر بمنزل للأوقاف قديم ، يواجه ميضأة المسجد الخلفية ، فى الحارة التى كانت تسمى ( حارة الميضة ) ، « كانت » لأن معول مصلحة التنظيم الهدام أتى عليها فيما أتى عليه من معالم القاهرة . طاش المعول وسلمت للميدان روحه ، إنما يوفّق فى المحو والإفناء حين تكون ضحاياه من حجارة وطوب ! ثم فتح جدى متجراً للغلال فى الميدان أيضاً . وهكذا عاشت الأسرة فى ركاب الست وفى حماها : أعياد الست أعيادنا ، ومواسمها مواسمنا ، ومؤذن المسجد ساعتنا .

اتسع المتجر وبورك لجدى فيــه — وهذا من كرامات أم هاشم — فما كاد يرى ابنه الأكبر يتم دراسته فى الكتاب حتى جذبه إلى تجارته ليستعين به ، وأما ابنه الثانى فقد دخل الأزهر، واضطرب فيه سنوات وأخفق ، ثم عاد لبلدتنا ليكون فقيهها ومأذونها . بقى الابن الأصغر — عمى إسماعيل — آخر العنقود ، يهيئه القدر واتساع رزق أبيه لمستقبل أبهى وأعطر . لعله خشى فى مبدأ الأمر ، عندما أجبره أبوه على حفظ القرآن ، أن يدفع به إلى الأزهر لأنه يرى صبية الميدان تلاحق الفتية المعممين بهذا الهتاف البذىء :

— شد العمة شد ، تحت العمة قرد . . . . . .

ولكن الشيخ رجب سلمه بقلب مفعم بالآمال إلى المدارس الأميرية ، وعندئذ أعانته تربيته الدينية وأصله القروى ، فسرعان ما امتاز بالأدب والاتزان وتوقير معلميه ، مع حشمة وكبير صبر . إن حرم التأنق لم تفته النظافة . وهو فوق ذلك أكثر رجولة وأقوم لساناً وأفصح نطقاً من زملائه ( المدلعين ) أولاد الأفندية المبتلين بالعجمة وعجز البيان . فما لبث أن بذ الأقران ، وتلألأت على سيمائه نجابة لا تخطئها العين ، فتعلقت به آمال أسرته .

أصبح ، وهو لم يزل صبياً ، لا ينادى إلا بـ ( سى إسماعيل ) أو إسماعيل أفندى ، ولا يعامل إلا معـاملة الرجال . له أطيب ما فى الطعام والفاكهة .

إذا جلس للمذاكرة خفت صوت الأب ، وهو يتلو أوراده ، إلى همس يكاد يكون ذوب حنان مرتعش ، ومشت الأم على أطراف أصابعها ، وحتى فاطمة النبوية — بنت عمه ، اليتيمة أباً وأماً — تعلمت كيف تكف عن ثرثرتها وتسكن أمامه فى جلستها صامتة كأنها أمة وهو سيدها . تعودت أن تسهر معه كأن الدرس درسها ، تتطلع إليه بعينيها المريضتين المحمرتى الأجفان ،

وأصابعها تعمل فى حركة متصلة لا تنقطع فى بعض أشغال (التريكو). من ذا الذى يقول لإسماعيل: تنبه إلى هاتين اليدين كيف دبت فيهما خلسة حياة غريبة، وحساسية يقظة، ولمس متعرف؟ ألا تفهم؟ ألا تفطن إلى أن دليل اقتراب عاهة العمى فى السليم هو أن تبدأ يده فى الإبصار؟

— قومى نامى يا فاطمة.

— لسه بدرى ما جاليش نوم.

بين حين وآخر تحيل دمعة مترقرقة شخصه إلى شبح مبهم. فتمسحها بطرف كمها وتعود إلى تطلعها. الحكمة عندها تتمثل فى كلامه إذا نطق.

يا لله! كيف تحوى الكتب كل هذه الأسرار والألغاز؟ وكيف يقوى اللسان على الرطانة بلغة الأعاجم؟ وكلما كبر فى نظرها انكمشت أمامه وتضاءلت. قد يعلق بصره بضفيرتيها فيتريث ويبتسم. هؤلاء الفيتات! لو يعلمن كم هى فارغة رؤوسهن! .... إذا أوى إلى فراشه فعندئذ، وعندئذ حسب، تشعر الأسرة أن يومها قد انقضى، وتبدأ تفكر فيما يلزمه فى الغد. كل حياتها وحركاتها وقف على توفير راحته، جيل يفنى نفسه لينشأ فرد

واحد من ذريته ، محبة وصلت من قوتها إلى عنفوان الغريزة الحيوانية ، الدجاجة القلقة ذات النظرة المتجسسة الحذرة ترقد على بيضها مشلولة الحركة ذليلة العين ، كأنها راهبة تصلى . . . هل هي هبات من فيض كرم ؟ أم جزية جبّار مستبد ، إرادته حديد له فى كل عنق طوق ، وفى كل ساق قيد ؟ تعلق هـذه الأسرة بولدها ، تعلق مسلوب الحرية والإرادة فأين ربك جماله ؟ جواب هذا السؤال عند قلبي . فما من مرة تمثّلت فيها هذه الأيام البعيدة إلاّ وجدته يخفق بذكراها ، ويبدو لى وجه جدى الشيخ رجب وحواليه هالة من وضاءة ونور . أما جدتى — الست عديلة ، بسذاجتها وطيبتها ، فمن السخف أن يقال إنهـا من البشر ، و إلا فكيف إذاً تكون الملائكة ! ما أبشع الدنيا وأبغضها لو خلت من مثل تسليمها و إيمانها .

٢

سنة بعد سنة و إسماعيل يفوز بالأولية ، فإذا أعلنت النتيجة دارت أكواب الشربات على الجيران ، بل ربما شاركتهم الحارة أيضاً ، وزغردت (ما شالله ) بائعة الطعمية والبصارة ، وفاز

الأسطى حسن — الحلاق ودكتور الحى — بحلوانه المعلوم ، وأطلقت الست عديلة بخورها وقامت بوفاء نذرها لأم هاشم . فهذه الأرغفة تعد وتملأ بالفول النابت وتخرج بها أم محمد تحملها فى مقطف على رأسها : ما تهل فى الميدان حتى تختطف الأرغفة ، ويختفى المقطف ، وتطير ملاءتها ، وترجع خجلة تتعثر فى أذيالها غاضبة ضاحكة من جشع شحاذى السيدة ، وتصير حادثتها فكاهة الأسرة بضعة أيام يتندرون بها .

وكذلك نشأ إسماعيل فى حراسة الله ثم أم هاشم . حياته لا تخرج عن الحى والميدان ، أقصى نزهته أن يخرج إلى المنيل ليسير بجانب النهر أو يقف على الكوبرى . إذا أقبل المساء وزالت حدة الشمس وانقلبت الخطوط والانعكاسات إلى انحناءات وأوهام ، أفاق الميدان إلى نفسه وتخلص من الزوار والغرباء . إذا أصخت السمع وكنت نقى الضمير فطنت إلى تنفس خفى عميق يجوب الميدان ، لعله سيدى العتريس بواب الست — أليس اسمه من أسماء الخدم ؟ — لعله فى مقصورته ينفض يديه وثيابه من عمل النهار ويجلس يتنفس الصعداء . فلو قيض لك أن تسمع هذا الشهيق والزفير ، فانظر عندئذ إلى القبة . لألاء من نور

يطوّف بها ، يضعف و يقوى كومضات مصباح يلاعبه الهواء .

هذا هو قنديل أم هاشم المعلق فوق المقام . هيهات للجدران أن تحجب أضواءه . يمتلىء الميدان من جديد شيئاً فشيئاً ، أشباح صفر الوجوه ، منهوكة القوى ، ذابلة الأعين ، يلبس كل منهم ماقدر عليه ، أو إن شئت فما وقعت عليه يده من شيء فهو لابسه .

نداءات الباعة كلها نغم حزين :

— حرأتى يا فول

— حَلِّى وع النبى صلى

— لوبيه يا فجل لوبيه

— المسواك سنة عن رسول الله

ما هذا الظلم الخفى الذى يشكون منه ؟ وما هذا العبء الذى يجثم على الصدور جميعها ؟ ومع ذلك فعلى الوجوه كلها نوع من الرضا والقناعة . ما أسهل ما ينسون ! تتناول أيد كثيرة قروشاً وملاليم قليلة . ليس هنا قانون ومعيار وسعر ، بل عرف وخاطر وفصال ، وزيادة فى الكيل أو طبة فى الميزان . وقد يكون الكيل مدلساً والميزان مغشوشاً ، كله بالبركة . صفوف تستند إلى جدار الجامع جالسة على الأرض ، و بعضهم يتوسد الرصيف . خليط من

رجال ونساء وأطفـــال ، لا تدرى من أين جاءوا ولا كيف سيختفون . ثمار سقطت من شجرة الحياة فتعفنت فى كنفها . هنا مدرسة الشحاذين . حامل كيس اللقم يثقل ظهره ينادى :

— لقمة واحدة لله يافاعلين الثواب ، جاعان .

والشابة التى تنبت فجأة وسط الحارة عارية أو شبه عارية :

— يا للى تكسى وليه يامسلم ربنا ما يفضح لك وليه !

صوتها الصارخ يجذب الوجوه للنوافذ ، وعيناها الساحرتان تستهويان المطلات فتمطر عليها أكوام من الخرق ورث الثياب . فى لحظة واحدة تذوب وتختفى ، فلا تدرى أطارت ، أم ابتلعتها الأرض فغارت .

وهذا بائع الدقة الأعمى الذى لايبيعك إلا إذا بدأته السلام ، وأقرأك وراءه الصيغة الشرعية للبيع والشراء .

ينقضى النهار فيودع الطرشجي براميله ، وتترك أقدام الخراط عملها اليومى وأدواتها لتعود بصاحبها إلى الدار . لا يزال الترام هنا وحشاً مفترساً له فى كل يوم ضحية غريرة . يتقدم المساء ، ينعشه نسيم ذو دلال . تسمع من القهاوى ضحكات غضة وأخرى غليظة حشاشى . وإذا دلفت من الميـدان إلى مدخل شارع

مراسينة ، سمعت ضجيج السكارى فى خمارة إنسطاسى التى يلقبها أهل الحى بفكاهتهم « خمارة أنست » ، يخرج منها سكير هائج يتطوح ويتعرض للمارة .

— ورونى أجعص فتوة

— جتك لهوه يا بعيد

— سيبوه فى حاله داغلبان

— ربنا يتوب عليه

أشباح الميدان الحزينة المتعبة يحركها الآن نوع من البهجة والمرح . ليس فى الدنيا هم ، والمستقبل بيد الله . تتقارب الوجوه بود ، وينسى الوجيع شكايته ، ويبذّر الرجل آخر نقوده فى الجوزة أو الكتشينة ، وليكن ما يكون ! تقل أصوات اصطدام كفف الموازين ، وتختفى عربات اليد ، وتطفأ الشموع داخل المشنات، عندئذ تنتهى جولة إسماعيل فى الميدان . هو خبير بكل ركن وشبر وحجر ، لا يفاجئه نداء بائع ، ولا ينبهم عليه مكانه . تلفه الجموع فيلتف معها كقطرة المطر يلقمها المحيط . صور متكررة متشابهة اعتادها فلا تجد فى روحه أقل مجاوبة . لا يتطلع ولا يمل ، لا يعرف الرضا ولا الغضب ، إنه ليس منفصلا عن الجمع

حتى تتبينه عينه . من يقول له إن كل ما يسمعه ولا يفطن له من الأصوات ، وكل ما تقع عليه عينه ولا يراه من الأشباح لها كلها مقـدرة عجيبة على التسلل إلى القلب ، والنفوذ إليه خفية ، والاستقرار فيه ، والرسوب فى أعماقه ، فتصبح فى يوم قوامه . أما الآن فلا تمتاز نظرته بأية حياة . . . نظرة سليمة كل عملها أن تبصر

٣

اقتربت المراهقة وأخذ جسده يفور ، وكأنه مرغم ، فهو فريسة ممزقة بين قوى دافعة وأخرى جاذبة . يهرب من الناس ويكاد يجن لوحدته . بدأ يشعر بلذة غريبة فى أن يندسّ بين المترددات على المسجد ، ولا سيما يوم الزيارة . فى هذا الزحام كان معنى اللباس عنده أنه فواصل بين الأجساد العارية ، يحسّ بها من صدمة هينة أو احتكاك وامض . فى وسط هذه الأجساد كان يشعر بلذة المستحم فى تيار جار لا يبالى نقاء الماء . . . . . روائح العرق والعطر لا تكربه بل يتشممها بخيشوم الكلاب . لا يخلو يوم الزيارة من بعض المومسات — فسيّدى العتريس

مأمور ألاّ يصد أحداً عن الساحة — يفدن لتقديم شمعة للمقام أو للوفاء بنذر ، عسى الله أن يتوب عليهن ويمحو ما على الجبين من مقدّر مسطور ، كان يراهن من قبل فلا يفطن إليهن ، أما الآن فهو يتتبعهن وتعلق نظرته بهن وتتريث ، واختص بانتباهته فتاة تأتى كل يوم زيارة ، سمراء جعدة الشعر ، رقيقة الشفتين . هذه هى نعيمة ، تمتاز عن زميلاتها بصمتها وقوامها الأهيف . كلهن يمشى مشية المتخاذل المنحلّ غير مكترث ، أما هى فكأنما تسير إلى غرض مالكة كيانها وروحها . ذراعاها ممدودتان إلى جانبها ، يواجهك باطن كوعها ، ولو دققت النظر لما وجدت من مومس إلاّ ذراعين مكسورتين من أثر السقوط ، وإن كانت الثنية عندها سر الخلاعة !

يبتسم إسماعيل عندما يرى الشيخ درديرى — خادم المقام — وسطهن كالديك بين دجاج . يعرفهن واحدة واحدة، ويسأل عن الغائبات . يأخذ من هذه شمعتها ، ويوسع لأخرى طريق صندوق النذور ، يتبدل رضاه فجأة فيزجرهن ويدفعهن دفعاً إلى الخروج . تأتى إليه أيضاً نسوة ورجال يسألونه شيئاً من زيت قنديل أم هاشم لعلاج عيونهم أو عيون أعزائهم . يشفى بالزيت المبارك

من كانت بصيرته وضاءة بالإيمان ، فلا بصر مع فقد البصيرة . ومن لم يشف فليس لهوان الزيت ، بل لأن أم هاشم لم يسعها بعدُ أن تشمله برضاها . لعله عقاب آثامه ، ولعله هو لم يتطهر بعدُ من الرجس والنجاسة ، فيصبر وينتظر ويتردد على المقام . فإن كان الصبر أساس مجاهدة الدنيا ، فإنه أيضاً الوسيلة الوحيدة للآخرة .

فى هذا الزيت مورد رزق متسع للشيخ درديرى ، ومع ذلك لا تظهر عليه آثار النعمة . فجلبابه القذر هو هو ، وعمامته الغبراء هى هى . وماذا يفعل بنقوده! هل يكنزها تحت بلاطة؟ يتهمه زملاؤه أنه يحرقها فى الحشيش بدليل سعاله الذى لا ينقطع ، وبدليل ما فى طبعه من ميل ( للقفش ) والتنكيت . والحقيقة أنه مزواج لا يمر العام إلاّ ويبنى ببكر جديدة . عرفه إسماعيل من تردده على المقام ، واعتاد أن يمرّ عليه فى أغلب الليالى بعد صلاة العشاء ليتندر بحديثه . ومال الرجل للفتى واختصه بحنانه ، هذا الحنان هو الذى حمله ذات ليلة على الإفضاء إليه بسرّ لم يفض به إلى أحد غيره :

— تعرف ياسى اسماعيل ليلة الحضرة ، يجىء سيدنا الحسين

والإمام الشافعى ، والإمام الليث ، يحفون بالسيدة فاطمة النبوية والسيدة عائشة ، والسيدة سكينة ، فى كوكبة من الخيل ، ترفرف عليهم أعلام خضر ، ويفوح من أردانهم المسك والورد ، يأخذون أمكنتهم عن يمين الست وعن يسارها ، وتنعقد محكمتهم وينظرون فى ظلامات الناس ، لو شاؤوا لرفعوا المظالم جميعها . ولكن الأوان لم يئن بعد ، فما من مظلوم إلا هو ظالم أيضاً فكيف الاقتصاص له ؟ فى تلك الليلة ، هذا القنديل الصغير الذى تراه فوق المقام ، يكاد لا يشع له ضوء ، ينبعث منه عندئذ لألاء يخطف الأبصار . . . إننى ساعتها لا أطيق أن أرفع عينىّ إليه . زيته فى تلك الليلة فيه سرّ الشفاء . فمن أجل ذلك لا أعطيه إلاّ لمن أعلم أنه يستحقه من المنكسرين .

كان إسماعيل غائب الذهن ، يفكر فى الفتاة السمراء التى تزمّ شفتيها ، وانتبه إلى الشيخ درديرى وهو يشير بأصبعه إلى القنديل: وسنان كالعين المطمئنة رأت ، وأدركت ، واستقرت . يضفو ضوؤه الخافت على المقام كإشعاع وجه وسيم من أم تلقم رضيعها ثديها فينام فى أحضانها ، ومضات الذبالة خفقات قلبها حناناً ، أو وقفات تسبيحها همساً ، يطفو فوق المقام كالحارس مبتعداً تبجيلاً .

أما السلسلة فوهم وتعلّة . . . كل نور يفيد اصطداماً بين ظلام يجثم وضوء يدافع ، إلاّ هذا القنديل فإنه يضىء بغير صراع ! لا شرق هنا ولا غرب ، ما النهار هنا ولا الليل ، لا أمس ولا غد .
وانتفض إسماعيل لا يدرى ما هذا الذى مسّ قلبه !

## ٤

ووافقت المراهقة سنة البكالوريا ، وخرج إسماعيل من الامتحان ، وقلبه واجف مفعم بالشكوك ، وأعلنت النتيجة فإذا به يفوز ولكن فى ذيل الناجحين .

لقد كان أمله ورجاء الأسرة كلها أن يدخل مدرسة الطب . فإذا بها تصده عن أبوابها . واقترب العام الجديد ، ولم يستقر على قرار . ليس أمامه إلاّ أن يدخل مدرسة المعلمين إن شاء ، أو أن يدرس للبكالوريا من جديد ويضيع سنة من عمره وكلا الأمرين بغيض إلى نفسه . لم يكن الشيخ رجب بأقلّ من ابنه قلقاً وحيرة . ولكم توقع بعض معارفه أن يكتفى بتعليم ابنه إلى الحدّ الذى بلغه ويوظفه بالبكالوزيا ، إن لم يكن للمساعدة ، فللتخفيف عنه . آه لو علموا كيف عقد الشيخ رجب نيته على أن

يدفع بابنه إلى الصفوف الأولى ! ! يذهب هنا وهناك يسأل عن حلّ . . . لا أدرى من الذى قال له :

— لماذا لا ترسل ابنك إلى أوربا ؟

بات الشيخ رجب ليلته يتقلب على جنبيه .

علم أن هذا الحل سيكلفه من عشرة إلى خمسة عشر جنيهاً فى الشهر ، غير ما يلزم لابنه فى أول الأمر من نفقات الطريق وثياب تقيه برد الشمال ؟ أيفارق ابنه ؟ وهل ترضى أمه ؟ أم سيقف حنانها فى سبيل مستقبل إسماعيل ؟ وهل يقوى على دفع هذا المبلغ بانتظام كل شهر ؟ إنه لو فعل لما بقى للأسرة كلها إلاّ ما تعيش به على الكفاف والشظف . وإلى متى ؟ ست سنوات أو سبعاً ، والزمن قاس يدور دورة عكس . كما سمع أذان العشاء ، سمع أذان الفجر ، ثم أخذته غفوة هتف به خلالها صوت رقيق :

— توكل على الله . . . . . .

استيقظ من النوم وقد عقد عزمه ، وفهمت الأم أن لا مهرب من الفراق فرضيت صامتة و إن لم ينقطع بكاؤها . إلى أين ؟ بلاد برّه ! كلمة لها رنين وسحر تتسلل، كروح مبهمة لا يطمئن لها إلى المنزل الذى لاتنقطع فيه تلاوة القرآن ، وحيث الشرع هو

الحق والعلم جميعاً . وثوت هذه الروح فى ركن صغير من الدار وغطت رأسها وتمطت ، ونامت منتصرة قريرة العين . بلاد برّه ! ينطق بها الأب كأنها إحسان من كافر لا مفرّ من قبوله ، لا عن ذلة ، بل للتزود بنفس السلاح . أما الأم ، فمنذ الآن تركبها رعدة المحيط وتأخذها رجفة البرد . تتصور بلاد برّه فى نهاية سلم عال ينتهى إلى أرض تغطيها الثلوج ، ويسكنها أقوام لهم حيل الجن وألاعيبهم . أما فاطمة النبوية فقلبها واجف ، تسمع أن نساء أوربا يسرن شبه عاريات ، وكلهن بارعات فى الفتنة والإغراء ، فإذا سافر إسماعيل فلا تدرى كيف يعود إن عاد .

وجمع الأب كل مااستطاع جمعه من مال ، وباعت الأم حليها ، واشتريت تذاكر السفر والملابس الثقيلة التى تقى من برد أوربا واقترب موعد السفر وحلّ الوداع .

واجتمعت الأسرة صامتة حزينة . قلوب خافقة ، وعيون دامعة ، وأنشأ الأب يقول لابنه :

— وصيتى إليك أن تعيش فى بلاد برّه كما عشت هنا حريصاً على دينك وفرائضه ، وإن تساهلت مرّة فلن تدرى إلى أين يقودك تساهلك . ونحن يا بنى نريدك أن ترجع إلينا

مفلحاً لتبيّض وجوهنا أمام الناس . وأنا رجل قد أوشكت على الكبر ، وقد وضعت كل آمالنا فيك . وإياك أن تغرك نساء أوربا فهن لسن لك وأنت لست لهن .

ثم صمت الأب قليلاً وعاد يقول :

واعلم أن أمك وأنا قد اتفقنا على أن تنتظرك فاطمة النبوية فأنت أحق بها وهى أحق بك . هى بنت عمك وليس لها غيرك ، وإن شئت قرأنا الفاتحة معاً يومنا هذا ، عسى أن يصحب سفرك البركة واليمن

لم يسعه إلاّ القبول . فوضع يده فى يد أبيه ، وقرأ معه الفاتحة ، بينهما أم تبكى ، وفتاة حيرى بين الأسى والفرح .

كان إسماعيل يعلم أن هذه الفاتحة ستأتى فى يوم ولكنه لم يتوقعها فى تلك الليلة ، فلقد نشأ مع فاطمة النبوية أخوين ، وقلما نظر إليها كما نظر إلى فتاته السمراء .

قرأ الفاتحة وهو شارد اللُّب، إرضاء لأبيه ، وقلبه يقول له : « احفظ عهدك ! » فيجيبه : « لماذا ؟ لماذا ؟ » كل هذه أشياء غامضة ، لأنه حتى اليوم ما يزال طاهراً عفيفاً ، لم يقترب من امرأة . وإنه لكاذب — وإسماعيل لا يكذب — إذا أنكر أنه

جوعان إلى فتاته السمراء ، إلى النساء جميعاً ، ولا سيما أخيراً ! إلى نساء أوربا .

٥

وخرج إسماعيل يودع بعض أصدقائه ثم انتهى إلى الميدان ، وقد اقترب الغروب . . . . تتلقف آذانه ما أمكنها من نداءات الباعة التى ألفها ، وخيّل إليه أن فى الميدان حركة غير التى عهد ، كأن القوم قد أصبحوا أسرع مشية . مالهم لا يلوون على شىء ؟ أفليست الحياة إلاّ سباقاً ؟ كم ودّ لو وقف واحد من المندفعين وبادله الحديث . لم يلتفت إليه أحد . فى الميدان حركة النمل تتعارض وتتحاذى وتضرب فى كل اتجاه . قادته قدماه إلى المقام فوجده ساكنا على غير عادته . الشيخ درديرى واقف مطأطىء الرأس كأنما هو متعب أو تسلط عليه خوف ورهبة . دار إسماعيل حول المقام حتى إذا جاء للسور الذى يفصل مكان النساء عن الرجال انتبه إلى شبح واقف وراءه ، هى فتاته السمراء ألصقت جبينها على السور . سمّر إسماعيل فى مكانه وسمعها تقول هامسة :

يا أم هاشم ! يا ستّارة على الولايا . لا تغضى عينيك ولا تشيحى بوجهك . تمد إليك يد مسترحمة فخذيها . إن الله طهرك وصانك وأنزلك الروضة ، وإن قلبك لرؤوف . إذا لم يقصدك المرضى والمهزومون والمحطمون فمن غيرك يقصدون . إذا نُسينا فاذكرى أنت ! متى يمحى المقدّر علىّ . أيرضيك أن جسدى ليس منى فما أشعر بألم وهو ينهش نهشاً . ها هى روحى على عتباتك تتلوى وتتمرغ مصروعة تريد أن تفيق . منذ غادرنى رضا الله وأنا كالنائم يركبه الكابوس ، يقبض فى يد واحدة على الموت والحياة ! رضيت لحكمه وأسلمت نفسى ، ولن أضيع وأنت هنا معنا . أفيطول الأمد ، أم أن رحمة الله قريب ، نذرت لك يومٌ يتوب المولى علىّ أن أزيّن مقامك الطاهر بالشموع ، خمسين شمعة ، يا أم هاشم يا أخت الحسين !

ووضعت الفتاة شفتيها على سور المقام . ليست هذه القبلة من تجارتها ، بل من قلبها . ومن ذا الذى يجزم بأن أم هاشم لم تسع إلى السور قد هيأت شفتيها من ورائه لتبادلها قبلة بقبلة ؟

همّ إسماعيل أن يخرج من المسجد ليلحقها ويكلمها ، فلم تتحرك قدماه . أراد أن يفضى لها بكل ما فى نفسه . إن لحظة

الانتزاع من الأسرة والوطن ومواجهة الغربة والوحدة والمجهول تضنى أعصابه وتهصر قلبه . لماذا يهتز لمرآها دون سائر النساء؟ أواهم هو؟ لا . إن صوتا خفيا يريد أن ينطق فى قلبه ويتكلم ويرشده إلى السر . ولكن هناك ألف غطاء وغطاء تكتم هذا الصوت وتخنقه . ولعل الفتاة لم تره ولم تشعر به . وهرب إسماعيل من حيرته إلى الشيخ درديرى ، وحديثه الثرثار ينزل بلسما على فؤاده . وقفته فى صمت المقام ، وتحت ضوء القنديل ، ويده معلقة بالسور تارة ، ماسحة على وجهه تارة أخرى، هى آخر ما يذكره عن رحيله من القاهرة . فكل ما حدث له بعد خروجه من المقام شمله من أخمص قدميه إلى رأسه كالتيار المندفع العنيف ، يتأرجح فيه ملقى القياد ، مقلوب الوضع ، فقد خلاله الزمن ترتيبه ، والمرئيات اعتدالها ، والأصوات صدقها وفروقها . وداع الأسرة ، وما أمره ! فى الدار وسط النحيب والبكاء ، والمحطة ، والقطار ثم الميناء وحركته ، والباخرة المجهولة وصفيرها . إننى أتخيله صاعدا سلم الباخرة شاباً عليه وقار الشيوخ ، بطىء الحركة ، غرير النظرة ، أكرش ، ساذجاً ، كل ما فيه ينبىء أنه قروى مستوحش فى المدينة . أقسم لى عمى إسماعيل فيما بعد أنه كان

يحمل فى أمتعته قبقاباً ، فقد سمع الشيخ رجب أن الوضوء فى أوربا متعذر لاعتياد الناس لبس الأحذية فى البيوت . كما وصف لى وهو يبتسم سراويله وطولها وعرضها وتكتها المحلاوى . كان معه أيضاً سلة ملأى بالكعك و ( المنين ) . . . . من عمل أمه وفاطمة النبوية .

وسافرت الباخرة .

## ٦

ومرّت سبع سنوات ، وعادت الباخرة .

من هذا الشاب الأنيق السمهرىّ القامة ، المرفوع الرأس ، المتألق الوجه ، الذى يهبط سلم الباخرة قفزا ؟ هو والله إسماعيل بعينه . أستغفر الله ! هو الدكتور إسماعيل ، المتخصص فى طب العيون ، والذى شهدت له جامعات إنجلترا بالتفوق النادر ، والبراعة الفذّة ، كان أستاذه يمزح معه ويقول له :

— أراهن أن روح طبيب كاهن من الفراعنة قد تقمصت فيك يا مستر إسماعيل . إن بلادك فى حاجة إليك ، فهى بلد العميان .

رأى فيه دراية كأنها ملهمة ، وصفاء هو سليل نضج أجيال طويلة ، ورشاقة أصابع هى وريثة الأيدى التى نحتت من الحجر الصلد دمى تكاد تحيا .

أقبل يا إسماعيل فإنا إليك مشتاقون . لم نرك منذ سبع سنوات مرّت كأنها دهور . كانت رسائلك المتوالية ، ثم المتراخية ، لاتنفع فى إرواء غلتنا . أقبل إلينا قدوم العافية والغيث . وخذ مكانك فى الأسرة فستراها كالآلة وقفت بل صدئت لأن محركها قد انتزع منها . آه ! كم بذلت هذه الأسرة لك . فهل تدرى ؟

لم ينم إسماعيل ليلة الوصول إلا غراراً . قفز إلى ظهر الباخرة مع الفجر يريد ألاّ يفوته أول مايبدو من شاطىء الأسكندرية . لا يرى شيئاً على الأفق ، ولكن خياشيمه تتشم فى النسيم رائحة لم يألفها من قبل . أول من لقيه من وطنه مخلوق الكون كله وطنه . طائر أبيض ، منفرد يحوّم حول السفينة ، طليق متعال ، نظيف ، وحيد . لماذا تتعمد البواخر كل هذا التلكؤ عند الوصول ، وما كان أسرعها عند الفراق ؟ إنها تتهادى بدلال العودة ، فما لها وللركاب وما يشعرون . كتم إسماعيل عن أهله موعد الباخرة حتى لايكلّف أباه الشيخ مشقة السفر

للاسكندرية . فى عزمه أن يبرق إليهم بموعد وصول قطاره للقاهرة . هذا هو الفنار المتمنطق ، وهذا هو الشاطىء الأصفر يكاد يكون فى مستوى الماء . أنت يا مصر راحة ممدودة إلى البحر لا تفخر إلا بانبساطها ، ليس أمامك حواجز من شعاب خائنة ، ولا على شاطئك جبال تصدّ . أنت دار كل ما فيها يوحى بالأمان . . . ها هو أول قارب يظهر ، فيه شيخ قد وخط الشيب لحيته ، مقوّس الظهر ، أقعى كالقرد فى مقدم قاربه يصطاد . جلبابه الأزرق ، أو الذى كان أزرق ، ممزق مرقع . وقعت نظرة إسماعيل على سيدة مصرية وقفت بجواره ، فرآها مطلة على الصياد ، مغرورقة عيناها بالدموع وسمعها تتمتم :

— مصر ! مصر !

كيف ينتبه لها الصياد وهو لم ينتبه للباخرة كلها . مثلها كثيرات داخلات خارجات تكاد تصـــدم قاربه ، ولكن هيهات لها أن تصدم عالمه المقفل ، عالم يجرى على وتيرة واحدة متكررة يوماً بعد يوم . همّ إسماعيل بأن ينادي هذا الشيخ ويلقى عليه السلام ، أو يلوّح له بمنديل . كيف تسقط المقاييس وينهزم المنطق فى مثل تلك اللحظات التى تتأجج فيها العواطف ، وتصفو القلوب !

ورن جرس إيذاناً بموت الباخرة ، فأصبحت جثتها فريسة لجيش من النمل البشرى يهاجمها . جنود وضباط ، وإخواننا المحتلون ولو أنهم أخلاط مطر بشون ، وحمالون وصيارفة وزوار . ثم اندلق الزحام والتدافع ، وتعالت النداءات ، وكثر العناق والتقبيل ، وإسماعيل وسط التيار ، غير مغمور ، يلتقط بنهم كل ما يصل اليه ، وعلى شفتيه ابتسامة حلوة مطمئنة ، له أذن فارزة واعية ، ونظرة حيّة يقظة تريد أن ترى كل شىء ، وتفهم كل شىء . إذا دققت النظر إليه وجدت تكورات وجهه قد زالت وشُدّ شدقاه فى أخدودين . كانت شفتاه مرتخيتين ، قلما تنطبقان ، أما الآن فقد ضمهما عزم ووثوق . يجتاز الجمرك . وفى العربة يستمع لوقع عجلاتها بين الأسفلت والبلاط ، فيذكره تنافر النغم وتناوبه بيوم السفر . كم يبدو له هذا اليوم متردياً فى هوّة من ماض بعيد . بعيد كالحلم . . . . . . كيف تقوى ذكرى هذا اليوم على البقاء بعد سبع سنوات قضاها فى إنجلترا قلبت حياته رأساً على عقب . كان عفّاً فغوى ، صاحيا فسكر ، راقص الفتيات وفسق . هذا الهبوط يكافئه صعود لا يقل عنه جدّة وطرافة ، تعلم كيف يتذوق جمال الطبيعة ، ويتمتع بغروب الشمس — كأن لم يكن فى

وطنه غروب لا يقل جمالاً — ويلتذّ بلسعة برد الشمال .

إن لم يكن له فى هذه الفترة سوى (مارى) زميلته فى الدراسة لكفى بها فى نسيان ماضيه . لقد أخذ هذا الفتى الشرقى الأسمر بلبها فآثرته واحتضنته . عندما وهبته نفسها ، كانت هى التى فضت براءته العذراء . أخرجته من الوخم والخمول إلى النشاط والوثوق ، فتحت له آفاقا يجهلها من الجمال : فى الفن ، فى الموسيقى ، فى الطبيعة ، بل فى الروح الانسانية أيضاً .

قال لها يوماً :

— سأستريح عندما أضع لحياتى برنامجاً أسير عليه .

فضحكت وأجابت :

— يا عزيزى إسماعيل . الحيـاة ليست برنامجاً ثابتاً ، بل مجادلة متجددة .

يقول لها : « تعالى نجلس » فتقول له : « قم نسر » . يكلمها عن الزواج ، فتكلمه عن الحب . يحدثها عن المستقبل فتحدثه عن حاضر اللحظة . كان من قبل يبحث دائماً خارج نفسه عن شىء يتمسك به ويستند إليه : دينه وعبادته ، وتربيته وأصولها ، هى منه مشجب يعلق عليه معطفه الثمين . أما هى فكانت تقول

له : « إن من يلجأ إلى المشجب ، يظلُّ طول عمره أسيراً بجانبه يحرس معطفه . يجب أن يكون مشجبك فى نفسك » إن أخشى ما تخشاه هى : القيود ، وأخشى ما يخشاه هو : الحرية . كانت هيبتها له فى مبدأ الأمر محلّ حيرته ، فكانت حيرته محلّ سخريتها . كان يتجافى الناس و يقدّر احتمالات ودهم ، و يهتم كيف يكون حكمهم عليه ، و إذا لقى من تريحه المجاملة لا يجد بأساً فى مجاملته ، وقلبه غير مشارك . التعارف عنده اصطدام بين الشخصيات يخرج منه ظافراً أو خاسراً . أما هى فتهيم بالناس جميعاً ، ولا تهتم بهم جميعاً . التعارف عندها لقاء ، والود متروك للمستقبل ، ومع تساوى ودّها للناس جميعاً ، كانت بتّارة فى إقصاء الضعيف ، والسخيف ، والمتعالم ، والرذل ، والحزين ، والمنافق ، فلمّا تخلصت من هذه الأوشاب أصبحت لا ينجذب إليها إلاّ من تطمئن لصحبتهم .

رأته يطيل جلسته بجانب الضعفاء من مرضاه ، و يخص بعطفه من يلحظ فيه آثار تخريب الزمن للأعصاب والعقول — وما أكثرهم فى أوربا ، يجلس صامتاً ينصت لشكواهم . وكان أكبر كرم منه أن يماشى منطقه منطقهم المريض . لحظته (مارى)

وحلقة المرضى والمهزومين تطبق عليه يتشبثون به ، كل يطلبه لنفسه ، فأقدمت وأيقظته بعنف :

— أنت لست المسيح بن مريم ! « من طلب أخلاق الملائكة غلبته أخلاق البهائم ! » و « الإحسان أن تبدأ بنفسك » . هؤلاء الناس غرقى يبحثون عن يد تمد إليهم ، فإذا وجدوها أغرقوها معهم ! إن هذه العواطف الشرقية مرذولة مكروهة ، لأنها غير عملية وغير منتجة . و إذا جردت من النفع لم يبق إلا اتصافها بالضعف والهوان . إنما هذه العواطف قوتها فى الكتمان لا فى البوح !

كانت روحه تتأوه وتتلوى تحت ضربات معولها ، كان يشعر بكلامها كالسكين يقطع من روابط حية يتغذى منها إذ توصله بمن حوله . واستيقظ فى يوم فإذا روحه خراب ، لم يبق فيها حجر على حجر . بدا له الدين خرافة لم تخترع إلا لحكم الجماهير ، والنفس البشرية لا تجد قوتها ومن ثم سعادتها إلا إذا انفصلت عن الجموع وواجهتها ، أما الاندماج فضعف ونقمة .

لم تقو أعصابه على تحمل هذا التيه الذى وجد نفسه غريقاً وحيداً فى خلائه ، فمرض وانقطع عن الدراسة ، وافترسه نوع من

القلق والحيرة ، بل بدت فى نظرته أحياناً لمحات من الخوف والذعر .

وكانت (ماری) هى التى أنقذته . أخذته فى رحلة إلى الريف باسكتلندة ، يجولان بالنهار مشياً أو على الدراجة بين الحقول، أو يصطادان السمك ، و بالليل تذيقه من متعة الحبّ أشكالا وألوانا . من حسن حظه أنه استطاع أن يجتاز هذه المحنة التى يتردى فيها الكثيرون من مواطنيه الشباب فى أور با ، وخاص منها بنفس جديدة مستقرة ، ثابتة واثقة . إن اطرحت الاعتقاد فى الدين، فإنها استبدلت إيمانا أشد وأقوى بالعلم، لا يفكر فى جمال الجنة ونعيمها ، بل فى بهاء الطبيعة وأسرارها . ولعلّ أكبر دليل على شفائه أنه بدأ يتخلص من سيطرة ( ماری ) عليه . أصبح لا يجلس بين يديها جلسة المريد أمام القطب ، بل جلسة الزميل إلى زميله . لم يدهش ، ولم يتألم كثيراً ، عند ما رآها تبتعد عنه وتنصرف إلى زميل من جنسها ولونها . إنها ككل فنان يملّ عمله حين يتم . شفى إسماعيل ففقد كل سحره ، أصبح كغيره ممن تعرفهم . فلتجرب إذاً صديقها الجديد . . . . على أن إسماعيل لم يقو على مغادرة إنجلترا دون أن يسعى إلى لقائها

لآخر مرة . دعاها فلم ترفض ، وجاءته . ولم يسأل نفسه أعلى علم من صديقها الجديد أم على غفلة منه ؟ ووهبت له نفسها مرة أخرى ، فهذه العلاقة ليست عندها بذات بال ولا خطر . كانت ضمتها له نوعا من المصافحة وسلام الوداع .

وهتفت به وهى تنصرف على دراجتها :

— آمل أن أراك فى مصر يوماً من الأيام . ومن يدرى ؟ فإلى اللقاء إذاً ، ولا أقول وداعاً .

نساء العصر الحديث ! كم ذا يواجهن الاحتمالات بقلوب ثابتة ، شجرة الحياة أمامهن مثقلة بالثمر منوعته . لهن شهية مفتوحة ، فلم التأسى والبكاء على ثمرة والشجرة مفعمة ؟

## ٧

والظاهرة العجيبة التى لا أستطيع تفسيرها أن إسماعيل أفاق من حبه ( لمارى ) فوجد نفسه فريسة حب جديد . ألأن القلب لا يعيش خالياً ؟ أم أن ( مارى ) هى التى نبهت غافلا فى قلبه فاستيقظ وانتعش ؟ كان إسماعيل لايشعر بمصر إلاّ شعوراً مبهما ، هو كذرة الرمل اندمجت فى الرمال واندست بينها ، فلا تميز منها ،

ولو أنها مع ذلك منفصلة على كل ذرة أخرى . أما الآن فقد بدأ يشعر بنفسه كحلقة فى سلسلة طويلة تشده وتربطه ربطاً إلى وطنه. فى ذهنه مصر عروس الغابة التى لمستها ساحرة خبيثة بعصاها فنامت ، عليها الحلىّ و ( دواق ) ليلة الدخلة . لا رعى الله عيناً لم ترجمالها ولا أنفاً لا يشم عطرها ! متى تستيقظ ؟ متى ؟ وكلما قوى حبه لمصر زاد ضجره من المصريين . ولكنهم أهله وعشيرته والذنب ليس ذنبهم . هم ضحية الجهل والفقر والمرض والظلم الطويل المزمن . إنه حدّق فى الموت مراراً ، وجس المجذوم ، واقترب فمه من فم المحموم . ترى هل ينكص الآن عن لمس هذه الكتلة البشرية التى لحمه من لحمها ودمه من دمها ؟ قد عاهد نفسه فى حبه لمصر أن لا يرى منكرا إلاّ دفعه . علمته ( مارى ) كيف يستقل بنفسه ، وهيهات لهم بعد ذلك أن يجرعوه خرافاتهم وأوهامهم وعاداتهم . ليس عبثاً أن عاش فى أوربا وصلى معها للعلم ومنطقه . علم أن سيكون بينه و بين من يحتك بهم نضال طويل ، ولكن شبابه هوّن عليه القتال ومتاعبه ، بل كان يتشوّق إلى المعركة الأولى ، وسرح ذهنه فإذا هو كاتب فى الصحف ، أو خطيب فى أحد المجتمعات يشرح للجمهور آراءه ومعتقداته .

وتحرك القطار بإسماعيل ولم يرسل برقيته . لا يدرى لماذا ضعف عن لقائهم بالمحطة وسط الضجيج والضوضاء وعلى أعين الناس ، ور بكة المتاع . إنه يود أن يلقى أعزاءه فى دارهم ، وعلى نجوة من الغرباء . ولم يقدر وقع المفاجأة على أبيه وأمه العجوز . ذكرهما فوجف قلبه . هل يستطيع أن يؤدى لهما بعض ما هو مدين به ؟ إنه قادم مزوّد بنفس السلاح الذى أراده له أبوه ، وسيشق لنفسه بهذا السلاح طريقه إلى أول الصفوف ، وسيعرض عن خدمة الحكومة ويفتح عيادة فى أرقى أحياء القاهرة ، وسيدهش القاهريين أولاً ثم المصريين جميعاً بما أتقنه من فن واكتسبه من خبرة . فإذا تدفق عليه المال أعفى أباه الشيخ من العمل ، واشترى له أرضاً فى بلدهم ليعيش مستريحاً . ثم وجم إسماعيل ، لقد تذكر أنه لم يأت معه من أوربا بهدية لأسرته ، وسرّى عنه إذ قال لنفسه :

— وماذا فى أوربا كلها يصلح لأبى وأمى ؟

وفاطمة النبوية ؟ ذكراها تثير فى نفسه بعض الاضطراب ، لم يزل مرتبطاً بوعده ، وقد عاد حرًّا ، فلا عذرَ له إذا اعتذر . هذه مسألة معقدة فلنتركها للمستقبل .

وأطلّ من النافذة فرأى أمامه ريفاً يجرى كأنما اكتسحته عاصفة من الرمل فهو مهدّم معفر متخرب . الباعة على المحطات فى ثياب ممزقة تلهث كالحيوان المطارد وتتصبب عرقاً .

ولما سارت العربة من المحطة ، ودخلت شارع الخليج الضيق الذى لا يتسع لمرور الترام ، كان أبشع ما يتصوره أهون مما رآه : قذارة وذباب ، وفقر وخراب ، فانقبضت نفسه ، وركبه الوجوم والأسى ، وزاد لهيب الثورة فى قرارة نفسه ، وزاد التحفز .

ووقف أمام البيت ، وتناول مطرقته ، وتركها تسقط ، فاختلطت دقتها بدقات قلبه . سمع صوتاً رقيقاً ينادى بلهجة نساء القاهرة :

— مين ؟

— أنا إسماعيل ! افتحى يافاطمة !

## ٨

يا إسماعيل . ما أقساك ! وما أجهل الشباب !

كادت أمه يغمى عليها ، وانعقد لسانها وهى تضمه وتقبل وجهه ويديه ، تشهق وتبكى . يا الله ! كم شاخت وتهدلت وضعف

صوتها و بصرها ! إن الغائب فى وهم ، يتوقع أن يعود لأحبابه فيجدهم كما تركهم منذ سنوات . صوت يهمس فى قلبه :

— ليست لها من الشخصية نصيب ! ليست إلا كتلة من طيبة سلبية .

وجاءه أبوه تفيض على وجهه ابتسامة هادئة . اشتعل شيبه وإن لم تنحن قامته ، فى عينيه نظرة مشوبة من إعياء وصبر ، من راحة ضمير وشعور بالحمل الثقيل . سيعلم إسماعيل فيما بعد أن الأزمة كوته بنارها فانتكست أموره ، ومع ذلك لم يتأخر فى يوم ما عن موعد إيداع النقود بالبنك لابنه . لم يذكر لإسماعيل ما يعانيه أو يدعوه إلى الاقتصاد أو يستعجله للعودة . يلهو إسماعيل فى أسكتلندة مع رفيقته يأكل البفتيك ، وأبوه قعيد داره ، عشاؤه طعمية أو فجل .

لإسماعيل نظرة من طرف عينيه تطوف فى الدار ، فإذا هى أضيق وأشد ظلمة مما كان يذكر . أما يزال ضوؤهم من مصباح البترول ؟ قطع الأثاث بالية متناثرة تبدو — رغم مر السنين وطول الصحبة — كأنها مهاجرة فى دار غربة . ولماذا هم على البلاط ؟ وأين البساط ؟

هذه أم محمد ترتبك كعادتها بين الأطباق والحلل ، وهى تزغرد ، فيزجرها و يقول لها :

— بس بلاش خوته ياوليه اعقلى .

ولكن أين فاطمة النبوية ؟ أقبلت فإذا أمامه فتاة فى شرخ الصبا ، ضفيرتاها وأساورها الزجاجية الرخيصة ، وحركاتها وكل ما فيها وما عليها يصرخ بأنها قروية من أعماق الريف . هل هذه هى الفتاة التى سيتزوجها ؟ علم منذ اللحظة أنه سيخون وعده وينكث عهده . وما لها معصوبة العينين ؟ فهى ترفع ذقنها لتستطيع أن ترى وجهه . لم يدعها الرمد منذ سافر ، وساء حالها يوماً بعد يوم .

وأعد العشاء وجلسوا ، ولعلهم جلسوا من أجله حول مائدة لهم من الخشب الأبيض . لم يأكل أحد ، لم يأكلوا هم من حدة الفرح ، ولم يأكل هو من صدمة اليقظة . اعترف لى إسماعيل فيما بعد بأنه حتى فى اللحظة التى كان يجب أن تشغله سعادة العودة إلى أحضان والديه عن القياس والمقارنة والنقد ، لم يملك نفسه عن التساؤل : كيف يستطيع أن يعيش بينهم ؟ وكيف سيجد راحته فى هذه الدار ؟

وأعد الفراش ، وأبى الشيخ رجب إلا الانصراف إلى غرفته ليترك ابنه يستريح من عناء السفر . وهـذه أمه تجذب نفسها جذباً وتهم بتركه ، ولكنها تشير إلى فاطمة وتقول :

— تعالى يا فاطمة قبل أن تنامى أقطر لك فى عينيك .

ورأى إسماعيل أمه وفى يدها زجاجة صغيرة ، وترقد فاطمة على الأرض وتضع رأسها على ركبة الأم ، فتسكب من الزجاجة فى عينيها سائلا تتأوه منه فاطمة وتتألم .

سألها إسماعيل :

— ما هذا يا أمى ؟

— هذا زيت قنديل أم هاشم . تعودت أن أقطر لها منه كل مساء .

لقد جاءنا به صديقك الشيخ درديرى إنه يذكرك ويتشوق إليك . هل تذكره ؟ أم تراك نسيته ؟

قفز إسماعيل من مكانه كالملسوع . أليس من العجيب أنه وهو طبيب عيون ، يشاهد فى أول ليلة من عودته ، بأية وسيلة تداوى بعض العيون الرمد فى وطنه ؟ .

تقدم إسماعيل إلى فاطمة فأوقفها ، وحل رباطها وفحص عينيها ،

فوجد رمداً قد أتلف الجفنين وأضر بالمقلة ، فلو وجد العلاج المهدىء المسكن لتماثلت للشفاء ، ولكنها تسوء بالزيت الحار الكاوى .

فصرخ فى أمه بصوت يكاد يمزق حلقه :

— حرام عليك الأذية . حرام عليك ، أنت مؤمنة تصلين ، فكيف تقبلين أمثال هذه الخرافات والأوهام ؟

وصمتت أمه وانعقد لسانها ، تحاول أن تتمتم ولا تبين .

ورأى إسماعيل شبح أبيه على الباب ، فى جلباب أبيض قصير ، وعلى رأسه طاقية تحتها وجه مربد . هل يتوقع قلبه الحنون مكروهاً ؟ ماذا ؟ لعل فى تصرفات إسماعيل وحركاته ونظراته ما أيقظ فى نفسه منذ اللحظة الأولى بعض الريبة . ما هذا الصراخ ؟ ماذا حدث ؟

ونطقت أمه أخيراً تستعيذ بالله وتقول له :

— اسم الله عليك يا إسماعيل يا ابنى . ربنا يكملك بعقلك . هذا غير الدوا والأجزا . هذا ليس إلا من بركة أم هاشم .

وإسماعيل كثور هائج لوحت له بغلالة حمراء .

— أهى دى أم هاشم بتاعتكم هى اللى ح تجيب للبنت

العمى . سترون كيف أداويها فتنال على يدى أنا الشفاء الذى لم تجده عند الست أم هاشم .

— يا ابنى ده ناس كتير بيتباركوا بزيت قنديل أم العواجز. جربوه وربنا شفاهم عليه . إحنا طول عمرنا جاعلين تكالنا على الله وعلى أم هاشم . ده سرها باتع .

— أنا لا أعرف أم هاشم ولا أم عفريت .

هبط على الدار صمت مقبض كصمت القبور . فى هذا البيت تعيش قراءة القرآن والأوراد ، وصدى الأذان ، كأنها جميعاً استيقظت وانتبهت ، ثم أطرقت وانطفأت ، وحل محلها ظلام ورهبة . . . لا عيش لها مع هذه الروح الغريبة التى جاءت لهم من وراء البحار .

وسمع صوت أبيه كأنما يصل إليه من مكان سحيق :

— ماذا تقول ؟ هل هذا كل ما تعلمتـه فى بلاد بره ؟ كل ما كسبناه منك أن تعود إلينا كافراً ؟

كل ما فعله إسماعيل بعد ذلك يدل على أن المرض العصبى القديم قد عاوده فجأة ، وانفجر بشدة من جديد . فقد وعيه وشعر بحلقه يجف ، و بصدره يشتعل ، و برأسه يموج فى عالم غير هذا

العالم . شب على قدميه واقفاً . لا شك أن فى نظرته ما يخيف ، فقد تضاءلت الأم أمامه وابتعدالأب عن طريقه . هجم إسماعيل على أمه يحاول أن ينتزع منها الزجاجة فتشبثت بها لحظة ، ثم تركتها له ، فأخذها من يدها بشدة وعنف ، و بحركة سريعة طوح بها من النافذة .

وكان صوت تحطمها فى الطريق دوى القنبلة الأولى فى المعركة .

ووقف إسماعيل حائراً لحظة ، له نظرة تجوب ما حوله وتتنقل من وجه أمه وفاطمة إلى وجه أبيه . وجد إشفاقاً وعطفاً ، ولم يجد تسامحاً وفهماً . ربما استشف فى نظرتهم بعض الرعب فتزايد هياجاً ، وانطلق إلى الباب ، وفى طريقه وجد عصا أبيه فأخذها ثم هرب من الدار جريا ، لن ينكص عن أن يطعن الجهل والخرافة فى الصميم طعنة نجلاء — ولو فقد روحه .

## ٩

أشرف على الميدان فإذا به يموج كدأبه بخلق غفير ، ضربت عليهم المسكنة ، وثقلت بأقدامهم قيود الذلّ . ليست هذه كائنات

حية تعيش فى عصر تحرك فيه الجماد . هذه الجموع آثار خاوية محطمة كأعقاب الأعمدة الخربة ليس لها ما تفعله إلاّ أن تعثر بها أقدام السائر . ما هذا الصخب الحيوانىّ ؟ وما هذا الأكل الوضيع الذى تلتهمه الأفواه ؟ يتطلع إلى الوجوه فلا يرى إلاّ آثار استغراق فى النوم كأنهم جميعاً صرعى أفيون . لم ينطق له وجه واحد بمعني إنسانى . هؤلاء المصريون : جاس سمج ثرثار ، أقرع أرمد ، عار حاف ، بوله دم ، و برازه ديدان ، يتلقى الصفعة على قفاه الطويل بابتسامة ذليلة تطفح على وجهه . ومصر ؟ قطعة ( مبرطشة ) من الطين أسنت فى الصحراء ، تطنّ عليها أسراب من الذباب والبعوض ، و يغوص فيها إلى قوائمه قطيع من جاموس نحيل .. يزدحم الميدان ببائعى اللب والفول ، وحبّ العزيز ، ونبوت الغفير ، والهريسة ، والبسيسة ، والسمبوسكة ، بمليم الواحدة . فى جنباته مقاهٍ كثيرة على الرصيف ، بجوار الجدران ، قوامها موقد و إبريق وجوزة . أجساد لم تعرف الماء منذ سنين ، الصابون عندها والعنقاء سواء . تمر أمامه فتاة مزججة الحواجب ، مكحلة العينين ، شدّت ملاءتها لتبرز عجيزتها وطرف ثوبها ، وتحجبت ببرقع يكشف عن وجهها . وما معنى

هذه القصبة التى تضعها على أنفها ؟ أُف ! ما أبشع رياء هذا المنظر وما أقبحه ! سرعان ما بدأ الناس يتحككون بها كأنهم كلاب لم يروا فى حياتهم أنثى ! هنا جمود يقتل كل تقدم ، وعدم لا معنى فيه للزمن ، وخيالات المخدر ، وأحلام النائم والشمس طالعة . . . .

لو استطاع إسماعيل لأمسك بذراع كل واحد منهم وهزّه هزّة عنيفة وهو يقول :

— استيقظ . استيقظ من سباتك وأفق ، وافتح عينيْك . ما هذا الجدل فى غير طائل ؟ والشقشقة والمهاترة فى سفاسف ؟ تعيشون فى الخرافات ، وتؤمنون بالأوثان ، وتحجون للقبور ، وتلوذون بأموات .

وعثرت قدمه بطفل ملقى على الرصيف ، والتف حوله جموع من الشحاذين يعرضون عليه عاهات يرتزقون منها رزقاً حلالاً كأنها من نعم الله عليهم ، أو مهن وصناعات .

وشعر إسماعيل بأن هذه الجموع أشلاء ميتة تطبق على صدره ، وتكتم أنفاسه ، وتبهظ أعصابه . يصطدم به بعض المارة كأنهم

عمى يتخبطون . هذا الرضا عجز ، وهذه الطيبة بلاهة ، وهذا الصبر جبن ، وهذا المرح انحلال .

انفلت إسماعيل من الزحام وجرى إلى الجامع ودخله ، واجتاز الصحن إلى الحرم . المقام يتنفس بدل الهواء أبخرة ثقيلة من عطور البرابرة . هذا هو القنديل قد علق التراب بزجاجه واسودّت سلسلته من ( هبابه ) . تفوح منه رائحة احتراق خانقة . أكثر ما ينبعث منه دخان لا بصيص ضوء . هذا الشعاع إعلان قائم للخرافة والجهل . يحوم فى سقف المقام خفاش اقشعرّ له بدنه . حول المقام أناس كالخشب المسندة ، وقفوا مشاولين متشبثين بالأسوار ، فيهم رجل يستجدى صاحبة المقام شيئاً لم يفهمه إسماعيل ، وإنما وعى أنه يستعديها على خصم له ، ويسألها أن تخرب بيته وتيتم أطفاله . والتفت إسماعيل إلى ركن فى المقام فوجد الشيخ درديرى يناول رجلاً معصوب الرأس بمنديل نسائى زجاجة صغيرة فى حرص وتستر ، كأنما هى بعض المهربات . لم يملك إسماعيل نفسه . . . . فقد وعيه ، وشعر بطنين أجراس عديدة ، وزاغ بصره ، ثم شب ، وأهوى بعصاه على القنديل فحطمه ، وتناثر زجاجه ، وهو يصرخ :

— أنا . . . . أنا . . . . أنا . . . .

ثم لم يستطع أن يتم جملته . ( من يدرى ماذا كان سيقول ؟ ) هجمت عليه الجموع، وتهدمت فوقه ، فخر على الأرض مغمى عليه . ضربوه ، وداسوه بالأقدام ، وجرح رأسه ، وسال الدم على وجهه، ومزقت ثيابه .

علمنا بعد ذلك أنه أوشك على الموت تحت الأقدام ، لولا أن تعرف عليه الشيخ درديرى فأنقذه واستخلصه من غضب الناس وعنفهم وهو يقول :

— اتركوه ! إننى أعرفه . هذا هو سى اسماعيل ابن الشيخ رجب . من حتتنا . اتركوه . ألا ترون أنه ( مريوح ) .

واحتمله إلى الدار ووضعوه على الفراش، واجتمعت الأسرة فى ليلة الفرح بعودته تبكى صوابه المفقود .

لعن الله اليوم الذى سافرت فيــه يا إسماعيل ؟ ليتك ظللت بيننا ولم تفسدك أوربا فتفقد صوابك ، وتهين أهلك ووطنك ودينك .

صكت الأم وجهها ، وتأوه الأب وكتم ألمه وغيظه ، وسكبت فاطمة دموعها مدراراً .

## ١٠

ومرت أيام كثيرة و إسماعيل لا يغادر الفراش ..ركبه العناد فأدار وجهه للجدار لا يكلم أحداً ولا يطلب شيئاً ، ولما أفاق قليلاً بدأ يفكر : هل يعود إلي أوربا ليعيش وسط أناس يفهمون الحياة ؟ إن الجامعة عرضت عليه منصب مساعد أستاذ فرفضه بغباوة ، ولعلهم يقبلونه الآن إذا طلب . ولم لا يتزوج هناك و يبنى لنفسه أسرة تحت سماء جديدة بعيداً عن هذا الوطن المنكود ؟ لماذا ترك إنجلترا بريفها الجميل ، وأمسياتها الهنية ، وقسوة شتائها الجبار ، وجاء لبلد يفرون فيه من بعض الرذاذ كأنما تحيق بهم نكبة أو يدهمهم طوفان ؟ أما يدرون أن هناك وجوهاً صامتة ونظرة ثابتة ، تسير تحت المطر والثلوج تقاوم الأعاصير ؟ وما فائدة الجهاد فى بلد كمصر ومع شعب كالمصريين ، عاشوا فى الذل قروناً طويلة فتذاوقوه واستعذبوه ؟

ثم أخذته غفوة ، واختلط عليه الأمر ، إنه كالطير قد وقع فى فخ ، وأدخلوه القفص ، فهل له من مخرج ؟ يشعر بجسمه وقد شد إلى هذه الدار التى لا يطيقها ، وربط إلى هذا الميدان

الذى يكرهه ، فمهما حاول فلن يستطيع فكاكا .

واستيقظ ذات صباح اسماعيل وهو يشعر بنشاط عجيب . فى مثل هذه الأحوال يقفز الشخص من النقيض إلى النقيض فجأة و بلا سبب ظاهر . وخرج من الدار مبكراً وعاد يحمل حقيبة ملأى بالزجاجات والأربطة والمراود ، و بدأ علاجه لفاطمة كما يقتضيه طبه وعلمه . لقد عالج فى أوربا أكثر من مائة حالة مثلها ، فلم يخنه التوفيق فى واحدة . فلماذا لا ينجح مع فاطمة أيضاً ؟ وسلمت الفتاة إليه نفسها مطمئنة ، لا يهمها مرضها بقدر ما يهمها أن تكون بين يديه موضع عنايته ورفقه ، وتجنبه أبوه وأمه ولم يعودا يعارضانه فى شىء إشفاقاً على صحته .

فى الصباح تجلس فاطمة بين يديه وقبل النوم . ومرّ يوم وثان وثالث ورابع ، وأسبوع وآخر ، وعيون فاطمة على حالها ، ثم إذا بها تسوء فجأة وتلتهب ، ويختلط سوادها بالبياض .

ضاعف إسماعيل عنايته ، وكرر أنواع الأدوية ، وقلب جفونها ومسّ ، وقطّر ومرهم ، وكشط ومسح ، فما أجدى طبه نفعاً . إنه ليس بالجاهل ، يرى أمامه فاطمة اقتربت من العمى ولا ينقذها فى علمه حيلة .

أخذها إلى زملائه فى كلية الطب ، وعرضها على الأساتذة ، فوافقوه على طريقته فى العلاج ، ونصحوه بالاستمرار .

فقاوم ، وثابر . . . . وأخيراً استيقظت فاطمة على صباح وهى تفتح عينيها ولا ترى . . . . لقد انطفأ آخر بصيص تتعزى به .

## ١١

هرب إسماعيل من الدار ، لم يستطع الإقامة فيها وفاطمة أمامه، وعماها دليل على عماه . عيون أبيه وأمه تلومانه . ما الذى حدث ؟ لماذا أخفق ؟ إنه لا يفهم شيئاً . أين يذهب ؟ لم يبدأ بعد عملا ، ولا هو بقادر ولا راغب فى الالتجاء للحكومة لتعيينه فى إحدى القرى النائية . باع كتبه و بعض الأدوات التى أحضرها معه من أوربا ، وسكن فى غرفة ضيقة فى بنسيون مدام إفتاليا ، وهى سيدة يونانية بدينة أخذت تستغله منذ أول وقوعه فى يدها ، حتى لتكاد تضع فى كشف الحساب تحية الصباح ، أو تستقضيه خطوتها إذا قامت وفتحت له الباب . حاسبته مرة على قطعة سكر استزادها فى إفطاره . يحس بابتسامتها أصابع

تفتش جيوبه . أهداها بعض الفطائر والسجائر فأخذتها نهمة متلهفة ، وفى الصباح سألته أن لا يطيل السهر فى غرفته حرصاً على الكهرباء . لاشك أن الأفرنج فى مصر من طينة أخرى غير التى رآها فى أوربا . كان يحبس نفسه فى غرفته فطردته هذه المعاملة إلى الشوارع يجوبها من الصباح إلى منتصف الليل . وفى كل ليلة يجد نفسه —ولا يدرى كيف —وسط ميدان السيدة يجوب حول داره ، يتطلع إلى نوافذها ، يريد أن يرى وجه فاطمة أو يسمع صوتها ، فاطمة ضحيته ، ومع ذلك لم تثر . . . . لم تشك . . . . لم تلمه . أسلمت إليه نفسها عن رضى فأوردها التلف ، فما قالت لذابحها تريث . . . . وهكذا يظل واقفاً فى الميدان ، ساعات طويلة ، سارح الذهن ، شارد اللب ، تتسرب إلى أذنه النداآت القديمة . هى هى لم تتغير . ماذا ؟ لعل كل والد أورث ابنه مهنته وصوته وموضعه فى الميدان ! مساكين ! كل من خدمهم منّ عليهم واستعجلهم الجزاء أضعافاً مضاعفة . لم يخدمهم أحد لله أو حباً فيهم ، ومع ذلك جروا وراء كل من توهموا فيه الإخلاص وتشبثوا بأذياله ، ورفضوا أن يروا ضعفه أو خيانته . هذا شعب شاخ فارتد إلى طفولته ، لو وجد من

يقوده لقفز إلى الرجولة من جديد فى خطوة واحدة ، فالطريق عنده معهود والمجد قديم ، والذكريات باقية .

تساءل إسماعيل : هل فى أوربا كلها ميدان كالسيدة زينب ؟ هناك أبنية ضخمة جميلة ، وفن راق ، وأناس وحيدون فرادى ، وقتال بالأظافر والأنياب ، وطعن من الخلف ، واستغلال بكل الوسائل . مكان الشفقة والمحبة عندهم بعد العمل وانتهاء النهار . يروحون بها عن أنفسهم كما يروحون عنها بالسينما والتياترو .

ولكن . لا . لا . . لو أسلم نفسه لهذا المنطق لأنكر عقله وعلمه . من يستطيع أن ينكر حضارة أوربا وتقدمها ، وذل الشرق وجهله ومرضه وفقره ؟ لقد حكم التاريخ ولا مردّ لحكمه ، ولا سبيل إلى أن ننكر أننا شجرة أينعت وأثمرت زمناً ثم ذوت وهيهات هيهات أن تدب فيها الحياة من جديد .

يفر إسماعيل من الميدان إلى غرفته ويقضى ليلته يفكر كيف يهرب لأوربا من جديد ، ولكنه لا يلبث أن يعود إلى موقفه المعهود بميدان السيدة فى مساء الليلة التالية .

## ١٢

وجاء رمضان فما خطر له أن يصوم . ابتدأ يطيل وقفته فى الميدان و يتدبر : فى الجوّ، فى الهواء ، فى المخلوقات ، فى الجمادات كلها شىء جديد لم يكن فيها من قبل . كأن الوجود خلع ثو به القديم وا كتسى جديداً . علا الكون جو هدنة بعد قتال عنيف .

يحدث إسماعيل نفسه : لماذا خاب ؟ لقد عاد من أور با بجعبة كبيرة محشوّة بالعلم ، عندما يتطلع فيها الآن يجدها فارغة ، ليس لديها على سؤاله جواب . هى أمامه خرساء ضئيلة ، ومع خفتها فقد رآها ثقلت فى يده فجأة .

ودار بعينيه فى الميدان . وتريثت نظرته على الجموع فاحتملتها . وابتدأ يبتسم لبعض النكات والضحكات التى تصل إلى سمعه ، فتذكره هى والنداآت التى يسمعها بأيام صباه . . . . . ما يظن أن هناك شعباً كالمصريين حافظ على طابعه وميزته ، رغم تقلب الحوادث وتغير الحاكمين . ( ابن البلد ) يمر أمامه كأنه خارج من صفحات ( الجبرتى ) . اطمأنت نفس اسماعيل وهو يشعر أن تحت أقدامه أرضا صلبة . ليس أمامه جموع من أشخاص فرادى ،

بل شعب يربطه رباط واحد : هو نوع من الإيمان ، ثمرة مصاحبة الزمان ، والنضج الطويل على ناره . وعندئذ بدأت تنطق له الوجوه من جديد بمعان لم يكن يراها من قبل . هنا وصول فيه طمأنينة وسكينة ، والسلاح مغمد . وهناك نشاط فى قلق وحيرة ، وجلاد لا يزال على أشده ، والسلاح مسنون . ولم المقارنة ؟ إن الحب لا يقيس ولا يقارن ، و إذا دخلت المقارنة من الباب ولى الحب من النافذة .

وحلت ليـلة القدر . . . . . فانتبه لها إسماعيل ، ففى قلبه لذكراها حنان غريب . ربى على إجلالها والإيمان بفضائلها ، ومنزلتها بين الليالى . لا يشعر فى ليلة أخرى — حتى ولا ليالى العيد — بمثل ما يشعر به فيها من خشوع وقنوت لله . هى فى ذهنه غرة بيضاء وسط سواد الليالى . كم من مرة رفع فيها بصره إلى السماء فبهره من النجوم جمال لا يراها تنطق به بقية العام .

وغاب لحظة فى أفكاره ، فإذا به ينتبه على صوت شهيق وزفير عميق يجوبان الميدان . هذا هو سيدى العتريس ولا ريب . رفع بصره . القبة فى غمرة من ضوء يتأرجح يطوّف بها . انتفض إسماعيل من رأسه إلى أخمص قدميه . أين أنت أيها النور الذى

غبت عنى دهراً ؟ مرحباً بك ! لقد زالت الغشاوة التى كانت ترين على قلبى وعينى . وفهمت الآن ما كان خافياً على . لا علم بلا إيمان . إنها لم تكن تؤمن بى ، إنما إيمانها ببركتك أنت وكرمك ومنّك . ببركتك أنت يا أم هاشم .

ودخل إسماعيل المقام مطأطىء الرأس فأبصره يرقص عليه ضوء خمسين شمعة زينت جوانبه ، والشيخ درديرى يتناولها واحدة واحدة من فتاة طويلة القامة سمراء اللون ، جعدة الشعر . هى نعيمة ، قد زال انطباق شفتيها وبدت لها سنّان ، وإن تكلمت فصف من أسنان بيض كاللؤلؤ ، تكفى النظرة إليها أن تنسى وجود كل قبيح .

لقد صبرت وآمنت ، فتاب الله عليها ، وجاءت توفى بنذرها بعد سبع سنوات . لم تقنط ، ولم تثر ، ولم تفقد الأمل فى كرم الله .

أما هو الشاب المتعلم ، الذكى المثقف ، فقد تكبر وثار ، وتهجم وهجم ، وتعالى فسقط .

ورفع إسماعيل بصره فإذا القنديل فى مكانه يضىء كالعين

المطمئنة التى رأت ، وأدركت ، واستقرت . خيل إليه أن القنديل، وهو يضىء ، يومىء إليه و يبتسم .

وجاءه الشيخ درديرى يسأله عن صحته وأخباره ، فيميل عليه إسماعيل يقول :

— هذه ليلة مباركة يا شـيخ درديرى ، أعطنى شيئاً من زيت القنديل .

— والله انت بختك كويس . . . دى ليلة القدر ؟ وليلة الحضرة كمان .

وخرج إسماعيل من الجامع و بيده الزجاجة وهو يقول فى نفسه للميدان وأهله :

— تعالوا جميعاً إلىّ ! فيكم من آذانى ، ومن كذب علىّ ، ومن غشنى ، ولكنى رغم هذا لا يزال فى قلبى مكان لقذارتكم وجهلكم وانحطاطكم ، فأنتم منى وأنا منكم . أنا ابن هذا الحى ، أنا ابن هذا الميدان . لقد جار عليكم الزمان ، وكلما جار واستبد ، كان إعزازى لكم أقوى وأشد .

ودخل الدار ونادى فاطمة :

— تعالى يا فاطمة ! لاتيأسى من الشفاء . لقد جئتك ببركة

أم هاشم ستجلى عنك الداء ، وتزيح الأذى ، وترد إليك بصرك فإذا هو جديد . . .

وشد ضفيرتها واستمر يقول :

وفوق ذلك سأعلمك كيف تأكلين وتشربين » وكيف تجلسين وتلبسين ، سأجعلك من بنى آدم .

وعاد من جديد إلى علمه وطبه يسنده الإيمان . لم ييأس عند ما وجد الداء متشبثاً قديماً ، يجادله بعناد ولا يتزحزح . ثابر واستمر ، ولاحت بارقة الأمل ، ففاطمة تتقدم للشفاء على يديه يوما بعد يوم وإذا بها تكسب فى آخر العلاج ما تأخرته فى مبدئه ، فهى تقفز أدواره الأخيرة قفزاً .

ولما رآها ذات يوم أمامه سليمة فى عافية ، فتش فى ذهنه وقلبه عن الدهشة التى كان يخشاها ، فلم يجدها .

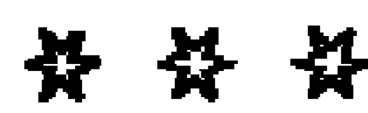
## ١٣

وافتتح إسماعيل لنفسه عيادة فى حى البغالة بجوار التلال ، فى منزل يصلح لكل شىء إلا لاستقبال مرضى العيون . الزيارة بقرش واحد لا يزيد . ليس من زبائنه متأنقون

ومتأنقات ، بل كلهم فقراء ، حفاة وحافيات ، والغريب أن شهرته استقرت فى القرى المجاورة للقاهرة دون القاهرة ذاتها ، فاكتظت داره بالفلاحين والفلاحات ، يجيئون بهدايا من البيض والعسل والبط والدجاج .

كم من عملية شاقة نجحت على يديه ، بوسائل لو رآها طبيب أوربا لشهق عجباً . استمسك من علمه بروحه وأساسه ، وترك التدجيل والمبالغة فى الآلات والوسائل . اعتمد على الله ثم على علمه و يديه فبارك الله له فى علمه وفى يديه . ما ابتغى الثروة ولا بناء العمارات وشراء الأطيان، و إنما قصد أن ينال مرضاه الفقراء شفاءهم على يديه .

وتزوج إسماعيل من فاطمـــة وأنسلها خمسة بنين وست بنات .



وكان فى آخر أيامه ضخم الجثة ، أكرش ، أكولا نهما ، كثير الضحك والمزاح والمرح ، ملابسه مهملة ، تتبعثر على أكمامه و بنطلونه آثار رماد سجائره التى لا ينفك يشعل جديدة من منتهية . وأصيب بالربو فاحتقن وجهه ، وتندى العرق على جبينه ،

وانقلب تنفسه إلى نوع من الموسيقى ، وأصبح من يشـــاهده لا يدرى أهو متعب أم مستريح . فلما احتبست ضحكاته فى حلقه ، اجتمت فى عينيه (فليس هناك عيون أقوى على التعبير من عيون المصدورين)، يكاد يقفز منها إليك شيطان لعوب، كلها حب وفهم ، فيها خبث وطيبة ، وتسامح و إعزاز ، وكأنها تقول لك قبل كل شىء :

— ليس كل ما فى الوجود أنا وأنت ، هناك جمال وأسرار ومتعة و بهاء . السعيد من أحسها ، فعليك بها عليك . . .

إلى الآن يذكره أهل حى السيدة بالجميل والخير ، ثم يسألون الله له المغفرة . مم ؟ لم يفض إلىّ أحد بشىء ، وذلك من فرط إعزازهم له . غير أننى فهمت من اللحظات والابتسامات أن عمى ظلّ طول عمره يحب النساء ، كأن حبه لهن مظهر من تفانيه وحبه للناس جميعاً .

رحمه الله . . . . .

## السلحفاة تطير . .

هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة ، فوقائعها محتملة الحدوث ، و بطلها ليس مستحيلا وجوده ، ومن يدرى ؟ ر بما كان حياً يرزق ! والواقع أنى أعرفه ، بل تر بطنى به صلة أقوى وأشهى من القرابة والنسب ، صلة الجوار . فنحن أولاد حارة واحدة ، أسارع وأقول إنها — والحمد لله — حارة مسدودة ، فمثل هذه الحارات وحدها هى التى تعمل فى تصفية الود بين الجيران ما تعمله الزجاجة فى تعتيق الشراب . على رأس الحارة تقوم دار داود أفندى — بطل هذه القصة الخيالية — : واجهة طويلة ، بها الباب ، على الحارة ، وواجهة أخرى على الشارع ، مع أنها شبر ونصف شبر عرضاً ، إلاّ أنها تدل على أن صاحب الدار أوجه وأغنى من بقية السكان الذين لايستطيعون رؤية الزفّات والمواكب و « الخناقات » إلا بثنى رقابهم ، و بخطر الوقوع فى يد رجال الإسعاف .

وداود أفندى لو خرج من بين سطور هذه القصة الخيالية وعاش، لكان الوحيد بيننا الذى يسكن فى ملكه. والمعروف أن له أيضاً إستحقاقاً فى وقف عن أم أمه أو جد جده ، فلماذا يتشبث بهذه الدار القديمة فى هذه الحارة المسدودة ؟ لو كنت مكانه لانتقلت إلى الحلمية أو المنيرة. كلنا نجله لغناه و(نستعبطه) لنزوله الى مستوانا، ولعلى كنت من بين سكان الحارة أكثرهم ارتباطاً به رغم اختلافنا فى السن والمهنة .

كنت إذا عدت لدارى من المطبعة فى صفرة الشمس، ومررت عليه وهو جالس أمام باب داره ، دعانى لمجالسته وتشبث بى كأنه يجد لذة فى أن تصافح يده الناعمة النظيفة يداً صلبة خشنة كيدى.

فى هذه الجلسات تأتى لى أن أنصت أو أحثه على القول، حتى وقفت على تاريخ حياته ، وليس فيها — مع الأسف — شىء من الأسرار التى تشرئب لها الأذن . هو من أولاد الذوات الذين ورثوا عن وارثين عن وارثين، فكان من المعقول أن يفتقروا طبقة بعد طبقة وجيلا بعد جيل، فأصبحوا كالحيوان البرمائى لا هو هنا ولا هو هناك . ولذلك فهم أسرع انقراضاً . هو بالنسبة إلينا غنى ولكنه فى الواقع فقير. ومع ذلك فهو يعتز بأصل لايغنيه فيستريح

ولا يسلكه فى الفقراء فيريح . . . وماذا يفعل وهو من قمة رأسه إلى أخمص قدميه ابن عز ؟ فى كرمه وجهله ، فى طيبته مع معارفه وازوراره بل نفوره من الغرباء. تجافيه عن العالم الخارجي فيه تمسك بالماضى كأنه يعيش من وراء سد الصين . له قصص شائقة عن تخوت الحمولى وعثمان . بين الحين والآخر يخرج علبة بيكاربونات الصودا ويسف منها قليلاً دواء لمعدته . هو متأنق لا يأكل إلا أخف الطعام فى أغلب أيامه . وككل أولاد الذوات الذين تربوا فى آثار عز سالف ، وجدت فيه مع الكبرياء والأنفة كثيراً من أخلاق الصبيان وقلة دراية بالحياة فى معتركاتها .

أذكر هذا لأننى كنت جالساً معه فى إحدى الأمسيات فرأيت صبى شيخ الحارة قادماً علينا مجداً فى خطواته ساهم النظرة كأنه فى غيبوبة . هو زنجى وأغلب الظن أنه ولد فى بوظة أو كان مهده قرعة . وجه نحس بشفته الغليظة الباذنجانية ، وعيونه المختبئة تحت جفونه المرتخية تبدو كالخرزة الزرقاء لا تفترق عن عيون التيس فى جمودها ومكرها ، حتى إذا وقف أمامنا أخرج من جيب سترته ورقة صغيرة متسخة وسلمها لداود افندى .

ما هذه ؟ دارت نظرتى خلسة فى لهف حول كتفه ، ووقعت على

الورقة ، فوجدت مكتوباً عليها ( ١٩ أحوال ) .

— حضرتك مطلوب فى القسم باكر .

— ليه ؟

لا جواب .

— عند مين ؟

لا جواب .

تحرك الأسود وسار ، فعزرائيل لايتريث ليبكى مع أهالى الميت . ثم ما كاد يسير خطوتين حتى أفاق لنفسه وعاد إلينا من جديد ، فأصول اللطمة أن تكون من قلمين ، ومال بوجهه — وجه الوابور — على أذن داود افندى :

— عمى يرجوك ويرجوك ألا تتأخر .

ثم كان فص ملح وذاب .

داود افندى قلق ، حائر . كل حين وآخر يسألنى : يا ترى لماذا ؟ لم أذهب للقسم فى حياتى، وأشد ما أكره أن أتخطى بابه وأواجه هذا الصنف المسمى رجال البوليس . أعوذ بالله ! من الذى اشتكانى ؟ هل أتيت جرماً دون أن أعلم ؟

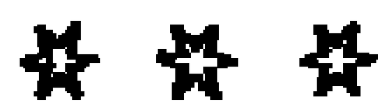
كنت غير ملق بالى إلى همه التافه ، ولكنى انتبهت وعجبت

من أن كثيراً من الناس الطيبين لا يسلمون فى بعض الأحيان من الوهم والشك فى براءة ماضيهم . ألأن فى قلوبهم نازعاً خفياً إلى الإجرام ، فتختلط في أذهانهم الرغبة بالحقيقة ، أم هم يستيقظون فجأة إلى أنه ليس هناك دليل واحد على أن الحياة غير مزدوجة ! ؟

قد يكون الشخص الواحد مع الناس يذهب ويجىء ، ولكنه لا يستطيع أن يكون واثقاً كل الوثوق من أن ليس له فى الوقت نفسه حياة أخرى مبهمة كالأحلام ، لا يشعر بها كما لا يشعر بما حوله من ركبه الدوار : حياة تتصل طى ضباب كثيف بحياة أشد غموضاً لكائنات أخرى

كنت أود أن أهدىء مخاوفه وأطمئنه ، لكنى خشيت أن يعود سريعاً إلى الحديث الممل العادى الذى شبعت منه ليلة بعد ليلة . وخفت أكثر أن ينقطع الحديث سريعاً ، لأن الكلمة الطيبة قلما تقبل المط . وأحسست برغبة فى البقاء على رأس الحارة ، وقد طابت الجلسة وشملنا الغروب بسحره . فى كل مرة أنتبه للحظة سقطة قرن الشمس ، أشعر أنها شهقة دوامة تحتضر كان انفراجها النهار وانطباقها الليل . فأخذت — علم الله

لا لغرض إلا إطالة الجلسة الظريفة — أستثيره وأحرك مخاوفه . ونقلت الحديث من البوليس وفظاظته إلى البلطجية وأفاعيلهم . رئيسى فى المطبعة له شهر فى الحبس ولا يدرى لماذا . وآخر اتهمه بلطجى بالتزوير ليفرض عليه ضريبة — ولهؤلاء البلطجية حيل لا يصل إلى قرارها الشيطان إن وصل . وربما سبقوا بالشكوى ليستولوا على أجر التصلح . . . ومن يدرى ! ربما وجدوا فيك ياداود أفندى بطيبتك خير صيد فمدوا حولك حبائلهم . ثم إننى لست مطمئناً إلى ( ١٩ أحوال ) هذه ! ووجه صبى شيخ الحارة ينم عن شر كبير ، ولا بد أنه عالم بشىء لم يرد الإفضاء به إلينا . ولم أقم إلا بعد أن (استوى) داود أفندى، و بعد أن استحلفنى أن أمر عليه فى الصباح لنذهب إلى القسم معاً



لا أدرى هل تأخرت فى النوم عفواً أم أحببت أن أستريح من سهرة الأمس. استيقظت وقدار تفعت الشمس، فخرجت من الحارة مهرولا كأننى هارب . ومع ذلك تشبث نظرى لحظة وأنا أجرى بباب بيت داود أفندى، وخيل لى أن مطرقته — وهى من نحاس

على شكل يد مضمومة ، تنبسط وتشير بسبابتها إلى . . إلا أن لمانها ذكرنى سور مقام أم هاشم ، وتعلق المهزومين والمرضى والمنكوبين بقضبانه . وانقبض قلبي خوفاً على صديقي داود افندى . فمن نحس هذا الزمان ولؤمه أن يهان رجل طيب مسالم مثله ويكون مثله عند دخول القسم كمثل حيوان أليف آكل عشب يجد نفسه فجأة فى غابة تعج بكل ذى ظفر وناب . مع ذلك — فهذا شأن الحياة واكتساب الرزق بعرق الجبين وقشف اليدين — نسيته ونسيت أوهامه وأنا منمح مفقود وسط آلات المطبعة وهى تضج وتصطك فى حركات مفاجئة منتظمة كأنها نفضات مقعد محموم . . انتبهت إلى ذكراه وأنا أمام داره فى عودتى للحارة . رأيته فى انتظارى جالساً على كرسيه متلفعاً بعباءته . عند ما قاربته حمدت الله أننى وجدته فى حدة وغضب أنسياه خلفى لوعدى . ومع ذلك ما كاد يكلمنى حتى فهمت مع الأسف أن اعبتى بالأمس فى إثارة مخاوفه وتحريضه على رجال البوليس قد أدت إلى النتيجة التى كنت أريدها ولا أتوقعها ، أستغفر الله ، أقصد أتوقعها ولا أريدها . كانت الدعوة إلى القسم فى شأن مخالفة هينة : إلقاء ماء قذر فى الطريق .

ومع ذلك كان الجاويش من الفظاظة وقلة الأدب ، وداود افندى من الكبرياء وقلة الصبر ، أن وقعت الواقعة بينهما . ثم لم أستطع أن أفهم من داود افندى ما حصل بالضبط . بكل صعوبة و بعد تردد كبير ، أعترف أن الجاويش هزه هزة أوقعت طربوشه على الأرض أمام عدد كبير من الناس ، بينهم بعض من يعرفونه من أهالى الحى . حاولت أن أخفف حدته لكنه قاطعنى قائلا :

— لازم أطلب رد شرفى

تطلعت إلى عينيه فوجدت فيهما لا أمارات الغضب بل أضواء سعادة كبيرة . أردت أن أقوم بواجبى وأصرفه عن التفكير الكثير فى أمر تافه ، لكنى عدلت سريعاً لأننى رأيت زورقه قد بدأ يتحرك من المستنقع ليخرج إلى البحر العالى بأمواجه . وانقطع حديثه المبتذل ، وأخذ يتكلم لأول مرة كلاما لا يسير على قضيبين مرسومين . خفت عليه أن يعود إلى ركوده وابتذاله فهدتنى الحيلة أن أقول له :

— رد شرفك وطالب بتعويض قرش صاغ واحد !

قلتها لأننى أعلم أن لهذه الجملة سحراً غريباً يخلب أذهان عامة الشعب والبعيدين عن المحاكم والقوانين . ولعل أكثر الحقائق

بريقاً وخلباً للأذهان ما كان أساسها التناقض . فكيف يثور من يغضب للإهانة ومع ذلك تنتهى ثورته بأن يثمن شرفه بقرش واحد ؟ وأى شرف هذا الذى يقدر بقرش ؟ أثرت هذه الجملة أثرها فى داود افندى ، وزاد عزماً وإصراراً على الحصول على هذا القرش الواحد .

قضيت معه ليلتين نتشاور فى كيفية رفع الدعوى ، ولكن مَنْ مِنَ المحامين يمكن أن توكل إليه القضية ويصون أمانتها . وقد وقع اختيارنا فى أول الأمر على أفضل المحامين ، ولكنه باتفاق الجميع ليس أعلمهم . أما أعلمهم فليس أقواهم سلطاناً ونفوذاً لدى رجال الحكم ، وأقواهم سلطاناً ونفوذاً ليس أكثرهم أمانة . وأخيراً اتفقنا على محام يسكن بالقرب منا ، على الأقل نستطيع أن نتردد عليه كل يوم بلا مشقة . اخترناه لا لفصاحته ولا لعلمه ولا لسلطانه بل لبخته . نعم لبخته ، فكل من اتصل به يؤكد أن سراً باتعاً يسنده فلا يتولى قضية إلا كسبها . أغلب زبائنه من عامة الشعب الصالحين .

عرضنا عليه الدعوى فأكد أنها رابحة وفى أقرب ميعاد ، وأن الجاويش سيجازى أشد جزاء ، وفوق ذلك يعاقب إداريا .

وشرب داود أفندى من معسول كلامه ، فتخدرت أعصابه ودفع مقدم الأنعاب جنيهين كالحلاوة .

وحددت الجلسة بعد ٤٠ يوماً .

وأخيراً ها هو القدر يتمخض بميعاد يفوز به داود أفندى ، عمود تلغراف لولاه ما شعر راكب القطار بحركته ولا بسرعته .

***

دفعته دفعاً وسط الزحام — فهو لحمة — إلى قاعة الجلسة. وأنا متلهف إلى أن أرى كيف يكون موقفه وتلعثمه بين يدى القاضى ومواجهته للجاويش خصمه ثم عدوه . و « انحشرنا » فى مقعد وجلسنا ننتظر دورنا . كنت أتمنى ألا يكون داود أفندى شخصاً من دم ولحم ، بل شخصية وهمية وليدة سطور هذه القصة الخيالية، لأننى تألمت وأنا أراه ممتقع اللون مصفراً مرتجف اليدين . جلس بجانبى كله عيون وآذان وليس منه لسانه . أخذت أراقبه من طرف عينى ، فوجدته كالقشة فى بحر ينعكس فيها أقل اضطراب لسطحه علواً وهبوطاً ومداً وجزراً . اشتمله جو الجلسة من رأسه

إلى أخمص قدميه ، وشد عليه قبضته فلا يستطيع خلاصاً . كل ما يسمعه جديد ، غريب ، رنان ، أخاذ ، وأى سحر أقوى من سحر قاعة الجلسة ! صوت الجمهور بين همس ووجوم ، ومحاورات القاضى والمحامين والنيابة تنقله إلى عالم غير عالمه . ثم فجأة وبدون سبب ظاهر يخيم على الجميع صمت عجيب . فيشعر أنه يسقط من علو شاهق وسط الفضاء . ثم من جديد يعود التيار إلى أشده وإذا به محمول محلق يكاد يفقد وعيه : القفص ، والجنود ، نداء الحاجب ، تلك التعابير القضائية التى تنحنى لها الجباه إجلالاً وهى ليست إلا ألفاظاً !

لم يحضر المحامى عنا ، ونودى داود أفندى ونظرت دعواه ، ثم أجلت فى أقل من لمح البصر .

فدفعته مرة أخرى — كالهم الثقيل — وسط الزحام خارج الجلسة . وما كاد يتخطى بابها حتى بلع ريقه لأول مرة . وماذا كان يظن وهو جالس طول عمره فوق الرصيف ؟ لم يثر فى اضطرابه أقل شفقة ، بل شعرت أنه من العدل أن يدفع ثمن تعاليه وابتعاده عن محيط الحياة التى نعيشها نحن المكدودين المتصببين عرقاً فى زحمة الحياة ، ولكنى ما كدت أضع ذراعى

فى ذراعه لأقوده إلى القهوة المواجهـة للمحكمة ، حتى رق قلبى وملأه عطف وحنان لم يعرفهما لأحد من قبل . وجلسنا وعلى جانبينا موائد اكتظت بوكلاء المحامين وسماسرتهم ، وكنت على صلة ببعضهم، فدعوتهم للجلوس معنا وعرفتهم بصاحبى، ولما افترقنا على رأس الحارة لم يقل لى داود أفندى كعادته « نتقابل هنا » بل قال :

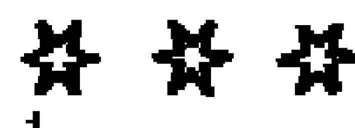
— قابلنى بكرة على القهوة إياها

دفع داود أفندى جنيهين آخرين للمحامى ليضمن حضوره فى الجلسة القادمة ، كما أرضى الشهود بما وسعه كرمه .

وكنت قد غبت عنه بضعة أيام — ولعلها أسابيع — ولما عدت إليه وجدته على القهوة إياها محاطاً بأصدقائه ! ! من وكلاء المحامين ، وكلهم يحتسى القهوة والشاى ، ويدخن النارجيلة على حسابه . وإذا به يشترك معهم فى أحاديث مهنتهم وتجرى على لسانه نفس الألفاظ القضائية التى يتمشدقون بها ، بل ويدخل معهم إلى الجلسة فى بعض الأحيان . لما رأيته فى هذه الحال أردت أن أساعده وأوجد له ما يشغله ، فسعيت وعرفته بقريب لى منعدم، منعه فقره من رفع دعوى للمطالبة بملك واسع يظلمه فيه رجل

ذو بطش وسلطان . أردت أن أخدم الاثنين ، ويكفيني ثواب المسعى . اتفق معه داود أفندى على أن يقوم هو بالإنفاق على الدعوى نظير اقتسام ما يحكم به مناصفة بينهما . وأسرَّ إلى داود أفندى أنه سيرهن مصاغ زوجته ليصرف على الدعوى .

بعد يومين رأيته يحمل دوسيهاً فى يده سائراً مجداً إلى المحكمة . . . .



حدث بعد ذلك أننى نسيت جارى العزيز داود أفندى نسياناً تاماً ، لأننى كنت قد نجحت فى تحقيق أمنية طالما كتمتها فى صدرى، ولازمتنى الليالى تنغص على نومى وأكلى وشربى . كنت أريد أن أتخلص من وسط عمال اليومية وألتحق بطبقة الأفندية أصحاب المرتبات الشهرية . فكم أبليت نعلى، وأحفيت قدمى ، وكم أرقت ماء وجهى وجف لسانى — ويغنى قولى هذا عن التفاصيل — حتى نلت رغبتى وعينت حاجباً أمام باب قلم فى وزارة . تخلصت من ماضى الكريه كله ، وتخلصت أيضاً من الحارة المسدودة اللعينة ، وسكنت المنيرة .

مضى على فى وظيفتى زمن ، وذات يوم وأنا عائد من سوق الخضار وفى يدى قرطاس بلح آكل منه ، مررت على مطعم ، ولشد ما دهشت إذ وجدت فيه داود افندى جالساً أمام طبق فول مدمس . داود افندى « بجلبية » وجاكتة تجمع أصابعه بلقمة حبات الفول وتعجنها فى الزيت ثم تحملها كتلة واحدة — كالكرة — إلى فمه ، و يتجشأ برائحة البصل الأخضر والفجل . أشهد الله أن قلبي انشرح وأننى سررت كل السرور لتحسن صحته ولتخلصه من أمراض معدته . وأشهد الله أننى شعرت بموجة شوق قوية تملأنى ، فجريت نحوه ومددت له يدى مشتاقاً يكاد الفرح يقفز من كيانى قفزاً .

— داود افندى ؟ سلمات ، ازيك !

ولكنه ترك يدى ولم يأخذها ، ولما رفع إلىّ عينيه لم تستقر نظرته على وجهى حتى رأيتها تمتلىء بأقصى ما تستطيع العين أن تستوعبه من الكراهية والتأفف والبغض ، و إذا به يصرخ فى وجهى ويشيح عنى :

— روح . الله يخرب بيتك زى ما خربت بيتى !

تملكتني الحيرة فسمرت فى مكانى : أى جرم أتيت ؟ وماذا

فعلت ؟ لا أذكر إلا أننى كُنت دائماً تحت أمره كأننى عكازه . كنت أجلس منه مجلس الولد من أبيه ، وأترك عملى لأكون فى خدمته ، ولا أذكر أننى خنته أو آذيته أو أضللته .

ولكن هذه المحاولات لم تفلح فى سند سياج كنت أقيمه بكل جهدى طول الوقت لتتحصن وراءه نفسى ، ولو لتعيش فى دنيا من أوهامها فى حمى من شك خفى بدأ يدب فى قلبى . . واذا بالسياج يرغمنى وينهد، وتبرز لى من ورائه تحملق فى وجهى كعيون البوم ، تهمة بشعة كالعدم ، قاسية كالقدر المترصد ، راسخة كالأزل .

( كن طيباً ما أمكنك ، حذراً ما استطعت ، فلن تكون يدك إلا أذى ولا قدمك إلا سوءا ! ) . شعرت فى جسمى ببرودة الموت ، وعشت زمناً أرثى لحالى وأقول : يا لى من مسكين ، ولكن سرعان ما أنفت هذه الضعة ، وأعدت نفسى للحياة ، والحياة تقوى على أقوى الآلام ! ، بقولى لنفسى :

— هون عليك . . . أين فجيعتك ؟ هذه قصة خيالية ، ولكنها ليست خرافة . . . . .

وهكذا من أول وجديد

## كنا ثلاثة أيتام . . .

ها هو قد تزوج ، وها هو يقبّل زوجته ، فى كل قبلة يدعو الله أن يرزقه ولداً صالحاً تتجدد من بذرته شجرة أسرة ، ليست — وهنا العجب — بذات جاه أو ثراء ، وجاء يومه المرجوّ وسلمته القابلة لفة لها لين العجين ورائحته . وقالت :

— بنت . بنت . هذه نعمة من الله . . .

فسمّاها نعمات .

لم يفهم أن أغلب الرجاء طمع ، وأن بعض الدعاء جحود وتدخل فى الملكوت . . وعاد إلى سؤال ربه فى صلاته ، وأطال تضرعه فى ركوعه وسجوده .

وجاء يومه المرتقب ، بين الخشية والأمل ، وسلمته القابلة لفة تتاوى كالحشرة ، وقالت :

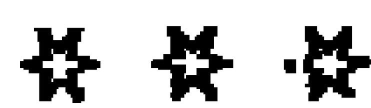
— بنت . بنت . هذه عطية من الله . . .

فسمّى بنته الثانية عطيات .

« نعمات » و « عطيات » لم تكن أسماء بمثل ما هى تلميح بأن الرضا عن اضطرار ، وأن انصياع اليوم مرتبط بالرجاء فى تحقيق الوعد غداً . حرك الأب الأبتر كل ما فى قلبه من شعل الإيمان ، وتوجه إلى الله بكل ما قدر عليه من خشوع ، وكرر ابتهاله وتذلله . فاستجيب فى يوم دعاؤه . واستقر فى بطن الأم سر الصبى الموعود .

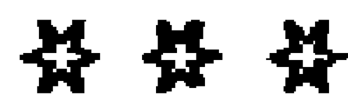
حينئذ مات أبى ، وهو لا يعلم أنه فاز بأمنيته — أوفى جهده على الغاية ، وتحقق الغرض من وجوده ، وكان ثمن انطلاق السهم تمزق الوتر المشدود ، وإن سعادة الأفراد لا وزن لها فى تسلسل الأجيال .

وهكذا ولدتُ يتيما ، ومع ذلك لست بغريب عن أبى . كل مرة أدخل فيها غرفة الاستقبال وتقع عينى على صورته الفوتوغرافية الشاحبة معلقة على الجدار ، أراه يبتسم لى ويكاد ينادينى . .



ولم أكد أوظف بالحكومة وأقبض أول مرتب حتى ماتت أمى ، كأنها لم تقو على فراقنا إلا بعد أن اطمأنت على . سرت

وحيداً منفردا خلف النعش ، أما شقيقتاى ، نعمات وعطيات ، فقد بقيتا تنوحان وتلطمان الخدود وهما متدليتان من النوافذ . رأيت أكثر المشيعين يتطلعون إلى وجوههما ونهودهما من أطراف العيون . فى تلك اللحظة استفقت ، وأدركت أننى أصبحت رب أسرة . أية أسرة ! فتاتان جميلتان ، نعم جميلتان ، و إن لم تصح شهادتى ، ليس لهما غيرى . قوّمت من ظهرى المنحنى ، وسرت رافع الرأس ، وتقبلت — على القبر — دون ثورة أو غضب وكره ، عبارات التشجيع والعزاء والتوصية بالصبر والرجولة .



ثم مرت الأيام ، ودرج النسيان بأذياله على الماضى وأهله ، و إذا بى فى صحبة شقيقتىّ من أهنأ الناس . ثلاثتنا فى مقتبل الشباب ورونقه ، فى مرحه ونزقه ، فى جريه وقفزه ، فى عطره ونضرته ، تساوٍ طليق ، لا تضغطه شيخوخة مولية ، ولا تأخذ بخناقه طفولة هاجمة . من حسن الحظ أننا لم نكن فى سعة تكفى للانفاق على ثلاثتنا ، فقدّم الصبى وحجزت البنتان فى الدار ، وكذلك نجاهما الله من الجامعة بآدابها وفلسفتها ، وسلم لهما عقل

غير ملتو يضل فى الفضاء ، وطبع غير متكلف . كل منهما نَمَتْ أنثى ، جسما وعقلاً . لا يعكر حديثنا نقاش أو جدال . صحبة لم يترك لى صفاؤها مطمعاً . . فَمَن مثلى مِن الرجال تحوطه فتاتان — لا فتاة واحدة — بكل ما وسعهما من عناية وإخلاص ؟ لا تقل ملابسى هنداماً ولا أكلى جودة عن زملائى المتزوجين ، دون أن أدفع ثمن هذه النعمة بالكدر والهم والضيق الذى أتبينه على وجوههم كل صباح فى المكتب . . كانت نفسى قانعة وجسمى سعيدا . نعيش متلاصقين كصغار القطط وهن عُمى. حلقتنا كاملة : هذه نعمات لبسها دور الأم الحنون فلبسته . هى أكثرنا رزانة واتزانا. فى يدها مصروف البيت وتدبير خزينه . وبقيت عطيات «دلوعتنا الشعنونة» التى من أجلها نحرص — فى خفية منها — على تذكر أقل رغبة لها ترد عرضاً فى سياق حديثها ، وننتظر إلى أن تحين الفرصة ، فنجد أكبر اللذة فى تعب البحث عن طلبتها ، وفى التحايل على كتمان أمرها ، إلى أن تعثر عليها فى تمام مناسبتها ، فنضحك معها لدهشتها ، ونشاركها الفرح بهديتنا . . وفى بعض الأحيان أضع رأسى على ركبة عطيات فتعبث بأصابعها الطويلة فى شعرى ، كأم القرد تفلّى

رأسه وتناغيه . . بجانبنا نعمات تغمرنا بابتساماتها الحلوة وهى تخيط لى بعض ملابسى الداخليّة . ولو تركنا لأنفسنا لعشنا سعداء فى هناء يكمل بعضنا بعضاً ، ولكن كيف يتأتى ذلك وفى الناس إخلاص ومحبة ورغبة فى مساعدة الغير ، وتطوّع لعمل الخير والتحريض عليه ! !

بدأ أقاربى ومعارفى يهمسون لى : « متى تزوج أختيك ؟ لقد آن الأوان ! » ثم فى مرة أخرى : « كيف تأمل أن تعثر لهما على زوج صالح وأنت قابع فى داركم القديمة المختبئة بدرب الحجر من وراء حارة التمساح لا تزور ولا تزار . أم تراك معتمداً على الخاطبة ومقالبها ؟ »

وأخذت وأنا خائف أتطلع إلى عيون شقيقتىّ على غفلة منهما وأسأل نفسى :

— هل هذه عيون ظامئة جائعة ؟

خيّل إلىّ فى بعض الأحيان أن نظرتهما الناطقة تخرس فجأة وتشرد فى الفضاء ، وأن تحت وشى هذه النظرات الجميلة يختبىء قزم من الحزن والحرمان له عين البوم وأسنان الفأر وعناد

الثور ونزق الجدي . . أيها الشيطان الأسود ! مهما تراوغ فلن تخفى عليّ بعد الآن !

سهرت الليل أفكر . وأنار الفجر ظلام الليل وبصيرتي . فاستبانت لي الحقيقة على ضوء النهار ، جسداً عارماً قبيحاً عارياً قوى العضلات . لا فائدة من مغالطة الطبيعة . ولا بد من التضحية وتحمل الوحدة ، الصبر على مرارة التسليم والانسحاب . . . رسمت لنفسي برنامجاً وصممت على تنفيذه دون استشارة أحد حتى شقيقتي . لن ألجأ إلى الأقارب ، فهم — كما يقول المثل — عقارب ، ولا إلى الخاطبة ، فهي سمسار بين عجزة ، أليست المشكلة أن الزوج الصالح لم يأت إلينا ؟ إذاً فلنبحث عنه ، ولنذهب إليه ، وفي موطنه ، ولو أدى الأمر إلى اصطياده احتيالاً . سأعد الشبكة الماكرة بنفسي ، وألقيها في طريقه بيدي . هذا صيد حلال . وأي شيء أعظم ثواباً عند الله من تدبير زوج صالح لأعز الناس إليّ ؟

بعت بعض الحليّ . وسحبت كل نقودي المودعة بصندوق التوفير ، وأجرت شقة كالحُق — ولكنها غالية عليّ ! — في جاردن سيتي ، واشتريت لها بعض الأثاث من معارض

سليان باشا . عن إذنك يا درب الحجر ! لقد ألغى الرق فأعتقنا لوجه الله ! وأنت أيتها الصناديق والشكمجيات ، وأنت أيتها الشمعدانات والمرايا المذهبة ، وأنت أيتها الكنبات والمقاعد المطعمة بالصدف ، منك إلى صالة المزاد خطوة مباركة ! وداعاً . وداعاً . فنحن فى دار كل مقام فيها قصير ، وكل صحبة إلى فراق . أتنتظرين أن أرثيك بدمعة ؟ من تلفت إلى الماضى لم تكفه دموع الخنساء ! تسألينا البكاء ؟ بل اسألينا النسيان ، والنسيان السريع .

ولما دخلت العمارة ، قام لنا بوابها : بربرى له وقار القديسين وهيبة الأباطرة . ولما دلفت إلى المصعد بعد سلالم قليلة فرشت بالبساط وزينت بأصص الزهر ، ولما سمعت الوكيل يقول : « هنا الأنتريه ، وهنا الأوفيس » اطمأن قلبى ، وقلت : قد أحكمت الشبكة ، فلننتظر صابرين ، وعلى الله توكلنا . . .

***

عشنا غرباء زمنا ، ثم بدأنا نألف الحىّ وأصواته ، ووجوه سكانه وعاداتهم . خرجت من الشقة ذات صباح فإذا بى أواجه صاحب الشقة المقابلة خارجا بدوره . واحتوانا المصعد معاً

لا أدرى لماذا اطمأن قلبي إليه . ابتسامة منى ، وكنت أنا البادئ ، وابتسامة منه ، وصلت الحديث بيننا ، هو موظف كبير ، على المعاش . دعوت الله أن يكون له ابن صالح ، أو ابن أخ ، أو ابن أخت ، أو صديق ، أو معرفة ، وقلت : لعلهم إذا رأوا أخلاقنا وشرفنا ، وخبروا أحوالنا واستقامتنا ، تقدموا بالخطبة . دعوته لزيارتنا ، فإذا به — لشدة دهشتي — يقبل بسهولة . جاء وزوجته ، سيدة نَصَف ، حنَت على أختىّ حنو الأم الرءوم ، دعتنا لشرب الشاى عندهم وقالت وهى تنصرف :

— عسى أن تكون ابنتى سنيّة قد عادت من الاسكندرية فأقدمها إليكم .

حاولت ألا يظهر غمى على وجهى . كنتَ أنتظر أسماء رجال لا نساء . وقلت فى نفسى : « فلتكن زيارتنا الأولى هى الأخيرة ، فلم أجىء هنا من أجل التزاور مع عائلة ليس لديها رجال » .

وذهبت فى الموعد المضروب ، وأنا متحرج ضيق الصدر . . .

وجاءت سنية ، أيها الناس ! لا تبخلوا علىّ بكرمكم وطيبتكم . أشفقوا على شاب قليل الخبرة والتجربة مثلى ، ولا تبتسموا إذا وصفت لكم اضطرابى أمامها وحيرتى .

ماذا أقول ؟ كان اللقاء هو بدء تاريخ حياتى ، ما قبله جاهلية معتمة ، وما بعده نور و إشراق . أحدثها وأسارقها النظر ، و إلا كيف تقوى عيناى العاشيتان على مواجهة هذا الجمال كله ؟ كنت بجانبها كالجرو المبتل يوضع فى الشمس . . . ما كنت أدرك قبل رؤيتها أن اللباس من الفنون الجميلة . . كأن جسدها تمنى فكان ثوبها تحقيق أمنيته ؛ وكأن الثوب نفسه اشتهى ، فكان هذا الجسد خليلته التى وجد لديها السكينة وطعم الحياة . . ثوبٌ كم أبدى وكم أخفى ! استدار عليها يكاد يأسرها ، فإذا أسيرته طليقة تتحكم فيه . هابط إلى أن يقف حيث يتأرجح الذيل بين الكتمان والإفصاح ، وحذاء تغنيك أناقته عن التساؤل عما يداريه . كل شعرة فى رأسها تسابقت إليها واصطفت راضية بجانب أختها أو التفت معها أو من تحتها ، عالمة أنها تشارك فى زينة ، سعيدة ناعمة بالدور الذى رسم لها . لو تهشم هذا الجسد وتفتت ألف كسرة لما خُدش جماله ، وضحكت فأسمعتنى ضحكة تختصر العمر كله ، فيها سذاجة الطفولة ، ومرح الصبا ، ومرارة التجربة . . فَم متهم وُعيون بريئة . . . لم تهتم بى كثيراً . وما وجهت لى غير نظرة أو نظرتين . ومع ذلك عند ما انصرفت —

وأنا أجرّ رجليّ جراً — كنت شاعراً بتعب من جس دقيق تناول روحى وجسدى بأصابع توهم أنهـا تمسح وتربت وهى تندس وتنقب . . شعرت أننى عُرّيت ، وقُلّبت ظهراً لبطن ، وفحصت واختبرت ، قيست قامتى، وسُبرت ، وُزِنتُ، وكيِّلتُ عُرِكت وعُضضت بالأسنان ورُنِنت على الأرض . . حُركت أوتار روحى واستمع لموسيقاها . . ثم استخرج من مخبئه كتابى الدفين ، فروجعتِ فى النور صفحاته وقرئت سطوره كلمة كلمة . كل هذا والعيون مترددة والشفاه مستفهمة . . ثم أصدرت حكما لن يكون له نقض أو إبرام إلى آخر حياتها وحياتى .

أيها الناس ! أشفقوا علىّ مرة أخرى ولا تبتسموا من جديد إذا قلت لكم إننى تعبت حقاً ، ولكنى مع ذلك وجدت فى هذا التعب لذة كبرى . . . لم أخش حكمها . بل سرّنى أنها تناولتنى بالفحص . كنت كالمريض لا يسعده أمل الشفاء بقدر ما يسعده تقليبه بين يدى طبيب مدل ممتنع وراء أجر باهظ . . انصرفت وأنا لا أزال ألوك فى فمى لذة مذاقها . . ولمـا دخلت شقتنا ، حانت منى التفاتة إلى أختىّ فقلت فى نفسى —والأسى يملؤها— ما ينقصهما والله إلا أن تطول الضفيرة ، ويغطى الجورب السميك

الركبة ، لتبدوَا شابتين من الريف . . من غد إن شاء الله سأعنى بتوجيهها إلى الاعتناء بهندامهما، وزينتهما وإلا كان فشل برنامجى المرسوم محققا .

ولكنى فى غدٍ نسيتُ كلَّ شىء إلا سنية ! حاولت أن أجد مسوغاً لتكرار الزيارة فلم أوفق ، بل وجدت باب الشقة موصداً فى وجهى . ألأنهم رأوا لعابى يسيل وأنا أحدق فى ابنتهم خلسة فرثوا لحالى وأرادوا تجنيبى التعلق بسراب ؟ لما شعرت أنهم يتعمدون صدِّى زاد هياجى ، فإذا بى — وأنا المعروف باتزانى وأدبى — أفقد كل سيطرة على نفسى ، ورأيتُنى لشدة دهشتى آتى بحركات وتصرفات لا تصدر إلا عن أطفال أو مجانين . حاولت أن أستعين برشوة الخدم فضحكوا منى . تصديت لها فى الطريق . ألقيت أمامها رسائلى . تتبعتها كظلّها . كل هذا وهى لا تتكرم علىّ بكلمة أو بابتسامة . أقسم لكم أننى لا أدرى كم من الزمن مرّ علىّ وأنا فى هذه الحالة ، قد يكون أسبوعاً ، وقد يكون شهراً . وأخيراً ضاق ذرعى وأحسست أن العذاب لو طال لقصفنى الألم ودمّر قلبى وقضى علىّ . هجمت عليها ذات يوم وهى

سائرة وأمسكتها من ذراعها . لمسة فيها رعشة الغيظ والأمل .
وقلت لها صارخاً :

— ماذا تظنين ؟ أجرى وراءك طول العمر ؟ أليس لى عمل فى هذه الدنيا إلا أن أسير فى ركاب حضرتك ؟ العفو ! الآن أريد كلمة واحدة : نعم أو لا .

فنظرت إلىّ وابتسمت . . . . .

زرت معها معالم القاهرة فكأنني سائح يجوس خلال مدينة مجهولة ساحرة لم يكن يعرفها من قبل . . . كنت أتلو كالببغاء قصيدة النيل فشرحتها لى سنية بيتاً بيتاً ، وأفهمتنى جمال معانيها ولفتاتها . فى حديقة الحيوان ، التى طالما زرتها فلم أر شيئاً ، كلمتنى لأول مرة ، من وراء أعمدة السجن المؤبدة ، عيون صافية جميلة حزينة ، وشكت إلىّ وحدتها وآلامها . الفضل لسنية فى الراحة الكبرى التى شملت نفسى عند ما آخيتهم جميعاً . . . من زحف منهم أو طار ، أو دبّ على أربع . . .

قالت لى ذات يوم :

— ما العمل إذاً ؟ إن بابا يرفض بتاتاً لأنك موظف صغير ،

ومرتبك قليل ، ولا يدرى كيف تقوى بهذا المرتب على المعيشة في جاردن سيتي . . .

ولما رأتني مطرق الرأس غماً ، أضافت تقول :

— ولكن ماما في صفّي . . .

وكان القرار أن أنتقل إلى مسكنهم ، على أن تذهب نعمات وعطيات للإقامة مع إحدى خالاتي . . .

كلهم قالوا لي إنني ساعة « كتب الكتاب » كنت شارد اللب ، ثم إذا بي فجأة أبتسم ابتسامة خفيفة ، ظنوها من حرج سؤال المأذون الصريح . لا يعلمون أنني — ولا أدرى كيف — انتبهت إذ ذاك فحسب ، إلى قسوة الفكاهة ، وهي تنطبق عليّ ، في المثل القائل :

« راح يصطاد . . اصطادوه . . »

## كُن . . .

## . . . كان !

« ما معنى هذه الحياة ؟ »

ينخر هذا السؤال كالسوس فى نفس حسين فرغلى كل ليلة وهو خارج من القهوة بعد أن كوموا مقاعدها وأطفأوا أنوارها . يخف إليها قبل الغروب فيجد زملاءه المدرسين قد اجتمعوا حول ( الطاولة ) ويدور اللعب بينهم — لا ينقطع لحظة واحدة — كالمعارك الحربية فى غليانها وقعقعتها ، يتساقى اللاعبون كؤوساً مترعة من رحيق الفوز ومرارة الهزيمة ، فينهلون من وهمها ويسكرون . . . حسين لا يلعب ، بل يكتفى بتتبع الحجارة والزهر بشغف كبير . يلتوى رأسه ذات اليمين وذات اليسار كعروس ميكانيكية انفلت ضابطها . وهكذا هو أيضاً فى الحياة

يعيش على هامشها ، و يلوذ بالشاطىء خوفاً من تيارها . عواطفه موزعة تارة مع الغالب ، وتارة مع المغلوب . فالمحايد المحروم من لذة المشاركة فى الصراع يتسلى بمقدرته على الموازنة بالعدل والقسطاس. إذا دار الحديث فعن العمل والوظائف والدرجات ، حتى كأنهم الإبل يجترون بالليل ما أكلوه بالنهار . . . أى عقل شيطانى تفتقت حيلته عن اختراع هذه الطاولة ؟ هى لعبة ساذجة متشابهة متكررة ومع ذلك لا ينقطع سحرها كأنها الحشيش أو الأفيون .

خرج حسين من الجو المكتوم المفعم بالأدخنة والضجيج وانطلق إلى الطريق ، فوقه سماء القاهرة تكاد الروح ترشفها من فرط صفائها ، تناثرت فيها نجوم لامعة وأخرى خابية ، لا يكاد النظر يستوعبها فى مواقعها حتى تجد الأذن أن هذه النجوم المبعثرة مختلفات الألوان ينظمها نغم حلو جميل ، لكل لون منها نصيب فى إيقاعه ، ولكنه نغم خاف تشعر به الأذن ولا تتبينه ، كأنما هى أيضاً عين ترى ولا تسمع .

وبدأ حسين سيره إلى شبرا ، وهو حين يشعر بالليل يحجبه عن الأنظار ، يلذ له أن يحتضن أفكاره ، ويختلى بها ، فيسرح ذهنه ، وتعود إليه ذكريات قديمة . عيناه تتكلمان تارة بالسرور

وتارة بالحزن . ويهتز رأسه مرة بالعجب ومرة بالحسرة ، وقد يتمتم باسماً ، وقد تحدث شفتاه هذه « المصة » الضئيلة التى يعبر بها المصريون عن بعض ما فى قلوبهم من توجع وعطف ورثاء . . آه ! إنه الليلة آسف على حياته نادم من جديد . أما يأتى اليوم الذى يتاح له فيه أن ينسى كيف ألقى بنفسه فى مدرسة المعلمين وهو كاره لها ؟ وكيف نكص عن الزواج بجارته آمال ؟ تلك الفتاة التى خلبت لبه وسحرته ، ورضى بالزواج من إحسان . . خشى الأولى لأنها مستبدة لعوب فاتنة ، وقنع بالثانية لا عن حب ، بل قياماً بواجب ، فهى ابنة عمه . . اطمأن لها لأنها ربة بيت ، هادئة ، معتكفة . فماذا فعلت بنفسك يا حسين ؟ أدرت ظهرك للنشوة والمتعة ، واللذة المتجددة ، والحياة المليئة بالعواطف ، وآثرت حياة راكدة كالمستنقع . سرعان ما مل إحسان ، وسرعان ما انقلبت هذه الفتاة المشوقة القد إلى امرأة بدينة خشنة اليدين ، لم يرها مرة تستقبله عند عودته ، وقد سرحت شعرها أو اعتنت بزينتها . تبدو له الآن حياته سلسلة من أخطاء وسوء حظ . إن كان فى الحياة مهنة يمقتها أشد المقت فهى مهنة التدريس . هو عامل فرض عليه أن يبنى الأساس ولا يتعداه ، ثم يجىء آخرون

يتممون البناء و يتمتعون به . . أى لذة فى عمل لا تتجسم أمامك نتائجه فتمنح النفس جزاءها من الرضا والغبطة ! ؟

ما فائدة التوفر على تعهد الفرخ وتغذيته حتى إذا نما ريشه أفلت من يدك وطار ؟ العالم كله يتحرك إلى الأمام ، والمدرس ثابت فى مكانه ؟ و إن تلفت فإلى الماضى يتلفت . . ما فائدة تعليم هؤلاء الصبية وهو واثق بعجزه عن إسعادهم ؟ فالحياة مليئة بالشراك والمصائد ، محفوفة بالمظالم والآلام والأحزان . سيخوضون غمار معركة من أشد المعارك تطاحناً وهولاً ، على حين أنه لم يسلحهم إلا بقشور من العلوم النظرية ، وشقشقة لسان إن لم تكن تضر فهى لا تنفع . كم كان يود أن يكون محامياً . إنه يحس فى نفسه المقدرة على الفهم واستخلاص المبادىء وسلامة المنطق — وهذه مواهب لا تفيده فى صناعة التعليم ، ولكنها خليقة أن تتقدم به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس المحاماة . ودّ حسين لو أنه استطاع أن يدافع يوماً عن مظلوم أو يرد حقاً إلى صاحبه . . ولكنه عاجز . فما يكرب نفسه أنه يرى المظالم تتزايد أمامه وتتلاحق ، ولا أمل له فى أن يرى نهايتها ، أو يرى عالماً تسوده العدالة . هذا تفسير ما فى نظرته من حزن عميق مختلط بغيظ

مكتوم . . ماذا يفعل ؟ إنه يقف طول النهار ينبح أمام. تلاميذ كالقرود يلهون و يعبثون ، حتى يجف حلقه و يضطرب قلبه . هل نسى أن الطبيب قال له إن قلبك ضعيف يخشى عليه من كثرة الإجهاد ؟

وعندئذٍ تريث حسين فى سيره ، ووضع يده على مكان قلبه وتأوه . . إنه يحس كأن إبرة تنغرز فيه . . لقد ساءت حالته الليلة ، إنه الإجهاد الذى يخشاه . . فمتى تأتى الاجازة ؟ . متى ؟

كان قد ترك الطريق الرئيسى وانعرج إلى درب ضيق ينتهى بالمزارع . . سكون شامل ، ومنازل نائمة . . .

حدثته نفسه :

— لو أستطيع أن أرتد القهقرى عشر سنوات . . . عشر سنوات حَسْب . . ولو ضحيت من أجل ذلك بعشر سنوات مثلها من مستقبل عمرى . . سنةً بسنة . .

لم يكد يسير بضع خطوات بعد هذا الخاطر حتى خيل إليه أنه يسمع زحيراً شديداً يتلاحق من ورائه . هل يجرى فى إثره أحد ؟ أجهد أذنيه فلم يسمع وقع أقدام . ومع ذلك استمر هذا الزحير يسرع إليه و يدنو منه . طمأن نفسه يقول لها : لعله وهم

وخيالٍ . فالليل عالم مجهول ملىء بأصوات غريبة لا نتبينها . .
ثم سار قليلا . فإذا يدٌ تلمس كتفه ، والزحير يكاد يشق صماخ أذنيه . . سمع حسين وقرأ أن شعر الرأس يقفُ عند الذعر، ولم يكن يصدق . في تلك اللحظة أحس كأن يداً قاسية جمعت شعره في قبضتها وشدته شداً قوياً يكاد يتمزق منه جلد رأسه . وشعر حسين بأن اليد التى وقعت على كتفه لوح من الثلج ، فقد جمد لها قلبه ، وإن يكن جبينه قد التهب لها وتصبب عرقاً . . .

التفت حسين مذعوراً ، فوجد وراءه رجلاً نحيفاً هو إلى القصر أدنى منه إلى الطول — يرتدى ثوباً أسود كثياب التشريفات ، من طراز يرجع إلى عهد غابر ، ذكر حسيناً بصورة قديمة لأحد جدوده . . والغريب أن هذا الثوب كان فضفاضاً كأنما فُصِّلَ لرجل أطول منه وأشدّ امتلاء . . فقد رأى حسين أمامه رقبة نحيلة تائهة فى بنيقة منشاة واسعة . . يريد ذقنه أن يعتمد على حافتها فيشنقها فرط ارتفاعها . . لم ير له يدين ، وخيل إليه أن الكمين فارغان ، ليس فيهما ذراعان . حدّق بنظره فى تقاطيع هذا الغريب ورأى — أو خيِّل إليه أنه رأى — وجهاً إنسانياً ذا عينين وأنف وأذنين . . ولكن عجباً ! لماذا لا تستقِر نظرته

على هذا الوجه ؟ لم تنطبع له صورة فى ذهنه ، كأنما وجهه هوة لولبيّة ، أو سراديب ملتوية ، أو صورة فوتوغرافية مهزوزة . .

أشاح حسين بوجهه من الرعب ، ومن تلك الرائحة المنتنة القاسية التى غمرت وجهه من فم هذا الغريب . وحين بدأ الرجل يكلمه إذا صوته صوت طفل وديع ، و إذا هذا الصوت الحنون وحده يراخى قبضة اليد التى كانت تجذب شعره فيعود إلى رقاده . . . وخامر قلبه شىء من الطمأنينة لم يدر سببها . قال له الرجل :

— لا مؤاخذة يا سى حسين . . خشيت أن تغير فكرك قبل أن أستطيع اللحاق بك . كنت مشغولاً جداً فى القصر العينى وفى مستشفى الحميات . . فأنا — كما ترى — مجهد حقاً . ولى عمل شاق لا ينتهى . . سمعتك تتبرع بعشر سنوات من عمرك لقاء أن تعود القهقرى عشر سنوات مثلها ، وأنا فى ضيق علم الله — ومحتاج أشد الاحتياج إلى يوم ، فكيف بعشر سنوات مرة واحدة .

— لا شك أنك سعيد فى حياتك . فلم أر قبلك أحداً يتعلق بالدنيا تعلقك بها . .

— لا . لا . لا أريدها لنفسى ، بل لغيرى .. دعنى أتذكر . نعم . عندى أب قارب الرحيل وقد قدر له أن يرى ابنه الوحيد الشاب يموت قبله . سأعطى الابن شيئاً من هبتك حتى أجنب أباه تجرع غصة الألم . وهذا شاب لو انتقل عن هذه الدنيا لحرم أولاده من ميراث جدهم ، سأعطيه سنة حتى ينتهى أجل أبيه .. وهذا فتى أحب فتاة غاية الحب ، سيموت قبل الزفاف — وليس أشهى علىّ من أن أمتعه بها ولو شهراً واحداً . فها أنت ذا ترى أن هبتك السخية تكفى لبعض هذه الأعمال الخيرية . . لهذا أسرعت إليك . .

خفت الأبخرة المنتنة شيئاً فشيئاً . واستطاع حسين أن يقارب وجه هذا الغريب . . بل بلغ به الاطمئنان أن ضحك فى وجهه وقال:

— مهلاً ! مهلاً ! هذه هبة كما قلت ، ولكنها — يا عزيزى الأستاذ — ليست بدون مقابل . . فهل أنت قادر على أن تردنى القهقرى عشر سنوات . ؟

انتبه حسين إلى أن جواً من الطيب والرائحة الذكية تسطع من مخاطبه . . وتمنى لو استطاع أن يقترب منه أو يضع ذراعه فى ذراعه . . .

أجابه الرجل وهو يبتسم :

— ألم تقرأ فى القرآن الكريم « ادعونى أستجب لكم » ؟ إننى عبد من عباد الله لا أعلم أن أحداً قد كلف بمهمة شاقة كمهمتى . . وأنا مقبل على أدائها بإخلاص و بكل قوتى .. حرصاً على رضى مولاى . . وإنى لحسن الظن بكرمه ومنّه . . لم ألتمس منه طلباً من قبل . . فلا أظن أنه يخيب رجائى لو سألته هذه المرة . . كن واثقاً أننى أحقق لك ما ترجوه . .

ود حسين لو أنه تردد قليلا أو سأله مهلة ليفكر من جديد .. ولكنه خجل من رقة محدثه، فوجد نفسه يقول له وهو ذاهل..

— لا مانع عندى . .

— يا لك من سخى شجاع . .

وعندئذ أخرج حسين ساعته ونظر إليها فأوقفه الرجل قائلا :

— لا . لا . إننى لا أعرف حساب زمنكم هذا . . .

ثم تلفت إلى السماء ونظر إلى النجوم وقال :

— سيكون بدء تنفيذ اتفاقنا فى تمام منتصف الليل .

قال له حسين :

— اتفقنا . . .

أجابه الرجل :

— هذا القول لا يكفينى .. إننى أريد منك أن تهبنى السنوات العشر بالصيغة الشرعية . فقل معى :

« أهبك عشر سنوات من عمرى طائعاً مختاراً ، وأنا فى تمام عقلى وإرادتى ، على أن أعود القهقرى عشر سنوات مثلها .. »

كرّر حسين وراءه الصيغة كلمة كلمة .. فإذا بالرجل يربت على كتفه ويقول :

— إنك أكبر المحسنين لو علمت . وليس أحد أولى منك بأن يقام له تمثال .. ثم ابتعد عنه ، يتحرك جسده ، ولا يرى حسين على أى قدمين يسير ..

واستمر حسين فى طريقه وهو ثمل لا يدرى هل يغتبط بفعلته أم يندم عليها . همس لنفسه يقول : « إنك أسعد إنسان على وجه الأرض ! ستقوم برحلة لم تتسن لأحد من قبلك »

وفجأة وقف حائراً وقال :

— ولكنى نسيت أن أسأله هل سأعود القهقرى عشر سنوات محتفظاً بما فىّ من تجارب وأفكار ومن خبرة ومزاج .. ليتنى أدخلت هذا الشرط فى اتفاقنا !

عشر سنوات إلى الوراء ! سيغير حياته كلها . . سينعم بما حرم نفسه منه .. سيتجنب كل أخطائه . تألق وجهه وأسرعت خطواته ، وأحس أن نشوة غريبة تهز عطفيه .. فإذا به يقف من جديد وقد ساوره شيء من القلق :

— ليتني سألته كم يبقى لي من العمر بعد تبرعي بعشر سنوات ؟

كان قد وصل إلى داره وفتح باب الشقة فإذا رائحة المرحاض تزكم أنفه مختلطة بعفونة قشور البصل المتخلف في صفيحة القمامة .

اعتاد حسين إذا عاد في مثل هذه الساعة أن يجد شيئاً من الطعام على المائدة فيتناوله بارداً وهو صامت ، وزوجه نائمة لا تتحرك . . ولكنه في هذه المرة لم يكد يدخل حتى سمع صوت إحسان تنادي :

— من ؟ حسين ؟

وقامت إليه محمرة العينين ، مشعثة الشعر تقول :

— عجباً ! ما كدت تدخل حتى طار النوم من عيني ، وانتبهت مذعورة لا أدري ماذا بي .

جلست معه على المائدة وسخنت له طعامه ، وحدثته عن بعض

توافه يومها ، ومع ذلك كان كلامها ينزل برداً وسلاماً على قلبه .. هى زوجه ، وليس فى حياتها أحد سواه . حبيسة داره ، حياتها كلها وقف عليه وعلى أولاده . كثيراً ما اشتكت وثارت وضجت ولكنه لم يسمعها تؤلمه بكلمة تجرح قلبه . . حن لها حسين وضاحكها ، بل عرض عليها أن يسهرا معاً و يتسليا بلعب الكونكان . . وهى لعبة الورق الوحيدة التى استطاع أن يعلمها لإحسان .

واستمر اللعب زمناً .. وتناول حسين ورقة يربح بها الدور .. فرفع يده بها مسروراً يقول :

— كن . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها ( كونكان ! ) كان الليل قد انتصف . . . . . . . . . . . . . .

دخل عليه وكيل المكتب يقول :

— السمسار منتظر يريد أجره

أطرق حسين برأسه ذليلا . لقد انحدرت به الحال إلى أن أطلق بعض السماسرة يتصيدون له الزبائن من على القهاوى . . لم يبلغ إيراده فى هذا الشهر عشرين جنيهاً ، و إنه والله ليخشى أن

يعود إلى داره ، فقد طالبته آمال بثوب جديد لا يقدر عليه . . من كان يظن أن فتنة هذه الفتاة ستزول سريعاً ؟ عاشرها وتمتع بقربها ، ولكنه يشعر أنه ظل طول عمره غريباً عنها . لا يدرى ما يجول برأسها . . يريد أن يخضعها فلا تخضع ، ويأمرها فتنفلت منه طليقة . . ثم كم تؤذيه ويؤذيها بهذه الكلمات القاسية الجارحة التى يتبادلانها كثيراً . . ثم — وهنا العجب — يضمهما الفراش فينسيان كل شىء فى ضمة الجسد للجسد . وتعود العداوة والبغضاء فى الصباح . . طبيعة حيوانية يتعامى الإنسان عنها ويتعالى ، وهو عاجز فى قبضتها غريق فى أحضانها . . ترى أين إحسان الآن ؟ ألم يكن هو أولى بها — وهى ابنة عمه — من زوجها العامىّ الذى لايحسن معاملتها ؟ ألم تكن راحته وسعادته فى الزواج منها ؟ ولكنه تكبر وخان ، وجرى إلى آمال كالأحمق . .

وسار حسين على مهل إلى داره . . المحاماة ؟ هى مهنة مليئة بالكذب والخداع . كم يتألم ضميره وهو يصرخ أمام القاضى بكلام يعلم فى قرارة نفسه أنه كذب وتلفيق . . كل ذلك لقاء دراهم معدودة لا تسمن ولا تغنى من جوع . .

آه ! آه ! إنه أضاع حياته . وما فائدة جهاده فى المحاماة

والناس كالوحوش الضارية والذئاب المتفارسة ؟ إن اكتسى وجه الظالم بغلالة سوداء بغيضة فما أجدر المظلوم الأنوف بأن يرفع رأسه ويتجلى وجهه أبيض وضيئاً . . ولكن حسين يتطلع إلى وجوه زبائنه فلا يتبين الظالم من المظلوم . . كل منهم تنطوى نفسه على الغلّ والحقد . لا يكتفى الظالم بجبروته ، بل يهبط به جُبنه إلى الدس والكيد والتلفيق . . وعمى المظلوم عن نبل المطالبة بحقه وثوابها وامتلأت نفسه سُماً ، لا يرضيها استرداد الحق ، بل الانتقام بأى ثمن من الخصم — ولو ظلماً ! كم كان يود أن لو يشتغل بالتعليم ، لتكون براءة الطفولة الساذجة هى مادة عمله ، وليساهم فى بناء جيل صالح ينشأ على الأخلاق الفاضلة تبدأ به مصر حياة جديدة . . وهل هناك أنبل من وقفة المعلم أمام صف من الصبيان يتطلعون بعيونهم المتعطشة إلى كل حركة تصدر منه ، وكل كلمة تخرج من فمه ؟ هذا هو البناء الذى يرضى النفس . وأى مهنة أخرى تهيىء لصاحبها مثل هذه المتعة الروحية ؟ أما الآن فإنه يجاهد فى المحاماة جهاداً زائفاً مُضيعاً . . أحقاً أنه يعمل لرد الحقوق إلى أصحابها ؟ إن صح هذا — وهو غير صحيح — فما فائدة تعمير البناء والأساس فاسد مختل ؟ إنه يحس

فى نفسه القدرة على الصبر والتؤدة والتبسيط ، وهذه صفات تؤخره فى المحاماة ولكنها خليقة أن تدفع به إلى الصفوف الأولى لو أنه مارس التعليم .

قابلته آمال غاضبة تقول :

— لا أراك إلا والليل متقدم .. وما أظنك غبت فى هذا المكتب المبارك وهو أفرغ من فؤاد أم موسى .. أكبر الظن أنك كنت مع صحبة السوء فى لهو وعبث .

— كيف أرضيك يا آمال ؟ ألا ترينى متعباً ؟

وضع حسين يده على قلبه وتنهد .

— إن الأزواج ليرجعون إلى البيت فيحدثون أزواجهم ويلاطفونهن ويتسلون معهن ..

— وماذا تريدين ؟

لوَتْ خرطومها وتركته

سار وراءها ذليلا يقول :

— آمال ! تعالَىْ . تعالَىْ نلعب الكونكان معاً فأنا مهموم أريد أن أتسلى ..

بلغ من ضعفه بين يديها أنه لا يجسر أن يمن عليها بما يفعله

لإرضائها . . فكل خدمة منه لها يصورها خدمة منها له . .

واستمر اللعب زمناً ، وتناول حسين ورقة يربح بها الدور فرفع يده بها مسروراً يقول :

— كنْ . . .

ولكنه لم يستطع أن يتمها « كونكان »

انشق الجدار وخرج إليه منه رجل غريب ، ولكنه ليس بالغريب عنه . هو أقرب إلى القصر منه إلى الطول . مال بوجهه الذكيّ الرائحة على حسين يقول :

— يا سى حسين ! هل أنت ذاكر ؟ لقد نفذت عهدى من الاتفاق . أليس كذلك ؟

ابتسم له حسين ابتسامة ملؤها الاطمئنان والود والإخاء وقال :

— تمم حديثك ولا تخفِ عنى شيئاً . أكاد أفهم الآن كل ما كان غامضاً علىّ . . .

— نسيت أن أخبرك فى ساعة اتفاقنا أنه لم يكن لك عندئذ من بقية العمر أكثر من تلك السنوات العشر التى تبرعت بها . . فهل أنت مستعد ؟

أسبل حسين جفنيه ، وخفق قلبه ، ومال عليه وجه سمح منزعج يقول :

— حسين ! حسين ! ما بك ؟

— مَنْ أنت ؟

— أنا إحسان ! ألا تعرفني ؟ لقد كنتَ أمامي منذ لحظة سليما معافى . فماذا بك ؟ هل يؤلمك شيء ؟ رد علي ! أأدعو الطبيب ؟

ولكنه كان قد فارق الحياة ، وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة . ووقفت أمامه إحسان ذاهلة لا تقوى على تفسير ما حدث . كيف حدث ! !

## القديس لا يحار

تحلّل القديس من قيود الوطن والأهل والأصدقاء ، ورحل يبلغ رسالته للناس ، يبين لهم باطل الدنيا ودنس المال ، ويدعوهم إلى اللحاق به فى هجرته إلى الله وحده ، لا يملك شيئاً ولا يستقر بمكان .

وسار وراءه نفر من أتباعه . رجال جاوزوا سن الثورة والاستهتار ، خشنو الجلد والملبس ، إذا نزلوا بلداً سهل إيواؤهم وإطعامهم . . . وتشييعهم ؛ ولو لم يتبعوه لظلوا أمام بيوتهم يصطلون الشمس طول النهار . ولكن من هذا الشاب الجميل الذى يسير فى مؤخرة الموكب: مديد القامة عليه سمة النبل، متئد الخطوة كأنه متبوع لا تابع . ما أصفى بياض يديه ورخاصة أنامله ، يشد بها حافتى مسوحه فكأنها مشبك من الأحجار الكريمة . . . من يكون ؟ ولماذا يسير مطرق الرأس ؟

إنه النبيل « ع » الابن الأصغر لسيد مقاطعة نائية ، تربى

فى كنف العز وعاشر السعداء، ولم تقع عينه على بؤس . ولما مات الأب ، وورث الابن الأكبر لقبه وضياعه ، دعا أخاه المدلل وقال له :

— لا أطيق أن أصبح مميزاً عنك فأنفرد بالخير كله ، ومقامك فى قلب أبى الكريم كان فوق مقامى ، فإن شئت عشنا معاً لك مالى ، وإن شئت اقتسمنا التركة بالتساوى .

فأطرق النبيل « ع » برأسه ، ولم يجب . غادر القصر واعتكف فى كوخ صغير أياماً طويلة خرج بعدها يعلن لمن حوله أن هاتفاً هتف به بين اليقظة والمنام يدعوه أن التحق بالقديس . فلما ترامى الخبر للناس عدوها كبرى معجزاته ، وأكبروا فى النبيل نزوله عن الغنى الواسع والعز العريض ، واختياره التكفف وسؤال الناس كسرة الخبز فى سبيل الله .

طارت شهرة النبيل بين الناس وتزاحموا حول الموكب لا ليروا القديس ، فهم لا يجهلونه ، بل ليتطلعوا إلى النبيل الوسيم كيف يبدو فى ثياب الراهب . ينصرف الرجال عن الموكب وهم أرضى نفساً وأهنأ بطعامهم وشرابهم . أما الأمهات والجدات فكن يسبحن لله الذى سبقت إرادته ، فاختار هذا الوليد لحياة

كلها حرمان وقسوة ، وما كان أجدر شبابه بالتمتع واللعب . أما الفتيات فكن إذا رأين يده الناعمة الرخصة فوق المسوح الخشنة ، وتطلعن إلى وجه الشاب الذى أصبح مناله صعباً بل حراماً ، شعرن بقشعريرة تسرى فى أجسادهن ، وركعن على الأرض يتممن بدعواتهن ، ولكن أحداً لم يفلح فى أن يرى عينيه . . . لماذا هو مطرق ، ولماذا يسير فى مؤخرة الموكب ، ولو شاء لكان فى أول الصفوف ؟ ليس بينه وبين القديس إلا خطوة واحدة .

وفى يوم مر القديس وحاشيته على قصر منيف ، فسأل عن صاحبه فقيل له إنه لثرى عظيم لا هم له إلا اكتناز المال ، ولم يسمع عنه فى يوم أنه أحسن بدرهم . فعدل القديس عن مواصلة سيره ودخل القصر ليهدم منه للشيطان معقلاً ، و يظفر بتخليص أرواح ساكنيه . فوجد الثرىَّ جالساً أمام مائدته ، تتكدس عليها الأطباق والأقداح ، عن يمينه زوجه ، وعن يساره ابنته ، وأمامه أولاده ، ومن حواليه أتباع وحشم يتطلعون لشفتيه لعلهما تنبسان بأمر .

امتلأت الردهة بالأصوات ، ولكن الضجة لم تمنع النبيل — ولعل إطراقه ساعده على إجادة السمع — من أن ينتبه

لضحكة رقيقة تحاول صاحبتها كتمانها فلا تقوى . . . هل مبعثها سرور أو دهشة ؟ أم هي سخرية ؟ رفع رأسه فوجد ابنة الثرى تتطلع إليه بعيون ندية كلها أضواء . . . ورأى كيف تحتال حتى جاء مقعده إلى جوارها .

وتفجر القديس يلوم ، وكأن روحه ترمى بالشرر ، ثم يعظ ، فكأن قلبه يفيض بالغيث المنهمر ، وسحرت بلاغته الحاضرين فتقاربت الوجوه وتشابهت السحن ، فما يُميز بين السادة والخدم .

واختلت الفتاة بالنبيل ، وجرى بينهما حديث خافت :

— لو أنك مررت علينا من قبل لخطت لك هذا المِسْح على قدِّك ، فإننى أشفق عليك وأنت تتعثر فى أذياله ، وتتيه ذراعاك فى أكمامه ، فقل لى بالله عليك كيف تحتمله ؟

— لا يكربك الأمر ؛ فلست دالفاً إلى مرقص ، بل ساعياً إلى رب ينظر إلى القلوب لا إلى الأثواب .

— ويلى إذاً ! لقد كنت أظن الرقص عبادة ؛ فما رقصت مرة إلا شعرت أننى أقرب إلى الله منى فى أوقات الفراغ والسأم

وهنا وجد الشاب نفسه أسير نظرة فاحصة ماكرة ، هازئة

كلها عطف وفهم ، فيها بريق عين النهم وهو جائع مقبل على أشهى أطعمة ، وأضواء لمحة الحبيبة إذا ما شفى الحبيب غلتها .

جرحه نفوذ النظرة إلى قلبه فانقبض ، ولـكنه استراح لعلمه أنه لو شاء لـكان سلطانه على الفتاة أقوى من سلطانها عليه .

فأجابها قاصداً هدايتها كأنه لم يغضب ولم يبال :

— وما بعد الرقص ؟ ألا تفكرين أن كل هذا سراب ، وأن هناك موسيقى غير موسيقاكم ؟ اللهم إن كلى آذان لسماع أناشيد التسابيح بحمدك ، الصاعدة من الـكون ، المدوية فى الفضاء ، فأسألك اللهم أن تجعل من قسمتى سماعها !

— إن الله قد أغدق نعماءه على الـكون ولم يحرم منها إنساناً له قلب وبصر ، فذهابك الآن تقرع باب الله دليل على أنك عشت إلى اليوم غافلاً عن جماله . وهذا ماض سيقعد لك فى مستقبلك وإن جاهدت . خذها عنى : إن الله لا يحب من عباده السائل اللحوح اللجوج ، ولا من يستعين للوصول إليه بمسبحة طولها أمتار ... ثم مالت الفتاة على أذنه تقول :

— هلم اعترف أنك فهمت أننى أعلم لماذا ارتديت المسوح . أنت طموح ، مبدؤك إما الكل وإما العدم . تركت الثروة لأنها

نصف ، والدنيا لأن كل لذة لك فيها تنقضى ، فإذا هى تقصر عن حد تتخيله ، وتسير فى مؤخرة الصفوف لأنك لست على رأسها . ولو وقفت بين يدى الله لسألته : ما وراءك ؟ فتواضعك هو الكبرياء ، وزهدك هو غاية الطموح . إننى أعلم أنك نشأت يتيم الأم ، ولو عاشت لوجدت فى عطفها ما يرطب قلبك ، وما أشبهه الآن بصخرة فى أعلى الجبل ... ومع ذلك لم يفقد الأمل فيك . لقد اخترتك لنفسى ، فابق ، انظر إلى ، وتمتع بجمالى . ستعلمك قوة حبى كيف تؤمن أولاً بإنسانيتك ليصح إيمانك بعدها بالله . إن لأبى جماعة من مهرة الموسيقيين إذا وقعوا على آلاتهم أرقصوا الجماد ، سأجعلهم يعزفون إذا أذن رئيسكم ، ولا أظنه يرفض ، و إلالما كان قديساً — فماذا عليك لو خلعت المسوح وارتديت أبهى الأثواب ، فقمت إلى وانحنيت أمامى ، وتناولت يدى ، ودارت ذراعك حول وسطى ، وضممتنى إلى صدرك ، ورقصنا فتمثلت النغمة فى حركاتنا ، ثم انفلتُّ عنك وأنا أخبر بك وأنت أدرى بى ... وسترى أنه لا يزال هناك أمل .

انهدّ كل شىء من حوله . لو أنه أطاع وسواسه لهوت يده عليها يشدها من شعرها ، و يجرها على الأرض ، ولداسها بقدميه

أو لمال عليها يغمرها بقبلاته ، ولكنه خطا خطوة ليس عنها نكوص ، ولو نكث لما صدقه من بعد ذلك أحد ، ولا صدق هو نفسه . ولقد بقى فى أذنه من كلام الفتاة لفظ ( الأمل ) . إنه سيظل حيث هو ، جاهداً فى طريقه محتملاً ما لا تقوى على احتماله الجبال ، آملاً أنه سيرى فى النهاية بارقة الرضا فى وجه ربه الكريم ... ولكن الآن ! الآن ! الحياة كلها أمامه فى متناول يده . آلاف الأصوات تناديه : أقبل ! اشرب ! إننى عطشى .

وكان القديس لا يزال يعظ ، ورويداً رويداً طأطأت الرؤوس على الصدور ، وتصاعدت الآهات ، وانفجرت الدموع ، وركع الجميع أمام القديس ، يلثم رداءه من لم يستطع الوصول إلى يديه المرفوعتين إلى السماء

وترك الثرىُّ مائدته ، وقف يقول للقديس بصوت يغالبه البكاء :

— أسلمت قيادى إليك . فأنا منذ اليوم من أتباعك . سأترك القصر وما فيه من متاع وما حوله من ضياع ، سأترك مخازنى ، بعتيق شرابها ، والحقل بعجيج دوابه ، سأتبعك كظلك ، ولن أكون وحدى ، بل سيتبعنى أيضاً كل هؤلاء : زوجى

وأبنائى وزوجاتهم و بناتى وأزواجهن والأصهار والأتباع . أرنا الطريق ونحن فى أثرك .

لم يحر القديس جواباً ، لم يتعقد جبينه ، فهو وضاء منير . ولم يزم شفتيه ، فابتسامته الجميلة هى هى ، ولكنه غائب عن الجمع ، نظرته تائهة ، لعله يستمع إلى وحى خفى يقول :

— لوتبعوك لخرب القصر و بارت الأرض ونفقت الدواب ، ومن أين لك إطعامهم و إيواؤهم و إيجاد عمل لهذا الجيش العرمرم ؟ هل يتكففون الناس مثلك ؟ والقديس من الواصلين الذين يستند إيمانهم على صخر لا يتزعزع ، لا يعرف الشك ولا الريبة والتهكم . لم يثر فى قرارة نفسه ولم يقل ( إذاً ما حكمة رسالتى ؟ وما قيمة المبدأ الذى خرجت أبشر به ؟ وكيف يكون الكيل كيلين والصاع صاعين ؟ و إن كان ما يصح لى هو الحق فلا بد من أنه يصح للناس أجمعين ) .

لم ينقص إيمان القديس ذرة ، ولم يهتز لحظة ، فكيف يكون قديساً إذا بدت له المسائل كما تبدو لبقية الناس متناقضة مضطربة ، مضحكة مبكية ؟ لهؤلاء القديسين نظرة تشمل الكون وتفهم الأسرار ، فما يبدو عجيباً هو ذات الحكمة ، وما يبدو

متناقضاً هو عين الاتساق . قال القديس بصوت كأنه يخرج من كهف عميق :

— يا بنى ! احمد الله أن هداك أنت ومن معك للحق ... على يدىّ ! إن الطريق الذى تريد أن تسلكه وعر ، لا يقوى عليه إلا القديسون أمثالى . فامكث مكانك وأقبل على عملك ، واسكن إلى زوجك ، وداعب أولادك و بناتك ، وأشرف على شؤون خدمك وحشمك ، وحقولك وضياعك ، وتمتع بأكلك وشربك ، على أن تعدنى أن تفعل الخير وتذكر الله . تمثله لنفسك فى كل لحظة حتى تعلم أن كل ما حولك زائل وأنك ملاق ربك فمحاسبك حساباً لا يضيع فيه مثقال ذرة من خير أو شرّ .

بدا الوجوم على وجه النبيل وكأنه لم يفهم شيئاً . فاستمر القديس يقول :

— لا تحزن . إنك ستمكث فى القصر — فى نظرك — ولكنك ستكون مع ذلك من أتباعى . ما قيمة التمسك بالذيل واقتفاء الخطوة ، فى حين أن الروح متبلد والذهن غائب ؟ ستتبعنى بروحك . بإيمانك . . . ولك على أننى لن أنساك فى

يوم ، فلن يغيب عنك ندائى بل سأحمل شخصك فى قرار قلبى.
سأنشئ لك ولأمثالك طريقة خاصة بكم تلتحقون بها، فتر بطنى وإيا كم.

وعادت الردهة إلى هرجها ومرجها ودبت فيها روح البهجة ، ودارت الأطباق والأكواب، وسكن الثرىُّ إلى زوجه، وداعب أولاده و بناته ، ونادى كلبه الأمين فأقعى تحت قدميه .

والتفت النبيل ( ع ) فوجد الفتاة عن يمينه ، والقديسَ يهم بالانصراف عن يساره ... ولـكن هاتفاً هتف به فإذا هو يتمتم لنفسه : نعم ! لا تيأس من رحمة الله

فجمع أطراف مسوحه ، وجرى إلى الجمع واتخذ مكانه بينهم ، لا فى آخر الصفوف هذه المرة ، بل وراء القديس كأنه يلوذ به .

وتحرك الجمع يرددون وراء القديس قوله :

« اتركوا الباطل الزائل واتبعونى ! »

ووقفت الفتاة صامتة برهة ، ثم همست تقول :

— يا له من غر مسكين لم يفهم الوحى . لما نادته رحمة الله أن ابق ، فإذا به يولى عنها و ينصرف !

ثم ضربت الأرض بقدمها وصفقت تقول :

— موسيقى ! رقص !

## بيني وبينكِ . . . .

كم من مرة قطعت فيها هذا الطريق معك ، ذراعك فى ذراعى ، فما شعرت أطويل طريقنا أم قصير ، أفى يومنا المسير أم فى غدٍ لم يأت بعد ، أم هو فى ماض من العمر قد ولَّى وفات .

كان الطريق هو الذى يقبل إلىّ ، يأخذ بيدى ، ويرينى اتصاله بالأفق ، بالسماء ، بالأفلاك . . على جانبيه دور هادئة المأوى كصدور الحاضنات ، ويمر بنا أناس كل منهم شعاع من نور الله . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فهذا الطريق بعينه أقطعه وحدى فلا ينتهى ، المسير سخرة ، والأفق قيـد ، والسماء غطاء ، والنجوم ترمق الأرض شزراً . . الدور سجون ، والناس أطياف ذاهلة لا تدرى ما القدر ، وإن شكَتْ كفرت . . . .

* * *

ما رأيت عاملا فى ترام أو فى متجر أو فى مقهى إلا سلم عليك

سلام الترحيب والإعزاز ، فالحياة المتدفقة من روحك تمسح عن النفوس جميعها صدأ الألم والحزن ، وتنفض عن الوجوه رماد البؤس والشقاء .

وأنت ، لا تستقر نظرتك على وجه واحد ولا تتريث . . تهبين وما تقدرين أى مال تنثرين . أفأنت عمياء كأمّك الغريزة وأبيك الحظ ؟ . . .

***

السينما مزدحمة وأنت لا تعبئين بأحد . المشهد مؤثر ، والناس يبكون ، وأنت ضاحكة :

— أأبكى من خيال ؟

يا أختاه ! لا بكيت أيضاً ، ما عشتِ ، من حقيقة . .

ومن يدرى ! لعلّك قد انصرفت عنى يوم اختفائك عابثة تقولين :

— أأبكى من خيال ؟

***

نقلت إلىّ أن خالتك ، أو تلك التى تزعمين أنها خالتك ، حدثتك عنى بالأمس وقد تركتكما فى العربة :

— أهذا الذى تذكرين ؟ إنه ساذج . هو فى يدك كالعجين . فلتهنأى به .

ما آلمنى هذا الوصف ، بل رحبت به ورضيت ، صدقت نظرتك فىّ أم لم تصدق : سيّان عندى . إن الحب الذى يغمر قلبى هو كل ما أسألك عليه من أجر . فلا يهمنى تصفيق النظارة أو صفيرهم . . . .

* * *

ما أظنك أحببت أحداً أو شيئاً حُبّك الثوب الجديد . هو حب صادر من قلبك ، عائد إليه ، فأنت به قريرة العين ، سعيدة ، ناجية من سيطرة الغير . .

على لسانى دعاء :

— ألا فليذلك الحب يوماً . . .

ولكن قلبى يهمس :

— خيّب الله مُناك . . . . .

* * *

ماذا تظنين ؟ أحسبت يوم اختفائك أننى سآوى إلى عشنا فأمكث أترقب ميعادك ، فإذا مضى تشاغلت بكتاب أقرأه

ولا أفهم منه شيئاً ، ونظرت إلى الساعة مرة وتثاءبت أخرى ، حتى إذا ما تنبهت إلى مشاغلي التي أهملتها من أجلك ، هبطت الدرج سريعاً ، وانطلقت إلى الدروب والمسالك ، واختلطت بالناس . . أوَ يدور بخلدك أنني عندئذ أنسى كل شيء ؟ هيهات لخيالك ، مهما سكر وعربد ، أن يدرك ما فعلتُ ... لبثت أنتظرك ساعة ثم ليلة ، ثم يوماً ويومين ، أسبوعاً وأسبوعين ، شهراً وشهوراً . . وما زلت أنتظرك . وأنا أعلم أنك لن تعودى . ولكنى أخشى إذا أنا لم أنتظرك وشاء القدر أن تعودى أو أن ألقاك فى الطريق ، أخشى حينئذ أن تكون لهفتى على رؤيتك قد طواها النسيان وأطفأ أوارها . ولست أريد إلا أن أقابلك مشبوب العاطفة ، واله القلب ، ظامئ العين . فأنت لو تعلمين عزيزة لدىّ ، وهيهات لى أن أبتذل قدرك عندى . . فلأتحمل الألم طول الدهر خوفاً من إساءتك فى لحظة عابرة قد تأتى وقد لا تأتى . . . .

* * *

اشتريت لها الحذاء فلبسته بعض اليوم ثم خلعته :

— حذّرنى الطبيب من الكعوب العالية .

وألقته عنها ميِّتاً فى عنفوان الصبا . منعنى كرهى لهذا الحذاء السخيف الذى همَّ بأذاها من أن آسف على موته السريع ....

* * *

أيتها الفتاة الغريرة ! كيف لم يقو مكرك على ستر سذاجتك الكامنة فى نظرتك . أتكونين ساذجة قد تعلمت المكر ، أم ماكرة قد تعلمت السذاجة ؟ اكذبى ما شئت وامكرى ، فليس أحب إلى قلبى من كذبك ومكرك . . .

* * *

هذا الأثاث اشتريته على عجل من أجل عشنا . ما نقبت ولا اخترت . ظل طول رفقتنا أنانياً أبكم . لم تحيه نظرة فاحصة من عينيك . ما سمعتك راضية عنه أو ساخطة عليه . وكنتُ إذا انتظرتك وفات — كالعادة — ميعادكِ ، أتطلع إلى قطعه واحدة واحدة ، فما حنَّت يوماً وأسعفت تساؤلى بجواب . حتى إذا أشرقت شمسك تلاشى كالظلام من حياتى .

ولكن ها قد حلَّ يومك — ككل ظالم — أيها الأنانى الأبكم . الآن بعد اختفائها نطقت ، بل ما عدت تطيق السكوت . لا ينقطع تساؤلك : « أين هى ؟ » « متى تعود ؟ » !

يكاد ينشق خشبك عيوناً جائعة تتلهف على نبسة من شفتىَّ ، وتكاد تتمزق منك أذرع تتشبث بى وتستجدينى الجواب .

أيها الثرثار ! لج فى الكلام ما شئت . فأنا اليوم — ولم العجب ؟ — كما كنت أنت بالأمس — أبكم ! ولكن لاعليك أيها الوفىّ الأمين . كيف لجريح أن يعبث بجريح ؟ ليس من رباط بين القلوب أقوى من العاهة المشتركة . أنا أيضاً أيها الرفيق الكريم لا أدرى أين هى ولامتى تعود . فضم بلواك إلى بلواى لعلها بهذا عليك تهون . .

أيها الرفيق اللقيط ! لأنت عندى الآن أعز من أطهر الأبناء .

***

أيتها الفتاة الغريرة .. لم يكن لى أمل فيك ، ولا بنيت من حبك أكواخا ولا قصوراً . لا يركن إلى الأمل إلا من قصَّر يومُه فاختلس من غده .

أما أنا فقد كان حاضرى يفيض بى ويفيض عنى .

كان ! فكل ذلك قد ولّى وفات . وكأن الذى أغدق على بالأمس — غير مسئول — يتقاضانى اليوم ثمن الإسراف بالحرمان .

وكم من محروم مظلوم . . .

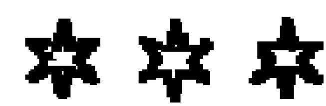
* * *

بعد أيام قلائل من لقائنا كنت قد قصصت عليك ماضىّ وكل حادثة ساقتنى إلىّ . أما أنت فقد مر الحول و بعض الحول ولست أدرى عنك شيئاً . ما هممت بسؤالك ، ولا شكا قلبى من ظمأ . فليس الغموض الذى يحوطك إلا انبهار العين من نورك الوهاج . وهل لك ماض ؟ إنك لست بنت الحوادث ، بل أنت أم الحياة ! . .

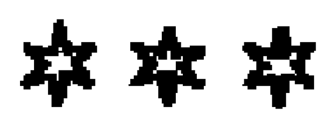
* * *

خاللتك عاما وبعض عام ، فما سمعتك تنطقين بفكرة أو تبدين رأيا . . ماتلوثت شفتاك بالحكمة ، ولا نضح لسانك بالفلسفة . . ما دلست الحوادث عليك معانى موهومة مزّيفة ليهتز لها رأسك استعباراً . . فما سمعتك تذكرين ولا تأملين . لا ماضى لك ولا مستقبل ، بل كنت فى كل لحظة كمال الحياة لتلك اللحظة . تتفجر منك الحياة كمنابع الأنهار ، لا يهمها أتبدد النهر أم اغتاله مستنقع . أتبخر هباء أم سار لغايته إلى البحر البعيد. تثب الحياة الغضة من عينيك ، تسيل على صدرك ، تتدفق من على جسدك

وأنت لا تشعرين . وكنت أنهل من معينها الصافى فأجد فيه نشوةً لم أجدها من عتيق الخمور . . . وأنت — لشقائى — لا تشعرين . فليس أكبر الألم ألا يشعر الحبيب بألمك ، بل ألا يشعر بسعادتك . . .



ما من مرة احتضنتك بين ذراعى إلا شعرت بقسوة الموت وظلمه . هذا الجسد الغض المتألق ، تتفجر منه الحياة ، يصبح يوماً أبخرة عفنة وعظاماً نخرة . .



ألبستها العاملة أمام المرآة كل ما لديها من معاطف واحداً بعد واحد ، فإذا بجمالها يطغى على التغيير والتبديل ، وتبدو لها فى كل معطف فتنة جديدة . .

وددت لو استطعت أن أشتريها لك جميعاً . .

عادت إلى المعطف الأزرق ، وجربته مرة أخرى ، ودار جسدها أمام المرآة ، وجهها ساكن ونظراتها ثابتة على توأمها . . « رفقاً بجيدك يا فتاتى ! » ثم خلعته ، وعادت إلى بقية المعاطف

فلبستها كلها واحداً بعد واحد ، ثم أشارت إلى المعطف الأزرق وقالت متراخية :

— هـذا !

وهكذا تشاء الصدف ألا يتعلق ذوقك إلا بأغلاها !

— تريثى ! إذا لم يعجبك هذا المعطف فغيره كثير . تعالَىْ أريك متاجر أخرى .

لمسته بطرف إصبعها وقالت :

— أقضى به هذا الموسم، وفى العام القادم أشترى غيره . .

كم وددت لو أنك قلت : « تشترى لى أنت غيره . . »

دعوت الله أن يقسم لى شراءه ، كما يدعو السقيم ربه أن يمن عليه بالشفاء . .

***

كنت معك فى أحضان الرذيلة من أتقى الناس ، لا تذوق شفتاى الخمر ، وما بينى و بين الله عامر . .

أما الآن ، بعد اختفائك ، فقد سكنت إلى الخمر ، لا لأنساك بل لأقوى على جر المـاضى إلى الحاضر ، لأعيش معك من جديد . فأنا اليوم سكير صالح مطرود من رحمة الله . . .



لقيتك ذات يوم ، على غير ميعاد ، فى منعطف طريق . أغلب الظن أنك تسكنين قريباً منه ، وأنك خرجت عجلى لأمر. كنت عاطلة من الزينة ، غير مسرحة الشعر ، مهملة الملابس ، على كتفيك معطف لعله معطف أخيك ، وفى يدك حقيبة لعلها حقيبة خالتك . كنت لا تشعرين بنظراتى تعانقك من بعيد وأنا واقف أتردد بين لذة اللقاء وراحة التشفى . . هذه التى أسرتنى مضاعة بين الناس لا يشعر بها أحد، ملكة نُزِعت عن عرشها ! هذا هو الطير المحلق يهبط على الأرض . أين جمال جناحيه وهو صافٌّ فى السماء ، من مهزلة اضطرابه وهو يحجل و يقفز ؟ !

ولما ذهبت إلى عشنا ، كنت أهدأ نفساً . حسبتنى أشد قوة على التخلص من سيطرتك ، ولكنك ما كدت تجتازين الباب حتى هتف قلبى : « هى والله ؟ ! » .

كونى ما شئت ، ليمسخ الإهمال صورتك ، ليقس الضنا على محياك ، بل فليشوهك الزمن الذى لا يرحم ، فأنت أنت عندى . لأنت آخر علمى وذوقى ومنتهى تجربتى . لقد كملت بك حياتى وتم وجودى ، ولن أزيد بعدك شيئاً . حتى خيانتك لم يزدد

بها علي . هي تجربة أصبحت بعدها أكثر فهماً لألم الخلق ، وأشد سخرية من ألم الخلق . فهذا العطف الذي أبذله باليمين ، تسترده سخريتي باليسار . .

* * *

ولكن صبراً ! سيأتي اليوم الذي أنساك فيه . . حين يشيب شعري وتتساقط أسناني ، وتنطفئ عيني . حين يحتضنني الفراش فلا أقوى على التخلص من ضمته ، وأستسلم إليه مضطراً وأستريح . حين أفلح أخيراً في جرّ رجليّ جراً لأبحث عن الشمس ، محدقاً في الناس ، وهم حولي ، تحديق المشنوق في جلاديه . حين لا أستطيع أن أرى شيئاً ، إذ يكون شبح الموت واقفاً أمامي أعد أنفاسه قبل أن يعد هو أنفاسي . .

عندئذ سأنساك ! فليس أقوى من ذكراك عندي سوى الموت . . .

ولكن ألا من يخبرني عندئذ كيف أمسيت ؟ وكيف مرّت عليك السنون ؟ . . .

* * *

هذه المخلوفات المنتشرة فى الطرق ، هاربة من الدور تارة ، هاربة إليها تارة أخرى . .

هذه الحثالة المتوسدة أرصفة المسالك . .

هؤلاء الباعة الجوالون فى الزحام، بعيدين بأنفسهم عن الزحام كالأرواح الضالة . .

كلهم ينطق بالقدم والدوام . ما حاول جيل منهم محل جيل إلا كالثعبان يبدل جلداً بجلد . . .

هكذا كنت أراهم .. أما بعدك فهم لدىّ الآن سيّاح يهبطون بلداً غريباً . وجوههم بلهاء فى جهلها ، نظرتهم تائهة لا تستقر ، ولا تقوى أرواحهم المهاجرة أن تقول عن شىء : « هذا لى ! »

كل هذا لأنهم لم يسعدوا يا حبيبتى برؤيتك . . . .

* * *

عندما كنت أخرج معك فى هدأة الليل ، كنت أشعر أننا وحدنا فى هذا العالم ! تناستنا الأفلاك والنجوم . نسينا الليل ، نسينا الناس .

وكان فى نسياننا أكبر اللذة والسعادة .

أما اليوم ، بعد اختفائك ، فأسير والأفلاك والنجوم لم تتغير ،

والليل مغمض الطرف ، والناس هم هم . .
فأجد فى نسيانها أكبر الألم والعذاب . . .

٭ ٭ ٭

ألف ألف فتاة مثلك عاشت فلمعت عيناها لمعان عينيك ، وافترت شفتاها عن مثل بارق ثغرك ، ثم طواهن الموت واندثرن في التراب . قبلة واحدة منك لى كانت تكفى لبعث هؤلاء الموتى الجائعات للحب بعد طول الرقاد . . فى قبلتك لهيب ألف ألف ثغر ظامئ . . أصبحت من أجلك أحب الموتى مثل حبى للأحياء . .

٭ ٭ ٭

وأغرب ما أعجب له أننى لا أسأل عن سبب اختفائك . وهل يستطيع من عاش معك معدوم المنطق أن يعود فيتفهم العلل والأسباب ؟ سأسأل عن السبب حينما يهدأ قلبى . . إذاً فلن أسأل ما حييت . و إذا مات العالم معتزاً بعلمه — فسأموت أنا معتزاً بجهلى . . .

٭ ٭ ٭

قرأت بحثاً كتبه شيخ من شيوخ الدين يعتمد فيه على

المنطق العقلى ليثبت أن الإنسان مسيَّر لا مخيّر . . فما اقتنعت وما فهمت أوله من آخره . .

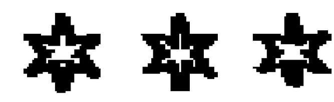
وتجيئين أنت ، أيتها الفتاة الغريرة ، فتكفينى نظرة واحدة من عينيك لأومن بالقدر وبالجبر . . لأننى ألغيت معك منطقى وعقلى ، وقنعت بالروح فآمنت .

* * *

لجأت إلى الكتب المقدسة الطاهرة أستنبئها : أيجيب الرحمن دعوة العاصى ؟ فإنى أريد إذا ما وقفت بين يدى الديّان أن أسأله، قبل أن يغفر لى ذنوبى ، أن يغفر لك ذنبك . .

* * *

العالم مضطرب ، والمدافع تقصف ، والدماء تسيل . الدور تخربت ، والنساء ترملت ، والأرض أمنا العجوز فى اللهيب ... فماذا يكون شقائى باختفائك مع كل هذه الآلام ؟ . . أأصرخ : ليخرب العالم ما دمت أنا غير سعيد ؟ لا ، وألف مرة لا ، بل أدعو الله أن يعيد السلام حتى تنعمى يا حبيبتى أنى كنت بشبابك فى ظلاله ، وإن حرمنى هذا السلام لذتى الأخيرة . . لذة التشفى !



فى المساء أقول : الفرار الفرار يا نفس . عبثاً حاولت الاستقرار والاطمئنان للخلوّ والعدم . من يلومك بعد أن ذقت معها طعم الوجود ؟ عودى . ارجعى أيتها النفس الفطيم إلى ظلامك وأوهامك، فلست والله تدرين بعد اليوم إذ تطوف بك أشباح السعادة : أهى ذكريات الماضى أم آمال المستقبل ؟

وفى الصباح أنتفض على بسمة الفجر ونشوة الطير — أسمعها تقول : « أنت يا هــذا الذى سعدت بالحب . قم ! إنما العيد لك ! » مهلا أيها الطير ! إنك تعيش ملء لحظتك للحظتك ، بيد أن نفسى تتوقع عند الصباح قدوم المساء . . .



ودعت القاهرة عهد السلام، فأطفأت أنوارها ، وفاضت كالقدح أترعته يد مرتعشة لسكير زائغ البصر . . واكتظت طرقاتها بأغراب ومهاجرين ونازحين من ملل ونحل شتى ، فلم يبق موضع لقدم فى ترام أو فى سيارة، أو فى ملهى . رأيت الكثيرين فى هذا الزحام كالأسرى ، على وجوههم علامات التأفف والكرب والاختناق ، يودون الخلاص . فلا شىء يضيق به الإنسان

ضيقه بقرب أخيه الإنسان .. أما أنتِ فكنتِ فى الزحام كالسمكة فى الماء ، تطبق عليك الجموع ثم تنكشف وتطبق وأنت ناعمة البال قريرة العين ، بل كنت أجمل ما تكونين وأنت رافعة الرأس فى الزحام ، تتلاطم أمواج البشر حول منارتك . ما سمعتك تشتكين أو تتأففين . . ما زاد تلفتك ولا ضجرت نظرتك ؛ بل كنت مرحة كأنك فى مهرجان . . وكما رأيتك سعيدة بالحياة رأيت الحياة سعيدة بك . .

***

يوم أن خرجنا من متجر الأزياء قبيــل الغروب وأنت تقولين :

— . . . أعجبنى الثوب لولا أزراره . .

وهنا دوت صفارة الإنذار ، وهاج الخلق وماج . هل تذكرين كيف رأينا لابسى الجلاليب والحفاة هازئين ، والموسرين هاربين ؟ ! رأينا شبانا فى شرخ الصبا غير عابئين ، وشيوخا على حافة القبر زايلهم كساحهم فهم يجرون إلى المخابىء نشطين..

وقفتِ مكانك وتلفتِ يمنة و يسرة ثم قلت :

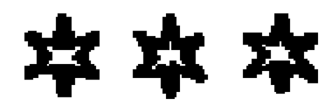
— أنا خائفة !

أخذتك إلى أول بناء لقيناه ، وجلسنا مع بوابه النوبى كأن ثلاثتنا من أسرة واحدة لم تفترق طول الحياة . .

ولما ضجت السماء بأزيز الطائرات ، واشتعلت بلهيب المدافع وانفجار القنابل .. ولما اهتزت النوافذ والأبواب، وعلا الصراخ ، امتقع لونك ، وعرقت يدك ، وطال صمتك . .

ثم هتفت الصفارة بالأمان ، فقمت واقفة ، ووضعت ذراعك فى ذراعى وخرجنا ، وكان أول حديثك :

— . . . لأن طرف الزرّ الأوسط على الكم اليمين شبه مخدوش . . .



تنقلت بعدك بين نساء كثيرات . لم أزد مع كل منهن عن لقاء واحد ، وفيهن من هى أجمل منك وأشدّ سحراً ، ثم أفر ولا أعود . لماذا ؟ أللحسرة ؟ لا . فأنا أعلم أن اختفاءك قد أذابك فى يمّ الحياة وهيهات أن تعودى، ولو عدت لعدت غير ما كنت.. أللغيرة . هل تخشى روحى أن تكون كل امرأة جديدة بين ذراعى رجلاً جديداً أنت إذ ذاك بين ذراعيه . قد يكون هذا ، ولكن هل لى أن أصارحك أننى أفرّ ضناً بنفسى على غيرك ؟ فهذا

الذى تحسبينه فىّ انمحاءً هو غاية الكبرياء والاعتزاز .. هو الحبّ !

* * *

أحببت قبلك اثنتين : واحدة ثم أخرى . كم أقسمت صادقاً بين أيديهما أحرّ الأيمان على الوفاء والإخلاص حتى الموت . . ثم افترقنا . . وهدأتُ . . ولم أعد أذكر شيئاً . . غير أنى كنت فى غيبوبة النشوة أنادى الأولى بين ذراعى الثانية ، وكم فاجأتُ شفتى تتمتمان باسم دفين وأنت بين ذراعى لا تشعرين . . فهل الذى جرى عليهما سيجرى عليك أنت أيضاً ؟ إن الزمن يلح على بالخلاص فأعصيه ، والمنطق يسخر منى فأسخر منه ، والحياة تتشبث بتلابيبى فأتملص من قبضتها وأفر . ولكن هل أقوى على مغالبة كل هؤلاء الخصوم مجتمعين ؟ سأنساك ! سأنساك ! ولكن هيهات لى أن أنسى أننى نسيتك . . .

* * *

الآن بعد اختفائك ، أقول وأنا وَجِل : هل أحببتها لأنها ذكرتنى بمن مضى ؟ أفى نظرتك أم فى صوتك أم فى سذاجتك لقيت من خلت أنى دفنته ؟ ولكن لا ! ما فات مات . مات إلى الأبد . ولم نخدع أنفسنا ؟ الذكرى إنما تجر من القبر هيكلا

نخراً بالياً فى لون أغبر وكفن حائل، أجوفَ قد نزع منه الكلام. يومىء فلا نفهم ، ونُشير فلا يفطن . عَدَمٌ متحجر ، قائم ونحن نضطرب وندور فلا نعرف إقباله من إدباره . إن بصيصاً من نور خافت ينبعث من حىّ ، كاسفٌ جميع الشموس الغاربة ! الآن أومن أننى أحببت مَنْ سبقك لأنهما كانتا تشبهانك أنت ...

* * *

يا رب ! يا أرحم الراحمين ، وسعت رحمتك حنق المهزومين ، وثورة المحرومين وقد تاهوا فى ملكوتك . ما أجهلهم وإن كانوا مؤمنين !

ووسعت رحمتك من أضلته بصيرته ، فجحد ، وأنكر ، وكفر كفر الأعمى بالنور . . .

ووسعت رحمتك من ركبه الجهل، وساقته الحماقة فتعالى وأبى السجود آنفاً من أن يرسف فيما توهم من قيود .

بل وسعت رحمتك من أغدقت عليه من نعمائك ، فجدف وتمرّد . . .

لا أقول لك مثل قولهم : لماذا خلقت الشر ؟ لماذا برأت الرذيلة ؟ ولكنى أسألك يا إلهى لماذا جعلت الحق على النفس

ثقيلا ، والباطل هيناً . لماذا خلقت الفضيلة مملة والرذيلة فاتنة ؟ لماذا خلقت الحب روحا هائمة لا تخضع لعرف أو لقانون : طيراً لا يحط إلا ليحوِّم ؟ يفزِّعه الأمن والسلم والدوام ، والحياة عنده وجد ووله وهيام .

لا يستقر ولا يهدأ ، لا تزيده العبرة إلا استهتاراً ، ولا النصيحة إلا عناداً . . لم جعلت السعادة سرابا ، والوفاء محالا ، والنيات مقعدة ، والنسيان عدَّاء ؟

أنت مطلع على الضمائر والقلوب ، فاعف اللهم عمن تثاقلت قدماه فى الطريق السوى فلم يقو على اللحاق بالقافلة تتفصَّد عرقاً ومللا . . . وانحرف إلى البيداء ضالا يناجى النجوم ، وكل زاده نجواه لنفسه :

— ما ظنك بالله العلى القدير ، الرؤوف الكريم !

* * *

أجوس بعدك خلال القاهرة فأعود من أحيائها الأوربية بقلب فاتر كليل ، وأثر بين المرّ والحلو ، كفقير يرتد عن زيارة ابنه الغنى العاقّ وإن عزّ على قلب أبيه . . . يضيع منى شبحك

فى الأوبرا وجروبى ، وبين شبرد والكونتننتال ، فإذا قادتنى قدماى إلى سيدنا الحسين ، ومررت تحت البوابات الهرمة ، ووقفت أمام الجوامع العتيقة ، هصر الشوق قلبى هصرا . .

فأنت عندى هذا التاريخ . . .

وإذا ما فاض بى الحنين إليك أبكر إلى قصر النيل مترقباً جموع الفلاحات قادمات من الريف ، على رءوسهن سلل الخضر ، ثيابهن سود ، على أرجلهن الطين ، معتدلات القوام ، فى وجوههن المجهدة عيون صابرة . لا ينقطع تدافعهن ، ولا تنقضى ثرثرتهن . . عندئذ ألقاك ... فأنت عندى هذا الوطن ....

ويغلبنى الوله على أمرى يوم «طلوع القرافة» ، حين أتتبع بنظرى عربات الفلاحين البطيئة تحمل الأسرة كلها رجالا ونساء ، شيوخاً وأطفالا ، أمامهم « السحارة » المنحدرة من قبور الفراعنة ، يهجرون مدينة الأحياء ليستقبلوا العيد فى مدينة الأموات .

فأنت عندى هذا العيد !

* * *

الآن أذكر ، والآن فهمت . .

فى صباح اليوم الذى اختفيت فيه ، كنت أجول فى خان الخليلى ،

فنادتنى من سجنها الزجاجىّ مسبحة جميلة وأشارت إلىّ أنْ خذنى معك .

تناولتها بود ، وانعقدت بيننا منذ اللمسة الأولى أواصر صداقة وثقت أنها ستدوم ، تساقط حباتِها كقطرات الماء على الغدير ، حديثها الخافت إلىّ : عن الألفة بين القلوب فى عالم الوحدة ، عن الطمأنينة فى اللقاء المقسوم وإن طال الغياب ، عن الوجل من الفراق المحتوم رغم اللقاء . .

عدت بها إلى عشنا ، فلم أكد أدخله حتى انقطع من حيث لا أدرى خيطها وتناثرت حباتها . أهو نذير أم شيطان يغار ؟ جثوت على الأرض، وجمعت حباتها، وعددتها فإذا ها تنقص حبةّ. دسست يدى ، ونبشت بأظافرى تحت المقاعد والسجاد ، ولكن عبثاً ! فحزنت وأسفت .

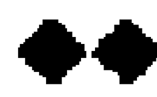
قد تسألين : أ كُلّ هذا العناء من أجل حبة واحدة صغيرة ، وفى يدك منها عشرات ؟

فأجيبك : هكذا مسبحتى ! لا يحيا جمالها إلا بهذه الحبة الواحدة الصغيرة . . التائهة !

# اقرأ

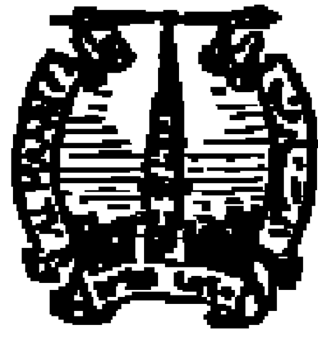
## المؤلفات التي ظهرت في السنة الثانية لهذه السلسلة

| | | | |
|---|---|---|---|
| ١٣ | جميل بثينة | (أدب) | للاستاذ عباس محمود العقاد |
| ١٤ | من يوميات فتاة عصرية | (قصة) | للاستاذ حسين شوقي |
| ١٥ | بايرون | (ترجمة) | للسيدة أمينة السعيد |
| ١٦ | دمشق | (تاريخ) | للاستاذ محمد كرد علي |
| ١٧ | شكسبير | (أدب) | للاستاذ محمد فريد أبو حديد والأستاذ زكي نجيب محمود والأستاذ أحمد خاكي |
| ١٨ | قنديل أم هاشم | (قصة) | للاستاذ يحيي حقي |



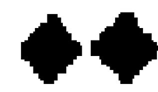

تصدرها

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



# ظهر حديثا

| ص | | |
|---|---|---|
| ٢٠ | انصاف عثمان | للمرحوم أحمد محمد جاد المولى بك |
| ٢٥ | الأغذية | للاستاذ حسن عبد السلام |
| ٤٠ | تبسيط اللاسلكي (طبعة ثالثة) | للاستاذ محمد عاطف البرقوقي |
| ٢٠ | سيد العزبة (قصة امرأة خاطئة) | للآنسة بنت الشاطئ |
| ٢٠ | حيرات | للأميرة شيوه كار |
| ٢٥ | بايرون | للاستاذ أحمد الصاوى محمد |
| ١٥ | كما تهواه — لشيكسبير | تعريب محمد عوض ابراهيم بك |
| ١٢٥ | حافظ الشيرازى | للدكتور ابراهيم أمين الشواربى |
| ٥٠ | القاهرة — الجزء الثانى | للاستاذ فؤاد فرج |

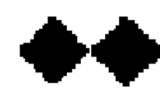


ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

# سلسلة من القصص الراقية والأدب الرفيع

| ص | | |
|---|---|---|
| ١٥ | دعاء الكروان | للدكتور طه حسين بك |
| ١٨ | الحب الضائع | » » » » |
| ١٨ | لحظات ( جزء ثان ) | » » » » |
| ١٨ | صوت باريس » » | » » » » |
| ٢٠ | حيرات | للأميرة شيوه كار |
| ٢٥ | الخطايا السبع | للاستاذ على أدهم |
| ٢٠ | تلاقى الأكفاء | » » » |
| ٢٠ | ألوان من الحب | للاستاذ عبد الرحمن صدقى |
| ٢٠ | بنت الشيطان | للاستاذ محمود تيمور |
| ٢٠ | الموجة العذراء | للاستاذ أحمد الصاوى محمد |
| ٢٠ | حياة قلب | » » » » |
| ٥٠ | رجال ونساء ( جزءان ) | » » » » |
| ٢٠ | شباب الفولجا | » » » » |
| ٢٠ | العاصية | » » » » |
| ١٨ | أوراق الخريف | للسيدة أمينة السعيد |
| ٢٥ | ابراهيم الثانى | للاستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى |

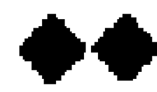


ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

## سلسلة من التراجم والدراسات

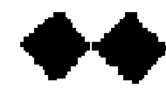
| ص | | |
|---|---|---|
| ٦٠ | الملك فؤاد | للاستاذ كريم ثابت |
| ٣٠ | روزفلت | للاستاذ فؤاد صروف |
| ٢٥ | عبقرية الصديق | للاستاذ عباس محمود العقاد |
| ٢٥ | عبقرية الامام | » » » » |
| ٢٥ | الصديقة بنت الصديق | » » » » |
| ٢٥ | الملك الضليل ( امرؤ القيس ) | للاستاذ محمد فريد أبو حديد |
| ٢٥ | بلزاك | للاستاذ احمد الصاوى محمد |
| ٢٥ | شيللى | » » » » |
| ٢٥ | بايرون | » » » » |



ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

# سلسلة من المؤلفات العلمية

| ص | | |
|---|---|---|
| ٢٥ | الأغذية | للاستاذ حسن عبد السلام |
| ٢٥ | ذخيرة العطار | » » » » |
| ١٥ | الصناعات الكيمائية فى مصر | » » » » |
| ٢٠ | العلم فى الحرب | للاستاذ أمين ابراهيم كحيل |
| ١٢ | الغارات الجويه والغازات الحربية | للاستاذ محمد محمد فياض |
| ٤٠ | تبسيط اللاسلكى | للاستاذ محمد عاطف البرقوقى |
| ٧ | المهندس الصغير | » » » » |
| ٥ | النقل البرى للاطفال | » » » » |
| ٥ | النقل البحرى للاطفال | » » » » |



ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

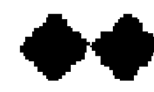
# سلسلة المـــــدن المصرية

بقلم الأستاذ

فؤاد فرج المهندس بالبلديات

| | الثمن |
|---|---|
| | ص |
| ١) الاسكندرية | ١٨ |
| ٢) بور سعيد ٣) السويس ٤) الاسماعيلية ٥) شبه جزيرة سينا — في مجلد واحد عنوانه : منطقة قنال السويس ومدن القنال | ٥٠ |
| ٦) القاهرة — الجزء الأول | ٥٠ |
| ٧) القاهرة — الجزء الثاني | ٥٠ |

مجموعة فنية تاريخية . مئات الصور والخرائط النادرة . تحف جميلة تزدان بها المكتبة العربية . آثار خالدة تعتز بها القومية الوطنية



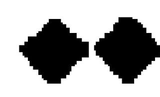
ملتزم الطبع والنشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

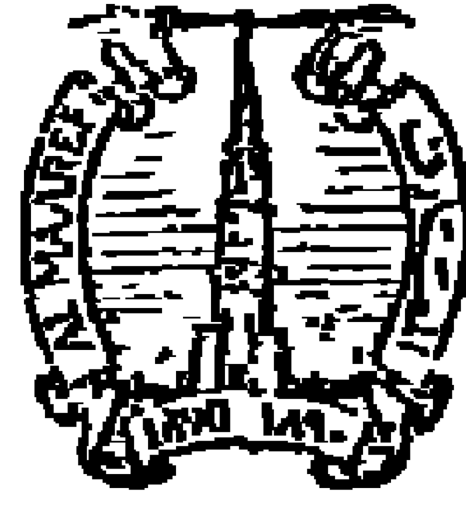
# مكتبة الأطفال

## بقلم الأستاذ كامل كيلانى

مجموعة نفيسة نادرة تحتوى على أكثر من أربعين كتاباً مصوراً ، مطبوعة طبعاً أنيقاً ، شهد لها رجال التربية والتعليم بأنها « تحبب القراءة إلى كل ناشىء »



ملتزم الطبع والنشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر



رمز

الطباعة الأنيقة

والمؤلفات القيّمة

التى تمتاز على الدوام

باستحسان جمهور القراء

فى جميع الأقطار العربية

اقرأ

علي الجارم

# سيدة القصور

آخر أيام الفاطميين بمصر

دار المعارف بمصر

٥

# سيدة القصور

## آخر أيام الفاطميين بمصر

علي الجارم

# سيدة القصور

## آخر أيام الفاطميين بمصر

تبسّم دهــرها حيناً ولمّا ... تقلّب خان «سيّدة القصور»
تبدّد مجدها كالطيف لكن ... أراه مجسّماً بين السّطور

بدر الدين علي الجارم

اقرأ ١٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ١٩ — الطبعة الثالثة

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م

# ١

كان النهار فى صولة شبابه . وكانت الشمس تبعث بأشعتها وهاجة ملتهبة تكاد تشوى الوجوه ، وكان الجو على حرارته كثير الرطوبة والندى المتصاعد من البحر ، وكأن النسيم الذى أكثر الشعراء من ادعاء أنه عليل ، قد طالت علته فقضى نحبه ، فلا تسمع له جرّة ذيل ولا همسة أنين .

وقد أضنى الناس بمدينة عَدَنَ هذا الوَمَدُ ، وهزل أجسامهم القيظ بعد أن توالت عليهم شهور الصيف شديدة لوّاحة ، كأنما كانت تتنافس فى مسّهم بشُواظها ، فلا يجىء شهر إلا وهو أشد وأنكى من صاحبه .

وظن أهل المدينة أن العُرْى يخفف عنهم بعض ويلات الحر ، فتسلّبوا من الملابس إلا أُزُراً قصيرة يشدونها إلى أوساطهم ولو علموا لصانوا أجسامهم من هذا السعير اللافح ، الذى كساهم ثوباً لماعاً من العرق ، كلما تساقط نسجت لهم الشمس به ثوباً جديداً ، وكلما مسحوه بأيديهم سال نبعه وتقاطر ، حتى كأن

كل رجل أضبح إنبيقاً يتحول كل ما فيه ماء بالتصعيد والتقطير

خلت طرق المدينة من السّابلة إلاّ من دعته شدة الحاجة إلى المسير . وفزِع المتعطلون إلى الظل والنّجائر يتقون بها شدّة الهاجرة ، أما الأغنياء والموسرون : فلبسوا البيوت وزرّروا الأبواب ، والتجأوا إلى سراديب عميقة فى الأرض ، ينفُذ إليها الهواء من بناء اسطوانىّ كالداخنة ، يشق طبقات الدار ، وتنفذ فوّهته إلى سطحها . وكان علىّ بن مهدىّ — وهو من دعاة الفاطميين وكبار رجالهم — فى داره فى هذا اليوم ، ومعه جماعة من الأدباء والعلماء ، بينهم أبو كاظم الحرّانىّ ، والفقيه أبو الحسن النّيلىّ ، وأسامة الحضرمىّ . وكانت الدار على سِيف البحر ، فخمة شاهقة البناء ، تدل على عظمة صاحبها واتّساع جاهه ، وقد أسرع العبيد فبلّوا دهاليز السرداب بالماء ، حتى بدت فيها بحيرات صغيرة هنا وهناك .

وجلس ابن مهدىّ وأضيافه فى حجرة كان أثاثها غاية فى الحسن وجمال التنسيق ، وقد كسيت فيها الأرائك بالحرير الصّنعانىّ ، واختيرت الستور من الخز التِنّيسىّ ، وفرشت الأرض بالبسط الهنديّة ، ودلّ كل شىء فيها على ذوق سليم وبذَخ

وإسراف ، وقد وقف فى نهاية الحجرة أربعة عبيد ، يُمسكون بحبال مِروحة مستطيلة ، عملت من القطيفة الغليظة النسيج ، وعُلّقت بسقف الحجرة على طول امتداده . فهم لا يفتأون يجذبون الحبال ويُرخونها ، والمِروحة تتحرك إلى الأمام والخلف ، أملاً فى أن تجود على من بالحجرة بنفَس من نسيم .

بدأ ابن مهدى فقال : هذا يوم لم ترَ عدن له مثيلا ، وستصبح سنة تسع وأربعين وخمسمائة ذكرى خالدة لأهلها يوقّتون بها ويؤرخون .

فقال الحرّانىّ — وكان فكِها — : سيقولون زار الحرّانى عدن سنة الحرّ . فعاجله النّيلىّ ، وقال : وسيقولون سُرق خُرج النّيلىّ سنة الحر . فضحك القوم ، والتفت إليه ابن مهدىّ وقال : أسرق منك خرج حقّا ؟ ؟

— لا أدرى . . . أسرق ؟ ! . . . أم أبتلعته الأرض؟!... أم تخطّفته السماء ؟!... وصلت القافلة من زَبيد عند باب المدينة الذى يسمونه هنا ( باب الصّدقات ) ، أو هو باب السرقات على الأرجح ، وحُطّ رحلى ووضع ما عليه من متاع وأثقال ، وأنا أنظر إليه لا تكاد عينى تذهب عنه . وكان الخرج بين المتاع ، وقد ازدحم حول السفّار جماعات من الحمّالين

والمجتدين وبينهم امرأة هزيلة شاحبة فى أسمال — أو فيما كانت أسمالا — لا تكاد تستر جسمها . وكان وجهها يحكى وهو صامت ، حكاية مؤلمة للسّغب والفاقة ومرارة الحاجة، وقد حملت بين يديها طفلا أو جُعَلاً ، تركه الجوع عظاماً فى جلد ، أو جلداً على عظام . وأخذت تمد ذراعيها به فى وجهى ، فراعنى سوء حالهما ، وبحثت فى جيبى عن درهم أمسك به رمقهما . وما كدت أمدّ يدى به إليهما وأعود بعينى إلى أمتعتى ، حتى وجدت مكان الخرج خالياً ! !

فقال الحرّانىّ : هذه هى اللعبة يا سيدى التى لم تدرسها فى الكتب ، ولم تجد لها مثيلا فى كتاب الحيل الفقهية للخصّاف .

وكأنما كان أبو نواس اللّئيم يشير إليك بسبابته حين يقول :

فقل لمن يدّعى فى العلم فلسفة حفظت شيئاً وغابت عنك أشياءُ

هذه المرأة يامولانا تعمل مع اللصوص والشّطّار . وهى آلتهم التى بها يصلون إلى غاياتهم . هى الطعم الذى يقذفون به إلى السّمك لاصطياده، هى الحبّ الذى ينثر حول الفخّ ليقع عليه الطائر الغِرّ، هى البؤس المزوّق الذى جاء يستلب مالك اضطراراً لماعجز البؤس المحقّق عن أخذه منك اختياراً . هذه المرأة وأمثالها

يرسلها العيَّارون إلى من ينكب بهم، ليثير منظرها المؤلم نفسه، فيصرفه عن النظر إلى ما حوله ، وقد يكون مقدار ذهوله لحظة أو دونها ، وهذه اللُّحيظة كافية لأن يسلبوه ما يشاءون .

فقال النيليّ — وقد ظهرت فى وجهه آلام من يشعر بالتّفريط ، أو من يتوقع أنه سيوصم بالغفلة والبلاهة — حقًّا إنهم شياطين ! !

وهنا سأله ابن مهدىّ فى شىء من الاستنكار : ألم تذهب إلى والى المدينة وتقص عليه قصتك ؟ ! فلعله يجد سبيلا إلى الوصول إلى ما سرق منك ! !

— ذهبت إلى داره ، وهى تقع فى محلة الحدّادين إلى الجانب الشرقىّ من المدينة ، فوصلت إليها بعد لأى وجهد ، فلما طرقت الباب خرج لى أحد غلمانه ، فلما سألته عنه ، قال : إنه مريض منذ يومين ، أكل لحم جزور زَهِمة فأصيب بالزُّحار.

فسألته عن وكيله ، وأين مكانه ؟ فقال : إنه أعرس بالأمس ، وإنه نازل عند أصهاره « بذى جِبْلَةَ » وإن المسافة بين عدن وبينها سبعة عشر فرسخا . فحوقلت ورجّعت ، وقلت ضاع خرجك يا أبا الحسن بين معاناة الزُّحار ومناغاة الأبكار ! !

فضحك القوم ، وأغرقوا فى الضحك ، ثم قال ابن مهدىّ

فى مواربة ودهاء : خلّ عن المزاح الآن أبا الحسن . . . كيف حال الدعوة الفاطمية بزبيد ؟ ؟ . . . لقد جاءت رسالة من الخليفة الفائز إلى محمد بن سبأ ، ينعَى عليه فيها التّهاون فى نشر الدعوة ، ويستحثه على أخذ كل من نكل عنها بالبطش وقوة السلطان .

فأجاب الحرّانىّ : إن الدعوة الفاطمية بزبيد على خير ما يُتمنى لها من القوة والانتشار ، فإن الملك فاتكاً لا يفتأ ناشراً لها ، عاملا على بثّها فى كل نفس . ونائبَ داعى الدعاة هناك ونقباءه ونوّابه ، لا يتركون سنّياً حتى يضموه إلى حظيرتهم ، فقال ابن مهدىّ : ذاك كلام أبا كاظم ، فإن ما لدينا من الأخبار يَجُبّه ما تقول . ولعل حبّك لفاتك هو الذى دفعك إلى الذود عنه !

فأسرع الحرّانىّ قائلاً : لقد صدقتك يا سيدى . وإذا كان لابد من الحق الصّريح الذى لا يخالطه استثناء ، فإننى أؤكد لك واثقاً أن زبيد كلها فاطمية ، إلا أسرة زيدان ، وأسرة المثيب ، وهما أعمام عُمارةِ بن زيدان وأخواله .

فانبرى له الحضرمى — وكان صديق عمارة الوفىّ — قائلا : ما لك أبا كاظم وعُمارة ؟ ! إنك فى النيل منه والكيد له جدٌّ

متّهم . . . وإن كنت لا أعرف أسباب نقمتك منه وحقدك عليه ؟ !

وهنا صاح ابن مهديّ — وقد رأى الشر يتصاعد شرره :

— مه أيها الإخوان . . . فإننا اجتمعنا للمحادثة والمحاضرة ، لا للتنابذ والمهاترة . . . أعلمتم أن عمارة بن زيدان ، قدم منذ أيام وافداً على محمد بن سبأ صاحب عدن ؟ أتعرفون سبب هذه الوفادة ؟ فأسرع الحرّانيّ قائلا : إنه قنّاص سديد الرماية ، فلعله اشتم هنا رائحة صيد جديد . ثم قال النيلى : إن عُمارة اليوم يا سيدى غيره بالأمس ، فقد كنا نعرفه بالمدرسة العصامية بزبيد فقيراً مملقاً ، يعيش عيشة طلاّب العلم فى عسر وشقاء . ولكنه بعد أن اتصل بأمير زبيد ومدحه ، أغدق عليه ، فأصبح صاحب الحول والطول ، وصار موضع الشّفاعات وقاضى الحاجات . ثم إنه تاجرَ فراجت تجارته ، وسارت سفنه بين زبيد وعدن وجُدة ، لا تكاد تنقطع فى ليل أو نهار . حتى لقد قال له يوماً أبو عبد الله الحفائلى — وهو رأس العلم والأدب بزبيد — : تِهْ علينا أبا محمد ، فقد أصبحت ولا مثل لك فى الجاه والعلم والثراء ! وليته بعد أن أسبغ الله عليه هذه النعمة الطارئة ،

شكر الله عليها بقليل من التواضع ، أو أدّى زكاتها بشيء من اللطف والمجاملة ! ولكنه صلف متكبر مغرور — وإن كره الحضرمي . فأسرع الحضرمي وقال : كفى كفى أبا الحسن . لقد أكلتم لحم أخيكم ميْتاً . ومزقتم من الرجل وهو غائب ما تخرّس دونه ألسنتكم وهو حاضر . إن عُمارة لم يكن دعِيّاً في جاهه . ولم يكن محدَثاً في نعمته : إنّ عمّه على بن زيدان أكرم من نثر مالاً ، وأشجع من جرّد سيفاً . وخاله محمد بن المثيب أشرف قومه ، وسيد قبيلته . ولولا الجدب المحرق الذى أصاب « مرْطان » سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، فأهلك الحرث والنسل — ما احتاج عمارة إلى السعى فى الرزق ، والتنقل فى طلب المال ، وما سمعنا مثل أبى الحسن النيليّ يلمزه اليوم بأن نعمته طارئة وثروته محدَثة.

فقال ابن مهدىّ : إن عمارة رجل يجمع كلّ صفات الرجولة ، وقد حادثته بالأمس فى دار ابن سبأ ، فرأيت فيه علماً وأدباً ودهاء. والذى قرأته فى وجهه ، واستنبطته من خلال حديثه : أنه رجل عظيم الآمال ، كبير النفس ، طموح بعيد المدى . وهو يذكرنى بالمتنبي شاعر كافور ، وأرجو ألا تكون له مثل خاتمته .

ثم مُدّت مائدة الطعام ، وقام الغلمان بالخدمة ، وقدمت

الألوان الشهية ، وأنواع التوابل الهندية . فأكل القوم وشربوا ، وهم يتنادرون ويتسامرون . ثم استراح الضيوف بعد الأكل قليلا ، حتى إذا قاربت الشمس المغيب ، ودّعوا ربّ المثوى وانصرفوا .

٢

خرج الحرانىّ والنيلىّ والحقد يأكل قلبيهما ، لما سمعاه من إطراء ابن مهدىّ صفات عمارة . وهما يعلمان ما لابن مهدىّ من عظيم التأثير والكلمة المسموعة عند محمد بن سبأ ، وأنه إذا ظفر عمارة بمودّتهما ، بعد أن فاز عند أمير زبيد بعظيم المكانة لم يأمنا شرّه .

وأسفا على أن طعناه ونالا منه أمام صديقه الحضرمى ، الذى سينقل إليه صورة ما دار بالمجلس كاملة وافية ، إن لم يزد عليها كثيراً من ألوان التحسين والترويق .

بدأ الحرّانىّ الحديث قائلا : ما العمل أبا الحسن ؟! فقد زلق لسانى وتجاوزت حدّ الحزم فى ثلب عمارة ، وتمزيق عرضه ؟؟

إن عمارة اللئيم الداهية ، استطاع أن يحافظ على مذهبه السنّىّ ، وأن يجتذب هؤلاء الفاطميّين من ناحية ، ورؤساء زبيد

من ناحية أخرى . حقاً إن أمر هذا الرجل لعجيب ! إن له فى التأثير فى الكبراء ما يشبه السحر ، حتى كأنه بقوة روحه أنسى دعاة الفاطميّة التشدد فى إلزامه مذهبهم . وكأنهم يرونه خلقاً عظيما فوق المذاهب والعقائد ؟

إنه يمدح الفاطميين ، ويمدح السّنيّين بشعره ، ولو رأى مجوسياً لمدحه . وإذا خاطبه الناس فى هذا ولاموه قال : إن تجارة السلع علمته التجارة فى الشعر ، وإنه ينسج من قصائده أثواباً مختلفة الأثمان ، متنوعة الطول والقصر ، يبيعها لكل من تقدم لشرائها . وإنه لم ير فى حياته بزّازاً امتنع عن أن يبيع لوثنىّ أو رافضىّ . ويظهر أنه بهذه الطريقة نجا بمذهبه السنىّ .

ــ هو فى الحق شديد الحرص عليه ، وهو فى الحق يمتاز علينا فى هذا ، فإننا أظهرنا التمسك بالمذهب الفاطمىّ عند أول تهديد من داعى الدّعاة .

ــ هوّن عليك أبا الحسن ، فإن قليلاً من الرياء فى هذه الدنيا ليس بالأمر الجلل . وهو سلاح خلقه الله فينا نتقى به الخطر ، كما خلق الدّرقة فى السُّلَحْفاة، والقدرة على التلون فى الحرباء . ولو أن سائلاً سألنى عن منفعة اللغة ، لأجبته بأن

أعظم فوائدها : أنها لا تعبر عمّا فى الضمير ! ! وهؤلاء السادة الذين تراهم ، وهؤلاء العلماء ، وهؤلاء الأثرياء ، لن يستطيعوا العيش بلا رياء .

إنّ الأطفال فى هذا الزمان يراءون ! ولست أدرى أكان أكثم بن صيفىّ يدعو إلى الصدق ، أم كان يدعو إلى الكذب حين قال : إن قول الحقّ لم يدع لى صديقاً .

ـ صدقت ! ! لو أن كل إنسان قال ما يجول بنفسه بشأن من يعرف من الناس ومن لايعرف ـ لفتك به الناس ... تخيّل أبا كاظم أننى وثبت اليوم على ابن مهدىّ مضيفنا ، وأخذت بتلابيبه وصحت : إنك ثقيل وربِّ الكعبة ! ! إن كبرك لا يحتمل ! ! إن تعاقلك وزهوك وتكلمك من أطراف أنفك فوق طاقتى ! ! اعزُب عن وجهى إنك سمج دنىء ! !

تخيّل أنى فعلت هذا ، ثم تخيّل ماذا يكون .

وهذا الشيخ الذى تراه الآن راكباً بغلته ، وخلفه عشرة عبيد يلهثون من التعب ، وهو ينظر فى الناس يميناً وشمالاً فى بلاهة وعجب كأنه يريد أن يصيح فيهم : « انظرونى أيها العُميان ،

وانظروا ما أنا فيه من جاه وثروة » — ألا تحب أن تعدو خلفه وتبصق فى وجهه ، وتعرّفه أنه مأفون مُتبجح نذل ؟ !

— إن أمثال هذا كثير ، فدعنا الآن نفكر فيما ينجينا من عمارة وويلاته .

— علمنا اليوم من ابن مهدىّ الأبله : أن عمارة اجتمع به فى دار ابن سبأ ، وفهمنا من حديث ابن مهدىّ الغِرّ : أنه جاء إليهما ليتحدّثا معه فى أمر جسيم . ألم يقل ابن مهدىّ : « إن عمارة رجل عظيم الآمال ، كبير النفس ، طموح بعيد المدى » ؟؟

— هذا صحيح . فماذا ترى كان موضوع الحديث ؟ ؟

— إنه فيما يغلب على ظنى لم يكن حديثاً للمسامرة والتسلية ، بل كان مفاوضة ذات شأن .

— فى أى شأن كانت المفاوضة يا أبا الحسن ؟

— لا أدرى . ولكن ألا تعرف « مُفلحاً » خادم ابن سبأ الخاص به ، والأثير عنده ؟

— أعرفه . . . وهو صديق لى حميم . . . وهو سنّىّ فى الباطن ، وكثيراً ما كان يرد إلى زبيد ليسألنى عن مسائل فى فقه الشافعى ، و « مفلح » هذا إذا عرف شيئاً من المفاوضة ، ومما دار

بين هؤلاء الثلاثة من الحديث — فلن يتوانى عن إخبارى به .

— هلم بنا إليه بحقك .

فيأخذ الحرّانىّ بيد صاحبه ، ويخرجان من درب قذر ، إلى زقاق كريه الرائحة ، حتى يصلا إلى غربىّ المدينة . فيظهر لهما بناء شامخ كأنه الحصن ، وحوله الحدائق المزهرة ، والرياض الباسمة ، فيشير الحرّانىّ إليه ويقول : هذا هو القصر المسمّى بالمنظر ، وهو قصر ابن سبأ صاحب عدن والقائم بدعوة الفاطميين فيها . وخير لنا أن نذهب إلى الباب الخلفى ، خوفاً من أن نلتقى بالأمير .

دخل الشيخان من الباب الخلفىّ ، فقابلهما غلامٌ لمفلح ، لا يتجاوز الخامسة عشرة ، وسيم الوجه ، صبيح الطلعة ، امتزج فيه الدم العربى بالهندىّ ، فأخرج هذا الامتزاج للناس صورة من الإنسانية بديعة رائعة . فسأل الحرّانىّ عن صديقه « مفلح » فأجلسهما الغلام فى حجرة وذهب لدعاء سيّده ، وأقبل « مفلح » وكان رجلا فى الأربعين ، وقور السمت ، جميل الوجه ، يلبَس من الحرير والديباج ما لا يجد طريقه إلاّ حول أعطاف الملوك . فحيا الحرّانىّ وصاحبه فى تجلّة وإكرام ، وانتقل الحديث إلى جوّ

عدن وشدّة حرارته ، وما سيصيب الناس فى هذه السنة من الجدب ، لامتناع المطر وقسوة الجفاف .

وبعد قليل قال له الحرانىّ : أيتفضل سيدى بأن أستفسر منه فى خلوة عن أمر أراه خطيراً ؟ !

— نعم نعم وكرامة .

ثم يأخذ مفلح بيده إلى حجرة أخرى ، ويغلق بابها ويقول : ماذا تريد أبا كاظم ؟ ؟ إنى لا أنسى لك فضلك فى شرح كثير ممّا التبس علىّ فهمه من مذهب الشافعىّ ، ولم أجد من فقهاء زبيد من هو أكتم للسر ، وأرعى للأمانة منك . فلو عرف ابن سبأ حقيقة مذهبى ، ما أبقى رأسى بين كتفىّ .

— يا سيدى . لقد وضعت سرك عند شقيق روحك ، ونجىّ نفسك . وكأنك والله ما نقلته إلاّ من ناحية صدرك اليسرى إلى ناحيته اليمنى . . . إننا لا نزال يا سيّدى نأمل لك عزّا كبيراً ، ولا نزال نرجو أن تتقوى السنّية وتظهر ، لنراك زعيمها المرجّى ، والملك الحاكم المسيطر فى هذه البلاد .

— تلك آمال أبا كاظم .

— آمال وستحقّق إن شاء ... أجاء عمارة بن زيدان

لمقابلة ابن سبأ هنا بالأمس ؟ ؟

ـ نعم . وقد كان معه عليّ بن مهديّ ، فقضوا وقتاً طويلاً في حديث طويل .

ـ أتعتقد أنهم كانوا فى مفاوضة بشأن أحوال الحكم فى اليمن ؟ ؟

فابتسم « مفلح » وهزّ بلطف كتف الحرّانيّ وقال :

ـ إنّ عمارة شابّ طمّاح، يريد أن يكون زبيباً قبل أن يكون حِصْرِماً .

ـ أسمعت بعض ما قالوا يا سيدى ؟

فأطرق « مفلح » مليـّاً ، ثم رفع رأسه وقال متردداً : الذى فهمته من كلمة تتناثر هنا ، وأخرى تسقط هناك ، وثالثة يرتفع بها الصوت قليلا : أنهم كانوا يتحدثون فى شأن زبيد .

ـ ماذا سمعت بالله يا مولاى ؟ فإن حياتنا وآمالنا معلقة بما ينقض هؤلاء ويبرمون .

ـ سمعت مايفهم منه : أن فاتكاً ملك زبيد عدو للفاطمية ، وأنه يجتهد فى إماتة دعوتهم ، وأن ابن سبأ قد جهّز عسكراً بقيادة عليّ بن مهديّ ، لمحاربته والاستيلاء على المدينة ، على أن

يسبقه عمارة إليها للتمهيد لهذا الغزو ، واجتذاب القبائل إلى ابن مهدىّ ، وأن يُقلَّد ابن مهدىّ حكم زبيد بعد زوال فاتك ، وأن يكون عمارة شريكه ونائبه فى الحكم . ثم رأيتهم يتعاهدون على الكتمان ، حتى تأخذ أهلَ زبيد الصّيحة وهم نائمون .

ـ ياللدّاهية ! ! ضعنا بين جنون ابن مهدىّ ، ودهاء عمارة !

ـ كل شىء بقضاء وقدر يا شيخ ، ولعلهم كانوا يتحدثون ، واللوح المحفوظ يسخَر ويقهقه ! !

ـ نحن لم نر اللوح المحفوظ يا سيدى ، ولكننا نرى بين الرماد وميض نار ، سيكون له تأجّج وضرام . وليس لنا فى رفع هذا المكروه عنا إلاّ الله وأنت .

ثم استأذن الشيخان فى الانصراف وخرجا . فقال النيلىّ :

ـ أراك عابساً جازعاً أبا كاظم . فماذا قال لك ؟ ؟

ـ ماذا قال لى ؟ ! إنى لم أسمع كلاماً ، إنما سمعت رعداً وعزيفاً وصواعق . . . إنها مصيبة جارفة . . هلم إلى فُندقنا ، فإننا لا نستطيع الكلام فى الطريق .

وصلا إلى الفندق واجمين ، ودخلا حجرتهما وأغلقا بابها ،

وحدّث الحرّانيّ النيليّ بما سمعه من مفلح ، فاكفهرّ وجهه وقال :

ــ ضعنا وضاعت زبيد .

ــ الرأى عندى : أن أذهب الليلة مستخفياً إلى زبيد ، حتى إذا نزلتها ، أخذت سمتى قُدُماً إلى قصر فاتك ، وطلبت مقابلته وحده . حتى إذا نفضت إليه جملة الخبر ، عدت من ليلتى غير متوان ولا معوّق . . . سأرحل الآن .

ثم قام وذهب إلى سوق البزّازين ، فاشترى إزارا ورداء ، حتى إذا لبسهما لم يكن يميّز من أعراب البادية . وودّع النيليّ وذهب إلى محطّ القوافل ليستأجر جملاً إلى زبيد .

## ٣

امتطى الحرّانى جملاً شديد الأسر ، موثّق الخلق ، مارس الصحراء ومارسته ، وتحدته بوعورتها وبعد شُقّتها ، فتحداها بصبره وشدة جلده ، حتى لقد أصبح الضرب فى الفيافى جزءاً من حياته ، لا يكاد يجد له ألماً أو يشكو منه عنتاً ! سار الحرّانيّ وقد لفه الظلام برداء حالك السواد ، طرز بثواقب النجوم ، سار فى صحراء لا يسمع بها إلا عواء ذئب برّح به

السّغَب وشفّه الظمأ ، ولا يرى فيها إلا تهاويل من الخيال ، دميمة الوجوه ، فاغرة الأفواه ، تتراقص أمامه كأنها تستهويه إلى موت محقق . وكان الحرّانىّ متجهم الوجه ، منقبض الصدر، مضطرب الفكر ، يخشى أن يكون بغض أسرة زيدان قد جاوز به حد الحزم، ودفع به إلى ما يجمُل بالحذر الحريص ، وكلما صوّر الحوادث التى زلِقت بها رجله، وزجّه فيها حقده، رأى أنها لم تكن من الإحكام ودقة التدبير ، بحيث يرضى عنها دهاؤه ، أو يستسيغها ذوقه الفنىّ فى نصب الأشراك وابتداع الجرائم . وقد كان فى متناول ذكائه من ضروب الحيلة وأساليب المكر ، ما كان أدقّ صنعاً ، وأبعد عن العقول إدراكاً ، وأخفى على الباحث المنقب . ماذا فعل ؟ وماذا قدّر ؟ وماذا دبّر ؟ مكيدة مكشوفة مهتوكة الستر ، كأنها عبث أطفال . لقد نال من عمارة ، وانتقصه أمام الحضرمى ، وهو له أصدق صديق وأوفى خليل . فإذا أصاب آل زيدان من فاتك أذىً أو ضرر ، كان من الهين السهل أن تتجه العيون إلى الحرّانىّ ، وأن تشير إليه بالأكف الأصابع . ثم ماذا فعل بعد هذا ؟ ذهب مع النّيلىّ إلى « مفلح » . ومن هذا المفلح !؟ بائس تركه مِبضَع الجرائحىّ

وَسَطاً حائراً بين الرجال والنساء ، فلا شهامة الرجل نال، ولا بدهاء المرأة ظَفِر . ثم إن الذى يفرّط فى سر سيده — وهو سرُّ دولة — أجدر بأن يهب ما فى صدره مسئولاً أو غير مسئول ، وأن يبعثر ما فى نفسه فى الأسواق . على أن هذا الغِرّ الأحمق مفتون بشىء أسمه السّنية ، عدوّ خفىّ للفاطمية .

وبنو زيدان أقوى قبائل اليمن ، وأشدها تمسكاً بالمذهب السّنىّ ، فليس فى مجال الوهم ببعيد، أن يبعث إليهم هذا الجاهل رسولا ، يخبرهم بما كان من زيارتى وزيارة النّيلىّ لداره ، ثم إن ما بينى وبين على بن زيدان من الثأر القديم ، كفيل بأن يحمله على الاعتقاد بأن لى فى هذه المكيدة يداً ، وأنى كنت أول ساع بعمارة عند فاتك ، وأول مؤلّب عليه . حقّاً إنها دسيسة لم تُحكم أطرافها ، ولم تستر فخاخها . ولكن ماذا أعمل الآن ، وقد انطلق السهم الطائش ! ؟

ألا سُحقاً لعلى بن زيدان ، لقد كان ما أوقعه بأبى منذ سنين من شديد العقاب والخزى الدائم ، سبباً لهذا الحقد الذى يملأ صدرى على أسرة زيدان وكل من يتصل بها . وماذا كان فعل أبى فى شبابه ؟ أحب فتاة من حيّهم وأحبته ، فأبوْا أن

يزوجوه إياها كبراً وصلفاً ، لأنهم يرون الناس جميعاً دونهم، ولأنهم لا يصاهرون إلا من كان من قبيلتهم ، كأنهم يخشون على هذه السلالة الطاهرة أن تدنس بغير نسبهم . وكان يجدر بأبي — سامحه الله — أن يقابل كبرهم بمثله، وأن يُخضع تلك النزوة الطائشة التي يسمونها الحبَّ لسلطان الكرامة والاعتزاز بقومه وقبيلته . ولكنه لم يفعل ، واختطف الفتاة من خبائها في ليلة سوداء ، فأحس به القوم فأدركوهما ، وقتلوا الفتاة وهمّوا بقتل أبي ، ولكن شريراً لئيماً منهم أشار بأن يستبقوه لحياة هي شر من الموت ، أشار بأن يبقى حياً ، وأن يوصم وصمة اللصوص . فاستطابوا الرأي ، وأوقدوا النار ، ووسموه فوق جبهته وفوق خديه بعلامات يوسم بها السُّرَّاق وقُطاع الطريق ، ثم تركوه بالصحراء يئن من الألم ، ويئن من الخزي والعار . ووالله ما جلست بعد هذا اليوم مجلساً ، ولا سرت في طريق إلاّ وكأني أرى جميع الأصابع تشير إليّ : هذا ابن السارق الموصوم ! لا . . لا . . لا بد من الانتقام من آل زيدان ، كيفما كانت قوتهم ، وكيفما كان عديدهم ، وسأتخذ من ضعفي قوة للكيد لهم والوثوب عليهم . إن البعوضة لا تنال باليد ،

ولكنها تطنّ وتلسع ، فإذا حاول مَن لسعته قتلها لطم خديه .
وهذا عمارة صيد سهل ، سريع الوقوع فى الشرك ، فإن ما جبل عليه من الصراحة والطموح والتهور فى طلب ما يريد ، كفيل بأن يوقعه فى أهون الدسائس حبكا .

كان الحرّانى يناجى نفسه وهو حزين مطرق ، تتناهبه الأفكار ويؤلمه طائف الذكريات ، ويقبضه الخوف من الإقدام فيبسُطه الحقد وشهوة الانتقام . وهو بين هذا وذلك يتسمّع أحياناً لصوت ضئيل خافت يهتف به ضميره أو ما بقى له من ضمير ، فيقول : ما هذا الذى أنت فيه أبا كاظم ؟ ! وما هذه العربدة التى ستعود عليك نكالا ووبالاً ؟ ! أنت تقف أمام أسرة زيدان ! وأنت تكيد لها ! وأنت تنصب لها الحبائل ! لقد جاوزت طورك ، وقذفت بنفسك بين براثن الأسود ! وألقيت بيدك إلى التهلكة ! إن عبداً من عبيد آل زيدان وحده عسىّ بأن يقضى عليك وعلى أولادك وأهلك ، من غير أن يترك لفَعلته أثراً . إن أباك مات منذ حين ، ودفن معه عاره ، ونسى الناس تلك العلامات البشعة الدميمة التى كانت تشوّه وجهه ، وطُوى ذلك السجل المشئوم ، سجل الذل والخزى والشنار .

مالك تنبش الماضى ؟ وكلما نبشته ملأتْ جيفته الجوّ خبثاً . أنت تعادى آل زيدان !

هذا إذا عادت النمال الجبال، وصاولت الكلاب السحاب !

عد إلى صوابك أبا كاظم ، ثم عد من حيث أتيت ، واغسل تلك السخائم التى سوّدت صدرك بماء من التسامح والغفران ، واقتل تلك الحيات التى أكلت قلبك وأقضّت مضجعك بسلاح من الصفح الجميل ، فإن الحاقد ينال من نفسه فوق ما ينال من عدوه . وهو أشبه بالنحلة تلسع وتموت ، والسّهم يقتل ويتحطم . لم لاتعود إلى علمك ودروسك أبا كاظم ، وإلى الضحك من ذقون الناس ، فتنال من عقولهم وأموالهم ، وتعيش بين أهلك هانئاً سعيداً ؟ دع الدسائس ، ودع النمائم ، فإن من يكثر من إيقاد النار يوشك أن يحرق كفيه . إن حديث أبيك مضى وانقضى ذكره ، ولا يعرف الجيل الجديد عن الحرّانىّ إلاأنه شيخ المتأدبين وزين المحافل . إن فى الحياة أموراً كثيرة علاجها النسيان، والجرح إذا أكثرت من حكّه التهب ونَغِل، الْوِ زمام بعيرك أبا كاظم،وعد إلى زبيد، وتجنب فيها مواطن الشبهات حتى تهدأ الفتنة ، وتسكن هذه الثائرة . مالك

وللنيلىّ ! ومالك ولابن مهدى ! ومالك ولفاتك ! . . كل هؤلاء لايستطيعون أن يدفعوا عنك شرّ بنى زيدان . أنت تدّعى الحزم وهذا هو موطن الحزم . أتسمع ؟ . . . ولكن الحرّانى كان فى ثورة من الغل غطت على عقله ، فصاح : لاأسمع ، ولن أسمع . ولن أترك عمارة . ولن أترك آل زيدان . وسأنتقم لأبى . وسأذهب إلى فاتك . وسأكشف إليه سر المؤامرة . ولن يصدّنى عما اعتزمت عليه صادّ مما يسميه الناس عقلا أو حزماً .

ثم رفع الحرّانىّ رأسه كما يرفع الغائص رأسه من الماء بعد طول المكث فيه ، وكأنه كان فى عراك عنيف بينه وبين نفسه ، خرج منه ظافراً منصوراً ، فبدد الظنون وقضى على الشكوك ، ثم رمى بعينيه أمامه فرأى فى ضوء النجوم شبحاً يظهر ويختفى ، مرّة تبتلعه الوهاد ، وأخرى تلفظه الآكام ، فحدد النظر ، واستحث بعيره ، فإذا راكب مُجدّ السير ! فخاف الحرّانى أن يكون الرجل من عبيد عمارة ، سبقه ليفتك به فى الصحراء قبل أن يُلقى بنميمته ، وظن الرجل حينما رأى الحرانى وراءه أنه من رجال ابن مهدى أسرع خلفه من عدن ليقضى عليه قبل أن يبلغ رسالته إلى فاتك . وبعد قليل التقيا على رأس أكمة ، وكلاهما خائف

ومخوف ، فبدأ الحرانى فى خوف وتلعثم :

– السلام عليكم . لقد كنت أظن أن الصحراء لم تحمل فى هذه الليلة إلا جنيناً ، فإذا هى تحمل توأمين .

– إن الصحراء كالليالى تلد كل عجيبة .

رأى الحرانى فى صوت صاحبه رجفة ، وفى لحاته ما يشعر بالذعر ، فقوِى قلبه قليلاً ، واطمأنت نفسه ، وقال : ولكنها أحياناً كالهرة تقتل بنيها .

– إنها لا تقتل من أبنائها إلا الجبناء الرعاديد ، وإن مَنْ كان قلبه أمضى من سيفه ، وسيفه أثبت من قلبه ، لن يموت إلا ميتة الأبطال .

وكأن الرجل لمح فى الحرّانى ما يدل على الضعف ، فتابع الحديث بقوله : ولقد يكون من أسباب التسلية والقضاء على السآمة فى الصحراء ، أن يصادف المرء فيها وحشاً يداعبه بسيفه ، أو لصًّا فاتكاً يلقّنه برمحه درساً فى الأمانة وصون الحقوق .

– ليس بالصحراء لصوص ، ولو كان بها الليلة لص لتاب إلى الله على يدى رحلى ، بعد أن يراه أفرغ من فؤاد الجبان .

– إن السارى فى مثل هذه الليلة يحمل ما يحرص عليه فى

صدره لا فى رحله ، ولعل فى صدرك من الأسرار ما هو أغلى من الذهب النضار .

— من أين لنا أن نصل إلى الأسرار يا ابن أخى ، وإن مَنْ ضَاق صدره بهموم الحياة، أجدر بألا يزيده ضيقاً بحفظ الأسرار . من أين الرجل ؟ وإلى أين ؟

— من عدن إلى الُحديـْدة ، اتّجر فى الإبل بين البلدين . وإلى أين أنت ؟

— إلى صنعاء ، اتّجر فى الثياب بين البلدين .

— أخشى يا صاحبي أن تكون من ثياب الرياء التى تشـفّ عما تحتها ، ولكن ما لنا ولهذا ! عم مساء . ثم ألهب بعيره بالسوط فعدا به ينهب الأرض نهباً .

تنفس الحرّانى وأطال التنفس، وكادت تعود إليه وساوسه ، لولا أن زجرها بالترنم بشعر البطولة والاعتماد على النفس ، والتشفى بأخذ الثأر . وما زال يطوى الصحراء وتطويه أياماً ، حتى بلغ زبيد فى مساء ليلة، فسار قدماً إلى قصر فاتك، فالتف عليه الحرّاس ، وسألوه عن شأنه ؟ فقال : إنه قادم من مكة برسالة من أميرها : قاسم بن هاشم إلى الأمير فاتك ، وبعد قليل

استؤذن له ، فتقدم من الأمير وقبّل يده، ثم أخذته الرّعدة ، وهاله ما هو مقدم عليه من أمر خطير ، فأخذ يتمتم بكلمات متقطعة يفهم منها الإخلاص للأمير والنصح له ، والاستهانة بالموت فى خدمته . فهدّأ الأمير من نفسه حتى أفرخ رَوْعه وثبت جأشه ، ثم قال فاتك : كيف حال أمير مكة ؟ فعاد الذعر إلى الحرّانى وطفق يفرك أصابعه فى اضطراب عصبى عنيف ، ثم قال : لم أجىء من مكة يا سيدى ، وإنما جئت من عدن .

— لم تجىء من مكة ؟ ! هذه أول أكذوبة للمخلص لنا ، المستهين للموت فى خدمتنا .

— إنما دعانى إلى الكذب يا سيدى خوف أعدائى ، فقد يكون بقصرك عيون لهم .

— إن قصرى أطهر مما تظن ، وخدمى أعفّ وأشرف مما تصفهم به . أخشى يا رجل أن تكون من هؤلاء الدساسين ، الذين يلبَسون مسوح الزهاد ، ويتقدمون بالنصح إلى الأمراء ليجعلوا منهم آلة للبطش بأعدائهم ، إن بابى هذا يطرقه كل يوم كثير من أمثال هؤلاء ، حتى لقد التبس علىّ الحق بالباطل ،

وكدت أغفل عن شئون الناس بالنظر فى شئون هؤلاء الخادعين والتحقق من أكاذيبهم ، فإن كنت فقيراً أعطيناك ، وإن كنت مستجيراً بنا أجرناك ، وإن كانت لك ظلامة كشفناها ، قل الحق يا رجل صريحاً ، ولا تنل من أحد فى حضرتى .

— إننى لم أجئ يا سيدى لأطلب مالاً ، ولا لأبتغى على نصيحتى للأمير أجراً ، ولكنى علمت بمؤامرة دنيئة تدبر لإسقاط الأمير عن عرشه وعرش آبائه ، فأسرعت إليه من عدن أطوى الليل بالنهار ، وللأمير بعد ذلك ما يشاء ، إما أن يصدّق ما أقوله ، فيتخذ الأهبة ويُعدّ العدة ، ليدفع الشر بالشر ، وإما ألا يصدّقه فيعرف بعد طول الندم أننى كنت صادقاً مخلصاً .

— وما تلك المؤامرة ؟ !

— المؤامرة : أن يفجأك على بن مهدى ، ومعه عمارة بن زيدان بجيش جرار ، فيستوليا على زبيد ، ويقتلا أميرها ، ويبيدا أهله ونصراءه ، ثم يجلس ابن مهدى على عرش المدينة ، ويجعل عمارة وزيره ومشيره . هذه هى المؤامرة فصدقها أو كذبها اللهم إنى قد بلّغت ونصحت ! !

— صدّقتها ، وقد جاءنى قبلك رسول من قبل « مفلح »

خادم ابن سبأ يبلغنى أمر هذه المؤامرة على النحو الذى شرحته .

– إذاً هو ذلك الرجل الذى صادفته فى طريقى . مفلح أرسله ؟ ! هذا المفلح غِربال أسرار !

– إنه رجل يكتم إيمانه بالمذهب السنّىّ ، ويحارب الفاطمية فى الخفاء بكل ما يستطيع . آه ! عمارة فى المؤامرة . . ؟ ! ويل له منى ، وويل لقومه بنى زيدان ، ثم دعا خادمه ، وأمره بإحضار صرة بها مائتا دينار ، فأعطاها الحرّانى وشكر له حسن بلائه .

خرج الحرّانى يتعثر خائفاً من عواقب الشر الذى زج بنفسه فيه ، وهو يرجو ألا يراه من يعرفه ، ولكنه وهو فى أحد دهاليز القصر ، رأى إسماعيل بن محمد جليس فاتك مقبلاً – وكان من أصدقاء عمارة وخلصائه – فعرفه إسماعيل ، ودهِش لما رأى من تغير زيه ، فقال : خير ما جاء بك إلى القصر أبا كاظم ؟ ولم هذا الزى الغريب؟! فبُهت الحرّانىّ وتلعثم وجف ريقه ، وقال : جئت فى نصيحة للأمير ، وأرجو أن يبقى الأمر بيننا سرّاً .

– إذا جئت فى نصيحة فأدعو الله أن تكون خالصة لوجهه ! أما السر فى زبيد فكالسر فى صدر المرأة ، تفشيه

لكل من تقابله بعد أن توصيه بكتمانه ! عِمْ مساءً أبا كاظم، فإنى لا أرى فى زِيِّك وأسارير وجهك ما يبشر بخير .

انصرف الحرّانىّ وهو يلعن إسماعيل بن محمد ، ويلعن المصادفة التى أوقعته فى طريقه ، ويلعن نفسه على ما اندفع إليه من أمر لا يستطيع الخروج منه سالماً .

ودخل إسماعيل على فاتك ، فرآه يهدِر كالبعير الصائل ، وقد استأثر به الغضب ، فحينما رآه صاح بصوت خشن أجش : أرأيت كيف انتهت بنا الدسائس والمؤامرات ؟ ! أرأيت كيف يعمل هؤلاء الفاطميون أعمالهم فى ظلام من الخبث والرياء ، ثم يفجأون بها الوادعين الآمنين ؟ ! أعلمت أن ابن مهدى ذلك الرافضىّ السفّاح ، سيدهمّ زبيد على حين غِرة منّا ليذل رقاب أهلها ، ويثلّ عرشنا وعرش آبائنا ؟ ! أعلمت أن عمارة بن زيدان ذلك اللئيم النذل ، الذى أغدقنا عليه ، وآويناه حتى أصبح من المقربين فى القصر ، ومن كبار رجال المال والجاه ، هو الذى يمالئه ويغريه ويرشده إلى مواطن الضعف لكون وزيره فى زبيد ! ! ويل للخائن المخاتل ، دخل القصر فقيراً مملقاً ، لا يتشفّع إلا بأبيات واهنة من الشعر ، فما زال يخدعنا

بمدائحه ، ويستهوينا بعذب كلامه وسحر حديثه ، حتّى رفعناه بعد ذلة . ويل لعمارة . . . ويل لعمارة . . . »

هدِّئ من غضبك يا سيدى ، فقد يكون ما وصل إليك نميمة أفاك أثيم . وعمارة رجل . . .

ــ لا يا إسماعيل . إن الخبر وصل إلىّ من مصدرين ، إن شككت فى أحدهما فلن أشك فى الآخر . جاءنى به رسول من « مفلح » ، ثم نقله إلىّ الآن أعرابىّ لا أعرفه ، وكانت الرسالة واحدة لا تكاد تختلف .

ــ إن الأعرابى الذى يذكره مولاى عالم من زبيد غيّر زيّه ، ولعلّ له مأرباً فى الكيد لعمارة .

ــ له مأرب أو ليس له مأرب ، إن رسالة « مفلح » تكفينى ، ثم نادى خادمه ، وأمره أن يدعو إليه الوالى وقائد جيشه ، فلما حضرا أمر القائد بجمع الجيش ، واستكمال العُدة ، والأخذ فى تحصين مواضع المخافة من المدينة ، ثم أمر الوالى بمصادرة جميع أموال عمارة ، وما لَه من ناطق وصامت ، والقبض عليه وقتله أينما كان وحيثما وجد .

مرّ إسماعيل بن محمد فى صباح هذه الليلة بسوق البزازين ،

فرأى على بن زيدان يمشى ووراءه عبيده وخدمه، فدهش لرؤيته ، وتقدم للسلام عليه ، ثم اجتذبه إلى ناحية ، وقال : لقد نقل بعض الجواسيس إلى الأمير فاتك أمس نبأ مؤامرة تدبّر لاغتصاب ملكه وقتله ، وأن لابن أخيك عمارة يداً طويلة فى هذه المؤامرة ، فأمر بمصادرة أمواله ، وأهدر دمه ، وقد حاولت أن أسكت غضب الأمير ، فلم أستطع .

— إنها دسيسة على ابن أخى . إن عمارة أشرف وأنبل من أن يدنّس بهذه الأقذار . نحن نقتل فى الضياء، ولا نقتل فى الظلام . مَن هذا الجاسوس الذى نقل هذه الفرْية ؟

— رجل من زبيد يسمى أبا كاظم الحرّانىّ .

— الحرّانى ! الحرّانى ! ألعله ابن ذلك الحرّانى لصّ الأعراض الذى وسمنا وجهه بميسم العار منذ أكثر من عشرين عاماً ؟ !

— أظنه قضى كل هذه المدة فى انتظار الفرصة ، حتى إذا لاحت اقتنصها ليشفى صدره بهلاك ابن أخيك . أيعرف عمارة هذه الحادثة ؟

— لا . لقد أمرت عبيدى الذين اشتركوا فيها يومئذ ، أن

يبقوا الأمر سرًّا دفيناً ، فإن مثل هذه الفضائح يجب ألا تذاع .
هل لهذا الحرّانى ولد ؟

ــ له ولد فى الخامسة والعشرين من عمره ، يتجر فى الغنم .
ولم تسأل عن هذا ؟

ــ لا لسبب ، غير أنى كنت أظن أن مَنْ ذاق حلاوة الأبوة يتردد فى إيذاء الناس فى أبنائهم .

ــ وعلام عوّلت ؟

ــ عوّلت على السفر إلى مرطان فى الغد ، ويفعل الله ما يريد .

ولما انصرف إسماعيل ، عاد ابن زيدان مع عبيده إلى الفندق الذى نزل به ، ثم اختلى بعبده مرداس ، وكان أسود فاحم اللون ، طويلاً ممعناً فى الطول ، قوى العضل ، كبير الرأس ، أفطس الأنف ، يخالط بياض عينيه حمرة قاتمة ، فقال له سيده : يامرداس ، سنسافر غداً ؛ فمر العبيد بإعداد الرواحل . أما أنت فستبقى هنا ، وان تعود إلى مرطان حتى تقتل رجلين : الشيخ الحرّانىّ ، وابنه ، ابحث عنهما ، واستدرجهما من حيث لا يشعران إلى مكان لا يراك فيه أحد ، ثم اقتلهما فإذا قتلتهما

فأنت حر . أفهمت ؟ اذهب .

وفى صباح الغد يسافر ابن زيدان ، ويبقى مرتاس بزبيد ، يسأل ويبحث حتى يعثر بابن الحرّانىّ ، فيدخل عليه بحيلة محكمة ، يستهويه بها ، حتى إذا خرجا إلى ظاهر المدينة وانفرد به فى مكان موحش ، قتله واختفى .

ويبقى الحرانى منتظراً عودة ابنه فلا يعود ، ثم يعثر بعض المارة بجثته فى الصحراء ، ويصل الخبر إلى أبيه ، فيعصف به الحزن ويتملكه الجزع ، ويرى والدموع تتساقط من عينيه أن ما أصابه فى ابنه إنما هو جواب رسالته لفاتك ، وانتقام سريع من آل زيدان على إيقاعه بابنهم عمارة ، وأنهم لم يسكتوا عنه ، وأن ذراعهم ستمتد إليه بعد أن امتدت إلى ابنه ، وأنه يجب أن يفرّ بنفسه وأهله بعيداً عن اليمن . فيجمع بقية ما لديه من مال ، ويركب مع أهله سفينة من زبيد إلى جُدّة ، ليأخذ منها سفينة أخرى إلى مدينة القُلزُم ( السويس ) . فقد رأى أن مصر خير مكان ينجيه من آل زيدان ، ورأى أن يختفى بها رابضاً حتى تحين له فرصة الوثوب .

٤

حينما غادر الحضرمى دار ابن مهدى ، سار وحده فى الطريق واتجه نحو دار عمارة ، فوجده لا يزال نائماً ، حتى إذا استيقظ حدّثه بما دار فى مجلس ابن مهدى من حديث وبما قاله فيه الحرّانىّ والنيلىّ .

فهزّ عمارة كتفيه استخفافاً ، وقال :

ـ من الحرّانى هذا ؟ فإنى لا أعرفه ، وعجيب أن يحقد علىّ من لا أعرف ! !

ـ إنه رجل من الفقهاء الجوّالين ، لا يعرف صُبْحُهُ أين يستقر فى مسائه ، ولكنه فيما يظهر من عينيه ، شديد البغض لك والحقد عليك . فأجاب عمارة : عجبى من صعلوك ينافس الملوك !

ـ هذا كلام تُشَمّ منه رائحة الإمارة ! !

فابتسم عمارة ابتسامة ألم واستنكار ، وقال :

ـ لا يا أسامة . . . إنه كلام رجل يحب العدل ويكره الظلم

والظالمين . . . رجل نصب نفسه لنصرة الحق ، فوهب له دمه وأهله وماله ، لا يهاب فى سبيله — إذا جد الجد — أشفار السيوف ولا أسنّة الرماح . . . رجل إذا وفى لقوم نافح عنهم ، وكافح دونهم ، حتى يحبس الموت لسانه ويعطّل ساعده .

— وقد يحتال أحياناً ويلبَس لكل حالة لَبوسها .

— وقد يحتال أحياناً يا أسامة ! ! وقد يمدح أحياناً مَن يصغر عن الهجاء ، رجاء الوصول إلى الغاية التى رسمها لنفسه ، وقد يصانع أحياناً أناساً أقلُّ مايستحقون ضرب السياط . . متى ترحل إلى زبيد ؟

— بعد عشرين يوماً ، حتى أبيع جميع البنّ الذى جئت هنا لبيعه .

— ربّما رحلت بعد عشرة أيام ، فإن الحرّ هنا لا يطاق .

وبعد عشرة أيام أو نحوها ، قامت القافلة إلى زبيد ، وكان بين المسافرين عمارة بن زيدان ، وبعد ليال بلغت القافلة أسوار المدينة ، وكان وصولها عند الغروب فاتجه عمارة نحو بيته ، وبينما هو فى طريقه مرّ به القائد إسماعيل بن محمد جليس الملك فاتك ، وكان راكباً فرساً فلما رآه أخذ يقرأ : « يا موسى إن الملأ يأتمرون

بك ليقتلوك ، فاخرج إنّى لك من الناصحين . »

فأسرع عمارة إليه ، وأخذ بعنان فرسه ، وقال : بحق مودّتى عليك ، إلا ما أفصحت يا ابن محمد ! ! فقال : أحاط فاتك بجميع أموالك وتجاراتك ، وجعل لمَنْ يأتيه برأسك ألف دينار .

— ولم فعل هذا يا ابن محمد ؟ !

— هبط عليه تمّام أثيم من عدن فنقل إليه أنك تتآمر أنت وابن مهدىّ وابن سبأ على قتله ، واستلاب ملكه . . . ارحل أبا محمد . . . وأسرع ، واتخذ الليل مركباً .

فدقّ عمارة بكفّ على كفّ ، وقال : لقد أصابتنى عين الحفائلى — عليه لعنة الله — فلطالما قال لى : أنت من كبار التجّار . . . أنت من أصحاب الوجاهة . . . أنت فى ثروة ونعيم . . . فليهنْه اليوم أنى أصبحت الفقير إلى الله تعالى لا إليه . . . عمارة ابن زيدان اليمنىّ الشريد الطريد .

قاتل الله العلم والأدب ! ! فإن عقارب الحقد لو أرادت أن تتخذ جحراً ما اختارت لها إلا صدور الأدباء .

ثم أسرع عمارة إلى داره ، وجمع متاعه وما بقى لديه من مال قليل ، وأعدّ لأهله وأولاده أربعة من الإبل ، وألحّ على الجمّال .

أن يسرع فى السير ، فقال الجمَّال : إلى أين ؟ ؟ قال : إلى مكة . . . إلى أمّ القرى . . . إلى البيت الحرام الذى من دخله كان آمناً .

وصل عمارة وأهله إلى مكّة فقيراً بائساً ، بعد أن كان فى بسطة من الرزق وظلّ من السعادة ، يعيش عيشة الترف ، ويتقلّب فى أكناف العز والنعيم . فاكترى داراً بالقرب من البيت المحرّم وأخذ ينفق على أهله فى ضيق وشدة مما بقى له من مال ، انتشله من يد الزمان ، وجلس ذات يوم فى المسجد ، وبدأ درساً فى التفسير . فأقبل الناس إلى الاستماع له ، فسحرهم ببيانه وفصاحته ، وقوة عارضته ، ورنين صوته . فتحدث أهل مكة بالشيخ اليمنى ، وسار ذكره وتنقل اسمه من لسان إلى لسان ، وأقبل عليه عظماء مكة وكبار تجارها ، يبذلون له ودّهم ، ويتسابقون إلى إكرامه بالهدايا والأموال .

بقى عمارة على تلك الحال أشهراً . وفى أصيل يوم وهو فى داره ، أقبل عليه رسول أمير الحرمين : قاسم بن هاشم — يدعوه إلى لقاء الأمير .

فلبس خير ثيابه وتطيّب ، وأخذ يحدّث نفسه ويقول :

ليت شعرى لم دعاك ابن هاشم ؟ ؟ لقد جرّبتَ معاشرة الأمراء والملوك فلم تعد منها إلا بصفقة المغبون ! ! . . . ولكنك يا عمارة لم تخلق لتلقى درساً فى مسجد على أغرار مهازيلَ ... إنما خلقت لتكون زعيما ، ولتترك فى الدنيا دويّا . .. ولا بد لهذا من صحبة الأمراء والملوك . سرْ إليه يا عمارة . فلعل الدهر أراد أن يستغفر من زلته ! ! ولعله — وأنت من أبنائه — أراد أن يؤدبك تأديب الآباء لأبنائهم ! ! ثم عاد فأدركه عطف الأبوّة وحنانها .

سار عمارة حتى بلغ دار الأمير ، فاستقبله عبيده وخدمه ، وأوصلوه إلى حجرة ثمينة الأثاث ، أنيقة الترتيب .

حتى إذا استقر به المجلس ، أقبل الأمير بين حاشيته ورجاله ، فحيّاه عمارة فى أدب وخشوع .

وأمره ابن هاشم بالجلوس ، فجلس بعيداً ، فدعاه للجلوس إلى جنبه ، وأقبل عليه يسأله عن حاله وكثير من شئونه ثم قال : إننا هنا لا نرى الدنيا إلا فى موسم الحج ، حتى إذا انقضى الموسم عدنا إلى عزلتنا ، كأننا فى صومعة راهب . فقال عمارة :

— هذه يا مولاى نفحة من نفحات البيت الحرام ، وبركة من بركاته . ألا ترى أن الدنيا جميعها تسعى إلى أهله وهم لا

يسعون إليها ؟ ! . . . هنا يا مولاى نرى جميع أمم الأرض فى أحسن أحوالهم . . . نرى هنا : اليمنىّ ، والمصرىّ ، والمغربىّ ، والشّامى، والعراقىّ ، والهندىّ ، وأبناء كل قطر ، ترفّ عليهم راية الإسلام . هنا البحيرة العظمى المقدسة التى تصب فيها أنهار الدّين القيّم الحنيف . . . هذه يا مولاى دعوة إبراهيم، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام حين قال :

« ربّنا إنى أسكنت من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع عند بيتك المحرّم ، ربّنا ليقيموا الصلاة، فاجعل أفئدةً من الناس تهوِى إليهم، وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون » .

ـ حيّاك الله يا شيخ ! ! إن لحديثك لسحراً ! ! ولو أن علماء الإسلام كان لهم هذا البيان الرائع ، وتلك القوة النادرة فى التفكير ، واتجهوا إلى هداية الناس وإرشاد الأمراء ـ لكان للإسلام شأن غير شأنه اليوم . . . أزرت مصر يا مولانا الشيخ ؟ ؟

ـ لم أزرها يا مولاى . وقد عزمت على مجاورة بيت الله الحرام ، حتى ألقى الله على عتبته .

ـ لا . . . لا . . . أنت لا تزال فى قوّة شبابك . ومثلك

ـ فيما أرى ـ من تضيق بآماله الدنيا إذا اتّسع بها صدره .

حدثت فى العام الماضى بموسم الحج بعض حوادث صغيرة للحجّاج المصريين . بلغت إلىّ فى حينها فلم آبه لها ، ولكن يظهر أن الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، قد عدّت وقوعها تعدّياً عليها ، واستهانة بسلطانها . لذلك منعت فى هذا العام الصدقات التى كانت تبعث بها لفقراء مكة ، والمنقطعين إلى مجاورة البيت .

ـ ماذا كان نوع هذه الحوادث يا مولاى ؟

ـ حوادث تافهة . . . أغار بعض خدمى على التّجار المصريين ، واستلبوا جميع أموالهم .

ـ حقّاً إنها حوادث تافهة ! ! . . . وما مقدار ما كان يرسله الخليفة إلى مكّة فى كل سنة من الصدقات ؟؟

ـ كان يرسل عشرين ألف جريب من الحنطة ، ومائة ألف دينار .

ـ هذا مقدار عظيم .

ـ نعم هو مقدار عظيم ، أحسّ أهل مكة فقده . وقد جاءنى وكيلى منذ أيام ، يرجونى فى عمل شىء لاسترضاء الخليفة الفاطمىّ ، ووزيره الملك الصالح طلائع بن رُزّيك . وقد

توسّمت فيك مما سمعت ورأيت، أنك خير مَنْ يستعان به فى مثل هذه الأمور .

— إننى طوع أمرك لولا . . .

— لا تقل « لولا » فإننى أعددت لك خمسمائة دينار ، تعصف بكل ما تجرّه « لولا » من معاذير . ثم إننى أعددت الرواحل لك ولأهلك ، وأمرت أن تصرف لك مئونة السفر بسعة وإغداق . . . أرضيت أبا محمد ؟ ؟

— رضيت يا مولاى شاكراً

— تذهب إلى سيّدة القصور : عمّة الخليفة الفائز ، وإلى وزيره : طلائع بن رزيك ، وتلقى إليهما بسحرك ، وما وهب لك الله من فصاحة وبيان ، وقوّة حجة وبرهان . وكلما زاد ما يرسلان به إلى البيت الحرام زدناك .

— وهل لسيّدة القصور شأن كبير فى إدارة شئون الدولة الفاطمية ؟ ؟

— لها كل الشأن : فهى العقل المفكر ، واليد الباطشة . ولها فنون من الحيل والخداع يعجز عن إدراكها أذكياء الرجال . ثم إنها تتخذ من أنوثتها ستاراً لدسائسها ، ومن جمالها البارع

شباكاً لاقتناص أعدائها . فقد سمعت من حجيج مصر : أنها في الحسن والرشاقة واجتذاب العقول ، آية الله في خلقه ، وأنها فتنة لكل من رآها ، ولا يزال العهد قريباً بما كان من قتل نصر ابن عباس لابن أخيها الخليفة الظافر ، وفراره وفرار أبيه عبَّاس الصنهاجيّ إلى الشام . أتدرى ما فعلت سيدة القصور ؟ لم تبك كما تبكى النساء ، ولم تضرب كفاً بكف كما تفعل العجائز ، ولكنها أرسلت رسلها إلى قائد الإفرنج بعسقلان ، ومعهم مائة ألف دينار على أن يقضى على عبَّاس وابنه . فقتل القائد عبَّاساً ، وأرسل ابنه نصراً إلى سيدة القصور ، وأظنه الآن فى طريقه إلى القاهرة .

– إنها حقًّا امرأة داهية ! !

– فوق ما تظن ! ! . . . والخليفة الفائز الآن فى يدها ، وهو صبيّ لا تزيد سنّه على ستّ سنوات . وهى لذلك تلعب برجال الدولة ، هذا مرة ، وذاك أخرى . . . فاحترس منها أبا محمد .

– وما حال الوزير طلائع بن رزيك معها ؟ ؟

– لا أدرى . . . ولكنه لا يقل عنها دهاء وخبثاً . وسنشهد

قريباً صراعاً بين ثعبانين .

وهناك رجل آخر ، أعيذك بالله منه ومن مكره ومِحاله : هو مؤتمَن الخلافة ، خادم الخليفة وسيدة القصور ، ورئيس الخدم والجنود السودانية . هذا رجل لو أراد إبليس أن يتخذ له خليفة فى الأرض ما اختار غيره . . . فاحذره أبا محمد ! !

ثم قام وفتح خزانة، أخرج منها صرّة بها خمسمائة دينار ، فناولها عمارة، وقال : متى الظّعن ؟ ؟

ـــ كما تأمر يا سيدى .

ـــ بعد ثلاثة أيام . . . اكتب على لسانى كتابين : أحدهما للفائز . والآخر لابن رزيك. يمتزج فيهما الاستعطاف بالعتاب، ويلتبس فيهما الاستجداء بالشمم والإباء .

أنت تعرف أبا محمد كيف تكتب مثل هذا ... عِمْ مساءً .

٥

وصل الحرّانى إلى القاهرة بعد أن أجهده السفر ، ونال منه بعد الشُقة ، إلى ما كان ينتابه من أحزان على ابنه، وأحقاد على

عمارة وأهله . وهو بين هؤلاء وأولئك مطرق الرأس دامع العين ، يدركه الضعف فيرجّع ويحوقل ، ويثور به الغضب فيهز قبضته فى عنف وقوة ويتمتم : لا . . لا . . لن أبكى بكاء النساء ، ولن أستكين استكانة الإماء . وهذه اليد التى لم تخلق لهز السيوف ولا للعب بالرماح ، أعاضنى الله بها عقلاً يهزم الجحافل ويدك المعاقل . ولأمر ما يقول المتنبي :

الرأى قبل شجاعة الشجعان

ولأمر ما يقول :

لولا العقول لكان أدنى ضيغم　　　أدنى إلى شرف من الإنسان

إن المستعين بالقوة يحارب بسلاح مكشوف ، والمستعين بالعقل يحارب بسلاح خفىّ مستور . وصاحب القوة قد يزِل فيهزم ، وصاحب الحيلة إن أخطأ استطاع أن يتدارك خطأه بحيلة أخرى . وصاحب القوة يتقيه عدوه فلا ينال منه منالا ، أما صاحب الحيلة فهو صديق عدوّه وموضع أمانته ومكان ثقته .

إن الله خلق الإنسان ، ومنحه القدرة على التشكل ، فهو يستطيع أن يكون أسداً ، ويستطيع أن يكون ثعلباً ، ويستطيع أن يكون ثعباناً ، ويستطيع أن يكون ذبابة تطنّ وتطير . فلم

لا نتشكل ؟ ولم لا نقابل كل حالة بحيوان مما فى أنفسنا ؟ إن البُلْه هم الذين لا يستطيعون أن يستروا غضبهم بالضحك ، وحزنهم بالسرور ، وكراهتهم بالبشاشة والتسليم . والعاقل هو الذى يستطيع أن يقف أمام المرآة ، بعد أن يقطع الحبل بين وجهه وقلبه ، ثم يصور ملامحه كما يشاء ويهوى .

تجول هذه الخواطر بصدر الحرّانىّ ، فينتعش ويعود إليه نشاطه ، ويثوب إليه أمله فى الحياة .

أنزل أهله بدار بجىّ الروم بالقرب من الباب المحروق . وأول شىء أوحى إليه به دهاؤه أن يغيّر اسمه ، فسمّى نفسه زين الدين بن نجا ، وأن يظهر الزهد والقناعة والتبتل ، وأن يدّعى أنه من الطائف بالحجاز ، ثم رأى أن خير وسيلة تقرّبه إلى قلوب العامة والخاصة . أن يُظهر غيرته على المذهب الفاطمى ، وشدة التمسك به ، وإذاعة محاسنه وفضائله . فتنقل فى المساجد والجوامع يخطب فى فضل المذهب ومناقب آل النبى . وكان فصيح اللسان ، قوى الحجة ، حاضر البديهة ، قصاصاً بارعاً ، فكِه الحديث جذاباً . فالتفّ عليه الناس . وجاء بعض رجال القصر ليستمعوا له بعد أن طارت إليهم شهرته . وكان أحفل أهل

القصر به وأكثرهم بهْ واوعاً : إبراهيم بن دُخان رئيس ديوان الرواتب بالدولة الفاطمية . وكان ابن دخان فى نحو الأربعين ، معتدل الطول ، نحيف الجسم ، أسمر اللون ، له عينان شديد سوادهما ، بيسراهما حول خفيف لم يذهب بما لهما من تأثير نافذ وقوة مسيطرة . وكان أنفه كأنوف أكثر المصريين ، كاد يكون أفطس ، لولا أن تداركه ارتفاع وبعض استواء فى قصبته وكان بشفته السفلى بعض الغلظ دفعها إلى التدلى قليلاً . وكأنه أحس هذا النقص ، فهو لا يفتأ يجمع شفتيه كلما خطر له هذا الخاطر . وكان وجهه فى جملته يدل على الشّره والشهوانية والختل والأثَرة . وكان ابن دخان عارفاً بتاريخ مصر واسع الاطلاع فيه ، وكان يحب مصر أو يحب نفسه ، ويحب المذهب الفاطمىّ أو يحب نفسه . فكلما استطاعت مصر أن تدرّ عليه الأموال ، وتهيّئ له عيشة البذَخ والنعيم أحبها . وكلما استطاع المذهب الفاطمىّ أن يمنحه الجاه والنفوذ أحبه ونافح دونه دعا ابن دخان مرّة الحرّانىّ إلى داره ، أو زين الدين بن نجا ــ كما أختار أن يسمى نفسه ــ وبعد أن نالا من طعام العشاء ، جلسا فى روشن يطل على خليج أمير المؤمنين ، وتنقلا فى ضروب من الحديث .

فقال ابن دخان :

ــ كيف رأيت القاهرة يا سيدى الشيخ ؟

ــ إنها اليوم زينة العواصم . وموئل الدين ، وعش العلماء ، وقبلة الشرق .

ــ إن الفاطمية يا سيدى مظهر تلك العظمة ، ومبعث ذلك الجمال . إن مصر لم تر منذ عهد ابن العاص عهداً كعهد الفاطميين ، فهو عهد رخاء وعدل ، وطمأنينة وثروة ، وابتهاج وسرور . أتعرف أن خراج الدولة لا يقل عن ألفى ألف ومائتى ألف دينار ؟ ! وأن ما ينفق على القصر ورجال الدولة ، وفى الهبات وإظهار عظمة الملك ، يزيد على ثمانمائة ألف دينار ؟ !

ــ إن مصر يا سيدى هى الجنة التى وعد المتقون ، أكلها دائم وظلها . وقد يدهش المرء لما يرى بها من كثرة العلماء والطلاب ، وكثرة ما يؤلف من الكتب فى العلوم على شتى أنواعها .

ــ لقد كثر العلماء الوافدون على مصر ، حتى تضاعف ما تنفقه الدولة عليهم . ولو كانوا جميعاً مثلك فى الزهد والتقشف والبعد عن مطامع الدنيا ، ما أخذت عليهم مأخذاً . ولكن أكثرهم يفد للاستجداء وانتهاب الغنائم والرواتب !

لم أدعك الليلة للتحدث فى شأن الدولة ؛ ولكنى دعوتك للائتناس بك ، والتمتع بمجالستك ، ولأخبرك أن المشرف على خزائن الكتب بالقصر الحسينَ بن زيد قد انتقل إلى جوار ربه منذ أيام . وأنى قد رأيتك خير من يصلح لهذا المنصب ، لما عرف بين الناس من علمك وفضلك وتعصبك للفاطمية .

— إننى أزهد الناس يا سيدى فى هذه المناصب . وإنى أكره أن يكون رزقى محدوداً معيّناً ، فأفقد فضيلة التوكل على الله توكلاً مطلقاً خالياً من الشوائب . ولا أحب من رزق ربى إلا ما كان مجهولاً مغيّباً .

— إن قاضى القضاة وداعى الدعاة وجميع زهاد الفاطمية ، لهم رواتب محدودة معينة ، فاقبل هذا الراتب يا مولانا . وتصدّق به إن شئت .

— هذا حل معقول .

— لقد أخبرت مؤتمن الخلافة بك ، واقترحت أن يسند إليك هذا المنصب ، فقبل مسروراً ، ورأى أن يكون الراتب ثلاثين ديناراً .

— أرجو أن نوفق جميعاً إلى الخير .

ثم نهض زين الدين وقال : سبحان الله وبحمده ! ! اللهم

بجاه فاطمة وابنيها الشهيدين ، وخلفائك الطاهرين من عِترتها أن تملأ هذا المكان أمناً وإيماناً ونوراً وبركة .

ثم ودعه وانصرف . وفى الصباح ذهب إلى القصر ، وعرّفه ابن دخان بكبار الأساتذة والقواد . وبدأ عمله الجديد .

وكانت خزائن الكتب تشغَل بهواً واسعاً وحجراً كثيرة . وقد قسمت رفوفها أقساماً : لكل علم قسم خاص به . وكانت تشتمل على أكثر من مائتى ألف كتاب فى الآداب والعلوم ، أكثرها من نفائس الكتب ونوادرها . هذا عدا المصاحف التى كتبها بالذهب كبار الخطّاطين . كابن مقلة ، وابن البوّاب . وبها أكثر من ألف نسخة من تاريخ الطبرى ، منها نسخة بخط الطبرى نفسه . وأكثر من مائة نسخة من الجمهرة لابن دُريد . وأكثر من ثلاثين نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد ، إحداهن بخط الخليل . وجملة القول وقصاراه : أنها كانت أعجوبة الدنيا ، بذّت جميع دور الكتب فى بغداد والأندلس .

بقى الحرّانى فى هذا المنصب الجديد وادعاً دائماً ، لا يكدِّر عليه عيشه إلا فجيعته فى ابنه ، وقصر يده عن أن تنال عمارة أو أحداً من أهله بانتقام .

٦

غادر عمارة وأهله مكة ، ومعه كتابا الأمير : قاسم بن هاشم ، وسارت به النجائب تشق أديم الصحراء ، كأنها ساريات الأحلام فى الليل البهيم . وقد بدت الكثبان وسنى يوقظها وخد الإبل ، وأراجيز الحداة ، فتصحو قليلاً ثم تغفي .

هدوء وسكون ، وصمت . وجلال ورهبة .

هذه هي الصحراء . . . من صخورها خلقت أخلاق العرب ، ومن أطيافها تلقوا وحي شعرهم ، ومن مداها الفسيح المترامى استمدوا خيالهم ، وفى جدبها نبت الإباء العربى ، والاعتزاز بالنفس ، والكرم ، والحمية ، والصبر على المكاره .

نظر عمارة أمامه ، وهو فوق قتب بعيره ، فرأى بحراً مائجاً من الكثبان والرمال ، ورأى فضاء لا تبلغ العين غايته ، ورأى نجوم ليل الصحراء وقد زدن لألاء والتماعاً وقرباً ، كأنها اللؤلؤ

اللمّاح علق بخيوط القدرة بين الأرض والسماء . فتنهد وقال : آه أيتها الصحراء ! ! أين أبطالك الذين ملأوا الدنيا عمراناً وعلما ، وشرائع وفنونا ؟ ! أين أبطالك الذين كانوا ملائكة العروش وشياطين الهيجاء ؟ !

علّميني يا صحراء تلك الدروس التي تلقاها خالد بن الوليد وسعد ابن أبي وقّاص ، وأبو عبيدة بن الجرّاح ! ! بوحي أيتها الصحراء لي بسرّك الدفين . . . فإني عليه جدّ أمين ! !

إني يا صحراء أودّ أن أكون لك ابناً ، فأوصيني بما تشائين . . . لي آمال أوسع من مداك ، ومطالب صعبة المرتقى كجبالك ، فهل أنا بالغ آمالي ، فائز بمطالبي ؟ ؟ قولي يا صحراء ماذا يجب أن أفعل ! ! واهمسي في أذني كما همست في آذان أبنائك الأولين . . .

وهكذا ظل عمارة يحدّث نفسه ، وظلت الإبل تطوي الفلاة ، حتى بلغت جدّة . فنزل الركب ، وتقدّم من عمارة نائب الأمير قاسم — وقد سبق إليه خبر قدومه — فأنزله خير منزل ، وغمره بصنوف من الحفاوة والإكرام . ثم أعدّ له سفينة تنقله إلى مصر فأبحر بها في بحر « القلزم » وكان الجو صحواً والريح رُخاء . فوصل بعد أيام إلى مدينة القلزم «السّويس» ومن ثمّ استأجر

إبلاً تحمله وتحمل أهله ومتاعه إلى القاهرة . وكانت القاهرة فى هذا العهد تمتدّ من ناحية الشمال إلى باب النصر وباب الفتوح . ومن ناحية الجنوب إلى باب زَويلة الجديد . ومن الشرق إلى باب البرقية والباب المحروق . ومن الغرب إلى خليج أمير المؤمنين . وبهذه الجهة باب سعادة ، وباب الفرج ، وباب القنطرة .

وكانت مزدحمة السكان ، واسعة العمران ، بها كثير من الجوامع والرُّبُط والدّور العظيمة والمساكن الجليلة ، والأسواق المملوءة بأنواع التجارات والخانات والفنادق المكتظة بالمسافرين .

وصل عمارة إلى القاهرة فى ظهر يوم من ربيع الأول ، سنة خمسين وخمسمائة . وهو شاب فى الثلاثين ، وسيم الطلعة ، مشرق الديباجة ، رائع القسمات ، معتدل الطول ، شديد الأسر ، قوىّ العضل . فسار بأهله من الريدانية إلى باب الفتوح ، ونزل فى دار تشرف على جامع الحاكم بحارة الريحانية ، حتى إذا استراح من لغوب السفر أياماً بعث برقعة إلى الوزير ابن رزيك ، يطلب فيها شرف المثول أمامه ، وأمام الخليفة الفائز ، وكتب فى آخرها

دعوا كل برق شِمتُم غيرَ بارق ... يلوح على الفسطاط صادق بشره
وزوروا المقام الصالحىّ فكل من ... على الأرض يُنسى ذكرُه عند ذكره

ولا تجعلوا مقصودكم طلبَ الغنى فتجنوا على مجد المقام وفخرِه
ولكن سلوا منه العلا تظفروا بها فكل امرئ يُرجَى على قدر قدره

فأرسل إليه ابن رزيك رسولا يخبره بأن المقابلة يوم الاثنين بالقصر الكبير . فأعمل عمارة خياله ، ودعا إليه شيطان شعره ، وكتب قصيدة طويلة أعدّها للإنشاد أمام الخليفة .

فلما جاء الموعد استأجر بغلة أوصلته إلى القصر الكبير ، فرأى من عظمته ، وضخامة بنائه ، وإبداع نقوشه ، ما أدهشه وأطار لبه . وقصور الفاطميين وما كان لها من سموق بنيان ، وبراعة نقوش ، وجمال أثاث ، وحسن تنسيق — يكِلّ القلم دون وصفها ، ويعجز البيان أمام سناها وسنائها . فليس فى طوق الخيال أن يلمّ بما كانت توحى به من عظمة ملك ، وقوة سلطان ، وضخامة ثروة ، وسطوة دولة ، وإسراف فى الترف ، وإغراق فى النعيم .

لا يستطيع القلم أن ينقش ، ولا البيان أن يرسُم ، ولا الخيال أن يصوّر . فخير لنا أن نلقى القلم ، ونُسكت البيان ، ونحبس الخيال ، ونترك للقارئ أن يتخيل ما يشاء ويرسُم من صور العزّ والملك والسلطان ما يريد .

وصل عمارة إلى القصر الكبير ، فاستقبله الأستاذون المحنّكون ، وعلى رأسهم مؤتمن الخلافة ، يتسلمه أستاذ ليوصله إلى آخر حتى انتهى إلى قاعة الذهب ، وكأنها بنيت من الذهب حقـًّا ، لكثرة النقوش الذهبية التي تملأ حيطانها وسقفها . وهي قاعة العرش التي يستقبل فيها الخليفة رجال دولته في أيام المحافل والأعياد والمواسم .

دخل عمارة خاشعاً مطرقاً ، وكلما حاول أن يرفع من طرفه قليلا ، رأى مهابة وجلالة ، وملكاً يبهر العيون ، ويهول النفوس . رأى الخليفة الفائز على العرش ، في أثواب كلها ذهب وديباج ، رآه صغيراً لا يتجاوز السادسة ، نحيل الجسم ، مصفرّ الوجه ، له عينان واسعتان كعيني النمر كلهما بريق والتماع . ورأى الأستاذين المحنكين حوله في رهبة وخضوع ، كأنهم يحرسون سرًّا سماويًّا مقدّساً ، ورأى وزيره الصالح بن رزيك ، واقفاً إلى يمينه في خشية وقنوت ، كأنه في معبد صلاة وتبتل ، وإلى يساره داعي الدعاة ، وقاضي القضاة ، والأمراء ، وكبار الرؤساء والقواد ، وفيهم الأوحد بن تميم ، وشاوَر بن مجير ، وضرغام اللخميّ ، ومجد الإسلام بن الصالح . ونقباء المعلمين .

أما كبار الكتّاب ورجال القصر ، فجلسوا خلف هؤلاء ، وكان بينهم : ابن الخلاّل صاحب ديوان الإنشاء ، والجليس ابن الحباب ، والمهذّب أبو محمد الأسوانىّ ، وزين الدين بن نجا ، وإبراهيم بن دخان ، رئيس ديوان الرواتب .

وكان الصمت يملأ النفوس هيبة ، فتقدم عمارة من الخليفة ، فقبّل يديه وقدميه ، ثم تقهقر قليلاً ، وأنشد بصوت ندىّ ونبرات ساحرة أخّاذة :

| | |
|---|---|
| الحمد للعيس بعد العز والهمم | حمداً يقوم بما أولينَ من نعمِ |
| قرّبن قربَ مزار العز من نظرى | حتى رأيت إمام العصر من أممِ |
| فهل درى البيت أنى بعد فرقته | ما سرت من حرم إلاّ إلى حرم |
| حيث الخلافة مضروب سرادقها | بين النقيضين : من عفو ومن نقم |
| وللإمامة أنوار . . . مقدّسة | تجلو البغيضين : من ظلم ومن ظلم |
| وللعلا ألسن تُثْنى محامدها | على الحميدين : من فعل ومن شيم |
| أقسمت بالفائز المعصوم معتقداً | فوزَ النجاة وأجرَ البرّ فى القسم |
| لقد حمى الدين والدنيا وأهلهما | وزيرُه الصالح الفرّاج للغمم |
| الّلابس الفخر لم تنسج غلائله | إلا يد الصّانعيْن : السيف والقلم |
| ليت الكواكب تدنو لى فأنظمها | عقود مدح فما أرضى لكم كلمى |

وكان الصالح شديد التأثر بالشعر الرائع ، يؤديه صوت رائع . فاهتزّ طرباً ، وأخذ يطلب الإعادة بين بيت وبيت . وملك حسنُ الشعر على الأستاذين ورجال الدولة وأدبائها شعورهم ، فلم يستطيعوا إلا أن يجهروا بالاستحسان والإطراء .

وكان بقاعة الذهب باب عليه ستار من الحرير المطرّز بالذهب ، كان ينفرج أحياناً فتطلّ منه عينان ساحرتان ، في وجه يمتزج فيه ماء النعيم بماء الفتنة والجمال ، وما كاد عمارة يتم إنشاده ، حتى أفيضت عليه الخلع المذهبة من أثواب الخلافة ووصله الملك الصالح بخمسمائة دينار ، وجاء بعض الأستاذين إليه يحمل صرة بها خمسمائة دينار ، وهو يقول : إن سيدتى سيدة القصور ، قد أعجبت بك وبشعرك أعظم الإعجاب ، وهى تبعث إليك بصلتها هذه، وقد أمرت أن تُخلّى لك « منظرة الغزالة » المشرفة على خليج أمير المؤمنين، ثم ابتسم وقال : على شرط أن تعيد أمامها إنشاد قصيدتك الرائعة، لأنها لم تستمتع خلف الستار بكل ما فيها من جمال .

ثم أقبل عليه المهذّب أبو محمد الأسوانى — وكان زعيم الشعراء بمصر وسيّد كتّابها — فشدّ على يديه مهنئاً ، وقال :

أيها الشاعر اليمنى ، هل أطمع فى أن أكون لك صديقاً . فإننى عند ما رأيتك أحسست بحبّى لك ، وحينما سمعتك أحسست بإكبارى لأدبك . لقد ألح علىّ مولاى الملك الصالح ألا تنقطع عنه ، وألاّ تحرمه زيارتك ، وأن تنثر عليه من حين إلى حين فرائد شعرك ، فإنه كريم أريحىّ يهتزّ للمديح ، ويجزل الثواب عليه ، وقد أمر أن يخلع عليك لقب : شاعر القصر ، وأن تمنح راتباً كل شهر يقرب من رواتب كبار الدولة .

فما استطاع عمارة إلا أن يشدّ على يدىْ صديقه الجديد ، بحماسة وإخلاص صادق ، ورجاه أن يبلّغ عظيم ثنائه وجميل شكره للملك الصالح ، على جزيل ما وهب ، وكريم ما أعطى .

وخرج ابن دخان صاحب ديوان الرواتب ، وزين الدين بن نجا ، فمال ابن دخان عل صاحبه ، وقال : ما هذه الشّعوذة التى شهدناها اليوم يا سيدى ؟ ! شاعر مستجد متكسّب بشعره يُلقى أبياتاً سمجة غثّة ، فينال من الجوائز والعطايا ما لم يستطع لمؤرخون ادّعاء مثله فى عهد الرشيد ؟ ! ماذا قال يا صاحبى بالله عليك . . ؟ ! ماذا قال . . . ؟ ! « بين النقيضين : من عفوٍ ومن نقم » ؟ ! . . . « تجلو البغيضين : من ظلم ومن

ظلَم » ؟ ! . . . ما أسخف ! ! . . . وأنا أقول له : يا ابن الشقيين : من عاد ومن إرم ! ! . . . وسارق الهاربين : النوق والغنم. وكان زين الدين مربدّ الوجه حزين النفس ، بعد أن رأى عدوه الذى طالما تمنى له الغوائل ، يصل إلى هذه المنزلة ويحظى بذلك الإقبال . فتكلف الابتسام وقال : ما كنت أظنك شاعراً أبا الفضائل. يجب أن تحمَد الرجل لا أن تذمه ، لأنه أول من ألهمك الشعر .

ـ أحمَده؟! أنا لا أطيق يا أخى هؤلاء الأفاّقين الذين يردون مصر من كل صوب ، لامتصاص دمائها ، واشتفاف لبنها. كأنها بقرة حلوب خلّفها لهم أبوهم آدم . هذا يأتى ببيت من الشعر فنسميه سيّد الشعراء ، وهذا يجىء بحَفنة من علم ، فنصيح : إنه أعلم العلماء ، وهذا متبتل ناسك قطع الفيافى والقفار إلى مصر ، ليزور مشهد الحسين ـ رضى الله عنه ـ فنصبُّ عليه العطايا والنعم حتى ننسيه نسكه وتبتّله . . . ما هذا يا ابن نجا ؟ ! أليس فى مصر شاعر يفوق هذا اليمنىّ المختال ؟ أليس بمصر عالم يفوق هؤلاء الذين يسقطون علينا كل يوم من كل نواحى الأرض ؟ !

وغداً يا سيدى غداً ، يجىء هذا الصعلوك ليطالب براتبه الذى رتّبه له الملك الصالح فى كل شهر . . وما راتبه ؟ ؟ مائة وخمسون ديناراً ، أنت تكدح وتنصّب ، وتعمل نهاراً وليلا فى خزائن الكتب ، ولم يزد راتبك على ثلاثين ديناراً . أنا لا أدرى ماذا سيكون من شأن الخزانة إذا استمررنا فى هذا الإسراف ؟ !

فابتلع الحرّانى ريقه من هول ما دهمه من قدوم عمارة والحفاوة به ، وقال : هوّن عليك أبا الفضائل . إن مصر كثيرة الخيرات واسعة الثروة ، وإن من المحتوم عليها أن تكرم أبناء العربية ، وأن تحسن لقاء الوافدين عليها . ثم إنى لا أعرف سبباً لبغضك هذا الرجل ، وهو وسيم الطلعة ، خفيف الروح ، وإن كان وجهه يدل على الخبث والدهاء واللؤم ؟ !

ــ لا أدرى لم أبغضه يا ابن نجا ؟ ! لقد سمُج فى عينى منذ رأيته ، وأحسست ببغض له يملأ قلبى . وهذا وحى الروح يا أخى ، وإذا كان « لهوَى النفوس سريرة لا تعلم » فإن لبغضها سريرة لا تعلم كذلك . . . لا أدرى والله ! ولكننى أشعر أنه يجب أن يزول هذا الرجل من طريقى ، حتى لكأن غرائز النّمر

تتحرك فى نفسى للوثوب عليه والتهامه .

ــ هذا ما أحسُّ بقليل منه. ولكن ما لنا وللرجل ! دعْه إلى الأقدار . . . دعْه إلى الأقدار .

٧

بعد عشرة أيام من إقامة عمارة بالقاهرة، أرسلت سيّدة القصور إليه عبدها « راجحاً » ليدعوه إليها . فركب حصاناً أشهب أهداه إليه الوزير طلائع ، وصحبه راجح على جواد عربىّ كريم . فسارا من حارة برجوان ، وكانت طويلة كثيرة التعاريج والمنحنيات ، حتّى وصلا إلى طريق باب الفتوح ، وبدا لهما الجامع الأقمر إلى اليسار ، فانحدرا جنوباً إلى ما بين القصرين. وتقدّم راجح بجواده نحو باب الزّمرّد : وهو أحد أبواب القصر الكبير ، فنزل وطلب من صاحبه النزول ، ثم اتجه به إلى قصر الزمرد : وهو جزء من القصر الكبير ، يمتاز بحسن بنائه ، وجمال زخرفه ، وكثرة ما به من أعمدة الرخام الضخمة . دهش عمارة

لفخامة الأثاث وجماله : فالأبسطة الفارسية تغرق فيها الأرجل ، والستائر المذهبة تذهل العين من جمالها ، والأرائك والكراسىّ كلها من خشب الصندل والعود المضبّب بالذهب . المرصع بالجواهر الكريمة ، وقد فرشت بأنواع الحرير الثمينة ، والمخمْمَل والُخسرَ وانى ، والديباج الملكى .

واتجه عمارة إلى يمينه ، فرأى حائطاً مغطّى بنسيج من الحرير الأزرق التسترى ، وقد طرز بالذهب ، وعليه صورة أقاليم الأرض ، وجبالها وبحارها ، ومدنها وأنهارها ومسالكها ، وفيه صورة مكة والمدينة ظاهرتين للناظر ، وقد كتب على كل مدينة وجبل وبلد ونهر وبحر وطريق اسمه بالذهب أو الفضّة أو الحرير . فاقترب عمارة من هذا المصوّر العظيم ، فرأى أنه كتب فى حافته « ممّا أمر بعمله المعزّ لدين الله ، شوقاً إلى حرم الله ، وتنويهاً بمعالم رسول الله . فى سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ، والنفقة عليه اثنان وعشرون ألف دينار » .

أما الستائر فكانت من الحرير الأخضر ، وعلى كل ستارة صورة لملك أو خليفة أو قائد لكل بلد من بلاد المسلمين ، وقد كتب تحت كل صورة اسمه ، ومدّة حياته ، ومجمل تاريخه .

بُهت عمارة لهذا الملك العظيم وهذا العز السامى ، وذلك الترف الذى بلغ الغاية وجاوز حدود الوهم والخيال. فلم يشعر بالجوارى الذاهبات هنا وهناك ، من روميّات ، وصقلبيّات ، وتركيات ، وجركسيّات. وقد زادتهن الملابس جمالاً ، أو زدن الملابس جمالا .

أصيب عمارة بالذهول أو بما يشبه الجنون ، وما شعر إلا براجح يرفع ستارة من الديباج المطرز باللؤلؤ ويقول له : تقدّم .

فتقدم عمارة ورفع بصره قليلاً ، فرأى سيدة القصور فى صدر البهو على كرسىّ مرتفع يشبه العروش ، وقد كان ما لمحه من جمالها فوق ما يصوره الشعراء ويجسّمه المثالون. خلقها الله لتكون فتنة للعيون وجوى للقلوب ، وحيرة للواصفين . هى جميلة كلها ، فإذا أخذتها قطعة قطعة كانت أروع وأجمل .

تقدم عمارة فقبّل يدها ، ثم قبّل طراز ثوبها ووقف مطرقاً خاشعاً. فأعجبت سيدة القصور بجميل طلعته ، واعتدال قامته ، وبما يبدو فى عينيه من صفات النّبل والرجولة . فمال إليه قلبها وخفق فؤادها ، وشعرت بقوة تجذبها إليه ، قد تكون ما يسميه الناس حبّاً. ولمّا رأت حيرته وارتباكه ، أرادت أن تخفف عنه ،

وتبسَّط ما انقبض من نفسه فقالت : كيف أنت يا يمنيّ ؟ ؟
لعلّك رأيت فى « قاهرتنا » ما يُسليك عن « صنعاء » و « زبيد » !
فقال عمارة : يا مولاتى . إن الذى يعيش فى وارف ظلكم ،
وعزيز كنفكم ، ينسى وطنه وأهله ولو كان فى صحراء قاحلة .
فكيف والقاهرة بكم سيدة الحواضر ، ومدينة المدائن ؟ ! . .
إن مصر يا مولاتى لم تَر منذ أن خفقت فوقها راية الإسلام ،
دولة كهذه الدولة : قوّة ومنعة ، وعدلا ، وجوداً ، وإحساناً .
وإن النّاس اليوم إذا أرادوا توكيد أيْمانهم ، لا يقولون الاّ :
« وحق سيدة القصور » ، فمن غير الفاطميين يا مولاتى نشر فى
مصر الأمن ، واليسر ، والسرور ، والثروة ! ؟ حتى لو كان
الفقر رجلا وسألنى عن صديق يصاحبه لقلت له : لن تجد
يا صاحبي لك هنا رفيقاً ، ولكن عليك باليَمَن فإنك تجد هنالك
أصدقاء بالألوف .

فابتسمت سيدة القصور ، وقالت : هذا دأبكم أيها
الشعراء ، تَلْبِسون الحق بالباطل ! !

ــ إن وصف مصر فى أيامكم يا مولاتى يعجز الشعراء .
وكلُّ ما يقال فيها دون ما يجب أن يقال .

— أنت لم تر الفاطمية فى ذروة مجدها ، أظنها الآن تسير بقوة من الماضى .

— يا مولاتى : الفاطمية بك ، وبمولاى الخليفة دائماً فى ذروة مجدها .

— إن آمالى يا عمارة أبعد مما تناله يدى ، ولو استطعت لأعدت أيام « المعزّ » و « الحاكم » ولكنى أجد الطريق وعرة والمرمى بعيداً . وأنّى تستطيع امرأة ضعيفة مثلى أن تعمل شيئاً ، ودرعها الخمار وسيفها البكاء ، وعليها جرّ الذيول لا قيادة الجيوش ؟ ! . . إننى فى الحقّ سررت بمقدَمك ، لأن القصر كان فى حاجة إلى شاعر يذيع مآثره ، وينشر مفاخره ، وينقل صوته من الخاصة إلى العامة ، فيزيدهم بالخلافة تمسّكاً ، ولها نصراً وتأييداً .

— إن شعرى يا مولاتى سيكون جيشاً بجانب جيوشكم ، وسأكون لكم كما كان «حسَّان» للمسلمين الأوَّلين .

— حيَّاك الله أبا محمد . . . هذا ما ترجوه منك الخلافة . إن الخليفة لا يزال صغير السنّ ، وأرى الأعداء يرمقون مصر من كل جانب : فالأفرنج نزلوا الشام وملكوا كثيراً من بلادها

وقد أصبح خطبهم شديداً . وهؤلاء الغُزّ الذين ستروا مطامعهم في اغتصاب الأمم، بدعوى الغزو والجهاد في سبيل الله، والذين يقودهم نور الدين بن زَنكي يتحرّقون شوقاً إلى مصر، وإلى الارتواء من نيل مصر . وهذه الدّسائس الّتي تحاك هنا حولي في سراديب مظلمة في جنح الليل المظلم ، تنذر بالخراب والدّمار . فماذا تفعل امرأة ضعيفة مثلي يا شيخ في وسط هذه الزوابع والزعازع ؟! كان صوت الأميرة حزيناً متهدّجاً ، وقد فرّت دمعتان من عينيها أسرعت إلى مسحهما بمنديل في يدها . ثم كأنها أنفت من هذا الضعف النّسْويّ ، فضربت بقدمها الأرض وقالت أريد أن أنقّي هذا الجو حتّى أستطيع أن أتنفّس . .. أريد أن أنام ملء عينيّ في قصور المعزّ ، من غير أن أشعر أن الكيد والخديعة والأعداء من الخارج ، تنقبها من قواعدها . . .

— إن قوّادك ووزراءك يا مولاتي طوع أمرك . والملك الصالح طلائع الذي قدِم بجيشه من « مُنية ابن خصيب » لنصرة الخلافة ، لا يزال كما كان للخلافة أميناً مخلصاً .

فظهرت على وجه الأميرة كُدرة خاطفة سريعة ، من الحقد والغضب لم يدركها عمارة ، وابتسمت وقالت : صدقت يا عمارة.

ما أعلمك بأخلاق الرجال !! . . إن ابن رزيك قِوام هذه الدولة وهو سيفها القاطع ورأيها النافذ . وإنى أسدّ أذنى عمّا يقول كثير من حسّاده، يقولون : إنه أرْمنّى اتخذ الإسلام ذريعة للدنيا لا للآخرة، واتّخذ المذهب الفاطمىّ ذريعة للملك . . قاتلهم الله فهم كذّابون أفّاكون ! ! لن تجد مصر رجلاً كابن رزيك، ولو كان للإخلاص والوفاء صورة لكانت ابن رزيك . أما « شاوَر » و « ضِرغام» فلا أعرف عنهما إلا أنهما كبيرا الآمال. ولعلّ هذه الآمال تتجه إلى إعزاز كلمة الخلافة ! !

ثم ضحكت وقالت : أتعبتك من الحديث فى شئون الدولة، وكلّ حديث فيها مملّ ثقيل. ما أجمل قصيدتك التى أنشدتّها يوم استقبالك ! ! وأجملُ ما فيها :

ليت الكواكب تدنولى فأنظـمَـها     عقودمدح فماأرضى لكم كَلمِى

المعنى قديم مطروق يا أبا محمد، ولكنك أحسنت صياغته .

فإيهٍ بالله عليك أبا محمد . . . ادْنُ منى قليلا . . . مالى أراك مستوحشاً ؟ ! . . . انفُض عنك هذه الرهبة وحدّثنى كما تحدث الناس ، فقد سمعت أنك حلو الحديث ، عذب المحاضرة والمفاكهة . . . اسمع يا عمارة : أتريد أن نكون أصدقاء ؟ ؟

ـ تلك منزلة لو رأيتها فى المنام يا مولاتى ما صدّقتها . وأين الثريّا من يد المتناول ؟ !

ـ لا . صدّقها ونحن فى اليقظة لا فى المنام، وأمامك سيّدة القصور بنت الخلائف وملكة مصر .

فأكبّ عمارة على يديها ، فتركتهما له ، فاستمر طويلاً يغمرهما تقبيلاً ولثماً ، وقد أحس كهرباهما تسرى إلى جسمه ، فتملؤه نشوة وانتعاشاً ثم قال : أنا عبد مولاتى وخادمها . وإن قلمى ولسانى ، وسيفى ـ إن شاءت ـ ملك يمينها .

ـ لا . . أنت صديقى . ولكننا قبل أن نبنى هذه الصداقة ، يجب أن نجعل أساسها ميثاقاً مقدّساً ، وعهداً أكيداً .

ـ ألف عهد وألف ميثاق ، أبذلها تحت قدميك ، وأنثرها أمام هذا الجلال الرائع . . . ولولا رهبة الملك لقلت أمام هذا الجمال الفاتن . فابتسمت الأميرة وقالت : لم تطق أن تصبر لحظة عن شاعريتك فحننت إلى الغزل ، كما يحنّ الطائر إلى التغريد عند سفور الصّباح !

ـ يا مولاتى أنا شاعر . والشاعر ليس إلا مرجلاً يغلى بضروب الإحساس والوجدان ، فإذا لم يجد متنفساً انفجر وتحطّم .

إننا معاشرَ الشعراء نرى الصُّور بعيون من الفن لا يبصر بها سوانا. نرى الجمال فنذهب بخيالنا فى روضاته ، فيتكشّف لنا عن بدائع لا تراها العيون . . . نحن نعيش فى دنيا غير دنيا الناس ، ونفهم من أسرار الحسن غير ما يفهم الناس . إن الحسن أحياناً قد يتحدّى الشعر ، وقد يُعجز الخيال ، وقد يبهر العين كما بهرنى ، ولكنا لا نلقى أمامه السلاح أول مرّة ، ولا نستسلم خاضعين ، بل نأخذ فى إطلاق الشعر حوله رصيناً أو غير رصين ، مبيناً أو غير مبين ، ثم نصيح كما يصيح المحموم ، حتى نخفف من ثورة قلوبنا وإلا قتلنا الحب ، ورحنا شهداء النظرات الفاتكة ، والبسمات الفاتنة .

— قصيدة منثورة يا أبا محمد ! ! إن ابيانلك سحراً عجيباً !

ثم تهانفت وقالت : نسينا العهد والميثاق .

— صوغى العهد يا سيدتى كما تشائين ، ولا تُبقى شيئاً من الأيمان المحرجة ، فإنى أكرر بعدك كل ما تقولين .

— إن عهود الفاطميين ليست هيّنة يا عمارة ، فهى شديدة قاسية ووراء كل كلمة منها إسماعيلىّ فِدائى ، يغمد سكينه فى قلب كل مَن نكث بها .

ــ إن دمي لك يا مولاتى . وهل أقول قلبي ؟ ؟

ــ قل ما تشاء .

ــ دمي ، وقلبي ، وحياتى لك يا مولاتى . فهاتى العهد ، وتشدّدى ووثّقى كيف شئت كما يوثّق كتّاب العقود .

ــ ولكنى قبل العهد أريد أن أتحدّث معك قليلاً . أتعلم أن أهل مصر تحوّلوا جميعاً إلى المذهب الفاطمى ، وأصبحوا من أشدّ الناس غيرة على نشره ، والمحافظة على تعاليمه ومراسمه . . . إنهم قوم يحبّون البهجة ومظاهر السرور ، وحفلات الأنس والطّرب ، وضجيج المواسم . وقد أكثرنا من ذلك لهم . . . أتعلم أنّ مواسم الفاطميّين تزيد فى السنة على ثلاثين موسماً ؟ ! هذا إلى ما يعمل فى رمضان والعيدين من الحفلات الشائقة وضروب البذخ والإسراف . أتعلم أننا جعلنا سيف المعزّ وذهبه شعاراً لدولتنا ؟ ! أسمعت بقصّة جدّى المعزّ فى أوّل اجتماع عامّ له بالقاهرة ، حينما طالبه ابن طباطبا نقيب الطالبيين فى مصر بما يثبت نسبه وحسبه ؟ فنثر جدّى الذهب على الناس ، وقال : هذا نسبي ! ! ثم جرّد سيفه من غمده وصاح : وهذا حسبي ! ! ومن ذلك الحين أصبحت دولتنا تقوم على هاتين الكلمتين :

الذهب لمن أطاع وأصلح . والسيف لمن عصى وأفسد .

ـ هذا يا مولاتى هو العز الباذخ ، والملك الشامخ ، فبأبناء فاطمة تتيه مصر ويسعَد أهلها .

فمالت إليه الأميرة باسمة ، وقالت بصوت عذب النبرات :

ـ بعد هذا ، وبعد ما سمعتُ منك أبا محمد عن سماحة الفاطميَّة وجودها وعدالة حكمها. أحبّ أن تكون فاطميًّا .

ـ أنا فاطميّ يا مولاتى . . . أحبّ فاطمة الزهراء ، وأحبّ عليًّا كرّم الله وجهه ، وأحب أولادهما ، وأعتقد أن حبّهم قُربَى إلى الله وشفاعة .

ـ لا يا عمارة . . . لا تغالطنى بحقك . . . أنت تعلم ما أريده ولكنك تروغ روغان الثعلب ، ولولا ميل أحسّه نحوك ما طاولتك هذه المطاولة. ثم ظهرت فى وجهها شراسة النّمرة فقالت :

إن لمثلك عندنا إحدى خلّتين : إما أن يعتنق مذهبنا ، وإما أن تسيل نفسه على سيوفنا . . . أتريدنا الآن يا يمنى على أن نعود إلى الانحلال والتجاوز المميت؟ ! لا .. لا .. لا بد من إحداهما إما أن تكون فاطمياً ، وإما ألا توجد .

فارتعدت فرائص عمارة وقال فى تلعثم : فهمت من مولاتى أنها

لا تريد من الحياة إلا إعلاء المذهب الفاطمى ، وتثبيت أركانه. وفهمت أنها لهذه الغاية نفسها ، تدعونى إلى اعتناق المذهب . فما رأيك يا مولاتى فى أننا متّفقان فى الغاية ؟! . . . متفقان تمام الاتفاق ! !.. سأكون خير عُدّة فى نشر المذهب الفاطمى .. سأكون له لساناً ناطقاً وقلباً خافقاً .. سيكون شعرى أغنيّته التى يطرب لها كل سمع ويتفتح لها كل قلب . . . سيحسدنى داعى دعاة المذهب على حسن ما أبليت فى إنهاض الفاطميّة وإعلاء لوائها . . سيرى النقباء الاثنا عشر أنهم لم يعملوا شيئاً بجانبى . . سيردد الأطفال فى الحارات أناشيد الفاطمية ، وستغرد النساء فى بيوتهن بمجد الفاطمية ، وسيرى الأدباء والعلماء فى شعرى صوراً ساحرة بجمال الفاطمية وسماحتها . . . سأعمل كل هذا لأننى أحبّ مولاتى ، ولأننى رأيت من كريم وفادتكم ، وجزيل عطائكم ، وعميم إحسانكم إلى الناس ، ما بهرنى وملأ قلبى حبّاً لكم ولكل ما يتصل بكم . أمّا عقيدتى أنا . . .. التى تنطوى عليها جوانحى ، فدعيها لى يا سيدتى .. دعيها بالله فإنها بقية ما يصلنى بأهلى الذين فقدتهم . . دعيها فإنها إرث الماضى البعيد . . دعيها فإنها جزء من نفسى . ثم وثب قائماً وفى وجهه شهامة العربىّ الكريم .

وقال : لن أغيِّر عقيدتى ، ولو طلبت ذلك أجمل امرأة أظلّتها السماء، وهى سيّدة القصور .

— اهدأ أبا محمد .

— يا مولاتى . إنى أعتقد أننى لو غيَّرت عقيدتى أوّلَ ما تطلبين منّى، لهزئتِ بى وسخِرت منى ، وقلت فى نفسك : تَعْساً له من رجل سقيم الإرادة هزيل العزيمة ! ! ثم هبينى كنت رجلاً إمّعاً لا خلق له ولا عزم ولا دين ، أتظنين أن ذلك يقربك من غايتك ؟ ! لا . سيضحك الناس منّى فى أكمامهم إذا ناديت فيهم بفضل الفاطميّة، ويقولون: يا له من شقىّ أفّاق منافق مأجور ! ! اشترت منه الخلافةُ عقيدته بدراهم معدودة ، فجاء يدعونا إلى الحرص على مذهبها ! وربما همس أحدهم فى أذنى بخبث وشماته قائلاً : إنّ رجلا يفرِّط فى مذهبه ، أولى به أن يتوارى عن الناس ، وألاّ يحثهم على التمسك بمذهبهم . ثم إنّ الوفاء أظهر خلائقى ، وأقوى شيمى . فإذا لم أفِ لعقيدتى فأجدِر بى ألاّ أفى لمخلوق . . . سأعيش للوفاء ، وسأموت للوفاء ، ولن يقول إنسان : إن ابن علىّ خان عهداً أو أخفر ذمّة .

فانبسطت أسارير سيّدة القصور وقالت : أحسنت أبا

محمد. إن هذا البيان وهذا الفكر الواسع لا تستغنى عنهما الفاطميّة.

ـ اطمئنى يا مولاتى ، فسأكون لك عوناً ، ولمذهبك سيفاً ودرعاً ، وسأكون فاطميًّا بلسانى ، سنيًّا بقلبى . فماذا تريدين منّى فوق هذا ؟ ؟

ـ أكتفيت أبا محمد . فإن لروعة منطقك ، إلى وسامة طلعتك ، إلى كريم خلقك وكمال رجولتك ـ سحراً وفتنة . أيُرضيك هذا الإطراء أبا محمد من امرأة كانت تظن أن الأرض أقفرت من الرجال حتى رأتك ؟ ؟

فوثب عمارة على يديها يقبّلهما ، ويرتفع بفيه قليلا قليلا حتى يصل إلى معصميها . ثم قال : أيرضيني يا مولاتى ؟ ! أنا لا أدرى : أأنا فوق الأرض ، أم سابح فوق السحاب ؟ !

ـ لا . . . لا تعد إلى شاعريّتك . أنت معى هنا فى قصر الزمرّد . . هلمّ إلى العهد. فتنهّد عمارة وقال : هاتى يا سيدتى . هاتى . . . فأخرجت سيّدة القصور ورقة من منديلها ، وأخذت تتلو وهو يُعيد : « أقسم وأحلف بالله المنتقم القاهر ، وبرسوله الكريم ، وبوصيّه ووليّه ، وببنته الزهراء سيدة نساء أهل الجنة ، وبكريم نسلها وشريف عترتها . على أن أكون للفاطمية عوناً ولها

ناصراً ، ولدولتها مؤيّداً . وعلى أن أعاضد أولياءها، وأحارب أعداءها، وأتخذ كل وسيلة ، وكل أداة ، وكل ذريعة لرفع شأنها، وإماطة الضرّ عنها . وعلى أن يكون دمى ، وشرفى ، ومالى ، هدراً مباحاً إن أنا خنت لها عهداً ، أو نكثت بوعد ، أو توانيت عن وفاء . »

وبعد حلف اليمين كان جبين عمارة يتصببُ عرقاً . فرفع عينيه وقال : بقيت مسألة يا سيدتى ، وهى أنى شاعر ، وقد أمدح قوماً تضمرين لهم سوءاً ، فهل ذلك ضائرى عندك ؟ ؟

ـ لا يا عمارة، أيّد بمدحك من تشاء منا، واخدع بمدحك مَن تشاء من غيرنا، ولا تخش شرّاً فأنت موضع ثقتى . . هلم إلى الطعام والشراب .

ثم قامت سيدة القصور إلى بهو آخر ، أعدّت فيه مائدة ملكية يحيّر وصفها الألباب. وبعد الطعام تقدمته الأميرة إلى بهو الأغانى ، وقد كانت الجوارى أعددْن آلات الطرب .

فجلست الأميرة ، وجلس عمارة بعيداً ، وجلست إلى جانب الأميرة جاريتها « باسمة » وهى جارية جركسية بارعة الحسن ، رائعة الطلعة ، تفور فيها الأنوثة ، وتصطخب فى نفسها ثورات الشباب. لمحت عمارة، فرأت فيه محيًّا عربيًّا ، ووجهاً صبيحاً ،

وقامة فارعة . فاضطرب له فؤادها ، وأخذت تخالسه النظر ، وتتحين الفرصة لمحادثته واجتذابه . واستمر الطرب إلى المزيع الأخير من الليل . حينئذ وقفت الأميرة وسلّمت على عمارة ، وهمست فى أذنه : سأرسل إليك راجحاً فى كلّ ثلاثاء . ثم أمرت « باسمة » أن تسير معه إلى الباب الكبير ، وأن تأمر راجحاً أن يصحبه إلى داره .

فسارت «باسمة» معه من سلّم إلى سلّم ، ومن بهو إلى بهو ، وقد جاذبته الحديث طويلا فى هذه الأثناء ، ورمت إليه بكثير من شباكها ، وألقت إلى قلبه بالمجرّب النافع من سحرها . ولكن عمارة كان عنها وعن فنونها فى شغل شاغل ، فلم يقابلها إلا بالصدّ والعبوس. فحزنت « باسمة » ولكنها لم تيأس ، وقالت فى نفسها : ويل لهذا المهر الحرون منى ! ! سيأتى إلىّ خاضعاً ، وسيلقى عنانه بين يدىّ ذلولا . ثم قابلا راجحاً فودعته « باسمة » وانصرفت . فركب عمارة وراجح جواديهما ، وإذ هما يخرجان إلى الطريق سمع عمارة مؤذن الصبح ، من مئذنة الجامع الأقمر ، وهو يردد بصوت رنان : حىّ على خير العمل ! ! ... حىّ على خير العمل ! !

# ٨

أقام عمارة بالقاهرة طويلا فى عزّ وثروة وهدوء بال ، وكان يستدعيه راجح فى كل أسبوع للقاء الأميرة، فزاد هُيامه بها ، وبجودها وذكائها ، وحرصها على حياطة الدولة. وكانت « باسمة » فى كل زيارة تغازله وتحتال على أن تُصْبيه ، فيصرفها عنه فى تعفّف واستنكار .

وبينما كانت تودعه إلى باب القصر فى بعض زوراته، دخلت به إلى إحدى الحجرات، وسألته فى رشاقة تستنزل العُصْمَ، وفى دلال يلين الصخور الصُّم أن يكتب لها بعض أبيات رقيقة قالها فى الغزل. وكانت تحدثه وهى ترفع خُصله مهدلة من شعرها الذهبى اللمّاح، وتصوب إليه عينيها فى ضعف وفتور ، يوقظ الفتنة النائمة ، ويثير العاطفة الخامدة . والجمال يستعين دائماً بقوته إذا ملك، وبضعفه إذا حاول أن يملك ؛ والجمال الهادئ المستكين أقوى أنواع الجمال تحكماً فى قلوب الرجال ، وهو

أحبولة المرأة، وأداة وثوبها، ودرع دفاعها. عرفت المرأة بفطرتها الصادقة، وغريزتها النافذة ، ما فى الرجل من غرور وكبرياء، واعتزاز بحوله وطوله. فهى دائماً تأتيه من هذه الناحية، فتتوسل بضعفها إلى قوته، وبأنوثتها إلى رجولته، وبلينها إلى خشونته، وبأنها تريد أن تتخذ من قلبه حصناً تلجأ إليه من عواصف الأيام، ومن عطفه حمًى تلوذ به من أعاصير الحياة. ثم تبعث بجمالها الوادع الذليل شفيعاً إليه، فلا يزال به حتى يجتذب عطفه، ويستهوى حنانه - والحنان أول مراتب الحب، والإشفاق أول مراحل الغرام - حتى إذا فازت بعطفه، أخذت فى إنمائه بالإيحاء، وبأساليب يعرفها النساء وحدهن: أساليب كأنها غير مقصودة، وهى مقصودة. وكأنها من المصادفات، وليست من المصادفات، وكأنها تصدر على الرغم منهن، وليست إلا من قصدهن. وهنا يقع الرجل فى الشرك، وهنا يتغلب الحب، وهنا تتحكم المرأة، وهنا يعود ذلك الضعف المتصنع قوة وجبروتا!!

قالت «باسمة»: إنها ليست أبياتاً يا سيدى. إنها همسات الحب فى أذن العاشق المهجور. أتعرف أننى كلما سمعت «طروب» تغنيها لم أملك دموعى!!

إن الشعراء يجتذبون المرأة بمثل هذا الشعر الذى لا يخطىء سبيله إلى القلوب، فإذا اهتزّت مشاعرها له جاء الحياء فكتّم ما تحسّ به ودفنه بين جوانحها حياً ، لا لشىء إلا لأنها امرأة يجب ألا تتكلم ، ويجب ألا ينم وجهها إلا عن السخرية بالغزل وأغانى الغرام . أما الرجل فمباح له أن يبوح بما فى نفسه . ومباح له أن يُغرى من يشاء بما شاء. ولقد يكون خدّاعاً، ولقد يكون ماجناً عربيداً، يلهو بقلوب الحسان كما يلهو الطفل بلُعَبه، حتى إذا سئمها داسها بقدميه ، وتركها حُطاماً .

ليس للمرأة المسكينة أن تقول : أحبُّ . وليس لها أن تجيب عن ابتسامة بابتسامة ، ولا عن زفرة بزفرة . وإنما عليها أن تصرف وجهها عن مائدة الحب ، ونفسُها تشتهى كل ما عليها من ألوان ، لأنها صنم من جمال ، وتمثال من حسن ، لا يتكلم ولا يريد . فإذا ضحكت أحياناً ضحكة فيها رنين ، أو أنزلق لسانها بكلمة تصور خلجة من خلجات النفس الحائرة، أو أدلت برأى فى معنى الحسن ــ سلقتها الألسنة ، وحملقت نحوها العيون ، وترحّم الناس على الحياء والفضيلة ، وهزّت العجائز رءوسهن فى رعب ودهشة ، وبكين ماضى أيامهن ، حين كانت البنت

تُرى ولا تسمع ، ثم ينتقلن بالحديث إلى فساد الزمان ، واضطراب الأوضاع ، وضياع آداب السّلف .

ويا ويل الشّباب من المشيب ! ! فإنه حينما يرى أنه تسلّب من القوة ، وماتت فيه غرائز اللهو ، وقعدت به السن عن الاستمتاع بلذائذ الحياة — يمتلىء صدره على الشباب حقدا ، وتغلى نفسه منه غيظاً ، ويرميه بالجنون والطيش ، وتمزيق ستار الأدب ، وتمريغ الفضيلة فى التراب . ولو أن شيخاً هبّ من نومه ، فأحسّ بالشباب وقد عاد إليه ، والفتوة وقد تمشت فى عروقه الواهنة الذابلة ، ونظر فى المرآة فرأى شيبه وقد ارتدّ سواداً ، ووجهه وقد صقله الصبا ومحا منه الغضون — لغيّر رأيه فى الفضيلة وكان أوسع أفقاً ، وأكثر تسامحاً ، وأسرع إلى داعى اللهو استجابة ، ولضحك مما كان يراه بالأمس من وجوب التحرُّج والتزمُّت ، والابتعاد عن التمتع بزينة الله التى أخرج لعباده .

— هذا صحيح يا فتاة . ولكن مالك تعذبين نفسك بهذا التفكير الذى لا يجرّ إليك إلا الحزن والبلبال ؟ !

— إننى يا سيدى لم أخلُق نفسى . ولو خيّرت لاستبدلت بهذه النفس التى أشقى بها نفساً جامدة بلهاء ، لا تشعر بالمعانى

السامية ، ولا تهتزّ للجمال الروحىّ الذى فيه غذاؤها وريّها وحياتها . أنا يا سيدى فتاة منكوبة ، أعيش حبيسة فى هذا القصر ، بين سادة يسوموننى الذل والخسْف ؛ لأننى فى أعينهم أمَة اشترَوها بمالهم ، واشتروْا معها فى زعمهم كل مافيها من حس وإدراك وشعور . فيجب ألاّ تحِس وألا تدرك وألا تشعر ، وبين خدم يحسدوننى على منزلتى من سيدة القصور ، ويدبّرون لى المكايد وينصبون الحبائل . أرايت يا سيّدى أسوأ من هذه الحال ؟ ! أمَة ذليلة محسودة . أمَة تضطهد فى ضوء النّهار ، وتحاك لها الدسائس فى ظلمة الليل .

أمَة . . .؟ وهل أنا أمَة . . . ؟ ! ولكنهم أماتوا روحى ، وقتلوا ما كان فى نفسى من عزّة ، فلن أستطيع أن أتكلم ! !

— إنى أتألم لألمك يا فتاتى . تكلمى ... تكلمى . . . فلن يُزيح عن النفس أحزانها إلا البوْح والبكاء .

— لك يا سيدى أبوح . ولمثلك أشكو ، فإن لك قلباً لا يضيق بفتاة بائسة مثلى ، تلتجىء إلى ركن فيه لتعتصم من ويلات الزمان .

أنا لست أمَة أبا محمد. إن لى قصة تستنزف ماء الشئون ،

وتثير لواعج الشجون . ولكن لسانى لم ينبس بها لأحد . وماذا فى أن تكشف ذات نفسك لقوم لا يلقَوْنك إلا بالسخرية والتكذيب والمراء ! أنا لست أمة ، ولكن أبى كان حاكماً ببلاد الجركس ، ولم يكن له من ولد غيرى . وكنت ريحانة حياته ، وفِلذة كبده ، وحبّة قلبه. وكان بى مشغوفاً ، وبحبى كَلِفاً . وكان أبى شديداً فى مطاردة اللصوص ، مستقصياً لهم ، صارماً فى عقوبتهم. فقبض مرّة على زعيم من زعمائهم فأذاقه صنوف العذاب ، ثم وَسَّطه فى ميدان المدينة. ويظهر أن أحد رجاله أراد أن ينتقم له ، فرأى أن أشد ما ينتقم به منه أن يختطف ابنته ، وأن يذيقه لوعة فقدها ـ فخُطِفت فى السابعة من عمرى ، ونُقلت إلى الشام فى بيت نخّاس ، كان يحفّنى بعناية فائقة ، ويشملنى بعطف سابغ ، ويدللنى تدليل الأب الشفيق . وقد أحضر لى عجوزاً كانت تختلط بنساء الأكابر ، لتلقننى آداب السلوك ، وآيين القصور . وكنت وأنا بين هذا الترف الكاذب والنعيم الزائف ، أسكب الدمع فى خلواتى مدراراً ، وأكاد أبخع نفسى على أهلى حزناً .

وقد أقمت عند صاحبى طويلا حتى بلغت مبلغ الأنوثة

الكاملة ، وتفتّحت فىّ أكمام الشباب الناضج ، وأظهرتْ منى الخامسة عشرة مكنون الجمال ، ومستور الفتنة . وإذا كان الشّباب جمالا ، فأجمل منه أن يكون جميلا . وكلما تبلج حُسنى زاد صاحبى بى حفاوة ولى إكراماً . وذاع فى دمشق أن لدى حسين الدفانى النخاس فتاة لم تحو قصور الملوك مثلها ، فتزاحم على بابه سماسرة العبيد والجوارى ، يُغرونه ببيعى ، ويزيدون له فى ثمنى بالمئات من الدنانير . وكان الرجل يقابل إسرافهم فى العرض بإسراف فى الإباء . وكنت فى أثناء هذه الضجة وهذه المغالاة بقدرى ، لايفارقنى خيال أبى ، ولاتنأى عنّى ذكراه . وكان قلبى بالحنين إليه خفاقاً ، وبالشوق إليه دائم الوجيب ، حتى زارتنا فى عصر يوم امرأة من بلاد الجركس ، فجاذبتها أطراف الأحاديث ، ثم انفلتُّ فى حذق ولباقة إلى السؤال عن أحوال البلاد وعادات أهلها ، كأنى لا أعرف من أمرها شيئاً . فانطلقت المرأة فى القول ، وأسهبت فيما يصيب البلاد من فوضى ، وما فيها من عصابات ضارية ، مَرَدت على اختطاف البنات وبيعهن فى أسواق الرقيق . وعلمت منها أنّ أبى بعد أن نُكب فى ابنته ، برّح به الحزن فمات كمداً . حينئذ يئست من الحياة ، وعرفت أنى

خلقت للذّل والمهانة ، وأن هذه الحلىّ التى تزيّن معصمىّ وصدرى ، والحرائر الثمينة التى أرتديها ، إنما هى من عبث القدر وأضاحيكه . وأنها أشبه بزخرف القبور ، منها بزينة فتاة تستقبل الحياة .

ثم جاء والى دمشق ذات صباح ، وطلب من صاحبى أن يسافر بى إلى مصر ، ليبيعنى لسيّدة القصور ، على أن يتحكّم فى الثمن كما يشاء . فسافرنا إلى القاهرة، وعُرضت على سيدة القصور ، وكان العرض مؤلماً . . . ثم سئلت عن اسمى ، فأطرقت وتبسمت ابتسامة حزينة واجدة ، فصاحت سيدة القصور : سميتها « باسمة » ، ثم طلبت إلى الخدم والجوارى أن يدعونى بهذا الاسم ، فبقيت فى القصر منذ ذلك الحين أعامل معاملة الدُمَى حيناً ، ومعاملة الإماء الذليلات أحياناً . ارحمنى يا سيدى . . . ارحمنى . . . فإننى أتحرّق إلى صدر رفيق يجيب خفقات قلبى ، وأشعر فى دفئه بالحب والحنان .

— يحزننى يا فتاتى أنك طرقت قلباً مشغولاً ، ملأ الحب كل حُجُراته فلم يترك فيه مكاناً لحب جديد .

— لك ألا تسمى ما أدعو إليه حباً ، سمّه عطفاً إن شئت .

— إن العطف أول الحبّ . وإذا رضيتِ بالعطف أولَ الأمر ، فلن ترضى به إذا طال الزمان. إن قلبي يا فتاتى موحِّد لا يؤمن بالشريك .

— لقد حرمتُ يا حبيبي حب الأب ، وحبّ الصديق ، وأريد أن أعيش إنسانة تجتذب الحبيبَ ويجتذبها الحبيب ، تُصبي الحسن وتصبو إليه. إنني من جيل تعنُف فيه الغرائز وتشتد، وتسيطر فيه نزعات القلب على حكمة العقول . أريد يا حبيبي أن أحيا ساعة واحدة أشعر فيها أنني لست أمَة رقيقة ! !

— أليس لك فى زوجك يا باسمة ملاذ يسكن إليه قلبك ، وتهدأ فى كنفه جوانحك ؟

— زوجى ؟ لا تمزح يا سيدى ! بالله عليك لا تمزح ! إنه ناطور الزّواج كما يضعون فى البستان ناطوراً ليذود الطير عن ثمره. زوجى ؟ ! ذلك الذى أرغمتنى سيدتى على التزوجَ به ، لتصوننى من رجال القصر الذين كادوا يفترسوننى بأعينهم ، والذين كانوا يلاحقوننى فى كل مكان . ومن هو الذى ألزمت الزواجَ به ؟ فَدْم ، جاهل، مغفّل، غبى متعاقل، سريع الغضب ، بطىء الهمة . هذا هو الزوج الذى اختارته لى سيدتى ، واختيارُها وحى

من الرحمن يجب ألاّ يردّ ، ولا يجادَل فيه ، ولا يسائل المرء نفسه عن سرّه ! فهل لى فى أن أطمع فى عطفة منك تضىء ظلام حياتى ! ؟

— لا أكاد أفهمك يا باسمة ، ولا أكاد أفهم معنى لهذا التشبّث بعد ما ظهرتُ لك من الانصراف عن كل ما يسميه الناس حبًّا. وقد أكرمتنى سيدة القصور بجفاوة لم يظفَر بها سواى ، وليس من شيمى أن أعبث بهذه الكرامة .

— أنت تحبّ سيدة القصور ، وتؤثر حبّ السيدة على حبّ الجارية ! لأنك تظن أن حبّ السيدات سيد الحب !

فظهر الغضب على وجه عمارة . وصاح :

— كفى يا جارية . فإن سيدة مصر أقدس من أن تصبح حديثاً للاماء ! ! ولقد صبرت على ثرثرتك طويلاً ، وتركت نار قلبك تأكل حطبها لتنطفىء . ولكن يبدو لى أن الرفق زادها استشراء ، وأضاف إلى جذوتها حطباً . اعزُبى عنى فقد طال بنا المقام ، وأخشى أن ينالنى من الجلوس إليك أشنع المكروه .

— أعزُب عنك بعد أن كشفتُ لك عن ذات نفسى ، وفضحت لك خبيئة صدرى ؟ ! بعد أن طرحتُ حبّى على

أقدامك فقذفت به كما تقذف النعل الخلق؟! وبعد أن سكبت دموعي على قلبك الصلد فما زاده الماء إلا صلابة ويبساً ؟! أعزب عنك بعد أن أهنت أنوثتي ، ودست بقدمك على أشرف ما أعتز به وتعتز به كل امرأة من حياء وخفر وإباء؟ ويل لك مني! إن كل شيء عندنا — معشر النساء — أمم ، إلا أن تجرح المرأة في كرامتها ، وإلا أن تقدم جمالها الفاتن بخلف مثلك ، فينحيه عنه بالأكف في سخط وأنفة ، كأنه كأس مسمومة أو طعام ولغت فيه الكلاب! ويل لك مني! وويل لكل من يناصرك! لن تفلت من حبائلي! إننا — بنات الجركس — نقتل الرجال : إما بالحب والاستهواء ، وإما بالكيد والدهاء! فخذ حذرك فإنك لن تنجو مني يا رجل! ثم قامت غاضبة وتركت عمارة في ذهول وعجب ، وهو يتطلع في أنحاء الحجرة كالمشدوه المأخوذ ، ثم ضحك ضحكة جافة مضطربة ، وضرب كفاً بكف وقال : حقاً إن مصر بلد العجائب!! ماذا كان شأني بهذه الفتاة؟ ومن رماني بهذه المجنونة؟ إنها ستكون البعوضة التي تدمي مهجة الأسد ، وستعمل على تكدير عيشي وتنغيص حياتي ، وربما أشعلت بيني وبين سيدة القصور فتنة لا أستطيع لها إطفاء ،

وربما نشرت بين رجال القصر أسرار حبّ قدسيّ أبالغ فى كتمانه. أكان يجب أن أجاريها وأن أخدعها ، وأن أظهر لها كالمحب المفتون بها المدلّه بجمالها ؟ لا . إن شيئاً من ذلك أو دونه، لو ظهر لأفسد ما بينى وبين سيدة القصور. ماذا أعمل؟ إنى بالغت فى اتقاء دسائس الرجال ، ولم أحسب لدسائس النساء حساباً . إنّ من ضروب العداوة ما لا يستطاع درؤه ، وإن من المصائب أن يكون عدوك ضعيفاً ؛ ولكنى سأدّرع بالحذر ثم يكون بعد ذلك ما يكون . وقام وصدره مثقول بالهموم ، ثم غادر القصر .

وفى تلك اللحظة التقى ابن دخان بباسمة فى أحد أبهاء القصر وكان لها عاشقاً وبها صبّاً مفتوناً ، وكانت تصدُّ عنه فى إغراء، ثم تجتذبه لتعرض عنه من جديد، وهى فى قرارة نفسها تنفِر منه وتستنكر تصابيه وطرائق غزله . فلما اقترب منها قال :

ــ كيف أنت اليوم يا نور عينى ؟ ألا تزالين فى دلالك القديم ؟ !

ــ كما أنك لا تزال فى ضلالك القديم . دعنى بالله أسِر فى طريقى ، فإنى كرهت الدنيا ومن فيها ! !

ــ الدنيا بخير يا جنّتى ، والرواتب تصرف فى كل شهر

بجوارى القصر ، وفوق كل راتب قُبلة إلا منك ، فقد أعيتنى فيك الحيَل !

– أنت رجل فارغ القلب ، لا تأبه إلا للرواتب ودخْل الدولة وخرْجها . أما ما يصيب صديقاً ، أو يمس شرف فتاة ضعيفة فقدت الحامى والنصير ، فليس من شأنك فى قليل أو كثير !! إننى سأغادر القصر إلى الأبد . إن هذا اليمنى الأفاق المسمى بعمارة ، أطغته منزلته عند سيدة القصور ، فاتخذ عطفها عليه سلاحاً للعربدة والفجور . لقد ضقت بهذا الرجل ذرعاً ، إنه يلاحقنى إينما رآنى فى القصر ، ويضايقنى بإلحاحه وتغزله السمج ، ويريد أن يفرض علىّ حبه فرضاً ، ويظن المغرور أن الله اختصّه برُواء الحسن وكمال الظَّرف ، وأن امرأة لا تهيم به مدخولة العقل فاسدة الحس . قابلنى فى هذا الصباح فحاولت الفرار منه فلم أستطع ، وأخذ يصب علىّ شُواظاً من غزله المفضوح . فلما زجزته وسخرت منه احتدم غضبه وتكشّف لؤمه ، وتوعدنى بالشر والإيقاع بى عند سيدة القصور وبطردى من القصر !!

– طردك أنت من القصر ؟ ! . . . أنت . . . وماذا يبقى

فيه إذا غابت شمسه ؟ ! ماذا يبقى فيه وأنت بهجته وزينته ؟ !
ولكن هذا اليمنى الثقيل الوقح ، هو الذى يطرد من القصر ، ويزجر منه كما يزجر الكلب .

– إن سيدتى متعلّقة به . . .

– ومن هذه الناحية ستأتيه النكبه . دعى هذا الأمر لى بنيّة ، فلن يضايقك اليمنىّ الأحمق بعد اليوم .

– وكيف ؟

– سأفكر ، وستكون المؤامرة محكمة لا يجد منها اليمنى منفذاً ، ولكنى أطلب أن تزيدى فى التودّد إلى زوجك ؛ فإنى أعتمد عليه فى مثل هذه الأمور . وكيف حالك معه ؟

– إنه زوج شرعىّ وكفى !

– لا يا باسمة . . . صانعيه واخدعيه ، وأظهرى له الحبّ والميل حتى يتم كل شىء .

فظهر الابتهاج على وجه باسمة ... ولكن ابن دخان عاجلها قائلا : ولكنى أطلب أجراً على هذا العمل المحفوف بالمخاطر .

– ما هو ؟

– قُبلة واحدة من فمك الحلو .

ــ قبلت على أن يؤجل هذا الأجر الى أجل غير بعيد.

ثم فرّت من بين يديه كالظبي النافر ، وذهبت الى مسكنها الخاص بالقصر. ولمّا رأت زوجها مجاهداً الرملي ألقت بنفسها بين ذراعيه ضاحكة معربدة، عابثة بشاربه ولحيته. فدهش « مجاهد » لهذا التغيّر المفاجيء، وقد كانت منه شديدة النّفار ، ممعنة فى الدّلال، فما استطاع إلا أن يضمّها ضمة العاشق المهجور، ويملأ وجهها بقبلاته ، ثم قال : ما هذه النّشوة يا باسمة ؟ فقالت: هل على فتاة فى أن تحب زوجها من حرج؟

ــ لا. غير أنه حبّ مرتجل !

ــ إنه ليس مرتجلا يا مجاهد. إن العجائز ــ قاتلهن الله ــ علّمننى أن الرجل لا يحب إلا اذا جفته المرأة وتمنّعت عليه. وقد أخذت أعمل بنصيحتهن ، وأظهر لك النفور والبغض ؛ لتزيد بى شغفاً ، حتى لم أعد أقوى على هذا الرياء ، وعزّنى الصبر ووهن الجلد ، وطغى سلطان حبك على قلبى فلم أستطع له كتماناً . . . فارحمنى يا حبيبى !

ــ أرحمك ؟ أرحمك بمائة قبلة وألف ضمّة، وبأن أكون لك عبداً مدى حياتى ؟

ـ وأن تدفع عنى شرّ الأشرار وكيد الكائدين !

ـ بروحى . . .

ـ إننى لم أرد أن أخبرك منذ حين بشأن هذا الشيخ اليمنى نزيل القاهرة ، الذى أخذ يتردد على القصر .

ـ ما شأنه ؟

ـ شأنه أنه أخذ يضايق زوجتك ، ويبالغ فى احتقارها ، ويدسّ لها عند سيدة القصور . وقد اتفقت مع ابن دخان على إبعاده عن القصر ، وسيخبرك إذا قابلته بكل شىء . وستكون هناك مكافأة جزيلة لمن يقوم بهذا الأمر .

ـ عظيم ، كسبنا مالاً ، واسترجعنا رضاء زوجة رائعة الحسن فى صفقة واحدة .

ثم مرّت أيام قضاها ابن دخان فى تدبير المؤامرة واختيار من يشترك فيها وعُقدت عدة مجالس حضرها مجاهد الرملى وبعض الجنود، وأكـّد ابن دخان لهم أنهم لن يصيبهم منها ضرر البتة ، وأنهم على الضدّ من ذلك سينالون رضاء سيدة القصور ، وترتفع عندها منزلتهم . والتقت باسمة به يوماً ، فقصّ عليها المؤامرة مفصّلة ، ووكل إلى دهائها وحذقها طريق الشروع فيها ،

والإفضاء بها الى سيدة القصور ، ثم قال : إنها ليس من صنعي يا باسمة ، وانّ عقلى لا يستطيع أن يصل الى هذه الغَيابَة .

فقالت فى استنكار : من صنع مَنْ إذاً ؟ وهل كان من الحزم أن يطلّع عليها غير ذلك العدد القليل الذى اشترك فيها ؟ !

ــ إن الذى وضع المؤامرة أشدّ منى حزماً ، وأكثر احتراساً ، لأنه لم يرض أن يمدّ فيها إصبعاً إلا بعد أن حلفت له بكل محرِجة ألا أبوح باسمه .

فنظرت اليه فى سحر وفتنة وقالت : حتى ولا للمدينة لك بقُبلة ؟ فانهزمت فى الرجل كل خصائص الرجولة وقال : أنا حلفت ، ولكن القبلة تعدِل آلافاً من كفارة اليمين .. . تعدل الدنيا وما فيها . اعلمى يا فتاتى ( وفقك الله ) أن مدبر المؤامرة هو الشيخ زين الدين بن نجا المشرف على خزائن الكتب .

ــ ذلك الشيخ الورع الزاهد ، الذى لا يبتسم ! والذى كلما رآنى همهم بأدعية واستغاثات ، كأنما رؤية الجمال إثم من أشد الآثام ! !

ثم انطلقت باسمة إلى القصر ، فرأت سيدة القصور تقرأ بعض الصحف التى يرسلها إليها جواسيسها كل صباح ، فلما

رأتها قالت : أين كنت يا باسمة ؟ ولم أراك عابسة حزينة ؟

ـ إن حبك يا مولاتى ، والخوف من أن تمسك هبة من نسيم ، هما اللذان يشغلان قلبي ويكدران صفوى .

ـ فقهقهت سيدة القصور وقالت : لا تتعبي رأسك الجميل يا فتاة ، ولا تجنى على جمالك الفتان بالخوف على ، فإنك إن فعلت أذبلت أجمل زهرة بالبستان الكافورى . ما الخبر ؟

ـ لا شيء . أو هو شيء يكفى فيه التحرز والاحتراس .

ـ أى احتراس ؟ ومن أى شيء ؟

عند ذلك استنجدت « باسمة » بأدق مواهبها وأروع أفانينها ، وأخذت فى الحديث فى تحرج وتلعثم ، وكان صدرها يخفق ، وعيناها تتحير فيهما الدموع ، وصوتها يرتعد . . . ثم قصت على سيدتها ما اتفقت عليه مع ابن دخان من تفصيل المؤامرة المزعومة وأن عمارة ، الذى يبغض المذهب الفاطمى بقلبه ، ويناصره بلسانه ـ إنما استدعاه طلائع بن رزيك من مكة ، ليكون آلته فى الكيد للدولة والقضاء على الفاطمية ، وأنه قد تآمر مع بعض الجند على اغتيال الخليفة الفائز ، والقضاء على سيدة القصور ، وإجلاس ابن رزيك على عرش مصر .

ـ من الذى كشف عن هذه المؤامرة ؟

ـ إبراهيم بن دخان .

ـ هذا غير معقول يا فتاة . إن عمارة عاهدنى ألا يخوننى ، ثم إن فى الرجل صفات تأبى عليه أن ينغمس فى هذه الحمأة .

ـ إنه داهية يا سيدتى ، وهو يتخذ من سحر شعره ولطف حديثه ، وظهوره بمظهر الرجولة والنخوة ، ستاراً يخفى به مكره ومحاله .

ـ أنا لا أكاد أصدق . عمارة ؟ ! . . يدسّ لى ؟ ! ويعمل على قتلى وتقويض ملكى . . ؟ ! لا . . لا . . هذا إذا عاد الصباح ظلاماً ، والأسد ثعلباً ، والدواء سمًّا زُعافاً . . .

أأنت واثقة يا باسمة ؟

ـ تمام الوثوق . وقد كان من أسباب حزنى خوفى من أن تماريني وتنفضى عنك الحذر ، والقضاء على الجريمة والمجرمين .

ـ قد يكون ، إن هؤلاء الغرباء الذين يفدون على مصر ، لا تخلو حقائبهم من دسائس ومؤامرات ، إذاً فمبالغته فى التقرب إلىّ والإخلاص لعرشى كانت رياءً فى رياء .

ـ لولم يكن الرجل دسّاساً ما لفظته بلاده ، وهو يدّعى أن

له فيها الأموال والأتباع والجاه العريض .

ـــ هذا صحيح ، دعيني وحدى قليلا يا فتاة ، فإنى أريد أن أفكر .

وبعد ساعة أو ساعتين ، أمرت راجحاً أن يدعو إليها ابن دخان ، فلما دخل أنكبَّ يقبّل أطراف قدميها ، ثم وقف مطرقاً واجماً وهو فى سَمت الخدام المخلصين . فسألته سيدة القصور عن مجمل الخبر ، فقال : جاءنى خادمى « عيد » السّودانى يوماً ، وعليه آثار الخوف والاضطراب ، وفى وجهه لمحات من التردد والحيرة ، فسألته عن شأنه ؟ فراوغ وتلعثم ، فلما أثقلت عليه قال : إننا جميعاً عزمنا على أن نلقى إليك جملة الخبر ، فانتظرْنى حتى أعود . ثم عاد ومعه من الجنود : عمران النّهرى ، وعكاشة الحدّاد ، ومجاهد الرملى ، فأخبرونى أن عمارة أغراهم بالمال ، ووعدهم بالمناصب ، وذهب معهم إلى قصر ابن رزّيك ، فزادهم هذا إغراءً ، وأقسموا أمامه على قتل سيدى الخليفة ومولاتى . ولكنهم بعد أن وُزعت عليهم الأموال خارت عزائمهم ، وعاودهم إخلاصهم المكين للخليفة ولمولاتى ، ورأوا ـــ كما قالوا ـــ أن خزائن الدنيا جميعاً لا تغرى بأن تُمس شعرة من

رأس مولاتهم ، وألحوا علىّ فى كتمان الخبر ، ولكنى خفت أن تكون خيبة عمارة وصاحبه فى هذه المؤامرة ، دافعاً إلى الشروع فى غيرها ، فأسرعت إلى جاريتك : باسمة ، ورجوتها أن تبلغك أمرها .

ــ لقد أحسنت يا ابن دخان . ثم أشارت بكفها فخرج .

وبينما كان ابن دخان يمر بأحد دهاليز القصر ، رآه مجاهد الرّملى ، فاختفى وراء ستار ، لأنه كان مع اشتراكه فى الدّسيسة يكره الكلام فيها ، وفى تلك اللحظة مرّت باسمة ، فقال لها ابن دخان الآن وجب قضاء الدين يا فتنة العين ، وريحانة النفس . ثم وثب عليها فطوّقها بذراعيه ، فلم تمانع ولم تعمل على إبعاده ، فانكبّ على وجهها بشره يملؤه قبلا يزيدها الحب لذة ورنيناً .

رأى مجاهد كل هذا فغلى دمه من الغضب ، وظهر فى عينيه السخط والحنق ، وتحركت فى صدره أفاعى الانتقام ، ولكنه كظم غيظه ، وانتظر حتى انصرفا ، فخرج من وراء الستار كالمجنون الذى طار عقله وهو يتمتم : ويل لها ! . . ويل له ! . . ألأجل مال هذا الدميم كانت تتدلل علىّ وتنفر منى وتزورّ عنى ، وتقابل توسلات حبى بالسخرية والاستهزاء؟ والله لأبطشنّ بهما معاً ! !

قضت سيدة القصور أياماً تقلّب الرأى فى أمر عمارة . حتى انتهى بها العزم إلى وجوب البطش به ، ورميه فى بئر القصر المعروفة ببئر الصنم ، التى كثيراً ما ابتلعت أعداء الفاطميين . فنادت مؤتمن الخلافة ، وأمرته بدعوة عمارة إلى قصر الزمرّد .

وفى غد ذلك اليوم جاء عمارة إلى القصر ، وهو خائف يرتعد ودخل بهو الأميرة ، فرآها جالسة فى الوسط ، وإلى جانبها مؤتمن الخلافة وجاريتها « باسمة » ورأى ابن دخان واقفاً ومعه ثلاثة من جنود القصر ، نتقدم ليقبّل طراز الأميرة ، فزجرته وأمرته بالوقوف بجانب ابن دخان ، فوقف مبهوتاً لا يدرى لكلّ ما يرى ويسمع سبباً ، ثم التفتت سيدة القصور إلى ابن دخان وقالت : قدّم دعواك يا ابن دخان . فأخذ يقصُّ ما حاك من دسيسة ، وعمارة فى ذهول ، يرى البهو يدور بمَن فيه ، ثم ينقلب فيراهم فى سقفه لا فى أرضه . حتى إذا أتمّ ابن دخان دعواه ، اتّجه إلى الجنود وقال : وهؤلاء الجنود المخلصون الذين أرادوا أن يستغووا المتآمرين حتى يوقعوهم فى الشرَك ، سيقدّمون إلى مولاتى ما يؤيد وقوع هذه المؤامرة الخسيسة . فقالت سيدة القصور : وأين مجاهد الرملى ؟ ؟ . . فإذا صوت يصيح فى دهليز البهو : هأنذا

قادم إليك يا مولاى . ويدخل مجاهد ، فينظر مرّة إلى « باسمة » ومرة إلى ابن دخان ، ثم يصيح : هذه دسيسة كاذبة ملفقة يا مولاى . . إن زوجتى باسمة هذه هى التى نسجت خيوطها الواهية مع ابن دخان ، وهؤلاء الجنود الكاذبون وُعد كل واحد منهم بمائة دينار ، لقاء كذبه وزوره ، وقد وافقتهم على الاشتراك معهم ، ولكنّى رأيت آخراً أن هذه الوشاية قد تحدث فتنة ، وقد تدفع الناس إلى التحدّث عمّا يسمونه : دسائس القصر ، فأسرعت إليك يا مولاى لأعيدها إلى الرمس الذى نُبشت منه ، ولأقتلها فى مهدها .

شمل الصمت والذهول جميع مَن حضر ، وأحسّ عمارة أن هاتفاً يهمس فى أذنه : لقد نجوت . واصفرّ ابن دخان وارتعدت أوصاله ، وصاحت الأميرة فى غيظ وحنق : وما برهانك يا مجاهد؟ !

ـ برهانى : أنك تجدين فى خزانة ديوان الرواتب أربع صرر ، بكلّ واحدة منها مائة دينار ، وقد كتب على كلّ صرّة اسم واحد منا ، لأننا لعلمنا بمخاتلة ابن دخان ومخادعته ، خفنا أن يماطلنا فى نقد المال بعد إتمام الدسيسة ، فحتّمنا أن يكتب بيده اسم كل واحد منا على صرّته .

فاتّجهت الأميرة إلى مؤتمن الخلافة وقالت: اذهب مع هذا الرجل ( وأشارتْ إلى ابن دخان ) وأحضر الصرر إن وجدتها

فذهبا وابن دخان يجرّ ساقيه ، ثم عادا ومعهما الصرر الأربع وقد كتبت عليها أسماء الجند كما قال مجاهد . فقالت الأميرة : لقد انجلى الحق . وأمرتْ بأن يطرد ابن دخان من رياسة ديوان الرواتب ، وأن تطرد باسمة من القصر ، وأن تضرب عشرين سوطاً ، وأن يضرب الآخرون خمسين سوطاً .

ثم اتّجهت إلى عمارة وقالت: أسأنا بك الظن أبا محمد ، وطفقت تعتذر إليه وتستعطفه ، وتشكو إليه ما حولها من الدّسائس التي تحاك في ظلمة الليل وظلمة النفوس. فتقدّم عمارة يقبّل يديها وقدميها وهو يبكي ويقول: والله يا مولاتي لو وسوس إليّ فؤادي مرّة أن أمس شعرة لفاطميّ أو فاطمية ، لخلعت فؤادي من صدري . فمسّت كتفه بلطف وقالت : أعود إلى ما كنت لك . . . وتعود إلى ما كنت لي . . . وننسى هذه العاصفة الكاذبة التي كانت سبباً في توثّق ودادنا .

## ٩

مرت شهور وأيام ، مات فى أثنائها الخليفة الفائز ، فقد أصابته حُمّى لم تمهله أياماً حتى قضى . وما كادت سيدة القصور تمسح أول دمعة عليه ، حتى أشارت بتولية عبد الله ابن أخيها يوسف ، لانه كان صغير السن ، وفى ذلك تمكين لسلطتها فى الدولة .

فقد كان فى الحادية عشرة ، فلقّبه ابن رزيك : بالخليفة العاضد بالله ، وقامت له البيعة بقاعة الذهب فى يوم حافل . ووقف عمارة بين الحشد الجامع من المبايعين ينشد :

لئن قلّ صبر فالمصاب عظيم ... وإن جلّ شكر فالنّوال جَسيم
لئن عرضت للفائز الطّهر نُقلة ... فأنت أميرَ المؤمنين مقيم
وإن سلبتنا جنة الخلد قُرْبَه ... فقربك منّا جنة ونعيم

ثمّ عدّد مآثر الفاطميّة والفاطميين ، فأجاد وحلق .

وبعد أيام ذهب عمارة للقاء سيدة القصور ، فرآها فى حزن

مُقْعِد مقيم ، فأخذ يعزِّيها فى الفائز ، ويهدِّئ من ثورة حزنها فقالت : والله ما على الفائز أبكي يا عمارة ، وإنما أبكى على دولتنا . لأنني منذ تولية العاضد وأنا أشعر شعوراً غريباً لا أعرف كنهه بأنه سيكون آخر خلفائنا ، وقد كنت أبيْت أن ألقبه بالعاضد ، ولكنَّ هذا الأرمنيّ ابن رزيك أبى إلا هذا اللقب .. أتدرى أنى لشدّة ضيقى بهذا الأمر ، والخفاء سببه على ، ذهبت إلى خزانة الكتب بالقصر ، لأبحث فى الأوراق القديمة الخاصَّة بدولتنا ، فعثرت على ورقة كان طلب جدِّى المعزّ من قاضى مصر إذ ذاك — أبى طاهر محمد بن أحمد — أن يكتب له فيها ألقاباً يُلقب بها من يأتى بعده من الخلفاء ، فكتب القاضى له ألقاباً كثيرة ، وكان لقب العاضد آخر هذه الألقاب ؟ ! فحزنت حينما رأيت الورقة ، وعلمت السرَّ فى تطيُّرى . إن روح الإنسان يا عمارة تلتقط الغيْب أحياناً ، وكثيراً ما يسرّ الإنسان بغير سبب ظاهر ، فتفد عليه أسباب السّرور ، وكثيراً ما يحزن كذلك ، فيلتقى بما يحزنه فى الطريق . . قاتل الله هذا الإنسان ! ! . . . لقد وضعه الله فى برزخ من الآلام : فلا هو من البهائم فيعيش فى ظلام الجهل هانئاً ، ولا هو من الملائكة

فيعيش فى صفاء من النور سعيداً .

– هذه أوهام يا مولاتى . وإن الخلافة بك وبالمخلصين من أنصارك فى حصن حصين .

– أرجو أن يكون الأمر كما تقول ! ! آه ! ! ليتنى كنت رجلا ! ! . . . إن القدَر أحياناً يضع نفوساً فى غير أجسامها ، ويهَب السَّيف لغير حامله . . . علمت أن ابن رزيك فى هذه الأيام يتبجَّح بالعظمة ، ويُكثر من الأعوان ، ويلوى لحيته إلى أنفه ليشمَّ رائحة الخلافة . وخير له أن يرعوى ويزدجر ، فإن دمالج سيِّدة القصور أقوى من رماحه وسيوفه . وإن سيدة القصور لا تحارب بالرجال ، وإنما تحارب بجيش من الآراء ، يأخذ أعداءها بغتة وهم لا يشعرون . . . آه ! ! أريد أن أكون رجلا ، لأبرز لهؤلاء القوم من وراء السِّتار . . . ثم تضحك وتقول : ما هذا الجنون الذى أصابنى ؟ ! وهل أجد رجلا كابن رزيك بين رجال دولتى ؟ ! .. إنه الملك الصالح ! ! .. إنه أبو الغارات ! ! .. إنه ناصر الفاطميَّة بيده ولسانه وجنده ! ! . . لحقّاً إن النساء ناقصات عقل ناقصات دين ، ولأمر ما حُرمت المَرأة النبوة والإمامة والقضاء .

أمّا عمارة : فإنه يتحيّر فى أسباب اضطرابها وتناقضها ، وتلويحها باسم ابن رزبُك مرة بالسخط ، ومرّة بالرِّضاء ، فيستأذن وينصرف .

ثم يأتى شهر رمضان سنة ستّ وخمسين وخمسمائة ، فتحتفل القاهرة باستقباله ، وتظهر المدينة بالليل كأنها شعلة من نور ، لكثرة ما يسرج فيها من المصابيح التى تعلق فوق المآذن والدّور والحوانيت ، وفى كلّ مكان . ونشاهد فى القصر حركة غريبة ، ونجد سيدة القصور فى شغل شاغل ، ونرى اجتماعات كثيرة تقام فى سراديب القصر ، تحضرها الأميرة ومؤتمن الخلافة ، وابن قِوام الدولة صاحب الباب ، والأستاذ المحنك عنبر الربْعىّ . وفى أحد هذه الاجتماعات أخذت الأميرة تعدد سيئات ابن رزيك ، وتذكر مطامعه فى الدولة ، وتهوِّل فيما أصاب الخلافة من الضعف فى أيامه ، وأنه يضعفها قصداً ليلتهمها . فقال مؤتمن الخلافة : إن الخلافة ضاعت هيبتها منذ أن سيطر عليها بدر الجمالى الأرمنىّ فى أيام المستنصر . وقد زاد ضعفها بهذا الأرمنى الجديد المتبجِّح الذى يلقّب نفسه بالملك الصالح . وقال ابن قِوام الدولة : إن مظالمه عمت مصر جميعها ، حتّى أصبح المصريّون يتمنّون موته .

فقالت سيدة القصور : وكيف نستريح من شره ؟ ؟

— إنه يزور القصر فى كل ليلة بعد العشاء الآخرة ، وهو يدخل من باب العبيد إلى الدهليز الموصل إلى قاعة الفضة ، حيث يجلس الخليفة فى رمضان. وإنى سأخلى الدهليز ليلة غد من المارة قرب وصوله ، ثم إن بالدهليز خزانة يمكن الأجناد أن يختفوا بها مع رئيسهم ابن الراعى ، فإذا مر ابن رزيك شغلته ببعض الحديث ، وأصابتنى نوبة سعال يسمعها الجند فى الخزانة ، فينقضون عليه بسيوفهم .

فقال عنبر الربعى : هذا حسن ... ولكن أترون أن أتباعه وجنوده لا يثورون إذا علموا بقتله ؟ !

فقال مؤتمن الخلافة : دع هذا لى . فإن عندى من الجنود السودان عدداً يحيل نهار القاهرة ليلا .

وقالت سيدة القصور : إن من السهل أن ندعى أننا لا نعرف من قتله ، ويجب لأجل ذلك ألا يكون الجنود من السود ، كما يجب أن يغيروا أزياءهم ، وأن يلبسوا ثياب عامة المصريين .

فقالوا جميعاً : نعم الرأى يا مولاتى . وسيطهر أديم مصر من ابن رزيك غداً . ثم نهضوا للقيام ، وكررت الأميرة وصيتها

بالكتمان والتَّدبُّر ، وإحكام المؤامرة .

وفى الليلة الخامسة من رمضان ، جاء طلائع على عادته يصحبه ابنه مجد الإسلام، ودخل من باب القصر ، ونُفّذت المؤامرة كما صوَّرها ابن قوام الدولة، لم يخرم منها حرف ، وهجم جنديٌّ على مجد الإسلام بسيفه فشطر عضده ، ثم وثب ابن الرَّاعى على طلائع فطعنه فى نحره . ولمَّا وصل الخبر إلى سيدة القصور ، أمرت الجوارى والغلمان بالولولة والصياح والاستغاثة ، وأمرت الجنود بإظهار الألم ، وبالجرى هنا وهناك للقبض على المجرمين، وبثت أعوانها السِّريين بالقاهرة، يُشيعون أن جماعة نقبوا سور القصر واغتالوا ابن رزيك . ثم إنها أرسلت إلى مجد الإسلام ابنه، فجاء إلى القصر ، وقابلها فى حشد من الأستاذين فلاقته باكية نادبة ، وأشارت من بعيد بأن شاوَر بن مجير والى قوص ، وأكبر منافس للملك الصالح، هو مدبر هذه الجريمة . ودخل عمارة وقد أذهله الحادث ، وأبكته المصيبة فأنشد قصيدة طويلة فى رثائه ، وكانت الأميرة تبكى بعد كلّ بيت بكاء الثاكل ، وتتلوى من الحزن، حتى اضطر الأستاذون إلى إسكات عمارة ، وانفضّ المجلس . وبعد أيَّام اختلت الأميرة ببعض

الأعوان السريين ، فأخبروها أن جنود ابن رزيك وأنصاره يتأهبون لثورة جامحة ، فدعت رجالها لمشاورتهم فى الأمر ، ورأت لدرء الفتنة أن يتولى مجد الإسلام رزيك مكان أبيه ، ثم نظرت إلى مؤتمن الخلافة وقالت : اشغل دائماً عدوك عنك بمحاباته ، حتى يدع لك وقتاً تستأصل فيه شأفته ! وليس بالثمن الغالى أن يحكم رزيك شهوراً ، لكيلا يبقى رزّيكىّ بأرض مصر ، ولكى يستقل العاضد بأمور الخلافة غير مزاحَم ولا معارَض. إن الأمر يتطلّب زمناً طويلا للتفكير ، وشرُّ الرأى الفطير .

## ١٠

خرجت « باسمة » من القصر مطرودة مجلودة ، فحملها بعض الجند إلى مسكن زوجها ، فمكثت به أياماً وزوجها محزون حنِق ، يأنف من النظر إليها أو القرب منها. حتى إذا نقِهت أرسل إلى ابن دخان ، فلما حضر قال له مجاهد : أنت أيها الشيطان سبب إغواء هذه المرأة وإفسادها ، فاحمل خطيئتك على

كتفيك ، فليس لى بها من حاجة . خذها لا بارك الله لك فيها ، فإنها طالق . وإن الكريم لا يشرب من إناء ولَغتْ فيه الكلاب. فزأرت « باسمة » كما تزأر اللّبؤة الهائجة وقالت : لقد رميتنى بالإفك . . . وإننى والله ما فرحت بزواجك ، ولقد سرّنى طلاقك . ولو كان الطلاق من حقّ المرأة لكنتُ البادئة به منذ حين... عجباً للرّجل منكم ! ! يلوى رأسه للمرأة كِبْراً ويقول: أنت طالق . ولو كُشف عنه الغطاء لعلم أنّ المرأة طلقته قبل ذلك ألفَ مرّة !! . إن الطلاق نعمة من نعم الله إذا تزوّجت امرأة بمثلك . أما أن يأخذنى ابن دخان أو لا يأخذنى ، فذلك ما لا شأن لك فيه ، ولن أريد أن أكشف لك عن طهارتى مع ابن دخان، فإنك عندى دون من تُبسط له حجّة ، أو يقدّم إليه اعتذار . . . هلمّ يا ابن دخان ، خذنى إلى حيث شئت.

خرجت تتعثر هى وابن دخان ، فقال لها وهما فى الطريق : أنا لا أريد أن أبدأ الحديث يا باسمة فإنى أخشى أن أزِلّ ، فأنا رجل صناعته جمع الأرقام لا تزويق الكلام ، ولكنى عبدك وطوع يمينك ، أمدّ يدى إليك مدّ الخادم يده لسيّدته، لا مدّ الآمل إلى أمنيته ، وأين أنا منك يا باسمة ؟ ! أنا كلب باسط

ذراعيه بالوصيد ليحرس سرًّا سماويًّا وملَكاً أرضيًّا ! !فأرسلت « باسمة » ابتسامة خفيفة ، اقتحمت طريقها من بين شفتيها العابستين وقالت : إن الكلاب تعَضّ أحياناً .

— أنا كلب أليف أمين يا أميرتى .

— ولكنى أكره نُباح الكلاب كلما رأت شخصاً غريباً .

— كلبك تكفيه الغمزة والإشارة ، فلو رأى الدنيا كلها حولك وأشرت إليه بإصبع ، لربض راضياً مغتبطاً .

— أنت لطيف يا إبراهيم ! !

— أنا لطيف . . . لطيف جداً . . . وسعيد . . . سعيد جداً . . . لأنى لطيف . أعلمتِ أنّ مؤامرتنا على عمارة اليمنىّ نجحت ؟ !

— نجحت ! ! إنّ جسمى لا يزال يلتهب من السياط ! ! فكّر كما يفكّر الناس يا إبراهيم لا كما يفكّر الكلاب .

— إن كنتُ كاذباً فلا أبقى الله لى رأساً ولا ذنباً . . . لقد نجحت المؤامرة . أليس من أكبر آثارها أننى أتحدثُ الآن إليك ، وأن آمالى التى طفِقتُ أكتمها فى صدرى سنين طوالا أخذت تطلّ برءوسها ؟ ! هلمّ إلى منزلى لنفكّر فى شئون الزواج .

– قبل أن تفكر فى هذا يجب أن أتحدث معك طويلاً ...

دخلا منزل ابن دخان ، حتى استقرا فى حجرة مطلة على الخليج ، التفتت « باسمة » إليه وقالت : أرأيت كيف كان جزاء خدمة هؤلاء الفاطميين ؟ ! انظر كيف بعنا أنفسنا لهم وكيف عادينا الناس لأجلهم ، وكيف تجسسنا ، وكيف وقفنا خلف الأبواب نسترق الأحاديث ، وكيف عرضنا أنفسنا للسم والقتل من أعدائهم ؟ ! ثم أنظر ماذا كان الجزاء الأوفى على هذه الخدم ؟! . . . كان أن نطرد ونجلد ! ! سحقاً لهم ولدولتهم ! ! والله لأنتقمن منهم.

– أنا طوع أمرك ، فانظرى ماذا تأمرين .

– ثم هذه الصلفة المنتفخة سيدة القصور ، التى تدعى حكمة سليمان ومكر هامان ، وأن فيها أسرار المعز وسطوة الحاكم ، والتى لا تعيش إلا لنصب الأشراك ودس الدسائس . هؤلاء الفاطميون قتلونى بغرورهم وجنونهم ، كأن الله لم ينشئ الكون إلا لهم ، ولم يخلق الفضائل إلا انتظاراً لقدومهم . . . احتفالات ومهرجانات ، وأعياد ، وطبل وزمر : هذه هى دولتهم ، وهذه هى ألاعيبهم التى يلهون بها العامة ، ويشغلونهم عما يحيق بهم من

الظلم والعسف واغتصاب الأموال . وإلاّ فمن أين هذه الجواهر المكدّسة فى القصر ، وهذه الكُومات من الذهب والفضّة ؟ ؟ .. ولقد بالغوا فى المظاهر إلى حدّ البَله ، حتى لقد كدت والله أفضح نفسى ، وقد ملكنى الضّحك حين أخذنا نُلبس الخليفة الفائز شعار الخلافة . . . تصوّر غلاماً فى الخامسة يلبَس عمامة أبيه ، وجبّته وطيلسانه ! ! . . . لقد ملأنا العمامة قطناً ، حتى إذا وضعناها على رأسه ، مال عنق المسكين ولم يُطق لها حملا ، فحملها أستاذ لتنوب يده عن رأس سيّده . أما الجبّة : فقد غرِق البائس فيها ، واختفى بين حليتها وذهبها . لا . . . لا . . . إن دولة الباطل ساعة ، وأرجو أن تكون قد دنت نهاية هذه الساعة .

— لقد صوّرتِ ما فى نفسى يا باسمة ، فقد أصابنا من الفاطميّة ومن سيدة القصور — بعد طول الخدمة وإخلاص النُّصح — ما لم يُصِبْ أحداً . ولكنّ الوقت لم يحِنْ بعد لتسديد السهم .

— هل رأيت زين الدين بن نجا ؟

— لم أره منذ حين ، وأظنه فر من مصر بعد أن زيّن الدّين بمؤامراته على عمارة .

ثم مضت فترة من الزمن بنَى فيها ابن دخان بباسمة ، ومضت فترة أخرى مات فيها الفائز ، وقتل طلائع بن رزيك ، وتولى ابنه مجد الإسلام . وهنا تيقّظ نائم الأحقاد بصدر « باسمة » فقالت لزوجها : أصدّقتَ تلك الأكذوبة التي تشيعها العامة ؟؟ وهي أنّ أنصار شاور بن مجير نقبوا جدار القصر وقتلوا طلائع ؟ !

— هذا كلام يقال لغيرى وغيرك ، على الرغم من بكاء سيدة القصور عليه وطول عويلها . لأنها كما تقول العامّة : « تقتل القتيل وتمشى فى جنازته » .

— هذا لا شكّ فيه ، وما أظنّ أنّ رزيك بن طلائع صدّقها ، ولكنه جبان جشع ، اكتفى بمكان أبيه من الوزارة ثمناً لرأسه ، وسيبقى ألعوبة فى يد سيدة القصور ورجال القصر ، لأنه خائر العزم ضعيف النفس ، ليس فيه صفة من صفات أبيه ، التى كبحت جماح الأميرة وكسرت شوكتها وألزمتها حدّها ، وستتركه سيدة القصور قليلاً ، حتى تحين الفرصة لاغتياله واغتيال أهله وأنصاره ، وحينئذ تستقلّ بالملك والخلافة ، وتُعيد — كما كرّرتْ على سمعى كثيراً — أيام الحاكم بأمر الله .

— إنّى أنظر بعينى ، فلا أرى بين كبار قوّادنا من يستطيع أن يكون نِداً لهذه المرأة الجبّارة ، فقد قتل طلائع بن رزيك جميع منافسيه ليخلو له الجوّ ، وكأنما قتلهم ليخليه لها ! !

— نعم قتلهم جميعاً إلا واحداً ، وهو شاوَر بن مجير والى قوص ، وقد كنت صديقة له فى القصر ، أو كما كان يسمّينى وكيلته ، أو كما كان يقول الناس جاسوسة له ، وشاور رجل شجاع قاسٍ ، طمّاح كثير الأتباع والأنصار ، فلماذا لا ندفعه إلى اهتبال الفرصة ، والقدوم بجيشه إلى القاهرة لاستئصال أبناء رزيك ، وقتل الخليفة وسيدة القصور ، والجلوس على عرش الخلافة ؟ !

— يا حبّذا لو صحّت الأحلام ! ! إذاً سيكون لك ولى المقام الأول فى القصر .

استمرّتْ هذه الفكرة تدور فى رأسيهما أياماً ، حتّى إذا اختمرت غادرا دارهما بالقاهرة ، وخرجا إلى الفُسطاط مع بعض الخدم ، واستأجرا سفينة إلى قوص .

صعِدت السّفينة وكان الوقت خريفاً ، والجو إلى البرودة أميل . وكانوا كلما وصلوا إلى قرية أو مدينة رست السفينة ،

وخرج الخدم فابتاعوا ما يريدون من طعام ، وشراب ، وفاكهة . وعاش ابن دخان وباسمة فى السفينة شهراً أو بعض شهر ، فى أنس ونعيم وطرب ، حتى لقد قال لها ابن دخان يوماً ، وقد رأى الشمس غاربة ، وقد نفذت أشعتها إلى سحب خفيفة حولها ، فأرسلت ألواناً يحار اللغوىّ فى تسميتها ، والرسّام فى تكوينها ، ثم رآها تسقط رويداً بين النخيل المتكاثفة ، فتظهر من خلالها صافية برّاقة ، كأنها سبيكة من نضار — : يا باسمتى . . . حرام أن نقضى حياتنا فى هذا اللّغو ، وأن نعمى عن التمتع بجمال الكون وبهجة الحياة . إنّ عندى من الأموال ما يكفُل لنا العيش الناعم المترَف ، فلماذا نكدر هذا العيش بالغمّ والحزن والكيد لفلان ، والحقد على فلان ؟ ! انظرى إلى الشمس ! !

— إنّك أبله ! !

— صدقتِ يا حبيبتى ! ! إننى أُصاب بالبلَه عند كلّ مغيب شمس .

فابتسمت « باسمة » وقالت : لو وقف جوهر القائد وقْفتك هذه ، وتغزّل فى الشمس وجمالها كما تتغزّلْ ، لتفرّقت جيوشه وما فتح مصر . وإنى لم أقرأ فى التاريخ عن أمير أديب أوشاعر ،

إلاّ جاءته نكبته من أدبه، وإغراقه فى حبّ الجمال . إن الله خلق فى الإنسان وجداناً وفكراً وإرادة ، ولكى يكونَ الإنسان كاملا ، يجب أن تتوازن فيه هذه وتتعادل ، لأن من يتحكم فيه وجدانه كان عبْد شهواته . ومن يتحكّم فيه فكره بقى حزيناً عاجزاً ، أما من تتحكم فيه إرادته فمجنون معربد . . . أفهمت يا زوجى المفتون بالجمال ؟ !

— فهمت درساً يعجِز عنه كل الشيوخ الذين يدرسون بدار الحكمة .

وصلت السفينة إلى قوص ، وذهبت « باسمة » وابن دخان قاصدين قصر شاور . فما إن دخلا وأخبرت « باسمة » الخدم باسمها ،حتى أرسل إليهما شاور ،وبذل فى تحيتهما وإكرامهما خير ما يبذل العربى الكريم ، ثم سأل « باسمة » عن القاهرة وأحوالها ، وعن مجد الإسلام رزيك ووزارته ، فأجابته بعبارات مبهمة . وكان يظهر على شاور الغيظ من رزيك والألم من بعده عن تقلّب الأمور بالقاهرة ، حتى لكأنه أسد شرس حبيس . وبعد أيام اختلى شاور بباسمة وابن دخان طويلا ، فقال شاور لباسمة : كنت أظنك لا تزالين بالقصر ! !

ـ سئمت ياسيدى مكايد الفاطميين ودسائسهم، واستبداد سيِّدة القصور بأمور الدَّولة. وسئمت تحكُّم الأستاذين والجنود السُّودان فى أشراف العرب .

ـ وبم تشيرين علىَّ الآن ؟ ؟

ـ إن رزيك الآن أضعف من تُمَامة، وهو لُعبة فى يد سيِّدة القصور. فإذا لم تقتنص الفرصة لدخول القاهرة ، والجلوس على عرش الخلافة ، ضاعت منك إلى الأبد .

ـ أعتقد أنَّ العامة يحبون الفاطميين ويحبون أموالهم حبًّا جمًّا. وأنهم يدافعون بأرواحهم عن خلافتهم .

ـ إذا نثرت أموالك على جيوشهم ، ألقوا السلاح ليلتقطوا الدراهم . .

ـ ثم هناك الجنود السود ، وهؤلاء وحوش ، إذا سمعوا قعقعة سلاح طارت رءوسهم ، وقذفوا بأنفسهم كالفراش المتهافت على النَّار.. لا يا باسمة ، إن الأمر ليس بهيِّن ، وإن الوقت لم يحِن بعد لهدم الخلافة الفاطميَّة، ورأيى : أن نصل إلى الغاية فى مرحلتين لا فى مرحلة واحدة : نهجُم على القاهرة أولاً مدَّعين أننا جئنا لنصرة الخلافة واستنقاذها من أيدى الأجانب ، حتى

إذا قضينا على آل رزيك وأنصارهم واسترحنا قليلا ، اختلقنا أسباباً لاستئصال الخلافة ، بعد أن نكون قد أعددنا العُدة .

— لا ياسيدى . إن سيدة القصور لن تتركك تستريح ، والثعبان إذا قطع ذنبه زادت ضراوته .

— إن نصف التوفيق توفيق .

— ونصف الكمال نقص .

— وما تقولين فى أنّ ثلاثة أرباع جيشى الذى سأدخل به القاهرة ، فاطمىّ النزعة والعقيدة ! ! وأننى لا أستطيع بحال أن أوجّهه إلى هدم الخلافة ، ولو أشرتُ إليه ما أطاعنى . دَعِى لى تدبير هذا الأمر يا باسمة ، وسترينْ أننا بعد شهر أو شهرين من استقرارنا بالقاهرة ، سينادَى بخلافتنا . وستؤخذ لنا البيعة فى القصر الكبير ، وستكونين سيّدة وصائف القصر .

— ليكن ما تريد يا سيدى.. ومتى يزحف الجيش من هنا؟

— بعد خمسة أيام .

## ١١

زحف شاوَر بجيشه إلى القاهرة ومعه ابناه : « طيّ » و « شجاع » . وكان الجيش لُهاماً خِضَمّاً ، خطب فيه شاور خطبة ضافية مثيرة ، ودعاه إلى إنقاذ الخلافة الفاطمية من أيدى الأرمن الغاصبين ، وبعد فترة طويلة أشرف على أرباض القاهرة .

علمت سيدة القصور بتحرك جيش شاور من قوص ، ونقل إليها أصحاب الأخبار مقدار قوته وعدد رجاله ، فلم تحرك ساكناً ، لأنها رأت أن فى اختلاف اللصوص نجاة القافلة ، ورأت فى شاور أنه على الرغم من جفوته ، ويبس أخلاقه ، وشرهه فى حب المال — لا يزال عربيّاً . وعرضت الأمر على عمارة — وكان محبّاً لرزيك ، صديقاً لشاور — فروّى فى الحكم ، وغمّ عليه وجه الصّواب . فقالت له سيدة القصور : إنى لا أوثر أحدهما على صاحبه ، فكلاهما غاصب للدّولة معتد على سلطتها ، وأرى أن فى معاضدة أحدهما زوالاً للخلافة ، وأن الأمر لا يخلو

من إحدى اثنتين : إمَّا أن ينتصر من ساعدناه بجيوشنا ، وإما أن ينهزم . فإن انتصر ، فلن يصل إلى النصر إلا بعد أن تكون جيوش القصر قد ضعفت وقلّ عددها ، وحينئذ نراه بعد أيام قد انقلب علينا واستلب عرشنا ، لما يعلم من عجزنا عن مقاومته . وإما أن ينهزم وينتصر خصمه ، وتلك الكارثة العظمى ، لأن الخصم المنتصر لا يكتفى بهزيمة عدوه بل يدفعه الانتقام إلى استلاب ملك مناصريه . لا يا عمارة .. يجب أن نقف من هذين الخصمين وقفة المشاهد ، ولا نميل بجانب إلى واحد منهما ، وأن نقول كما يقول العرب : الكِلابَ على البقر ! ! فاقتنع عمارة .

وما هي إلا أيام حتى دخل شاور القاهرة ، وفرّ رزيك إلى إطفيح وتمكّن منه شاور وقتله ، ثم أعمل سيفه فى آل رزيك واستولى على أموالهم . ودخل على سيدة القصور فقابلته بخير ما يُقابل به الفاتح العظيم ، ونثرت فوقه ألقاب الشرف والبطولة ودعت عمارة إلى مدحه ، وولاّه الخليفة العاضد شئون الوزارة ، واجتمع حفل عظيم بقاعة الذهب عند توليته أنشد فيه عمارة قصيدة رائعة .

استمر شاور فى الوزارة ، وكان جشعاً خبيثاً سفاكاً للدماء ، فأغضب العامة والخاصة ، وطالما نصحت له « باسمة » — التى

أصبحت ولها أكبر مكانة فى قصره — بالرفق وصرف الناس عن التعلق بالخلافة بما يبذل من مال ، وما ينشر من عدل ، ولكنه لم يُلق لها سمعاً، لأنه كان بطبعه جافاً شرّيراً سيئ التدبير . وكان أخوه « نجم » مسيطراً عليه، فزاد حكمَه فساداً على فساد .

ضجّ أهل القاهرة من ظلم شاور وعسفه ، فاجتمعت جموعهم ، وتلاقت حشودهم عند باب زَويلة ، وكان زعيم الجمع ورئيسه الشيخ عبد الحكم الغفّارى المدرس بجامع الحاكم ، وكان جهير الصوت قوىّ التأثير ، فأخذ يرسل فيهم صوته بمخازى شاور ، وإرهاقه الأمة بأنواع العسف والقوة الجائرة ، حتّى هاج كوامن أحقادهم ، ثم دعاهم إلى السير إلى القصر الكبير ، فساروا كالبحر المائج ، وكان صياحهم : يا شاور ظلمت ! ! يا شاور طغيت ! ! . . . الله الله فينا ! ! . . . بالخليفة نستنجد ! ! وكانت النساء تطلّ من النوافذ يحيين الجموع بالأغاريد والدعاء . ولما قربوا من القصر ، أمرت سيدة القصور عمارة أن يخرج إليهم ويهدّئهم ويكلمهم كلاماً عائماً ، ويعدهم ويمنّيهم . وقد تمّ كل هذا ، وأظهر عمارة براعة فى اجتذاب الجموع إليه ، وفى تسكين غيظهم من غير أن تندّ منه كلمة

تغضب صاحب الحكم أو تغضب الثائرين ، وما زال بهم حتّى تفرّقوا مطمئنين مغتبطين .

وبعد يومين عقدت سيدة القصور مجلساً بالقصر ، حضره الأستاذون، ومؤتمن الخلافة ، وضِرغام بن عامر اللّخميّ ، صاحب الباب ، ورئيس الجنود البرقية ، وتداول من بالمجلس فيما صارت ليه الأمور فى عهد شاور من الفساد والعَفَن ، ورأوا أنه لا بد من استئصال شأفته ، وتطهير البلاد من شره .

وكان ضرغام فارس عصره ، شجاعاً جميل الطلعة ، أديباً شاعراً . فوقف وقال :

ــ يا سيدى إن لدىّ من الجنود البرقية عشرة آلاف ، وهى تكفى لمحو هذا الطاغية ومحو عصابته فقالت سيدة القصور : إنى لا أقنع إلا برأس شاور .

خرج ضرغام وقضى أياماً فى إعداد جيشه فى الخفاء ، حتّى إذا تمّت أهبته ، وثب فجاءة على شاور . فجمع شاور جيشه ، ولكنه لم يستطع الوقوف أمام ضرغام ، بعد أن ناصره أهل القاهرة ، وجمع له الشيخ عبد الحكم جموعاً من أحياء العطوف ، وبرجوان ، والفرحية ، والريحانية . فهزم شاور ، وقتل ضرغامُ ابنه طيا ،

وفر بجيشه إلى الشام للاستنجاد بنور الدين محمود بن زنكى .

وعاد ضرغام إلى القاهرة فائزاً تُدق أمامه الطبول ، وترفع له الرايات ، ووصل إلى القصر وقابلته الأميرة مرحِّبة مهنئة ، وولاه الخليفة الوزارة .

وكان ابن دخان فى ذلك الوقت فى داره فالتفت إلى باسمة وقال : لقد أكثرتِ من نصح شاور يا باسمة ، ولكنه لم يسمع ! !

ــ ما دام شاور حياً فلن أفقد أملاً . . . إنه صلٌ مخادع يعرف متى يدخل جحره ومتى يخرج منه . ويجب علينا أيضاً أن ندخل جحرنا الآن حتى تزول هذه العاصفة .

أتظنين أن لشاور عودة ؟ ؟

ــ إنه لمّا حزبه الأمر ، وضايقه جيش ضرغام ، دعانى فنصحت له بما يعمل . وقد استجاب لنصحى فى هذه المرّة .

ــ حسناً . . . هلمّ ندخل جحرنا الآن لنعيش سعيدين متعانقين ، فقد شغلتك المؤامرات عنى .

## ١٢

ترك شاور بعد هزيمته جيشه بالفرما ، واتّجه مع أخيه نجم ، وابنه شجاع ، وبعض خاصته إلى دمشق ، فدخلها فى أصيل يوم من أيام الصيف ، ورأى جنود ابن زنكى منتشرين بخيامهم وأثقالهم وخيولهم فى أرباضها ، ولهم ضجيج وعجيج وحركة . وما زال يسأل عن خيمة العادل محمود نور الدين حتّى بلغها ، وكانت فى غوطة دمشق بين أشجار الفاكهة والرياحين . فنزل شاور ومن معه بخيمة الحاشية ، وطلب من حاجب نور الدين أن يُعلمه بقدومه ، فجاء الإذن بعد ساعة .

ودخل شاور فرأى نور الدين جالساً القرفصاء فى صدر الخيمة ، وفى يده سُبْحة تتحرك حبّاتها بحركات لسانه ، وقد جلس إلى يمينه العلماء والفقهاء والمحدّثون ، وإلى يساره القواد وكبار الجند . وكان نور الدين طويل القامة ، أسمر اللون ، وسيم الطلعة . فأدّى شاور التحيّة فحيّاه العادل ورحّب بمقدمه ،

وأخذ العلماء يتناقشون فى تفسير آيات فى الجهاد ، ونور الدين يشاركهم بعض المشاركة ، حتّى عجب شاور وكاد يظن أنه فى صومعة زاهد لا فى عرين قائد. حتّى إذا انفضّ المجلس ، التفت نور الدين إلى شاور وقال : كيف حال مصر ؟ ؟

ـ مصر يا مولاى فى اضطراب مستمر ، وأخشى أن ينتهز الإفرنج فرصة ضعفها فينقضّوا عليها من الساحل ، فإن ضرغاماً اللّخمىّ ـ وهو نصير الفاطميين وعدو أهل السُّنة ـ غدر بى وأخذنى على غِرّة، ففزعت إليك . وقد علمت من أيام وأنا فى الطريق : أنه يراسل الإفرنج ليُمدُّوه بجيش يستعين به على محاربة كل من تحدّثه نفسه بإنقاذ مصر.

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ! ! « يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا بِطانةً من دونكم ، لا يألونكم خبالاً » . صدق الله العظيم .

ـ ثم إن الخليفة العاضد ضعيف الرأى ، مهزول العزيمة ، وعمّته سيدة القصور تسيطر على الدّولة ، وهى حقود مستأثرة ، تنظر إلى انتصارات مولاى هنا على الإفرنج بعين البغض والضغينة ، وكأن الإفرنج أبناء عمومتها . أما العقيدة الفاطمية

التى أكرهت عليها العامة إكراهاً ، فسيدى أعلم بدخائلها وبدَعِها، وإذا كان مولاى العادل قد وقف حياته على الجهاد فى سبيل الله ، ومحاربة أهل الزّيغ ، فمصر تدعوه لإنقاذها من الظلم والإلحاد ، ومصر تدعوه لحمايتها من غزو الإفرنج ، الذى أصبح منها قاب قوسين .

— ولكنى فى شغل شاغل بمحاربة الإفرنج ، ولو أرسلت معك جيشاً إلى مصر لوثب علينا الإفرنج هنا واستعادوا ما استنقذناه من أيديهم من البلاد . لا يا ابن مجير . . . كل إنسان أولى بمداواة جراحه .

— إنى لا أطلب إلا جيشاً صغير العدد ، ينضم إلى جيشى المرابط فى مدينة الفرما .

— ولا هذا يا ابن مجير . فقد جئت فى وقت توالت فيه الأمداد على أصحاب الصَّليب وقويت شوكتهم .

— ما كنت أحسب قبلك يا سيدى أن إنساناً يرفض ملك مصر ! ! لأكنْ معك صريحاً . . . أتحب أن أكون نائباً عنك فى حكم مصر ، وأن أبعث إليك بخراجها فى كل سنة ، وأن يخطب الخطباء باسمك فوق كل منبر ؟ ؟

فحملق نور الدين فى وجه شاور ، ولكنه رأى وجهاً سمحاً متواضعاً ، ليس فيه أثر للكذب ولا للخديعة . فأطرق وقال : يكون خير إن شاء الله ! ! وفى الصباح دعا نور الدين أسدَ الدين شيركوه ، وابن أخيه صلاح الدين ، وأخبرهما بما كان من أمر شاور ، وأمرهما بتجهيز جيش للذهاب إلى مصر بعد أربعة أيام . وقد حاول صلاح الدين أن يدعو نور الدين إلى التَّريُّث فى الأمر ، حتى يظهر صدق شاور ، أو إلى أن يطلب من شاور ودائع ثمينة لتكون ضماناً لصدقه . ولكن هيبة ابن زنكى والرهبة منه ، حبستا لسانه فلم يستطع تكلما .

سافر الجيش الشامىّ مع شاور وعلى رأسه أسد الدين ، وصلاح الدين ، والتقى عند الفرما بجيش مصر ، ووثب الجيشان على القاهرة ، وجمع ضرغام جموعه ووثب فى مقدمة جيشه على جيش شاور. فطالت الحرب بينهما ، ودمَّر كل منهما كثيراً من مبانى المدينة، وأحرق كثيراً من قصورها ، وظفِر شاور فى النهاية بضرغام فقتله ، وشتت جموعه ، واستولى على القاهرة .

وقبل أن يدخلها اختلى بأسد الدين وصلاح الدين ، وقال لهما : إن من الخير لكما ألا تدخلا القاهرة الآن ، لأن القاهريين

إذا رأوا جنود الشام ظنوهم غزاة فاتحين ، فجمعوا لهم وقتلوهم ، وليس لكم من كثرة العدد ما يمكّنكم من المقاومة . والرأى عندى أن تعودا إلى دمشق ، وأن تحملا إلى مولاى الملك العادل كريم تحياتى وجزيل شكرى . فقال صلاح الدين :

– إن هذا يخالف ما اتفقتَ مع الملك العادل عليه .

– هو نفس ما اتفقتَ عليه معه يا قائدى الصَّغير ... لم تتعدّ المسألة أن تكون مجاملة بين أميرين . . . لقد استنجدتُ بالعادل ليساعدنى على إطفاء ثورة فى مصر فساعدنى ، وهذا يحصل بين الملوك كل يوم . فقال أسد الدين : ألم تتعهَّد بأن يكون له ملك مصر ، وأن تكون نائبه عليها ؟ ؟ فابتسم شاور ابتسامة دهاء وسخرية وقال : ملك مصر الذى باهى به فرعون ملوك الدنيا ، يمنح فى مقابل خمسة آلاف جندى يسيرون من دمشق إلى باب الفتوح ؟ ! لا يا سيدى . . . إن مصر أغلى من ذلك جداً . . . لم يحصل اتفاق على شىء من هذا . وحينئذ ظهر الغضب على وجه صلاح الدين وقال : إننا سنعسكر فى «بلبيس» وسننتظر أوامر مولانا نور الدين ، وربما التقينا قريباً يا شاور ، ولذلك نرجىء تحية الوداع إلى تحية القدوم ! !

دخل شاور القاهرة فاتحاً منصوراً، ولكن القاهرة لم تستقبله استقبال الفاتح المنصور . وللقاهريين غريزة صادقة فى الحكم على الرجال ومقابلة الحوادث .

وأرسلت سيدة القصور تحياتها للقائد العظيم ، فمثل شاور بين يديها ، وشكت إليه ما لاقت مصر أيام ضرغام من الظلم والعسف والاضطراب ، وخلع عليه الخليفة العاضد خلعة النصر ، وقلّده سيفاً أثرياً كان لجوهر الصقلّى فاتح مصر . ثم ذهب إلى داره فقابلته « باسمة » وابنه شجاع واحتفيا به فقال شجاع : أين أسد الدين وصلاح الدين ؟ فقال شاور : أرسلت بهما إلى الجحيم .

— أين هما حقّاً ؟ ؟

— رَجَعَا إلى الشام . فقالت باسمة : يا للعار ! ! أيطرد العربى أضيافه عند باب داره ؟ ! فظهر الغضب على وجه شاور وقال : نعم يا حاتمىّ الرعناء ، يفعل العربى ذلك إذا رأى أن أضيافه سينقلبون لصوصاً . وقال شجاع : هذا خطأ يا أبى . قد كان يجب ، وقد تعجّلت فى تعهّدك لنور الدين ، أن تكرم قوّاده ، وتزوّدهم بالهدايا والأموال ، وتعِدهم وتمنّيهم ، ثم تتخلص

من عهودك فى لطف لا يحس . أما الآن ، فأخشى أن يعود إليك القائدان بجيوش لا قِبَل لك بها ، فلا نكون قد ضعنا وحدنا ، بل ضيَّعنا مصر معنا . فقال شاور : إن هذه أوهام يا فتى . . . فإن الإفرنج بالشام لم يتركوا لنور الدين لحظة يفكر فيها فى فتح مصر .

وتركهم شاور غاضباً ، ودخل حجرة ، فرأى أخاه نجما ، فنفض إليه الأمر كله . فقال له نجم – وكان ألأم من شاور وأشد خبثاً – : عملت كل ما يجب أن يعمل ، ولو أن هؤلاء الجنود وضعوا أقدامهم فى القاهرة ، ما استطاعت قوة أن تخرجهم منها .

– ولكن ماذا نعمل يا نجم إذا بعث القائدان رسولاً من بلبيس إلى نور الدين ، وبالغا فى الشكوى منى ومما قد يسميانه خيانتى ، فأرسل إليهما جيشاً جراراً لا نستطيع له دفعاً ؟ ؟

– هذا صحيح يا شاور . . . وإن له عندى دواء ، ولكنه قد يكون مُرًّا ! !

– ما هو ؟ ؟

– أن نرسل فى الخفاء رسولاً إلى القائد مرّى ملك الإفرنج بساحل الشام ، لنطلب منه أن يزحف بجيوشه على مصر لطرد

الغزّ من بلبيس ، وأن نغريه بقدر كبير من المال . . . هذا هو الدواء . . . وهو مرّ حتما ، ولكن ألا تظنّه قاتلا ؟ ؟

— لا . . . إن الإفرنج نستطيع أن نخدعهم . أما هؤلاء الغزّ : فلا . . . أين ثعلبة الشمّاخ ؟ ؟ فدخل فتى قصير القامة ، متين العضل تدلّ ملامحه على الشراسة والقسوة . فكتب شاور رسالة طويلة وسلّمها إليه وقال : تسير الليلة مبالغاً في الاختفاء ، ولن تستريح حتى تصل إلى عسقلان ، فتقدم هذه الرسالة إلى الملك مرّى . ثم نزع خاتمه وقال : وهذا علامة صدقك إن شك الملك في رسالتك . . . خذ أسرعَ خيلى ، وعد إلىّ بعد عشرة أيام .

وذهب الرسول ، وقدم الإفرنج إلى مصر في جيش لُهام ، ووثبوا على أسد الدين ببلبيس فصالحهم بمال ، وعاد أدراجه إلى دمشق . ولكنهم لم يقفوا عند بلبيس ، بل أخذوا طريقهم إلى القاهرة ، ودخلها قائدهم بقسم من جيشه ، فأكرم شاور وفادتهم ، وأعدّ لهم منازل وأسواقاً ، وقرر لهم مائة ألف دينار في السنة . فأقاموا إقامة المحتلّ ، وطغوا وظلموا ، وعاثوا في القاهرة فساداً .

## ١٣

مضت أربع سنوات أو تزيد ، والقاهرة فى همّ ناصب ، وكوارث متتابعة ، تقاسي من ظلم شاور وعسفه ، وولعه بسفك الدماء ، واغتصاب الأموال ، وتقاسى من تحكّم الإفرنج واستبدادهم بالناس ، وتسلّطهم عليهم بضروب من الأذى والإرهاق .

وكانت « باسمة » حيرى مضطربة النفس . فقد كانت تريد زوال الدولة الفاطمية ، ولكنها لم ترد أن تزول بمثل هذا الحكم الأرعن الأحمق ، الذى وضع فيه السيف والسوط والنهب ، موضع العدل والحق .

وكان شاور إذا اختلى بنفسه ، تيقّظ فى نفسه رسيس من ضمير مهزول ، فهمس فى أذنه : ماذا فعلت يا ابن مجير ؟ !. ما هذه الدماء التى لا تزال تقطر من يديك ؟ ! . . . لقد تثلّم سيفك من قطع الرءوس وخدرت يدك من انتهاب الأموال ! ! . .

طلبت الحكم بالقوة والخديعة فلم تهنأ به ، وهزئت بالعزّ فوقعت في يد الإفرنج الذين دخلوا القاهرة ضيوفاً مناصرين ، فأقاموا بها حكاماً غاصبين !

وكانت سيدة القصور وعمارة في ذهول يشبه الحمّى ، لما أصاب مصر والدولة الفاطمية من نكبات على يد شاور الشرير المعتوه . كانا يريدان حماية الفاطمية من تسلط الوزراء ، وكانا يريدان جمع أمورها بيد الخليفة دون غيره . فكانت المصيبة مضاعفة ، لأن شاور بن مجير لم يغتصب سلطة الخليفة وحده بل قاسمه الإفرنج فيها . فوقع الشعب المسكين بين براثن قوتين من قوى الشر ، تسوقانه إلى الدمار والفناء .

واحسرتاه ! ! . . . القاهرة المضيئة ، الفرحة المرحة ، التي ما كانت تنتهي لها أعياد أو مواسم — تصبح مظلمة ، حزينة ، عابسة ، مرتعدة ، تخشى في الصباح ما يجيء به المساء ، وتترقب مذعورة في المساء ما يجيء به الصباح . . القاهرة المعزّية التي كانت حاضرة الإسلام ، ومعقل المدنية ، وأمّ القرى ، وسيدة المدائن ، والتي كانت جيوشها لايفارق النصر راياتها — تصير نهباً مقسّماً بين الظلم والطغيان ، ويصبح أهلها أذل من عَيْر و وتد ! !

فجع القاهريون لهذه النوازل ، وتكوّنت جماعات سياسية خفيّة ، واجتمعت إحدى هذه الجماعات بمنزل عمارة اليمنى ، وكان من المجتمعين : المهذّب الأسوانى ، ومحمد بن قادوس ، وداعى الدعاة ابن عبد القوى ، وغيرهم . فقال داعى الدعاة : أرأيتم كيف آلت بنا الحال وكيف أصبحت القاهرة مجزراً عاماً تذبح به الناس مرّة لشهوات شاور ، وأخرى لنزوات الإفرنج ؟! فقال عمارة : والمصيبة يا سيدى أن الخليفة أصبح مغلوباً على أمره ، يرى مصر وهى ميراث آبائه الأمجاد تعتصر وتهتضم ، ويرى الرعية تسام صنوف العذاب ثم لا يستطيع أن يعمل شيئاً . وسيدة القصور تنظر بحسرات إلى آمالها الكبار ، وقد ذهبت مع الهواء ، فلا تستطيع إلاأن تردد الزفرات . وقال ثالث : مررت بالأمس بسوق البزّازين ، فرأيت الإفرنج وقد انتشروا فيها ، وهم سكارى يغتصبون ما فى الدكاكين ، ويؤذون كل من مرّ بالطريق ، والناس فى كرب وذعر . ثم إن النساء فى بيوتهن يرتجفن ليل نهار خوفاً من هجمات الإفرنج عليهن . فقال داعى الدعاة : وقد سمعت أن مرّى ملك الإفرنج بساحل الشام ، وصل منذ أيام إلى أرض مصر بجيش عظيم ، به أجناس مختلفة من

الإفرنج . وأنه نزل على بلبيس وحاصرها ، وأخذها عَنوة ، وسبي أهلها . وهو الآن قاصد إلى القاهرة ، لأنه لم يكتف ببقاء بعض جنوده بها ، بل طمع فى امتلاك ديار مصر كلها .

فقال المهذّب : إن الخبر وصل إلى سيدى متأخراً . فإن جيش مرّى نزل فى هذا الصباح ببركة الحبش ، بالقرب من الفُسطاط ولا يخفى على سيدى أن بالفسطاط جميع مخازن الحبوب والغلات ، التى تمون القاهرة . وأن بها جميع ذخائر الحرب . فإذا استولى مرّى عليها سقطت القاهرة فى ساعات .

وفى هذه اللحظة ، دخل الشيخ عبد الحكم الغفارى وهو يلهث من التعب ، وقد تصبب وجهه عرقاً ، وأخذ يصيح : ضعنا وضاعت مصر ! ! . . إنها كارثة الكوارث ، وفادحة الفوادح ! . هذا شاور المجوسى ، أرسل بعض جنوده ينادون بالفسطاط : بأن يرحل عنها جميع سكانها ، وألا يقيم فيها رجل ولا امرأة ولا طفل لأنه عزم على إحراق المدينة . وقد أرسل إليها بالأمس عشرين ألف قارورة من النِفط ، وعشرة آلاف من مشاعل النار ، لتنثر فى جميع أرجائها . وقد رأيت وأنا قادم إليكم ما يفتّت الأكباد : رأيت سكان الفُسطاط وقد هرعوا إلى القاهرة ،

بنسائهم وأطفالهم ومرضاهم ، معولين صائحين ، كأنهم فى يوم الحشر الأكبر ، بعد أن تركوا دورهم ، ومتاجرهم ، وأمتعتهم ، وذخائرهم ليحرقها شاور الطاغية بالنار. ياللمصيبة ياللمصيبة ! ! ماذا جرى على مصر ؟ ؟ وهل كان ذلك مكتوباً لها فى لوح القدر ؟ ! وإذا احترقت الفُسطاط ، واستشرت النار ، وسرت إلى القاهرة فالتهمتها فى طرفة عين ، أتجلسون هنا صامتين حتى تأخذكم الصيحة ؟ ! أليس فى مصر رجال ؟ ! أليس فيها عقول ؟ . أليس فيها من يرى رأياً فى هذه الداهية الدهياء ؟ ! . ليس لنا ملجأ إلا القصر ، وإلا الخليفة ، وإلا سيدة القصور . فإذا خابت آمالنا فى هؤلاء ، ذهبنا إلى دورنا ، وأغلقنا أبوابها لنكون حطباً للنيران .

فدهش القوم للخبر المفجع . وكاد يعصف الحزن بقلوبهم . وصاح داعى الدعاة : هلمّ إلى القصر . دخلوا القصر فى صمت وذهول ، فرأوا ظلاماً مخيماً ، ورأوا الأستاذين ذاهلين واجمين ، يذهبون ويجيئون فى اضطراب وحيرة . فتوجهوا إلى غرفة سيدة القصور ، فرأوها جالسة وعلى وجهها آثار الغم المكبوت ، فأحسنت استقبالهم ، ونقلوا إليها ما عندهم من أخبار السوء ،

فابتسمت ابتسامة اليائس وقالت : علمت كل هذا فى الصباح فلم أغادر غرفتى ، وبقيت كل هذه المدة أفكر فيما يجب أن يعمل . وقد وصلت فى النهاية إلى رأى قد يكون فيه استجارة من الرمضاء بالنار ، واستشفاء من الداء بالداء . ولكن تنوع البلاء خير من استمراره ، والمصيبة المشكوك فيها خير من المصيبة المحققة . فقال عمارة : على أىّ شىء عولت يا مولاتى ؟ ؟

— عوّلت على الاستنجاد بنور الدين بن زنكى. فقال داعى الدعاة: هو خير من شاور ، ومن الإفرنج على أى حال . فقال عمارة : هل نضمن بقاء المذهب الفاطمى إذا دخل مصر هذا السنىُّ المتعصِّب ؟ ؟ فقال داعى الدعاة : إنه سيأتى إلى مصر ليحارب الإفرنج لا ليفتح مصر . وقالت سيدة القصور : أرجو . ومهما يكن من شىء فبعض الشر أهون من بعض . . أتوافقون عل الاستنصار بنور الدين .

— نوافق . . .

دعت سيدة القصور خادمتها « تغريد » وأمرتها بإحضار مقصّ ، فلما أحضرته قصّت شعرها ، وأمرت أن تُقَصّ شعور جميع نساء القصر من شريفات وجوار ، وأن ترسل هذه الشعور

مع رسالة استغاثة واستصراخ لنور الدين . فكتب عمارة رسالة موجزة مبكية قوّية التأثير ، على لسان سيدة القصور ، يستثير فيها شهامة نور الدين ورجولته وإسلامه ، ويدعوه إلى إنقاذ مصر وإنقاذ المسلمين. ثم سلّمت سيدة القصور الشعور والرسالة إلى أحد رجال البريد ، ليستبق الريح فى الوصول إلى نور الدين.

ووقفت سيدة القصور أمام نافذتها تنظر إلى النيران مصعوقة باكية وهى تصعّد زفرات الغيظ ، والحقد ، والألم . . . وتقول :

أيتها النيران ماذا تأكلين ؟ ! إنك تأكلين فؤادى وتتأججين فى صدرى ! ! أى مسجد تهدمين محرابه وتحطمين جدرانه ؟ ! وأيّة دار كان يضيئها الأنس ويشع فى أنحائها السرور ، أصبحت بك اليوم ركاما ؟ ! ويحى لما أصاب قومى وأهلى ! ! كانوا بالأمس فى منازل تسامق السماء وتتحدّى الجوزاء ، فأصبحوا الليلة ولا مأوى لهم ولا وَزَرَ . ليت شعرى أين الليلة بناتهم المحجّبات ، وعجائزهم الضعيفات ؟ ؟ وأين ما كان لهم من سعادة وعزّ ونعيم ؟ أيتها النيران . التهمينى قبل أن تلتهمى رعيتى ، وخذينى قبل أن تأخذى ملكى ! ! أنا فداء لمصر ، وفداء لأهلها البررة الأطهار . . . ما أشدك أيتها النيران وما أقساك ! ! كأنك

من حقد شاور اشتعلت ، ومن لؤمه تأججت . . . أما تكفى لإطفائك دموعى وهن غِزار؟ ! لا . . .لا . . . لن أيأس فى حياتى . . . إن آمالى وآمال مصر تلتهب فيك ، وهى ذهب نضار . وستزيدها النار صفاء وخلوصاً من الأوضار ! !

## ١٤

طار البريد إلى نور الدين فحزن على مصر وبكى على أهلها وأرسل جيشاً لجباً يقوده أسد الدين شيركوه، وصلاح الدين . وما كادا يلتقيان بجيش الإفرنج ، حتى تراجع عن مصر عائداً أدراجه إلى الشام ، ودخل أسد الدين القاهرة ، فلاقته لقاء الفاتح المنقذ ، وتنفس أهلها الصُّعداء .

ودخل الجيش القاهرة وفى أخرياته شيخ يتوكأ على عكازه هو أبو كاظم الحرانى أو زين الدين بن نجا ، فإنه بعد أن خابت آماله فى الإيقاع بعمارة ، وكشفت المؤامرة التى دبرها لفتك سيدة القصور به التجأ إلى نور الدين بدمشق وأظهر النسك

والعبادة ، فعينه نور الدين واعظاً بجنده . وأصبح من المقربين في دولته ، فلمّا عزم الجيش على السفر إلى مصر ، تحرّك فيه ذنابى الشر وثارت فيه غريزة الأخذ بالثأر والانتقام من عمارة ، وجال بخاطره أنه إذا لم يظفر به مرّة فسوف يظفر به أخرى ، لذلك استأذن نور الدين في أن يلحق بجيش مصر ، فأذن له .

وبعد يوم استدعى الخليفة العاضد أسد الدين إلى القصر ، وخلع عليه خلعة الوزارة ، ولقّبه بالمنصور . فغضب شاور لعزله من الوزارة ، والتقى بابنه شجاع وقال : ألا ترى كيف فعل الغزُّ المغتصبون ... جاءوا لينقذوا البلاد من الإفرنج فاستولوا عليها ؟!

— يا أبي : من الخير لنا أن نتوارى في دورنا ، وألاّ ترى الناس وجوهنا . فإن القاهريين لو تصدقوا علينا بدمائنا لكانوا أكرم الناس .

— أكرم الناس !! هؤلاء البُلْه المفاليك الذين يصفّقون لكل غالب !! . . إنني عزمت على مكاتبة جميع ملوك الساحل من الإفرنج ، ليهجموا على مصر من طريقين : طريق بلبيس ، وطريق دمياط .

فلمع الغضب في عيني شجاع وقال : والله لئن لم تنته عن

هذه الأمور ، لأكشفنّ الأمر لأسد الدين .

– كفكف من غربك يا شجاع . إنّى إن لم أفعل هذا قتلنا الغزّ عن آخرنا .

– وإذا جاء الإفرنج قتلونا أيضاً . ولأن نقتل والبلاد بيد المسلمين ، خير من أن نقتل والبلاد بيد الإفرنج .

ثم دارت الأيام ، ولم يستطع صلاح الدين صبراً على بقاء شاور حيّاً ، يحوك الدسائس ويبث الفتن ، فقتله بيده . وبعد قليل مات أسد الدين ، فولّى الخليفة صلاح الدين الوزارة ، ولقّبه بالملك الناصر .

تولّى صلاح الدين الوزارة وهو شديد الحذر من سيدة القصور لا يؤمن ببشاشتها ، ولا بحسن لقائها ، وكأنه رأى بعين بصيرته ما ينطوى عليه قلبها له : من الحقد ، والضغينة ، والكيد . فهم لُعبتها فعزم على تفاديها بلعبات أخرى : علم أنها لم تؤثره بالوزارة مع وجود كبار الرؤساء والقوّاد بالجيش الشامىّ ، إلا لتوقع الخلاف والفرقة بينه وبين هؤلاء القوّاد ، حتّى يصبح بأسهم بينهم شديداً وحينئذ تتحكم سيدة القصور فى الموقف ، وترضى عمّن ترضى عنه منهم ، فيكون صنيعة نعمتها ، ومنفّذ أمرها . علم صلاح

الدين هذا فتملق القوّاد، وأغدق عليهم واسترضاهم ، وجعل نفسه أداة منفّذة لإرادتهم . ثم اتجه إلى القصر ، فأخذ يجرّده من كل قوة فيه تستطيع أن تقاومه ، أو تقف فى وجه غايته : فأبعد كثيراً من رجاله ، وأخذ يرهق سيدة القصور بطلب الأموال حتّى كاد يستنفذ ما عندها ، ثم رتّب بهاء الدين قراقوش — وهو من أشد رجاله عنفاً وأكثرهم له إخلاصاً — حارساً على القصر ، حتّى لا يدخل إليه شيء ، أو يخرج منه شيء إلا بإذنه .

ضاقت سيدة القصور بهذه الحال ، وسدت أمامها سبل الحيلة ، ورأت أن ملكها ومذهبها الفاطمىّ يترنّحان تحت ضربات قاسية متتابعة ، وأنه من العار عليها أن تقف صامتة مغلولة اليدين ، والأعداء يقتلون دولتها بسمّ بطيء . فطلبت أن يُدعى إليها عمارة، فلما حضر قالت : أرأيت أبا محمد ما فعله بنا ذلك الكردى الوضيع ؟ ! كأن وحياً يهبط عليه بما فى نفسى ، فكلما فكرت له فى مكيدة رأيته قد أعدّ لها ما يحبطها ! !

— هذا الرجل كارثة على مصر وعلى الفاطمية ، وقد حاولت أن أجتذبه بشعرى، وأختدعه بمديحى، فلم أجد منه إلا جفاءً وإغفالاً . ومن مصيبة مصر أن يكون عبد الرحيم البَيْسانىّ

ـ الذى يسمونه بالقاضى الفاضل ـ وزيراً لهذا الرجل الجامح ، وهو لا يشير عليه إلا بكل ما يهدم الدولة الفاطمية ويعصف بها .

ولما ضاقت حيلتى مع هذا الكردىّ أرسلت إليه بهذه القصيدة :

أيا أذُنَ الأيام إن قلتُ فاسمعى ... لنفثة مصدور وأنّة موجَع
نزلتُ بمصر أطلب الجاه والغنى ... فنلتهما فى ظلّ عيش مُمتّع
وفزت بألف من عطية فائز ... مواهبه للصّنع لا للتصنّع
وكم طرقتنى من يد عاضديّة ... سرت بين يقظى من عيون وهجّع
فقل لصلاح الدين ـ والعدل شأنه ... مَن الحكَم المصغى إلى فأدّعى؟
أقمت بكم ضيفاً ثلاثة أشهر ... أقول لصدرى كلما ضاق : وسّع
أمن حسنات الدهر أم سيئاته ... رضاك عن الدنيا بما فعلت معى ؟
ملكتَ عنان النصر ثم خذلتنى ... وحالى بمرأى من علاك ومَسمَع

فلم أتلق منه إلى هذه الساعة جواباً ، وقابلنى البيسانى فهزّ رأسه فى خبث وقال : لم أر أعجب من قصيدتك للناصر ، لقد غلّبت فيها مدحك للفاطميين على مدحه .

ـ استمرّ فى هذه الطريقة أبا محمّد ، ولا تيأس من اجتذاب هذا المهر الشموس ، فإنما أعددتك يا حبيبى لمثل هذه

الكوارث . . . لقد سمعت أن باسمة اتّصلت بحاشية صلاح الدين وأنّ هذه الخائنة تخبره بأسرارنا ، وبما تعرف من مخابئ القصر وذخائره .

ـ نعم قابلني ابن دخان منذ يومين ، وفي عينيه نظرات الشامت ، وعلمت منه أن زوجه لا تقيم عنده إلاّ قليلاً ، وأنها دائبة العمل مع رجال صلاح الدين .

ـ ويل لها منّي ! ! اسمع يا عمارة . . . لم يبق في كنانتي إلاّ سهم واحد للخلاص من صلاح الدين .

ـ ما هو ؟ ؟

ـ ستعرفه الآن . . . يا «تغريد» . . . مُرِي مؤتمن الخلافة أن يقابلني .

فيقبل مؤتمن الخلافة حزيناً ، فتقول له سيدة القصور :

ـ كم عندك من الجنود السُّودانية ؟

ـ عشرون ألفاً يا سيدتي أو يزيدون .

ـ هل تستطيع أن تهجم بهم مفاجأة على جنود الغزّ ، وتطهر البلاد منهم ؟ ؟

ـ ذلك ممكن يامولاتي إذا استمرّ الخلاف الذي أراه بين قوّادهم .

— أعِدّ العدَّة، واهجم عليه متى شئت وأين شئت. والله معنا. فقال عمارة:

— إذا هزمنا هذه المرّة يا مولاتى: ذهب منّا كل شىء ! !

— ليكن ما يكون، فإن آخر الدواء الكىّ. خلّيانى وحدى.

انفضّ المجلس وخرج عمارة من القصر، وبينما هو فى الطريق قابله المهذّب الأسوانى ومعه شيخ غريب عليه سيما الصلاح والزهد لا يفتأ لسانه متمتماً بالتسبيح والأدعية. فسأله عمارة عنه، فقال إنه زين الدين بن نجا، وهو رجل تقىّ يعظ جنود الغزّ. ثم مال على أذن عمارة وهمس: ويبغضهم أشد البغض. فحيّاه عمارة ودعاهما إلى داره، ورأى من حديث زين الدين وسوء عقيدته فى الغزّ، ما حبّبه إلى نفسه، وقرّبه إلى قلبه، ووثّق عرا الصداقة بينهما، وبعد أيام ثار السّود على الغزّ، واشتدّ القتال بينهم، وطال أمد المعركة، وكادت صفحة التاريخ تتغيّر لولا أن تآلف قوّاد صلاح الدين، وصدقوا فى الحملة. ولولا أن وثب صلاح الدين وأخوه توران شاه على القصر. وقبضا على مؤتمن الخلافة وقتلاه، فسقط فى أيدى السّودان وانطفأت حميّتهم.

بعد ذلك زاد تمكن صلاح الدين فى مصر. وتحكّمه فى

الخليفة ، فأغار على ذخائر القصر وكنوزه ولها من القيمة فوق ما يقدِّره الخيال ، واستولى على قصوره الخلافة ، وأخرج أبناء الخلفاء وبناتهم منها ، وأسكن كل فريق فى دار على حدة تحت حراسة قراقوش ، وتصرَّف فى العبيد والخدم ، ومنع الخليفة من مغادرة القصر ، ووهب إقطاعات المصريين إلى أصحابه وجنوده ، وعزل قضاة الشيعة واستناب قضاة الشافعية ، وأزال شعار الدولة الفاطمية ، وأبطل من الأذان « حىّ على خير العمل » ومنع أن يدعى للعاضد على المنابر .

قذف صلاح الدين بهذه السهام دفعة واحدة ، فصعقت سيدة القصور لهول هذه المصائب المتتالية ، ورأت ملكها ومذهبها يذهبان طُعمة للقوة والدهاء ، فبكت كما تبكى النساء وعادت إليها غرائز الضعف والأنوثة . أما العاضد فقد دهمه الغم وأحرقته الحمَّى ، فألح فى أن يراه طبيبه عبد الله بن السَّديد ، ولكنَّ الطبيب أبى أن يذهب إليه ، فمات حزيناً بائساً منبوذاً .

سرى خبر موته فى القاهرة ، فشاع الحزن عليه فى كل مكان وزاد فى بكاء القاهريين عليه ما أصاب الخلافة من نكبات ، بعد أن عاشوا فى ظل جناحها فى أمن ، ودعة ، ومواسم ،

وأعياد ، كانت بهجة الدنيا وزينة الدهور . ومرّ عمارة على القصر فإذا هو طلل دارس ، بعد مجد طاول الفرقدين ، وعز ملأ الخافقين . فقال :

لى بالديار غداة البين وقفات أبكي رسوماً خلت منهن سادات
يارب إن كان لى فى وصلهم طمع عجّل علىّ فللتأخير آفات

فاجتمع حوله الناس فبكى وبكوا ، وثارت ثائرته فأنشد :

أيها الناس والخطاب إلى من هو من حيث عقله إنسان
هذه خطبة إلى غير شخص نظمت عقد نثرها الأوزان
لم أخصص بها فلاناً لأنى فى زمان ما فى بنيه فلان
ذمّنا للزمان ذمّ لمن فيه وحقّ ألاّ يذمّ الزمان

ونظر من خلال دموعه ، فرأى زين الدين بن نجا يبكى وينتحب ، ورأى « باسمة » تبتسم فى جذل وخبث ، فجذبها من عضدها وقال : تعالىْ واسمعى يا فتاة ، فإن عمارة اليمنى لا يخاف الجواسيس ، بلّغى سيدك صلاح الدين ما تسمعين :

قلبُ الزمانِ على الخلافة قاسى ما للزمان جرى بغير قياسِ ! !
أسفى لمُلك عاضدىّ عُطّلتْ حجراته بعد النّدى والباسِ
أخذتْ بنانُ الغزّ من أمواله ورجاله بمخانق الأنفاس

أبنَي عليّ والبتول وأحمدٍ        وكواكبَ الدنيا وخير الناسِ :
هذى حصون الروم عُطّل غزوها        وغزت ديارَكمُ بنو العباس

واشتدّ بكاء الناس وعويلهم، وكادت تكون فتنة ، لولا أن جاء داعى الدّعاة ، فجذب عمارة من يمينه وانطلق به .

## ١٥

أسرعت باسمة إلى قصر الأيوبيين ، وكان قد سبقها إليه زين الدين بن نجا، ولمّا قابلت صلاح الدين ، والقاضى الفاضل، نقلت إليهما ما كان من جُرأة عمارة ، وما كان من بكائه الفاطميين واستثارة قلوب الناس على من هدم ملكهم ، والتلويح أو التصريح بذمّ صلاح الدين . ثم أنشدته ما حفظت من أبيات عمارة ، وأخرج زين الدين من جيبه ورقة وقال : وهذه قصيدة طويلة لعمارة يتناقلها الناس ويستنسخونها . وشرع يقرأ منها :

رميتَ يادهر كفّ المجد بالشلل        وجيدَه بعد حسن الحَلْى بالعَطَلِ

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبةً ... على فجيعتها فى أكرم الدول
بالله زُر ساحة القصرين وابك معى ... عليهما لا على «صفين» و«الجمل»
وقل لأهلهما : والله ما التحمت ... فيكم جراحى ولا قرحى بمندمل
ماذا ترى كانت الإفرنج فاعلةً ... فى نسل آل أمير المؤمنين على؟

فغضب صلاح الدين ، والتفت إلى القاضى الفاضل وقال : ماذا نعمل فى هذا الرجل الذى يسبنا جهراً ؟ !

ــ إنه يامولاى شاعر ثائر ، وقد أكثر من مدح آل أيوب فأهملتموه ، ولو أن مولاى قتله لهذا الشعر لأغضب العامة ، وما زالت الأشراف تهجى وتمدح . وأرى أن ثورة عمارة لن تصل به إلى سلامة ؛ فاصبر عليه حتى يرتكب من الذنوب ما يسوّغ قتله . فقال زين الدين : إن له شعراً صريحاً فى الخروج على الدين وعلى مذهب أهل السنة ، ألا يكفى هذا لقتله ؟ ! فقال القاضى الفاضل : دعه يا ابن نجا فإن من مزايا الشاعر أن يغتفر له ما لا يغتفر لغيره .

مرّت أيام وشهور وثورة عمارة لا تنطفىء ، وعزمه على محاربة الدولة الصلاحية لا يكلّ . فكوّن جماعة سرية ، واستغل سخط بعض قواد صلاح الدين عليه فضمهم إلى جماعته ، ومنهم خاله ،

وكان بين أفراد الجماعة : داعى الدعاة عبدالجبار بن عبد القوى ، وقاضى القضاة ، وعبد الصمد الكاتب ، ونصر الله بن كامل ، وزين الدين بن نجا الواعظ ، الذى كان عبقرياً فى الجاسوسية نابغة فى النفاق . وكانت هذه الجماعة تجتمع فى داره لأنه كان من المقبولين فى دولة صلاح الدين ، لا تحوم عليه أية شبهة .

وفى ليلة بينما كان هؤلاء مجتمعين ، إذا طرقٌ خفيف على باب الدار ، فذعروا جميعاً وظنوا أنهم أحيط بهم ، وفتح أحدهم الباب ، فرأى امرأة زريّة الهيئة فى أثواب الخدم ، وما إن اجتازت الدهليز وكشفت عن وجهها ، حتى عرف القوم فيها سيدة القصور . فظهر عليهم الدهش فابتسمت وقالت : لقد استطعت أن أفرّ من أسر قراقوش السمج بهذه الحيلة ، وكان أقصى ما أريد أن أشهد اجتماعكم ، فلعل أن يكون لى رأى فيه . فحيّاها القوم تحية الإجلال ، ثم أخذوا فى الحديث والمناقشة .

وطال الكلام واشتدّ الجدل ، وانتهى الأمر إلى أن تكون المؤامرة ذات شعبتين : الأولى : أن تكتب رسالة إلى سنان ابن سليمان صاحب الحشيشة بالشام ، ورئيس الإسماعيلية ، يوصف بها ما حلّ بالدولة الفاطمية ، ويبيّن فيها ما بين المذهب

الإسماعيلى والمذهب الفاطمى من الصلة والقرابة ، وأنّ نصر الفاطمية إنما هو نصر للاسماعيلية ، ثم يُلَحّ عليه فى ندب أحد الفدائيين من الاسماعيلية لقتل صلاح الدين . الثانية : أن تكتب رسائل إلى قواد الإفرنج بالشام وصقلية ، يُدعَوْن فيها إلى القاهرة للاستعانة بهم على صلاح الدين ، فإذا جاءوا وخرج صلاح الدين لقتالهم ، أقام المصريون بالقاهرة ثورة ، فتقسمت قوة صلاح الدين بين الإفرنج والثوّار ، والخارجين عليه من جنده وقوّاده .

ولهم القوم بكتابة الرسائل ، قال زين الدين : من الخير أن نرجىء الكتابة حتى نروّى فيها ، وحتى تكون قوية مؤثّرة .

بعد ذلك قامت سيدة القصور ، وكانت الشمس قد علت فى الأفق ، فالتفت بثيابها المستعارة وقالت : الآن أعود إلى محبسى الذى سأخرج منه إلى قبرى ، أو إلى قصرى ! !

ذهب الحرّانى إلى داره فأقام بها نهاره ، حتى إذا أظلم الليل ، قام ولبس ثيابه ، وخرج متّجهاً إل دار القاضى الفاضل . وكان يتمتم وهو يتعثّر فى الظلام قائلاً : اليوم أشفى غيظ نفسى منك يا ابن زيدان . . . اليوم أنتقم لابنى وأبى اللذين قتلهما عمك

ظلماً وعسفاً ... لقد كتمت هذا الغِلّ في صدرى عشرين عاماً ، فاليوم يجد صدرى متنفساً . . . لقد كنت أنتهز كل فرصة فتطير من يدى ، أما اليوم فلن تطير أبداً ! !

ولما بلغ الدار ، قابل القاضى الفاضل ، وقصّ عليه خبر المؤامرة وأسماء المتآمرين . فأخذه القاضى من يده وذهبا إلى قصر صلاح الدين ، فلما سمع الخبر الخطير ، أمر كبير حرّاسه أن يرسل جماعة للقبض على كل متآمر أينما كان. ولم تتمّ ساعتان حتّى قُبض عليهم، وأودِعوا خزانة البنود، وكانت سجن الفاطميين .

دخل عمارة السجن مستريح النفس ثابت القلب ، يخالجه شعور بالطمأنينة ، وإحساس بأنه أدّى واجب الوفاء كاملاً للفاطميين ولسيدة القصور .

ونام ليلته هادئ البال ، حتّى إذا تنفس الصبح ، دخل عليه الحرانى وجماعة من الجنود . فلما رآه عمارة قال له : أهكذا تُشترى الدنيا وتباع الآخرة بالنفاق والختل يا زين الدين ؟

ـ لست زين الدين . . . أنا أبو كاظم الحرانى الذى باع حياته للشيطان لينتقم منك ومن عمّك . . . اليوم يزول همّى ، وتطمئن نفسى ، حين أراك مصلوباً بين القصرين .

فصاح عمارة : إخسأ أيها الكلب النابح ! وسلّم نفسه إلى الجند وأمرهم أن يمروا به على دار القاضى الفاضل ، فلما رآه القاضى مقبلا دخل وأغلق بابه . فضحك عمارة ساخراً وقال :

عبد الرحيم قد احتجب  إن الخلاص من العجب

ثم أخِذ إلى مجلس القضاء، فاعترف غير هيّاب بكل ما صدر منه، فحُكم عليه بالصلب هو وأصحابه . وبينما كان عمارة على خشبة الموت، مرّت جنازة يمشي خلفها فقراء القاهرة وعامتّهم باكين معولين ، فسأل الجند عن صاحب الجنازة فقيل : هذه سيدة القصور . . . سُدّت أمامها منافذ الأمل ، وتجهّم لها وجه الزمان، فتجرّعت سمّاً زعافاً ماتت به لساعتها .

فصاح عمارة بالجند : عجّلوا بى ! ! . . . عجلوا بى ! ! . فسيقول الناس غداً : إن اليوم الثانى عشر من رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة كان يوم الشهداء ، ماتت فيه شهيدة العزّة والإباء ، ومات فيه شهيد الكرامة والوفاء ! ! . . . ثم صاح :

نحن فى غَفْلةٍ ونوم وللموْ  ت عيونٌ يقظانةٌ لا تنامُ
قد فزِعنا من الِحمامِ سِنيناً  واسترحنا لمّا أتانا الِحمامُ

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر

اقرأ

كريم ثابت

# الملك فاروق

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

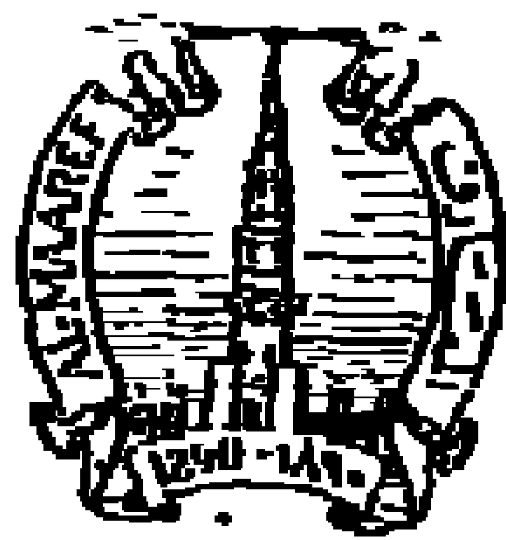
# الملك فاروق

كريم ثابت

# الملك فاروق

اقرأ * ٢٠

تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر
بمعاونة الدكتور طه حسين بك وأنطون الجميل بك
وعباس محمود العقاد وفؤاد صروف



## الفصل الأول

### كيف تشرفت بمعرفة جلالته

كنت أمضى الأسبوع الأخير من شهر ديسمبر سنة ١٩٤١ فى فنــدق كتركت بأسوان ، وفى ذات يوم شعر نزلاء الفندق أن فى جناح منه حركة غير اعتيادية فسألوا عن الباعث عليها فعلموا أن جلالة الملك المعظم وجلالة الملكة يصلان إلى أسوان بعد يومين فى زيارة عادية وأنهما سيشرفان الفندق ويقيمان به أياماً للراحة والاستجمام ثم يشرعان فى رحلة صحراوية

وقابل نزلاء الفندق جميعاً هذه المفاجأة السارة باغتباط عظيم ، ولم يعد لهم حديث إلاّ بها وبما تهيئه لهم من فرصة سعيدة نادرة لاجتلاء طلعة صاحبى الجلالة عن كثب

ولم أكن قد تشرفت بعد بمقابلة مليكنا المحبوب فشاطرت جميع نزلاء الفندق اغتباطهم طبعاً ولكن فى الوقت نفسه ساورنى شيء من القلق . . .

كنت قلقاً لأننى صحافى !

فقد خشيت أن يتبادر إلى ذهن المليك أننى جئت إلى أسوان كصحافى بمناسبة تشريفه لها ، وأن طبيعة عملى الصحفى تغلبت على ما يجب علىّ من احترام لمشيئة جلالته فى أن تكون رحلته رحلة عادية ، خالية من المظاهر الرسمية ، والقيود التقليدية

ولذلك تعمدت ألاّ أظهر فى أرجاء الفندق إلاّ نادراً ، بل إنه لما شرفه جلالته حظى برؤيته جميع نزلائه ما عداى ، فقد آثرت الابتعاد والانزواء ولم أعلم بتشريف جلالته إلاّ متأخراً

وما كاد المقام يستقر بجلالته فى الفندق حتى سرى بين نزلائه أن الملك لا يريد أن تكون إقامته بينهم سبباً فى تقييدهم بأى قيد كان

أفهموهم أن جميع قاعات الفندق وأبهائه ستظل مفتوحة لهم كالمعتاد ، وأن الجلوس على شرفة الفندق الكبيرة المطلة على النيل والحديقة سيظل مباحاً لهم فى كل وقت ، فان الملك يودّ أن يشعروا بأنه واحد منهم وأن تشريفه للفندق لم يغير شيئاً فى نظام مقامهم به

حتى الأطفال كانوا أحراراً فى أن يسرحوا فى أرجاء الفندق ويمرحوا

بل إنهم كانوا أول من التقى بهم الملك بعد وصوله إلى الفندق بقليل ، فكان يستوقفهم ويداعبهم ويربت على أكتافهم وهم يلعبون ولا يدرون أى شرف ينالون

وما كدت أغادر حجرتى فى ذلك اليوم حتى أقبل علىّ بعض خدم الفندق يقولون « مبروك » فقلت لهم « مبروك على إيه ؟ »

فأخبرونى عندئذ أن مولانا استوقف ابنتى ليلى وهى تعدو فى بهو الفندق ولاعبها وسألها عن اسمها فلم تجاوبه وكان عمرها يومئذ ستة عشر شهراً ولمّا تتكلّم . . .

فقلت فى نفسى الحمد لله على أنها لا تتكلم بعد وإلاّ افتضح أمر وجودى

***

ومضيت فى سبيلى إلى شرفة الفندق وكانت مكتظة بنزلائه فجلست فى ركن منها أتمتع مثلهم بجمال إقليم أسوان فى ذلك الفصل من السنة

وبعد قليل حانت منّى التفاتة إلى أحد الأبواب التى تؤدى إلى الشرفة فلمحت الملك مقبلاً . . .

ترى ماذا يفعل نزلاء الفندق ؟ أيقفون أم يظلون جالسين ؟

وفى تلك اللحظة مرّ جلالته ببعض منهم فنهضوا إجلالاً فأشار إليهم بأن يجلسوا وحياهم بعبارة رقيقة باسماً ، ولاحظ جلالته أن آخرين يهمون بالنهوض كذلك فأومأ إليهم بأن يظلوا جلوساً

ومن تلك اللحظة أخذت دمقراطية جلالته تتجلى بأجمل مظاهرها ، وأدرك الناس أنه إذا كان الملك قد أعفاهم من القيود الرسمية فعليهم من ناحيتهم أن يتجنبوا كل ما من شأنه أن يذهب بزونق الاستجمام الذى ينشده

وبعد الغداء عاد جلالته إلى الشرفة ودعا سعادة مراد محسن باشا ناظر الخاصة إلى الجلوس بالقرب منه ، وتسنى للجالسين على الشرفة فى تلك الساعة أن يشاهدوا كثيراً من عطف جلالته على رجاله والقائمين على خدمته وأن يروا بأنفسهم المعاملة السمحة التى يلقونها منه ، فقد كان أحد ضباط الياوران واقفاً على بعد خطوات من مجلسه فدعاه وأمره بالجلوس معهما وبعد قليل أمر الياور الآخر بأن يجلس معهم كذلك

وجىء إليه بالقهوة فأشار جلالته إلى الخادم من طرف خفى بأن يجلب لهم قهوتهم فلما جلبها تلطف وأذن لهم فى شربها فاعتذروا وكانوا قد شربوها قبل تشريف جلالته

وإذ لاحظ جلالتـــه أن ناظر خاصته لا يدخن ناوله علبة سجايره فأخرج منها سعادته سيجارة ولما لم يشعلها ناوله جلالته « الولاعة » ليشعلها بها

وبعد ما أمضى جلالته فترة من الوقت على شرفة الفندق صعد إلى الجناح الخاص به وعكف على مطالعة التقارير والأوراق المرسلة إليه من القاهرة كأنما استكثر على نفسه أن يمتعها بالراحة يوما كاملا

وقضى جلالته صباح اليوم التالى وقبل ظهره كله فى الاطلاع والبحث فلم يغادر الجناح الخاص به إلا بعد الغداء

وكنت جالساً وقتئذ فى حجرة الكتابة فى الفندق أسجل ما رأيته أمس ، وبعد ما أنجزت الكتابة غادرت الحجرة متجهاً إلى مدخل الفندق لأسأل مديره عن أمر كنت أريد الاستفسار عنه

وبينما كنت أجتاز البهو الكبير سمعت صوتاً ينادينى باسمى فالتفت إلى ناحية مصدره فأبصرت دولة حسين سرى باشا فكرر مناداتى فاتجهت إليه وأنا لا أصدق ما تراه عيناى . . .

فقد رأيت جلالة الملـكة تحمل ابنتى ليلى على ذراعها وهى تداعبها وتلاعبها وقد وقف على مقربة منها حسين باشا وأحد

ضباط الياوران وإحدى السيدات الوصيفات

وابتدرنى حسين باشا بقوله : « هل تعرف ابنة من هى هذه الطفلة ؟ » فقلت : « إنها ابنتى يا افندم »

فتفضلت جلالة الملكة وسألتنى عن اسمها وعمرها ثم جلست جلالتها وأخرجت قطعة نقود من ذات العشرة القروش وأخذت تداعبها بها على مائدة صغيرة ، وفجأة رأيت ابنتى تأخذ نظارة جلالة الملكة وتلعب بها فأردت أن أعطيها نظارتى لعلها تقنع بها عوضاً عنها ، ولكن نظارة الملكة استوقفت نظرها بلونها الأزرق فأبت أن تدعها تفلت من يدها ثم رمتها على الأرض فقلت : « عفواً يا صاحبة الجلالة إنها لا تدرى ما تفعل » . فقالت جلالتها باسمة : « اتركها . اتركها . إن فوزية تفعل مثل ذلك تماماً »

فلم أجد ما أقول سوى الدعاء إلى الله أن يحفظ لمصر ملكها وملكتها وأن يقر أعينهما بالأميرتين المحبوبتين فريال وفوزية

وفى تلك اللحظة أقبل جلالة الملك وكانت ابنتى لا تزال تلعب بنظارة الملكة فاشترك مع جلالتها فى مداعبتها ثم التفت إلىّ وقال : « لقد كلمت ابنتك بالعربية فلم ترد علىّ فكلمتها بالانجليزية

فلم تجاوب فجربت الفرنسية فلم تجاوب أيضاً » فقلت : « إنها لا تتكلم بعد يا مولاى » فقال جلالته مازحاً : « ومتى تظن أنها تتكلم . . . »

كل ذلك وجلالته مستمر فى اللعب معها

ثم جاء أحد الياوران وقال لصاحب الجلالة إن السيارات حضرت فنهضا وتفضل الملك فأولانى شرف مصافحته

وكانت هذه أول مرة أتشرف فيها بمقابلة جلالته فخرجت منها بشعور زادته الأيام رسوخاً ، وهو أنه ملك ذو قلب عظيم وأن الله حباه بتلك القوة التى تجتذب القلوب إليه : قوة أن يكون إنساناً قبل كل شىء ، وهى أعظم قوة يستطيع ملك أن يتمتع بها

وكنت بعد ذلك كلما تشرفت بلقاء جلالته رأيت صوراً جديدة لتلك القوة الإنسانية فأحمد الله على أن ملكنا سما إلى ذروة الدمقراطية الصحيحة بروحه الفطرية ، ويقينى أن هذا هو شعور كل من أسعده الحظ بمعرفته عن قرب ، بل عندى أن عظمة الفاروق الحقيقية لا تتجلى بأجمل صورها إلا فى المواقف غير الرسمية لأنك تدرك عندئذ أن سجاياه التى يتحدثون بها فى المواقف الرسمية هى طبيعة فطر عليها ، فالاعتزاز بمصر والثقة بقواها

الكامنة والعطف على الشعب والبر بالطبقات العاملة والشفقة على الفقراء — كل ذلك لا يتكلفه الفاروق ولا يتصنعه ، بل إنك تلمسه فيه لمساً كلما حظيت بمجلسه ، وفى كل حديث من أحاديثه ، وهو فى الوقت عينه يبهرك بتواضعه و بساطة معاملته ، فترى كيف تكون عظمة التواضع ، وترى كيف تكون عظمة البساطة فى المعاملة ، وعندئذ تؤمن بأنه المصرى الأول بروحه وشعوره قبل أن يكون المصرى الأول بلقبه وعرشه

* * *

وكان مساء ذلك اليوم ليلة رأس السنة الميلادية الجديدة

وكان الفندق كله فى عيد ، وقد زاده تشريف الملكين بهجة وسروراً

وقبيل أن يأزف موعد العشاء أذيع أن صاحبى الجلالة سيتعشيان مع نزلاء الفندق فى قاعة الأكل الكبرى فعمهم البشر والابتهاج

واعتاد جلالتهما عند ما لا يتناولان الطعام فى الجناح الخاص بهما أن يتناولاه فى قاعة الأكل مع سائر نزلاء الفندق

ولما انتهى العشاء انتقل نزلاء الفندق إلى قاعة الحفلات

حيث انضم إليهم كثيرون من غير النازلين بالفنـدق وقد جاءوا ليقضوا فيه سهرة العيد آملين أن يحظوا بطلعة المليك

و بعد قليل أقبل الملكان يحف بهما جلال الملك ، فنهض الجميع تحية واحتراماً ، وعزفت الموسيقى السلام الملكى ، ثم أخذا مكانهما فى جانب من جوانب القاعة

ولم يشأ جلالة الملك أن يكون وجوده سبباً فى تغيير شىء من برنامج السهرة وتقاليد العيد ، فدعا إليه سعادة توفيق دوس باشا بوصفه رئيساً لمجلس إدارة شركة فنادق أعلى الصعيد وأوعز إليه بأن يذيع بين الحاضرين أن الملك يرغب إليهم فى أن يتمتعوا بحريتهم كاملة

ترى ماذا حدث عندئذ ؟

ما كادت الإشارة الملكية تسرى بين الحاضرين حتى أخذ المصريون منهم يهتفون لجلالته ولجلالة الملكة بما يعرب عن إخلاصهم وولائهم

كانوا يريدون أن يهتفوا من أول لحظة ولكنهم ترددوا ، فقد لا تسمح التقاليد بالهتاف فى ذلك المكان وفى ذلك المقام ، ولكن ما كاد توفيق دوس باشا يقول للجميع لا تقيدوا حريتكم

حتى انبعث الهتاف من كل جانب ، فكانت مظاهرة جميلة تكررت مرة أخرى عند حلول رأس السنة الجديدة فى منتصف الليل، فإن توفيق دوس باشا وقف فى تلك الدقيقة ودعا إلى شرب نخب صاحبي الجلالة ، فنهض الجميع إجلالاً وهتفوا لهما هتافاً عالياً ، وشرب صاحبا الجلالة النخب عصيراً من البرتقال

وقبيل أن تنتهى السهرة غادر الملكان القاعة فودعهما الحاضرون من مصريين وأجانب وداعاً حافلاً ، ولم يكن لهم بعد ذلك حديث سوى ما شاهدوه من دمقراطيتهما

***

وفى اليوم التالى تعشى الملكان فى قاعة الأكل الكبرى كذلك، ثم اتجها بعد العشاء إلى البهو الكبير تحيط بهما الحاشية ، وكان أحد جوانب البهو محجوزاً لهما، ولكن الهواء نزع البطاقة التى كتب عليها « محجوز » من المائدة التى وضعت عليها ، فلما رأيت ذلك الجانب من البهو خالياً دعوت بعض الأصدقاء والمعارف من نزلاء الفندق إلى الجلوس هناك دون أن ينتبه أحد منا إلى البطاقة التى سقطت على الأرض ، وبعد قليل أقبل الملكان ومرا بالرواق المحاذى للبهو ولما اقتربا من الركن الذى جلسنا فيه تمهلا فى السير

فلما رأيا جميع مقاعده مشغولة واصلا سيرهما لكيلا يشعرانا بما بدر منا ، ولكن حدث عندئذ شيء غريب فقد أدرك كل واحد منا فى تلك اللحظة أن المكان لم يكن خالياً اتفاقاً بل كان محجوزاً للملكين ، و بدون أن نتشاور فيما يجدر بنا عمله نهضنا جميعاً وتسللنا الواحد تلو الآخر ، نخرج بعضنا إلى الشرفة وانتقل البعض الآخر إلى الجهة المقابلة من البهو . . . حدث ذلك كله فى دقيقة واحدة ومن غير أن نتبادل كلمة واحدة كأن هامساً همس فى آذاننا جميعاً أن نقوم

و بينما كنا واقفين على الشرفة جاءنا أحد ضباط الياوران وقال: إن مولانا أمرنى بأن أدعوكم إلى العودة إلى المكان الذى كنتم جالسين فيه

فقال أحدنا على الفور: ولكننا لا نريد إزعاج مولانا ولذلك يحسن أن نبقى هنا

فقال : إن مولانا نفسه هو الذى أمر بذلك

فرجعنا جميعاً من حيث كنا ، وأدينا للملكين واجب الاجلال والتحية ، فأشار إلينا جلالته بأن نجلس فجلسنا ، وفى أثناء السهرة حانت من صاحبى الجلالة التفاتة كريمة وأنا أسأل سعادة

مراد محسن باشا : هل نسعد بسماع حديث عن الأميرتين فريال وفوزية ؟

وهنا ابتسمت جلالة الملكة وقالت : ماذا يقول ؟

فبعثنى هذا العطف على تكرار ما كنت أقوله لمراد باشا

و بعد قليل أخذت جلالتها تتحدث عن الأميرتين المحبوبتين، فكانت أمًّا تتحدث عن كريمتيها

وكانت جلالتها كلما استرسلت فى الحديث ازددنا شعوراً بجمال الأمومة وقد تمثلت فيها بأنبل صورها وأصدق معانيها

كان حديث جلالتها مثالا سامياً رفيعاً لكل أم ، نقول مثالاً لأن الأم يجب أن تكون أمًّا قبل كل شىء ولو كانت ملكة !

قالت جلالتها : إن فريال تظهر استعداداً عظيما لتعلم اللغات ، وهى تتكلم الآن العربية والانجليزية والفرنسية وتميز بعضها من بعض فقد حرصنا على أن لا تتغلب لغة منها على أخرى فإذا خاطبناها بالعربية أجابت بالعربية و إذا كلمناها بلغة أجنبية ردت علينا بها

وهنا قال جلالة الملك : وسنبذل عناية خاصة بأن تتقن فريال وفوزية اللغة العربية على الوجه اللائق بلغة البلاد

ولم يقل جلالته أكثر من ذلك ولكنها كانت عبارة سامية المعنى وجديرة بأن تصل إلى بيوت كثيرة !

وقالت جلالتها : وتحب فريال الأطفال حباً عظيماً وهى شديدة الحنو على شقيقتها فوزية وتظن أنها أكبر منها كثيراً فإذا أنبتها على شىء قالت لى : إنها لا تزال طفلة يا ماما ...

وقال جلالة الملك : إن البنات بركة . . . وأنا لا أزال شاباً ، وعندما تكبران أريد أن تشعرا أننى أخ كبير لهما لا والد فقط ... والد أحياناً وأخ كبير أحياناً أخرى . . .

فكانت هذه العبارة على إيجازها درساً جليلا فى التربية خليقاً بأن يستوعبه كل والد له أولاد ويريد لهم نشأة صحيحة

ومضت جلالة الملكة فى حديثها فقصت علينا كيف بدأت الأميرة فريال تدرك المقام السامى الذى لجلالة والدها فإذا تكلمت عنه مع أحد قالت « مولانا » ( بضم الميم وتسكين الواو ) لأنها تسمع كل من فى القصر يقول « مولانا » فتريد أن تقول مثلهم

وتلاحظ سموها الرعاية التى تحيط بها جلالة والدتها الوصيفات فإذا أقبلت وصيفة منهن قالت لها سموها بعد التحية : اتفضلى ياست هانم

وهنا ابتسم جلالة الملك وقال : إن الملكة تمضى وقتها كله مع فريال وفوزية

فقالت جلالتها : ليس فى الحياة الدنيا زينة أجمل من التوافر على العناية بالأطفال

فى تلك الساعة كدنا ننسى أننا فى حضرة الملكين فقد كان الوالد هو الذى يتكلم لا الملك ، وكانت الأم هى التى تتحدث لا الملكة

ولما رجعت إلى حجرتى فى آخر السهرة خشيت أن أنسى ما دار فيها فعكفت على تدوينه وقد استهللت الكتابة بقولى : لقد أتيحت لى فى حياتى الصحافية مناسبات تاريخية متعددة ولكن المناسبة التى هيأتها الليلة دمقراطية صاحبى الجلالة الملك والملكة ستظل غرة تلك المناسبات

***

وفى اليوم التالى نزل جلالة الملك إلى شرفة الفندق متقلداً بندقيته ثم لم ألبث أن رأيته يصوبها نحو مركب شراعى فى النيل ويطلقها فلم أتبين فى بدء الأمر هدفه ثم علمت أنه جعل الهدف قطعة صغيرة من الصفيح مثبتة فى أعلى سارية المركب فأصابها

جلالته غير مرة بما ينم على مهارة عظيمة فى الرماية . وقد أتيح لى فيما بعد أن أشاهد هذه المهارة فى مباراة دولية للرماية سيجىء الحديث عنها فيما بعد

ولما فرغ جلالته من تمرينه قلت له : لم أكن أدرى يامولاى أنكم تجيدون الرماية هذه الإجادة

فابتسم جلالتــه وقال : وما قيمة الرجل الذى لا يحمل بندقية . . .

وكنت أعلم شيئاً كثيراً عن ولع جلالته بالسلاح ، وعن شغفه بفك القنابل ، وتحليل موادها ، والإحاطة بالأجزاء التى تتألف منها ، وإعادة تركيبها ، وذلك فى المعمل الخاص الذى أنشأه فى قصره ليتردد عليه فى أوقات فراغه ، فقلت لجلالته إنها هواية لا تخلو من مخاطرة ، فابتسم مرة أخرى وقال : ما من أحد يموت قبل يومه ! . . .

## الفصل الثانى

رحلات جلالته الصحراوية
وما تفيده البلاد منها

وفى الغد خرج جلالة الملك إلى رحلته الصحراوية

ولم تكن هذه أول رحلة لجلالته فى الصحراء فقد تعددت فى سنة ١٩٤١ زياراته للواحات ، وفى سنة ١٩٤٢ رحل جلالته غير رحلة واحدة إلى صحارى مصر الشرقية

وقد لا يرى بعضهم فى هذه الزيارات والرحلات سوى مظهرها وهو حب جلالته للرياضة وشغفه بالصيد ، ولكن الذين ينعمون النظر فى نتائجها و يحيطون بأخبارها من الذين يتشرفون بمرافقته فيها يرون ما هو أسمى من ذلك بمراحل ، فان جلالته بزيارته لتلك المناطق النائية يريد أن يعرف مملكته معرفة شخصية، منطقة منطقة و إقليماً إقليماً ، و يريد فوق ذلك أن يقضى على الرأى القائل أن هناك مناطق قريبة ومناطق بعيدة فيشعر سكان الجهات المنعزلة عن الحواضر أنهم يلقون من عنايته

بأحوالهم واهتمامه بشؤونهم ما يبعث ولاة الأمور على الاقتداء به بعد ما ظلت تلك الجهات زماناً طويلاً معدودة كمنفى أو شبه منفى للموظفين المغضوب عليهم

وكان الحكام السابقون إذا أرادوا زيارة واحة كواحة «سيوه» مثلاً قامت الحكومة لذلك وقعدت ، وأعدت من المعدات ما لا يحصره بيان ، واتخذ رجال الادارة من التدابير ما يعكفون على تهيئته أسابيع برمتها ، فاذا الملك فاروق يقلب تلك الأوضاع كلها رأساً على عقب فيرحل رحلاته الصحراوية فى أبسط مظهر ، ولما لاحظ أن السكان يصرون على تزيين منازلهم وأكواخهم وقراهم مع تنبيهه الشديد على ولاة الأمور بأن لا يقيموا زينات ما أخذ يفاجئهم بزياراته مفاجأة ليوفر عليهم كل تكليف مهما يكن ضئيلاً .

ولم يكن لجلالته وقد ورث عن المغفور له والده العظيم حب الكشف العلمى أن يجرد هذه الرحلات من الأغراض العلمية ، ففى كل مكان ينزله يأمر بجمع نماذج من الماء الذى يجرى فيه ، ومن كل شىء يستوقف نظره فى الزراعات ، وفى طبقات الأرض ، حتى إذا عاد إلى القاهرة أمر بارسالها إلى الجهات الفنية

لتدرسها ، وتبدى آراءها الفنية فيها ، وتوافيه بتقارير عنها

ثم إن جلالته بهذه الزيارات المستمرة لأرجاء المملكة غير المطروقة يحث المصريين على الاهتمام بمعرفة بلادهم أكثر مما يعرفونها ، فتكثر زياراتهم لتلك الأرجاء ، فتزداد الصلات بين سكانها وسكان الحواضر ، ويزداد اهتمام الحكومة بشؤونها ومرافقها وهو ما توخاه الملك فؤاد من زياراته لمرسى مطروح وسيوه والسلوم فى سنة ١٩٢٨ فلما زارها دولة اسماعيل صدقى باشا وهو رئيس للحكومة بعد ذلك بثلاث سنوات أو أربع ، وكنت أصحبه فى تلك الزيارة، لم أسمع فى كل مكان سوى أن الملك فؤاداً هو الذى أوصى بعمل كيت ، أو أن الملك فؤاداً هو الذى أوعز بصنع كيت ، وكان جلالته قد سبق كل رئيس حكومة فى تاريخ مصر الحديث إلى زيارة تلك النواحى النائية

ومن فوائد هذه الرحلات وأغراضها أنها ستقضى مع الوقت على وهم قديم تسلط على السواد الأعظم من الموظفين فأصبحوا ينظرون بعدم الرضى إلى كل مهمة يكلفونها بعيداً عن الحواضر فاذا قيل لأحدهم إنه سيذهب إلى سيوه أو إلى مرسى مطروح أو إلى الواحات أو إلى الصحراء الشرقية عد ذهابه إليها نفياً له — فهذا

الوهم سيبدده جلالة الملك مع الأيام فيسدى إلى البلاد خدمة من أجل الخدمات . سيبدده لأنه فى كل رحلة من رحلاته يلقى علينا طائفة من الدروس الصامتة ولـكنها دروس عملية فتجىء أبلغ من كل كلام ، ومن هذه الدروس أن لا فرق بين قريب و بعيد وأن المناطق النائية والبقاع المنعزلة يجب أن تكون موضوع تفكيرنا واهتمامنا على الدوام ما دامت تؤلف جزءاً من المملكة

ومن هذه الدروس أن الملك يسعى إلى تلك المناطق والأرجاء بنفسه غير مكترث للمشاق والصعاب بل المأثور عن جلالته أنه يسلك فى رحلاته الصحراوية أوعر المسالك وأصعب الدروب ، وقد أتيح لى أن ألقى نظرة على الخارطات التى سارت القافلة الملكية على هديها فى الرحلة الثانية إلى الصحراء الشرقية فإذا بها قد سلكت فى بعض الجهات طرقاً لم يسلكها ملك قبل الآن بل لم تطأها قدم مصرى قبل الآن ، وما حدث فى هذه الرحلة حدث فى غيرها

ومن هذه الدروس أنه إذا كان ملك البلاد يذهب إلى تلك المناطق والأرجاء ويتحمل فى هذا السبيل ما يتحمل و يقطع ١١٠٠ كيلومتر فى سبعة أيام كما فعل فى الرحلة التى أشرت إليها فى الفقرة المتقدمة

فليس لأحد بعد ذلك أن يشكو ، أو يتذمر ، إذا طلب إليه الذهاب إلى منطقة منها

* * *

وحدث مرة فى إحدى رحلات المليك الصحراوية أن ضلت القافلة الطريق ولاحظ جلالته أمارات الاضطراب على وجوه العربان الذين يصحبونها لتسترشد بخبرتهم ، وبينما هو كذلك قيل له إن البنزين نفد وإن بعض الخزانات التى ظنوا أنها مملوءة بنزيناً ملئت بترولاً خطأ ، وكان ماء الشرب قد نفد كذلك أو كاد . . . . ولم يكن مع القافلة لاسلكى تتصل بواسطته بمن يستطيع إنجادها

ولم يلبث الاضطراب أن ساور الجميع ما عداه ، فقد ظل جلالته محتفظاً بهدوئه ورباطة جأشه ومسيطراً على أعصابه كعادته فى كل موقف خطير ، وبعدما شجعهم وأمرهم بما يتعين عليهم عمله قال لهم لا فائدة ترجى من أن تبقوا جميعاً مجتمعين فى بقعة واحدة ، بل من الأفضل أن تنتشروا شعباً للبحث عن الماء ريثما يفطن الناس إلى تأخرنا ويخطر لهم أن يبحثوا عنا ، فأطاعوا أمره ، ومرت ثلاثة أيام بقيظها قبل أن يهتدوا إلى الماء ،

وكان الظمأ قد أخذ منهم مأخذه ، ويؤكد جلالته أنه لو طلع عليهم اليوم الرابع بدون شرب لما كان الذين خفوا إلى نجدتهم قد وجدوهم على قيد الحياة

وإذا روى جلالته هذا الحادث رواه كأنه يتحدث عن نزهة عادية وكان تعليقه الوحيد عليه : « إن هذا الحادث علمنا أن نأخذ معنا فى كل رحلة صفائح إضافية من البنزين والماء وأن نخبئها فى مكان لا يهتدى إليه أحد بحيث لا تمتد إليها يد إلا عند الضرورة القصوى ، وكذلك صرنا لا نخرج فى رحلة صحراوية طويلة بدون أن نأخذ معنا آلة اللاسلكى »

وجلالته هو الذى يشرف على إعداد جميع معدات هذه الرحلات ، فلا تشتغل المصالح الحكومية بها ، وذلك حرصاً منه على أن تظل بعيدة عن كل صبغة رسمية استيفاء للأغراض التى يتوخاها منها

وهو الذى يدرس خططها ويعين مراحلها

وهو الذى يجعل من نفسه قدوة للآخرين فى التقشف والترحيب بما تنطوى عليه حياة الصحراء من شظف العيش

وهو الذى يحمل نفسه ، راضياً مغتبطاً ، ما ينوء به سائر

أعضاء القافلة من ارتياد مناطق وعرة إلى تسلق جبال مرتفعة إلى زيارة مناجم والطواف بمصانع ، على نحو ما حدث فى خلال الرحلة الشاقة التى رحلها جلالته فى شهر يناير سنة ١٩٤٢ فى الصحراء الشرقية وعلى شاطىء البحر الأحمر

وكل ذلك فى سبيل الدرس والاستطلاع فيفيد بلاده بمشاهداته وملاحظاته

وكان فى استطاعة جلالته أن يجوب معظم تلك الأرجاء بطريق البحر فيستريح ، ولكنه لم يفكر فى راحته بل فكر فى مشاهدة أقصى ما يمكنه مشاهدته ، وفى جمع أغزر ما يتسنى له جمعه من المعلومات ، وفى اكتساب أعظم مقدار من الخبرة يسعه اكتسابه ، فوجد أن السفر بالسيارات يحقق غرضه فى هذا كله أكثر من السفر بحراً ، فجعلها رحلات بالسيارات غير مبال بمشاقها وغير مكترث لتقلبات الجو وكانت كثيرة فكان بذلك قدوة لشباننا فى غير ناحية واحدة

ومتى ذكر الباحث ما سيكون للصناعة من شأن فى حياة مصر المقبلة وما لذلك من علاقة بالثروة المعدنية العظيمة التى يحويها جوف الأرض فى المناطق التى جابها جلالته فى غير رحلة

واحدة من رحلاته أدرك ما سيكون لمشاهدات جلالته وملاحظاته من نتائج هامة على مر الأيام ولاسيما أن من أعز أمانيه أن تصبح مصر بلاداً صناعية بقدر ما هى بلاد زراعية

ولا يقنع جلالته فى أثناء طوافه بما يلمحه عن بعد أو بما يصل إلى مسمعه عن طريق الأحاديث والتقارير، بل هو دائماً حريص على مشاهدة كل شىء بنفسه والإحاطة بكل شىء يسمعه، ولذلك فان الفنيين الذين يتشرفون بلقائه يدهشون لمعلوماته الفنية وقوة ذاكرته وسداد ملاحظته وعنايته العظيمة باستيعاب كل ما يقع عليه نظره

وتراه بعد هذا كله إذا أصيبت سيارته بعطب وهى فى وسط الصحراء بادر إلى إصلاحها بنفسه غير متأفف من ذلك ولا متذمر، فقد أولع بالميكانيكا منذ صغره، وهو بلا ريب من أمهر الميكانيكيين، وهو إلى جنب ذلك صانع مقتدر بيديه وقد صنع بهما أشياء كثيرة يفخر بها وهى تضعه حتما فى مصاف الصناع الأكفاء، وليس فى استعمالى لكلمة «صانع» ما يضير جلالته فإنه يعتز بما تصنعه يداه فى أوقات الفراغ للتسلية، وقد سمعته مرة يقول :

« لو لم أكن ملكاً لكنت صانعاً بارعاً بما أستطيع صنعه بيدى »

* * *

وقد أنشأ جلالته فى المزارع الملكية فى أنشاص متحفاً يحفظ فيه النادر من الحيوانات والطيور التى اصطادها فى خلال رحلاته بعد تحنيطها

وفى بعض أرجاء هذا المتحف خزانات من الزجاج تحتوى على نماذج من جميع المعادن التى عثر عليها جلالته فى تلك الرحلات وعلى نماذج أخرى من جميع طبقات الأرض التى استوقفت أنظار جلالته فى الواحات والصحارى ، وتؤلف جميع هذه النماذج متحفاً نفيساً للمشتغلين بالعلم وهى دليل مادى ناطق على ما تفيده البلاد علمياً من رحلات المليك فى صحارى مصر وواحاتها

ومما هو جدير بالذكر هنا أن هذا المتحف ينمو باطراد ، وقد نسق تنسيقاً جميلا بإشراف جلالة الملك نفسه وهو يزوره من وقت إلى آخر ليتفقد ما يضاف إليه من تحف جديدة ، وإذا زار زائر أنشاص بدعوة من جلالته فان هذا المتحف يكون حتما

فى مقدمة ما يدعى إلى مشاهدته ، ولا ريب فى أنه سيكون لمحتوياته شأن كبير فى المستقبل القريب

ويأبى جلالته أن يذكر اسمه فى هذا المتحف كأن يقال مثلا إنه هو الذى اصطاد هذا الطير أو ذاك الحيوان فيكتفون بتثبيت تاج صغير على اللوحة التى ينقش عليها اسم الطير أو الحيوان وتاريخ اصطياده ومكانه، أما الطيور والحيوانات التى لم يصطدها جلالته فلا يوضع هذا التاج على لوحاتها

* * *

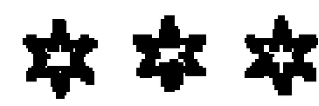
ولا يخرج جلالته فى رحلة من هذه الرحلات بدون أن يكون مصحفه فى جيبه وهو المصحف الذى لا يفارقه أبداً

وحدث مرة أن نسيه جلالته فى القصر فلما فطن إلى ذلك أرسل رسولا بسيارة خاصة ليأتيه به

وعند جلالته مجموعة نفيسة من المصاحف وهو يستعين على درس خطوطها ونقوشها بخبير خاص له عنده منزلة رفيعة

ولجلالته فى قصر القبة مكتبة خاصة تشغل عدة حجرات وتملأ رفوف كل حجرة من الأرض إلى السقف ، وهى غير مكتبة عابدين الرسمية ، وقد أنشأ جلالته بجوار هذه المكتبة

الخاصة حجرة خاصة بحفظ مجموعته النفيسة من المصاحف احتراماً لها ، وقد بنيت هذه الحجرة على الطراز العربي وحليت قبتها وجدرانها بالآيات القرآنية والنقوش العربية فجاءت آية فى الجمال والفن ، وسمع جلالته بعضهم يقول مرة إن الناس لا يعرفون شيئاً عن هذه الحجرة وعن عنايته بمصاحفه فقال : « وهل يعلن المؤمن عن إيمانه ؟ » فأفحمهم



وفى جميع تلك الرحلات يقود جلالة الملك سيارته بنفسه ، وليست قيادتها فى دروب الصحارى الوعرة بالأمر الهين المريح ، ولكن جلالته يجد لذة كبيرة فى هذا الضرب من الرياضة ولا سيما أنه سائق ماهر ، بل إنه يجىء فى الطليعة بين أمهر السائقين ، وكان لا يزال فى السابعة من عمره لما بدأ يقود سيارته الخاصة

وقد اتفقت آراء الخبراء بشؤون السيارات على أنه لولا مهارة جلالته الفائقة فى قيادة السيارات وما يبديه من رباطة الجأش وضبط النفس فى المواقف الدقيقة الخطيرة لما انتهى حادث اصطدام سيارته فى « القصاصين » بسلام ، ولكن جلالته

استطاع بمهارته وسرعة خاطره أن يتفادى الخطر الأكبر بالنتيجة التى خرج بها وهى أقل نتيجة كان يمكن أن يسفر عنها الاصطدام الشديد الذى حدث.

وكانت أول عبارة قالها الملك المؤمن عند مبادرتهم إلى نقله من مكان الحادث : « عفوك يا رب »

***

ولما زار جلالته بورسعيد[١] رسمياً انتهت الزيارة برحلة باليخت الملكى « المحروسة » من بورسعيد إلى الإسماعيلية ومن هناك ركب جلالته القطار « الديزل » إلى القاهرة

وللذين لا ينظرون إلا لمظهر الأمور بدت هذه الرحلة البحرية كأنها نزهة أراد المليك أن يتمتع بها ترويحاً للنفس بعد عناء الزيارة الرسمية

غير أن الذين تشرفوا بمرافقة جلالته فى اليخت الملكى رأوا أنه إذا كان هناك رجل واحد لم يتمتع براحة ما فى أثناء هذه النزهة فهذا الرجل هو الملك . . .

---

(١) فى شهر مارس ١٩٤٤

فقد سأله قائد بحرية جلالته ليلة مغادرته بورسعيد عن الموعد الذى يأمر بأن يبحر فيه اليخت الملكى من مرفإه ، فكان رد جلالته : « الساعة السادسة صباحاً إن شاء الله ، ويكون الناس فى تلك الساعة نائمين أو لا يزالون فى بيوتهم فلا نكلفهم مؤونة المجىء إلى المرفأ لتوديعنا »

ولما علم بعض رجال الحاشية أن اليخت الملكى سيبحر فى الساعة السادسة صباحاً استغربوا ذلك وقالوا إن صوت آلات اليخت عند إبحاره سيزعج جلالة الملك فى تلك الساعة المبكرة فلا يستطيع النوم بعد ذلك .

ولم يكن الذين تبادر إليهم هذا الظن يعلمون ما سيعمله الملك عند فجر الغد . . . بل قبل أن ينبثق الفجر . . .

فقد استيقظ بعض منهم فى نحو الساعة الخامسة صباحاً وارتدوا ملابسهم بسرعة ليكونوا على ظهر اليخت قبل الساعة السادسة فيشاهدوا منظر اليخت عند خروجه من المرفأ

وظنوا وهم يصعدون الدرج المؤدى إلى ظهر اليخت أنهم لن يلقوا سوى ضباطه ورجاله . . .

ولكن كم كانت دهشتهم عظيمة لما أبصروا جلالة الملك واقفاً

فى حجرة المراقبة فى أعلى اليخت ببدلته البحرية يشرف ، قد امتلأ نشاطاً ، على إجراءات إبحار اليخت

وبعد ما أبحر اليخت قضى جلالته معظم الساعات الخمس التى استغرقتها الرحلة فى الرد على تحيات الجنود والعمال والأهلين الذين احتشدوا على ضفتى القنال ليحظوا باجتلاء طلعته الكريمة ولو عن بعد

* * *

وأذيع فى أواخر شهر مارس الماضى [١] أن جلالة الملك سيقصد باليخت الملكى الخاص « فخر البحار » إلى البحر الأحمر فى رحلة بحرية تستغرق أياماً للراحة والاستجمام

فإنه على أثر شفاء جلالته من حادث السيارة الذى حدث له وعودته إلى القاهرة من « القصاصين » نصح له الأطباء بتبديل الهواء فترة من الزمان بعيداً عن مهام الملك وأعبائه ، فلم يصغ يومئذ إلى نصيحتهم لأن بعض تلك المهام والأعباء كان يقتضى وجوده فى العاصمة ومنها استقبال الوفد اللبنانى

(١) مارس سنة ١٩٤٤

ثم أرجأ رحلته بسبب زيارته لأعلى الصعيد على الرغم من إلحاح الأطباء عليه بعدم السفر

وعاد فأرجأها مرة أخرى إلى ما بعد زيارته الرسمية للقصاصين وبورسعيد

ثم عين جلالته موعد رحلته البحرية

ولكنه ما كاد يصعد إلى اليخت الملكى حتى فاجأ الذين كانوا بمعيته بأن الرحلة لن تكون رحلة راحة واستجمام كما قيل ؛ بل ستكون ، قبل كل شىء ، رحلة علمية للارتياد والاستطلاع

وقطع جلالته ١٥٦٨ ميلا بحرياً فى أربعة عشر يوماً ، زار فى خلالها الجزر الصخرية التى فى خليج السويس ليستقصى بنفسه عن مقدار ثروتها المعدنية ، وزار كذلك الجزر التى فى خليج العقبة ، وزار فى طريق عودته البلاد التى على شاطىء البحر الأحمر كالغردقة وسفاجة والقصير

واغتنم جلالته فرصة وجوده فى سفاجة فقطع بالسيارة نحو خمسمائة كيلومتر تفقد فيها آبار الماء فى تلك المنطقة وأخذ عينات منها لتحليلها كيماوياً ، وأشار بما يجب عمله لإصلاح حالة تلك الآبار خدمة للعربان الذين يشربون منها ، وفى كل مكان نزله جلالته

كان يأمر بتوزيع الأقمشة والكساوى والسكر والشاى على فقرائه

وصادف اليخت الملكى زوابع وعواصف قوية حتى ظن أن جلالته سيأمر بعدم إتمام الرحلة ، ولكنه أبى تعديل شىء من برنامجها ، فقد أراد أن يطبق على رحلته البحرية ما يطبقه على رحلاته الصحراوية وهو أن يعيش عيشة الجنود وأن يختبر بنفسه هذه المعيشة فى جميع أطوارها

وليس أدل على الصبغة الدمقراطية التى تصطبغ بها رحلاته من أنه لما عرج على « العقبة » وطاف أرجاءها وقابل حاكمها ووزع الأقمشة والكساوى على فقرائها لم يفطن أحد إلى حقيقة شخصه على نحو ما ذكرته الصحف فى حينه ، فقد حسبوه كبيراً مصرياً لا أكثر ، ولم يكن يهم جلالته أكثر من أن يذكر أهلها مصر بالخير والثناء !

## الفصل الثالث

### كثرة معلومات جلالته
### وحبه للاطلاع والقراءة

ولما عدت من أسوان بعد تشرفي بلقاء جلالة الملك فيها سألني كثيرون الأسئلة التقليدية التي توجه إلى المرء في مناسبة كهذه

قلت لهم إن الله حبا ملكنا بتلك القوة الخفية العظيمة التي تجذب إليه القلوب، وكلما ازددت شرفاً بمعرفته ازددت تعلقاً به فلا غرو إذا سمى الملك المحبوب

وتسمع أن جلالته يعرف كثيراً ، وأنه يعى أشياء كثيرة ، وتقرأ فى تصريحات كبار الأجانب الذين يتشرفون بمقابلته أنه يبهرهم بحديثه ويدهشهم بمعلوماته — كل ذلك صحيح ولكنه أقل من الحقيقة والواقع

وكنت فى شهر ديسمبر الماضى[1] أتغدى على مائدة دولة سعد الله الجابرى بك رئيس الوزارة السورية فى دمشق مع بعض الوزراء والنواب والزملاء السوريين، فجاء ذكر جلالة الملك

(١) ديسمبر سنه ١٩٤٣

فقال دولته للحاضرين : «لا أخفى عليكم أننى قبل أن أتشرف بمعرفة الملك فاروق كنت أظنه ملماً بما يتسنى لملك كثير المشاغل أن يلم به لا أكثر ، فلما تشرفت بمعرفته أدهشنى بطلاوة حديثه وغزارة معلوماته سواء كان ذلك فى الشؤون الداخلية أم فى الشؤون الخارجية ، وبهرنى بما يعرفه عن بلادنا ومراحل قضيتها وبما يعلمه عن رجالنا واحداً واحداً وعن دقائق أحوالنا المحلية ، فاذا تحدثت عن جلالته بما يطابق إعجابى به شعرت بشىء من الخجل خوفاً من أن يقول الذين يصغون إلى حديثى إننى أبالغ فى الوصف ، والواقع أنى مهما وصفت وأطنبت فلست قادراً على الإعراب عما تركه جلالته فى نفسى ولذلك أؤثر عدم الكلام»

والذين يعرفون دولة سعد الله الجابرى بك يعرفون عنه أنه ليس من الرجال الذين يتأثرون بسهولة كما أنهم يعرفون عنه أن اختلاطه بالكبراء والعظماء ليس حديث العهد فيقال إن مقابلاته لملك مصر بهرته ، وهو من جهة أخرى لم يشتهر بالسخاء فى كيل المديح والإطراء للكبراء والعظماء فيقال إنه تحدث عن الملك فاروق باللهجة التى ألف الناس سماعها منه عن كل ذى سلطان أو صولجان

وعلى ذكر جلالة الملك ودولة سعد الله بك يطيب لى هنا أن أنوه بحادث طريف قد يكون صغيراً فى نفسه ولكنه عظيم المغزى لمن يتأمل فى دلالته

ففى خلال أحد أحاديثهما أوصى جلالة الملك كبير وزراء سوريا خيراً بأصحاب فندق « أوريان بالاس » وهو الفندق الوطنى الكبير فى دمشق، فقد سر جلالته أن يقدم بعض الوطنيين على إنشاء أكبر فندق فيها، ولكنه علم أن إيراد الفندق لا يغطى جميع نفقاته مع أن جميع الآراء التى سمعها متفقة على أنه خليق بالتشجيع والمساعدة ، فأكبر دولته هذا الشعور فى جلالته ووعد بأن يعير الموضوع ما يستحق من عناية

ولما عاد سعد الله بك إلى دمشق وذهب إلى فندق « أوريان بالاس » قابله صاحبه عند مدخله فما كاد دولته يلمحه حتى قال له : « وحتى أنت يعرف الملك فاروق عنك ! »

***

أما فيما يتعلق بأحوال مصر بالذات فالحقيقة هى أن الملك يعرف عنها أكثر جداً مما نظن وهو محيط بشؤون البلاد والشعب أكثر جداً مما يتبادر إلى الذهن وأؤكد أنه يعرف عن

مصر ما لا يعرفه عنها كثيرون من المشتغلين بالشؤون العامة

قال لى مرة معالى احمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى إنه كثيراً ما يذهب إلى الملك بمعلومات وهو يظن أنها لم تصل إلى علم جلالته بعد فيجده محيطاً بتفاصيلها أكثر منه

ولما تشرفت بمعرفة جلالته ظهر لى أن ما أفضى به إلىّ حسنين باشا هو الحقيقة بعينها خالية من كل مبالغة

فالملك فى حرصه على خير بلاده ورفاهية شعبه يتتبع أحوالهما بعناية بلغ من فرط تدقيقه فيها أن كل كبيرة وصغيرة فى شؤون المملكة تلقى ما هى جديرة به من التفاته واهتمامه

بل إن الواقع يجاوز ذلك

فقد يسألك جلالته سؤالاً ما فتردد فى الجواب عنه أو تحاول تجاوب جواباً مقتضباً عاماً ، أو سطحياً مجملا ، فيفاجئك جلالته بما ينم على أن الحقيقة ليست غريبة عنه ، فتسائل نفسك من أين لجلالته كل ما يعلمه ؟

وليس فى ذلك سر فإن بعض الناس يتوهم أن الملك المقيم فى قصره لا يرى من مصر كثيراً ولا يعلم عن أحوال مصر إلا يصل إلى سمعه أو ما يقرأه فى التقارير التى ترفع إليه ، ولكن

الذين يتوهمون ذلك يخطئون خطأ عظيماً ، فالملك دائم الاختلاط بشعبه وإن لم يفطن الناس دائماً إلى شخصه ، وكلما سمح له وقته بالخروج من القصر متنكراً فعل ذلك ، وقد يركب أول مركبة يصادفها فى طريقه ويطلب من سائقها أن ينطلق بها فى الأحياء الوطنية ، وهناك يعكف على درس حالة الطبقات الفقيرة — هذه الطبقات التى لم تفتأ تلقى من عطفه وبره ما يعجز البيان عن وصفه

ومن ذلك أنه قابل مرة الأستاذ حامد جودة وزير التموين فى وزارة دولة حسين سرى باشا وبحث معه شؤون التموين بحثاً وافياً أدهشه ، ولكن دهشة الوزير كانت أعظم لما قال له جلالته إن الرقابة ضعيفة فى السلخانة ، وإنه ذهب بنفسه إلى مكان يشاهد منه المواشى التى تدخلها فتبين له أن الأمر الخاص بأن يقتصر الذبح على ذكور المواشى لا يحترم على الوجه المرغوب فيه ثم قال للوزير إنه عرج على مكان كذا فى جهة كذا فألفاهم لا يخلطون الدقيق بالنسبة التى عينها الأمر العسكرى

ويجد جلالته فى قوة بنيته ما يساعده على ذلك فيتعب الجميع ولا يشكو هو تعباً ما ، ففى رحلاته الصحراوية ترى جلالته آخر من يأوى إلى فراشه وأول من يستيقظ مبكراً مع أنه دائماً

أكثر أفراد القافلة حركة ونشاطاً وصعوداً ونزولاً

وفى أسوان كنت أراه فى كل مكان دائب الحركة والنشاط لا يعرف شيئاً اسمه القيلولة ، فهو بعد الغداء مثله قبل الغداء مستعد دائماً للعمل والاطلاع

* * *

أما فى القصر فشعاره « لا عمل يؤجل إلى الغد » ولو اقتضى ذلك بقاءه فى مكتبه معظم ساعات النهار وجانباً من ساعات الليل

ويندر أن يعرض عليه تقرير أو مذكرة أو بحث من دون أن يسجل عليه قلمه الأحمر ما يدل على أنه اطلع عليه اطلاعاً وافياً واستوفى درسه

ومما يساعده على كثرة الاطلاع أنه سريع القراءة مع التيقظ التام لكل عبارة أو فقرة تستوقف النظر ، وله فى ذلك نوادر كثيرة تدعو إلى الاستغراب العظيم ، ومن طريف ما يروى فى هذا الصدد أنهم عرضوا على جلالته مرة مقالاً لأحد الكتاب يصف به حفلة شهدها جلالته ، وكان مما قاله الكاتب إنه كان فى الحفلة « بوفيه على الواقف » فابتسم جلالته وقال بما هو مأثور عنه من سرعة الخاطر : وهل رأى الكاتب « بوفيه » على القاعد ؟ !

و يطالع جلالته الصحف والمجلات الكبيرة بتدقيق تام وهذا عدا القصاصات التى ترفع إليه يومياً ، وفى كل يوم تتلقى مكاتب الديوان الملكى عدة مذكرات من جلالته بأمور يرغب فى الاستفسار عنها أو يريد تفاصيل جديدة فى شأنها تعزز المعلومات التى عنده عنها ، وهى تتصل عادة بمرافق الدولة العامة وشؤون الشعب الحيوية ، فتجمع مكاتب الديوان الملكى البيانات المطلوبة من الجهات المختصة وكثيراً ما تجهل هذه الجهات أن الملك نفسه هو المهتم بالموضوع إذ لا يتبادر إلى أذهان القائمين بالأمر فيها أن وقت جلالته يتسع لذلك كله ، ومن الأمثلة التى تحضر لهذه المناسبة أن جلالته قرأ مرة فى بعض الصحف أن بعضهم شكا إليها من أن وزن الرغيف بالإسكندرية أقل من وزنه بالقاهرة ، فأمر بالاستفسار عن هذا الخبر ، أصحيح هو أم غير صحيح ؟ فإذا كان صحيحاً فما الباعث على هذا التفاوت فى وزن الرغيف فى العاصمتين ، ومن هذا المثال البسيط يستطيع القارئ أن يدرك مدى تتبع جلالته لأحوال البلاد ، ومقدار عنايته بتحرى جزئيات شؤونها العامة ولا سيا إذا كان لهذه الشؤون صلة بحياة الشعب اليومية

وإذا كان لجلالته شكوى من المكاتب التى يتألف منها الديوان الملكى فهذه الشكوى هى أن هذه المكاتب لاترفع إليه البيانات أو التقارير التى يطلبها منها بالسرعة التى يريدها ، مع ما يسود تلك المكاتب دائماً من نشاط ولكن أنى لنشاطها أن يجارى نشاطه فإنه إذا انهمك فى عمل ما وخشى أن تحول أعمال الغد دون تمكنه من الرجوع إليه خصص به السهرة كلها ولو ظل ساهراً معظم ساعات الليل

***

ويطلع جلالته بانتظام على طائفة كبيرة من الصحف والمجلات الغربية فيحيط بتقدم الحضارة والعلوم والفنون إحاطة مستمرة ، وهو يتلقى فوق ذلك قصاصات من جميع المقالات والأخبار التى تنشر عن مصر فى الخارج

ولجلالته شغف عظيم بالكتب تجلى فيه منذ حداثته ، ولما كان فى انجلترا كان ينفق جل ماله على اقتناء الكتب ، وفعل جلالته مثل ذلك لما زار فرنسا وسويسرا ، فاجتمعت عنده مكتبة خاصة كبيرة من ذلك الحين ثم أخذت تنمو على مر الأيام ، وهى اليوم تملأ عدة حجرات كبيرة برمتها فى الجناح الذى أفرده لها فى

قصر القبة ، ويتولى بعض الموظفين تنسيقها وتبويبها بإشراف جلالته ، وللكتب العربية من كل نوع نصيب وافر فيها

ولا يكتفى جلالته باختيار أحسن الكتب التى تصل إلى المكتبات الكبيرة فى مصر بل يترقب بشوق ما يرد من النشرات التى يتلقاها تباعاً من أشهر بيوت النشر فى الخارج عن أحدث مطبوعاتها فى شتى الفنون والعلوم والشؤون فيرسل فوراً فى طلب ما يقع عليه اختياره منها ، وبهذه الكيفية يتتبع جلالته كل جديد مفيد ، يساعده على ذلك ما يتمتع به من ذاكرة قوية وبديهة حاضرة

حدث عند تشريفه للمطار الأمريكى الكبير بزيارته لمناسبة رحلته الجوية إلى الإسكندرية ( وسيجد القارىء حديثاً عن هذه الرحلة فى فصل تال ) أن دعاه القائد الأمريكى إلى مشاهدة طائرة حربية من نوع جديد ، وقبل أن يشرع الضابط المختص فى توجيه نظر جلالته إلى الجديد فى تلك الطائرة كان جلالته يحدثه عنه حديث الخبير المطلع ، وفى تلك اللحظة رأيت ضابطاً أميركياً ينظر إلى زميل له نظرة من يقول له : « ليس هناك جديد لا يعرفه هذا الملك »

ولما اشترى جلالته أخيراً اليخت الملكى « فخر البحار » سمعته يتحدث حديثاً طويلاً عن أشهر اليخوت فى العالم وتاريخها والفوارق التى بينها ، وأؤكد للقارئ أن جلالته لو كان يقرأ حديثه فى كتاب أمامه لماجاء أكثر من ذلك طلاوة ودقة ، وكان سعادة السيد نعمان طاهر سيمن وزير تركيا المفوض حاضراً فذكر اليخت الذى كان للمغفور له الغازى كمال أتاتورك فانتقل جلالة الملك حالا إلى التنويه بأهم مميزاته

ومن المعلوم أنه ليس لمصر فى بلاد كالبرازيل مصالح تذكر ومع ذلك قال لى سعادة المسيو باربوزا كارنيرو وزير البرازيل المفوض فى مصر إنه لما تشرف بمقابلة جلالة الملك لأول مرة بعد تقديم أوراق اعتماده أدهشه جلالته بوفرة معلوماته عن البرازيل

ثم قال لى سعادته : ومن مدة قصيرة مر بمصر وزير المكسيك المفوض فى روسيا وهو دبلوماسى ومحدث قدير فبعد ما تشرف بمقابلة جلالة الملك فاروق جاءنى يقول : « لقد أذهلنى حديث الملك عن المكسيك فكأنما عرفها وأقام بها »

ومما يدل على شدة اهتمام جلالته بمطالعاته أنه لما اتسعت ميادين القتال فى روسيا وقفت سيارة خاصة مساء ذات يوم أمام

مكتبة شهيرة فى وسط العاصمة ونزل منها ضابط بملابس الطيران وسأل عن خارطة كبيرة لروسيا فأطلعوه على عدة خارطات فاختار بعضها ودفع ثمنها وانصرف

وبينما كان يهم بركوب سيارته عرفوه فقالوا : جلالة الملك وكان جلالته فى حاجة إلى هذه الخارطات ليتتبع عليها أنباء سير القتال فذهب إلى المكتبة واشتراها بنفسه

ومن ألطف ما سمعته عن ولع جلالته بالقراءة أنه لما كان يطلب العلم فى انجلترا وهو أمير لاحظ عليه رائده أحمد محمد حسنين باشا أنه بعد ما يدخل حجرة نومه يطيل السهر فى المطالعة ، فوجه نظره إلى ذلك واتفق معه على الساعة التى يترك فيها سموه الكتاب ويطفىء نور الحجرة ، ولكن معاليه لم يلبث أن لاحظ بعد أيام أن فترة المطالعة فى السهرة كادت تعود إلى عهدها السابق فصنع لمصابيح حجرة سموه مفتاحاً يصل شريطه إلى حجرته هو فاذا حل الموعد الذى عينه لنهاية المطالعة أطفأ أنوار حجرة سموه من حجرته ، وكان معاليه يرضى من وقت إلى آخر أن يمد الموعد نصف ساعة إذا طلب منه سموه ذلك

وبعد ما نفذ حسنين باشا هذه الخطة ظن أن فى استطاعته

أن يطمئن إلى أن سموه ينام فى الموعد الذى عيّنه فلا يكاد معاليه يدير المفتاح الذى عنده و يطفىء الأنوار حتى ينام ملء جفنيه

غير أنه حدث بعد مدة أن استيقظ حسنين باشا مرة فى ساعة متأخرة وخرج من حجرته فخيل إليه أنه يلمح نوراً منبعثاً من حجرة الأمير وأن النور انطفأ فجأة فى اللحظة التى فتح فيها باب حجرته ، فلما أصبح الغد لم يكاشف سموه بما استوقف نظره لئلا يكون قد توهم أنه رأى نوراً فى حين أن لا نور هناك

وانقضت فترة أخرى من الزمان ، وفى ذات ليلة استيقظ حسنين باشا اتفاقاً مرة أخرى وأراد أن يذهب إلى مكتبه فما كاد يفتح باب حجرته حتى انطفأ نور كان يتسرب من حجرة الأمير ، فدهش لذلك دهشاً عظيماً ولكنه لم يقل لسموه شيئاً لما التقى به فى الصباح فقد أراد أن يكتشف السر بنفسه قبل أن يخاطبه فى الأمر

و بعد أيام كان الخدم ينظفون حجرة الأمير وقد وقف سموه ينسق بعض حاجاته الخاصة فمر بهم حسنين باشا ولما أبصر الأمير حياه ودخل الحجرة وفى خلال حديثه معه حانت من معاليه التفاتة إلى أعلى خزانة الملابس فلمح على سطحها مجموعة من

البطاريات الكبيرة لتوليد النور وكان سموه قد اشتراها ليستعيض بها من الكهرباء مادام رائده يأبى عليه السهر والقراءة بعد ساعة معينة، فلم يتمالك حسنين باشا من الضحك ولكنه أوعز بنقل تلك البطاريات من مكانها ، ورضى الأمير بنقلها متبرماً

☆ ☆ ☆

والفاروق فى حبه للاطلاع متعدد النواحى ، بل يمكن أن يقال إنه ليس لشغفه بالاستزادة من الاطلاع حد ، فكل شيء يستحق الاهتمام يهمه و يلذ له ، فى الفنون وفى العلوم على السواء . والأغرب من ذلك أنه يجد لكل ضرب من ضروب هوايته وقتاً ، وقليلون يعلمون مثلاً أن المتحف الحربى الخاص الذى أنشأه المغفور له الملك فؤاد فى قصر عابدين غدا فى عهد الفاروق متحفاً عظيماً يضم بين جوانبه مخلفات كثيرة لا مثيل لها فى متاحف أخرى ، وهو إلى جنب ذلك شديد الشغف بدرس النقود القديمة وعنده مجموعة نفيسة منها ، ويعنى جلالته عناية كبيرة بتكملة مجموعة طوابع البريد الثمينة التي خلفها له والده العظيم، وعنده مجموعة نادرة من الساعات القديمة على اختلاف أنواعها، و إذا كنت أنوه بذلك فليس التنويه على سبيل الحصر بل على سبيل المثال للدلالة على تعدد النواحى

التى يشغل بها جلالته نفسه فى أوقات الفراغ والترويح عن النفس

ومما سمعته مرة عن جلالته فى هذا الصدد أنه لما كان فى سويسرا قدم أحد الأجانب إلى رجال الحاشية مجموعة من المداليات القديمة وقال إنه يرغب فى بيعها لملك مصر وكان عددها أربعة آلاف مدالية

ومع أنه لم يكن بينها سوى ١٥٠ مدالية تستحق الذكر أمر جلالته بشرائها كلها مساعدة للرجل فاشتروها وأدخلوها عليه وهم يظنون أنه سيرجىء الاهتمام بها إلى حين عودته إلى مصر

ولكن فى صباح اليوم التالى علموا أن جلالته سهر الليل بطوله حتى الساعة السادسة صباحاً فى « جلاء » تلك المداليات وتنظيفها مع ثلاثة من أمنائه الخصوصيين ، فلما تشرف رائده بمقابلته قال له : « ارفع هذا الغطاء يا باشا » فرفع حسنين باشا الغطاء فأبصر أربعة آلاف مدالية تلمع أمامه فقال جلالته عندئذ باسماً : « والآن يمكننا أن نختار النفيس منها »

* ولا يكاد جلالته يجد شيئاً ينفع مؤسسة مصرية حتى يقتنيه من الجيب الخاص ويرسله إليها ؛ وفى متحف سكة الحديد ومعهد

الأحياء المائية فى الاسكندرية وغيرها من المؤسسات المصرية العامة شواهد كثيرة على ذلك

وما دخلت مرة المتحف الحربى إلا قال لى أمينه إنه تلقى هبة جديدة من جلالته فأضافها إلى هباته السابقة المتعددة سواء أكان ذلك أسلحة أم كتباً عسكرية نادرة

وكان جلالته جالساً على شرفة الفندق بأسوان فجاءه أحد رجال الحاشية يقول إن بالباب رجلاً معه تمساح يروم بيعه لجلالته

فقال بعض الحاضرين : وما ذا يريد مولانا من التماسيح ؟

أما جلالته فقال : هل يريد الرجل بيع التمساح إرضاء لنا أم لحاجته إلى المال ؟

فقال الرسول : لحاجته إلى المال يا مولاى .

فقال جلالته على الفور : لا تردوه إذاً ، بل اطلبوا منه أن ينتظر عودتنا من رحلتنا فى الصحراء ثم اشتروه منه وأرسلوه إلى حديقة الحيوان فى الجيزة فيستفيد الرجل وتستفيد الحديقة

وكثيراً ما يصل إلى مسامع جلالته أن بعض التحف والطرف ستباع فى مزاد علنى وأنه يخشى أن تتسرب إلى الخارج فيوفد

إلى حيث المزاد من يشتريها له باسمه لا لحاجته إليها فى معظم الأحيان بل ليطمئن على بقائها فى مصر

وهو بدافع من هذا الشعور نفسه يشترى من أوربا أشياء كثيرة يرى أن مصر أولى بها من كل بلد آخر مهما يكلفه ذلك من مال وإن كانت ظروف الحرب قد حدت من هذه المشتريات طبعاً ، ومن الأشياء التى جمعت من أوربا بهذه الكيفية مجموعة من الصور التاريخية الملونة النادرة للوحدات التى كان الأسطول المصرى يتألف منها فى عهد ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الكبير

## الفصل الرابع

### دمقراطية جلالته
### وجولاته وزياراته غير الرسمية

لما زرت أنقرة فى سنة ١٩٣٤ دعانى السيد شكرى قايا وزير الداخلية التركية إذ ذاك إلى العشاء فى مطعم « كار بتش » وهو مطعم معروف لكل من زار العاصمة التركية الكمالية وقد أنشأه أحد الروس البيض كما كانوا يسمونهم فى ذلك الحين فلم يلبث أن أصبح ملتقى أقطاب الحكومة التركية والنواب ورجال السلك السياسى وسيداتهم وأصدقائهم .

وبينما كنا نتجاذب أطراف الحديث فى أثناء العشاء فتح باب المطعم ودخل رجلان لم يستوقف دخولهما نظرى لأنهما دخلا كما يدخل سائر الناس ولم أتبين ملامحهما لأن طوق معطفيهما كان مرفوعاً إلى أعلى ولأنهما اتجها بسرعة إلى مائدة خالية ، فالتفت إلىّ شكرى قايا وقال لى : « أتعلم من هو أحد الرجلين اللذين مرا بنا من لحظة ؟ » وعندئذ حدقت النظر فيهما فعرفت فى أحدهما حالاً الغازى كمال أتاتورك وقد جاء ليتعشى مع أحد أصدقائه كما

يحيىٔ الناس جميعاً ، واحترم الحاضرون رغبة معروفة عنه فلم ينهض له أحد ولم يسلم عليه أحد ، وحدثنى وزير الداخلية فقال إن الغازى يكثر من التردد على هذا المطعم وعلى بعض الأندية والمحال العامة بصفة غير رسمية وبالبساطة التى رأيناه بها فى تلك الليلة حتى إن الزائر الغريب لا يشعر بوجوده إلا إذا نبهه أحد إلى ذلك لأنه يأبى عند ما يخرج بصفة غير رسمية أن يحاط بمظاهر المراسم التقليدية

وبعد قليل تلقى شكرى قايا إشارة بأن يذهب إلى مائدة الغازى ، ولما انصرف نخامته دعانى الوزير إلى زيارة نادى الأناضول وهناك كذلك وجدنا الغازى جالساً فى إحدى حجراته مع بعض المقربين إليه ، ومضى شكرى قايا فى حديثه عن رئيسه فقال: إن الغازى يسبب لى تعباً شديداً لأنه يذهب إلى كل مكان عام يطيب له الذهاب إليه بدون أن يصحبه حرس ، فاليوم هنا وغداً فى السينما وبعد غد فى القهوة المجاورة لمزرعته التى رأيتها أمس وإذا علم أن رجالى يتبعونه غضب غضباً شديداً

وفى اليوم التالى ليوم مقابلتى للرئيس عصمت إينونو دعانى صديق تركى إلى مشاهدة سباق الخيل فرأيت الرئيس عصمت

جالساً فى مقصورته فدعانى إليها ثم قال لى : « ما رأيك إذا ألقينا نظرة على الجياد التى ستشترك فى السباق؟ » وغادر نخامته مقصورته إلى المكان الذى عرضوا فيه الجياد وكان مزدحماً بالناس فشق طريقه بينهم وهو بدون قبعته من غير أن يفطن كثيرون إلى شخصه ولا أن يجرؤ أحد على توجيه نظرهم إلى وجوده بينهم ، وذلك عملاً بتعليماته عند ما يخرج بصفة غير رسمية ، واحترم مواطنوه مشيئته كما احترموا مشيئة الغازى فلم يزعجه أحد بتحية فى غير وقتها أو بحديث فى غير محله

وزار « دوق وندسور » مصر لما كان لا يزال ولياً للعهد وكانوا يسمونه « برنس أوف ويلس » وكان شقيقه المرحوم « دوق كنت » يرافقه فى الزيارة التى نتحدث عنها هنا فأعربا يوماً عن رغبتهما فى تسلق الهرم الكبير فقيل لهما إن تسلقه لا يخلو من مشقة وخطر فأصرا على رأيهما وذهبا إلى الأهرام ببدلتين عاديتين حتى إذا وصلا إلى المكان الذى كان الدليل ينتظرهما فيه نزعا البنطلون الطويل وتسلقا الهرم الكبير « بالشورت » بسرعة أدهشت جميع الحاضرين

وكنت بلندن فدعانى المستر عبد الله فيلبى المستشرق

المعروف إلى زيارته فى ناديه وهو من أشهر الأندية الأنجليزية وبينما كنا جالسين فى إحدى قاعاته أقبل البرنس أوف ويلس مع ياوره فانتظرت أن ينهض الجالسون فى القاعة احتراماً له فلم ينهض أحد وقال لى المستر فيلبى : « هذا أميرنا » ولم يقل أكثر من ذلك واستمر فى حديثه كما استمر جميع الحاضرين فى أحاديثهم كأنهم لا يعرفون ولى العهد ، ولكنى قلت لمضيفى : « ألا تقفون عند ما يجئ البرنس أوف ويلس ؟ » فابتسم وقال : « كلا . لأنه هو لا يريد ذلك وكل ما هنالك أنه إذا أقبل على ركن من أركان النادى ليجلس فيه نهض الجالسون فى ذلك الركن تحية له فيرد لهم التحية وينتهى الأمر عند ذلك فلا يخاطبه أحد إلا إذا أراد سموه مخاطبته ولا يسلم عليه أحد إلا إذا أراد سموه أن يسلم عليه »

وفى براغ عاصمة تشكوسلوفاكيا رأيت الرئيس مازاريك يخرج من قصر رياسة الجمهورية وحده ممتطياً صهوة جواده ليتنزه فى حدائق براغ العامة وكان فخامته يومئذ قد جاوز السبعين

والذين يعرفون المستر كوتريل من رجال السفارة البريطانية السابقين فى مصر — وهو الآن فى السودان — يعرفون أن

قرينته من أبرع لاعبات «التنس» وهى تحتفظ بصور فوتوغرافية صورت لهما وجلالة الملك جوستاف ملك السويد الحالى وهما يلعبان التنس معاً فى الريفييرا بفرنسا فإنه كثيراً ما كان جلالته يتردد على تلك البقعة العالمية الشهيرة ويختار للعب التنس معه أبرع اللاعبين واللاعبات غير متقيد بالقيود الرسمية بحال ما

وذات مرة رأيت جلالة الملك البرت ملك البلجيك جالساً على مقعد خشبى فى حديقة عامة جنباً إلى جنب مع المسيو هيمانس السياسى البلجيكى الكبير دون أن يخطر لكثيرين من الذين كانوا يمرون بهما أن هذا الرجل الذى يجلس تلك الجلسة المتواضعة هو ذلك العاهل العظيم وأن الرجل الآخر الذى كان يدخن سيجارته فى أثناء حديثه معه هو المسيو هيمانس

ومن المأثور عن جلالة الملك كرستيان ملك الدنمرك أنه كثيراً ما يرى راكباً دراجته أو جواده فى شوارع كوبنهاجن أسوة بالسواد الأعظم من أفراد شعبه

وفى انجلترا نفسها وهى البلاد التى اشتهرت بالتقاليد يذهب جلالة الملك جورج السادس وجلالة الملكة اليزابث إلى دور السينما والتمثيل العامة كلما خطر لهما أن يفعلا ذلك ، ومن مدة غير بعيدة

جاء فى التلغرافات أن كريمتيهما الأميرة اليزابث والأميرة مارى روز اشتركتا فى حفلة تمثيلية أقيمت للترفيه عن الجنود

وكان المغفور له الملك فيصل الأول أول ملك عربى قاد سيارته بنفسه فى جولاته وتنقلاته غير الرسمية وكثيراً ما شاهده البغداديون يقود سيارته ببغداد ولا يرافقه أحد من رجال حاشيته سوى ضابط من ضباط ياورانه ، ولما سافر إلى أوربا بحراً فى سنة ١٩٣٣ نشرت المجلات المصورة صوراً كثيرة تمثله وهو يلعب لعبة « دك تنس » ( التنس على ظهر المركب ) مع بعض المسافرين بالباخرة عينها من سيدات ورجال وقد نزع سترته وعلقها بنفسه على عمود من الأعمدة الخشبية على ظهر المركب فكانت دمقراطيته وروحه الشعبية موضع إعجاب الجميع وثناءهم

نرى من ذلك أن الحكام أدركوا أن لكل زمان أحكامه ومقتضياته ، وأن الحاكم الرشيد هو الذى يعرف كيف يسايرها فلا يدعها تملى عليه مشيئتها فإذا سايرها أمكنه أن يكبح جماح الطفرة بين شعبه وأن يوجهها توجيهاً معتدلاً يوفق بين ما يجب المحافظة عليه من التقاليد القديمة والتحول الاجتماعى الذى لا يمكن إغفاله ولا سيا فى الأوقات التى تعقب الحروب لما تحدثه هذه الحروب

عادة من تغيير فى الأوضاع الاجتماعية

وأذكر أنه لما تقرر سفر جلالة الملك إلى انجلترا فى طلب العلم كان رجاء كثيرين من رائده معالى أحمد محمد حسنين باشا أن يبذل أقصى ما يمكنه بذله ليتشرب جلالته بالروح الدمقراطية والشعبية الصحيحة فيشب محباً للاختلاط بشعبه قريباً من رعاياه، فما كاد جلالته يعود إلى مصر حتى بادروا إلى الاستفسار من حسنين باشا عما لاحظه من استعداد مليكهم الشاب من هذه الناحية فكان معاليه يقول لهم : « اطمئنوا فان مليكنا دمقراطى بفطرته وإذا كنت قد احتجت إلى بذل مجهود فى هذا الصدد فالمجهود كان لأجل حثه على التقليل من دمقراطيته »

ومما رواه حسنين باشا لهذه المناسبة أنه بينما كان جالساً يوماً فى مكتبه فى القصر الذى نزل فيه « الأمير » فاروق فى انجلترا جاءه من يقول إن الأمير غير موجود فى القصر وإن سموه لم يقل لأحد إنه سيغادره ، فاستغرب معاليه غياب سموه وأمر الخدم بالتدقيق فى البحث عنه فقالوا إنهم بحثوا عنه فى جميع أرجاء القصر ولكن عبثاً وإنهم لم يلمحوه فى الحديقة كذلك، فاتجه معاليه إلى باب القصر الخارجى ليسأل البوليس الواقف هناك هل رأى

الأمير خارجاً، ولشد ما كانت دهشته لما رأى سموه واقفاً يتحدث معه عن أحواله الخاصة وعن حياة رجال البوليس فى انجلترا بوجه عام

ومن بواعث الاغتباط أن جلالة ملكنا نشأ مشبعاً بهذه الروح ، روح الدمقراطية والشعبية الصحيحة ، وعرف أن هذا الزمان أكثر من أى زمان آخر يقضى بأن يتصل رأس الدولة بجميع طبقات شعبه اتصالا وثيقاً ليعرف عنها أكثر ما يمكنه معرفته وليحيط بأحوالها إحاطة مباشرة تامة وليكون صلة الاتصال بين ما يجب المحافظة عليه من تقاليد الماضى وما يجب الأخذ به من التحول الاجتماعى الجديد وهو التحول الذى قلت عنه فى فقرة متقدمة إنه لا يمكن إغفاله ،و بذلك يدفع عن شعبه خطر الطفرة

فكثيراً ما يخرج الفاروق من قصره بسيارته الخاصة وهو يقودها بنفسه ، وكثيراً ما يتنقل فى أرجاء المملكة بقطاره الصغير الخاص ( الديزل ) لكيلا يكلف البلاد مؤونة القطر الرسمية الكبيرة وما تقتضيه الأسفار الرسمية من مراسم وتدابير ، وكثيراً ما يتردد فى غير أبهة ولا حرس على الجهات التى ينقب فيها العلماء عن الآثار القديمة ليتفقد سير العمل

فى الكشف عنها ، وكثيراً ما يغشى بعض المنتديات العامة وخصوصاً فى فصل الصيف فيقضى فيها بعض الوقت ترويحاً عن النفس، وهناك يراه الناس جالساً إلى مائدة عادية كسائر الموائد ، يأكل من الطعام المعد لرواد المكان جميعاً ، أو يشرب كوباً من عصير البرتقال أو « الكازوزة » — فجلالته لا يحتسى الخمر — أو من القهوة المثلجة وهو يدخن غليونه أو سيجارته وقد يدخن سيجاراً من وقت إلى آخر .

وقد يدعو جلالته إلى مائدته بعض الحاضرين من الذين يعرفهم شخصياً فيدور الحديث على شؤون شتى ، وفى مثل هذه الجلسات البعيدة عن قيود الرسميات وتقاليد القصور تتجلى دمقراطية جلالته بأجمل مظاهرها ، ويتجلى معها مدى اطلاعه الواسع على شتى الأمور والشؤون .

قال لى مرة ضيف شرقى كبير وقد أخذه العجب مما رآه فى جلالته فى إحدى تلك الجلسات : « إنكم يا معشر الكتاب تصفون لنا ملك مصر فى مواقفه الرسمية فلماذا لا تصفونه فى جلسة كهذه حيث تتجلى عظمته الشخصية قوية ، رائعة ، فياضة ، فى أطار بديع من الدمقراطية الصحيحة . . . لقد كنت

إلى هذا اليوم أحترم ملككم، أما الآن فانى أحترمه وأحبه معاً»

ومن المصادفات اللطيفة أن جلالة الملك جورج الثانى اليونانى وجلالة الملك بطرس الثانى اليوغسلافى كانا يتعشيان ذات ليلة منفردين فى منتدى مشهور على طريق الأهرام فقلت فى نفسى إنها تكون مناسبة جميلة لو أقبل جلالة ملكنا وتعشى هنا الليلة كذلك . . . و بعد دقائق رأيت جلالته داخلا المكان بتلك البساطة، التى تزيد جولاته غير الرسمية رونقاً و بهاء ، فاجتمع ثلاثة ملوك فى منتدى عام واحد .

و بعد ذلك بأسبوع مر بالقاهرة صاحب السمو الملكى الأمير عبد الإله ولى عهد العراق والوصى على عرشه فأمضى سهرة اليوم الذى وصل فيه فى ذلك المنتدى عينه فكان ذلك أيضاً مظهراً لتحول جديد . واتفق فى تلك الليلة وجود عدد غير يسير من الكبراء المصريين والأجانب ورجال السلك السياسى فسروا بمشاهدة سموه كما سروا قبل ذلك بأيام بمشاهدة صاحب السمو الملكى الأمير بول ولى عهد اليونان

و يندر أن تقام حفلة خيرية كبيرة لمشروع إنسانى جليل أو لمؤسسة مصرية خيرية أو اجتماعية تستحق الرعاية الملكية

بدون أن يشرفها جلالته بحضوره إما بصفة رسمية أو بصفة غير رسمية معاضدة لها وحثاً للناس على تشجيعها وتأييدها ، وفى الحالتين يأبى جلالته أن يخصص به مكان ممتاز ، بل يجلس إلى مائدة عادية كسائر الحاضرين مع بعض رجال حاشيته وضيوفه ، كأنما يريد أن يشعر كل فاعل خير بأن الملك يقدر صنيعه قدره وأنه فى تقديره للذين يبرون بالفقراء لا يميز كبيرهم من فقيرهم . ألم يقل جلالته فى إحدى المناسبات : « إن الملك يكرم كل من يكرم الفقير . ؟ ثم يطوف جلالته أرجاء المكان كأنه واحد من الناس جميعاً ، و بصحبته واحد من رجال الحاشية لا أكثر، كأنما يريد جلالته أن يحيي جميع الحاضرين وأن يشكرهم و إن لم يخاطبهم ، ومما هو جدير بالذكر هنا أن الناس قدروا هذا الروح حق قدره وعرفوا مع اغتباطهم بدمقراطية جلالته ، وعلى الرغم من نشوة الفرح التى تستولى عليهم عند ما يرونه بينهم ، أن يسلكوا من بدء الأمر المسلك الذى يطابق إرادته ويتمشي مع رغبته فلا يقف أحد لتحية جلالته إذا لم يبادره هو بالتحية ، ولا يتقدم أحد للكلام مع جلالته إذا لم يدعه هو إليه ، فقد علم الناس من اللحظة الأولى أن جلالته يريدهم أن يتمتعوا بحريتهم ولا يشاء

أن يكون وجوده بينهم فى مثل هذه المجتمعات سبباً للحد من هذه الحرية بحال ما ، فمن حقه عليهم أن لا يتوسلوا بدمقراطيته ليعكروا صفاء هذا الاختلاط الجميل بين الملك وشعبه ·

* * *

وليس أدل على شدة تقدير جلالته لضباط جيشه من أنه يفاجىء ناديهم بزيارته من وقت إلى آخر فيتعشى مع من يتفق وجوده منهم ويقضى معهم السهرة فى جلسة عائلية كأنه واحد منهم

وكنت مدعواً لتناول العشاء فى نادى ضباط الجيش فى مساء يوم من شهر فبراير الماضى ، وكانت داره حافلة بالضباط من جميع الرتب، وفى نحو الساعة الثامنة والنصف لمحت أحد الضباط الشبان يهرول إلى حجرة جلس فيها سعادة الفريق ابراهيم عطا الله باشا رئيس هيئة أركان حرب الجيش مع بعض لواءات الجيش الحاليين وبعض كبار زملائهم المتقاعدين ويقول : «جلالة الملك شرف» نخفوا لاستقبال جلالته ، وفى أقل من لحظة سرى النبأ فى أرجاء النادى كله

وكان جلالته مرتديا بدلة القائد الأعلى للجيش ، وهذه البدلة وبدلة القائد الأعلى لسلاح الطيران هما البدلتان اللتان يطيب

لجلالته أن يلبسهما فى معظم الأيام اعتزازاً بجيشه وتقديراً لرجاله ، وبعد ما صافح مستقبليه اتجه إلى قاعة الاستقبال الكبرى وعلى وجهه أمارات السرور والارتياح ، وبعد ما تحادث مع كبار الضباط الحاضرين قليلاً أبدى رغبته السامية فى مشاهدة جميع الضباط الذين اتفق وجودهم فى النادى على اختلاف رتبهم ، فما كادت هذه الرغبة الكريمة تذاع بينهم حتى أقبلوا مسرعين ، فرحين، ووقف جلالته فى وسط القاعة يستقبلهم ويصافحهم واحداً واحداً وقد ارتسم على محياه الوضاح كل ما كان جلالته يشعر به من غبطة فى تلك الساعة ، وكان الفريق عطا الله باشا يقدم كل واحد باسمه واسم السلاح الذى ينتمى اليه ، وحدث عند تقديم أحدهم أن قال عطا الله باشا : « فلان كان فى سلاح كذا والآن . . . » ولم يكمل عبارته فظل جلالته مستوقفاً الضابط إلى أن عرف منه السلاح الذى نقل اليه

وكان الضباط يدخلون القاعة الواحد تلو الآخر فى صف طويل بلا تفريق بين رتبهم فقد أصدر جلالته نطقه السامى بأن يكون الاجتماع عائلياً من جميع الوجوه لا مراسم فيه ولا قيود ، ولما فرغ جلالته من مصافحتهم جميعاً أخذ يحادث كبار الضباط

الحاليين والسابقين ثم قال لهم : « والآن تفضلوا نأكل معاً » وسار فى طليعتهم إلى قاعة الطعام الكبرى فتصدر المائدة التى أعدت لجلالته وجلس إلى يمينه الفريق ابراهيم عطا الله باشا فالفريق حسن حسنى الزيدى باشا فبعض لواءات الجيش الحاليين والسابقين ، وجلس إلى يساره الفريق عمر فتحى باشا فلفيف آخر من الضباط الحاليين والسابقين .

وجلس سائر الضباط الحاضرين إلى الموائد التى نثرت فى القاعة المجاورة ، وحانت من جلالته التفاتة فلاحظ أن الخدم أسدلوا الستائر التى تفصل بين القاعتين فأمر برفعها حالاً لتظل القاعتان متّصلة إحداهما بالأخرى وليشعر الجميع بأنهم جالسون فى صعيد واحد

ولما جاءوا لجلالته بأول لون من ألوان الطعام سأل : هل هذا الطعام هو طعام النادى المعتاد وهل هو الطعام الذى سيقدم للحاضرين جميعاً ؟ فأجاب عطا الله باشا بالإيجاب وقال سعادته : « إننا لم نستطع يا مولاى أن نحضر صنفاً زائداً غير الحساء » فقال جلالته باسماً : « ولذلك لم أتناوله » ولم يكن جلالته قد ذاقه فعلاً

ثم التفت جلالته إلى الأميرالاى فهمى على بك سكرتير

النادي وقال له : « أوعوا تكونوا ناويين تاخدوا ثمن العشاء من الحاضرين الليلة . . . . إنهم جميعاً ضيوفى » فقال فهمى بك : « سمعاً وطاعة » فقال جلالته مداعباً : « بس أوعوا تفضلوا ساكتين لغاية ما يدفعوا ثم تبلغوهم أنهم ضيوفى . . . »

وكانت هذه المداعبة اللطيفة فاتحة حديث اشترك فيه كثيرون من الذين نالوا شرف الجلوس إلى المائدة الملكية وقد دار جانب كبير من هذا الحديث على الرماية والصيد وعلى أنواع البندقيات القديمة والحديثة، فدهش الحاضرون جميعاً لمعلومات جلالته الفنية عن هذه الأمور كلها ولإحاطته بأشياء كثيرة لا يحيط بها غير الفنيين المتفرغين لها والاختصاصيين المطلعين على أسرارها

وكان جلالته يسأل الفريق عطا الله باشا بين حين وآخر عن شؤون الجيش ولا سيما ما يتعلق برفاهية الجنود وراحتهم

ولما انتهى العشاء عاد جلالته إلى قاعة الاستقبال الكبرى ، وكأنما أراد أن يعزز الروح العائلى الذى ساد هذا الاجتماع فلم يجلس على الكرسى الكبير المخصص به فى النادى بل جلس على مقعد عادى ، وأذن للحاضرين فى الجلوس حوله ، ثم أقبل سائر الضباط ووقفوا عند مدخل القاعة لعدم وجود أماكن فيها لهم

جميعاً فلم يشأ جلالته أن يظلوا كذلك فقال لهم بروحه الدمقراطية العظيمة : « تعالوا ربعوا هنا » فأسرعوا وجلسوا على السجاد « متربعين » جماعات فى ذلك الجو العائلى الذى أنشأه جلالته وأضفى عليه من فيض مكارمه روح البهجة والسرور

فى تلك الساعة تذكرت صفحة قرأتها فى كتب التاريخ عن ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الكبير وكيف كان يطيب له من وقت لآخر أن يمضى السهرة فى وسط ضباط جيشه فى جو عائلى خال من المراسم والقيود التى يقتضيها مقامه وها هو ذا الفاروق يقتدى بجده الأكبر ويكتب إلى جنب تلك الصفحة المجيدة صفحة مجيدة جديدة

صفحة عنوانها « الملك فى وسط جيشه »

الملك المعتز بجيشه ، الفخور به ، والجيش المعتز بمليكه ، المخلص لذاته ، المتعلق بعرشه

واستمرت هذه الجلسة العائلية حتى الساعة الحادية عشرة ، وقد مرت الساعتان كأنهما دقائق بما أسبغه المليك عليهما من صفاء ورعاية

ونهض جلالته فنهض الجميع ، فودعهم بقوله: « السلام عليكم وإن شاء الله أراكم جميعاً بخير دائماً »

# الفصل الخامس

## غيرة جلالته على الدين وهو فى الوقت
## عينه يبرز ما فى الإسلام من تسامح

رأينا فى الفصل السابق أن جلالة الملك يريد أن يكون صلة الاتصال بين ما تجب المحافظة عليه من تقاليد الماضى وما يجب الأخذ به من التحول الاجتماعى الجديد

فأقول هنا إنه بينما قضى جلالته من جهة على كثير من التقاليد البالية والتى كان محكوماً عليها بالزوال لأنها لم تعد تطابق روح الزمان الذى نعيش فيه ، عمل من جهة أخرى لتعزيز التقاليد التى يرى وجوب المحافظة عليها وفى مقدمتها كل ما يرفع من شأن الدين ويعلى مقامه فى النفوس

ففى معظم أيام الجمعة يخرج جلالته فى موكب رسمى لتأدية صلاة الجمعة فى الجوامع التى يعينها بنفسه، وهو يختار عادة الجوامع القديمة لأن ذهابه إليها يهيىء لوزارة الأوقاف فرصة حسنة لإصلاحها كما يهيىء لمصلحة التنظيم ظرفاً ملائماً لترميم الطرق

المؤدية إليها ، وهذا عدا عشرات الجوامع التى وضع جلالته حجر الأساس فى بنائها

ويصغى جلالته بعناية وخضوع تامين للخطب التى تلقى فى المساجد التى يصلى فيها ، وهو فى كل مرة يصافح الخطيب ويهدى إليه شالا نفيساً من الكشمير ، وقد حدث غير مرة أن عانق الخطيب وقبله بدافع من شعوره الدينى الجميل .

ولما زار جلالته « اسنا » فى أثناء رحلته الأخيرة إلى أعلى الصعيد ليتفقد حالة منكوبى الملاريا حرص على تأدية فريضة الجمعة فى جامعها الكبير ، فنمى إليه أن الأعيان وحدهم هم الذين سيدعون إلى الصلاة معه فأصدر أمره الكريم بأن تفتح أبواب الجامع للأغنياء والفقراء على السواء ، وبعد ما دخل جلالته الجامع وأخذ مكانه بجوار المنبر استمر الشعب فى هتافه فلم يشأ جلالته أن يرتفع فى تلك الساعة صوت باسم غير اسم الله عز وجل فأوفد أحد الضباط الياوران إلى خارج المسجد ليطلب من الجماهير المحتشدة فى الطريق المؤدية إليه أن تكف عن الهتاف

ولم يكتف جلالته بتعزيز التقاليد التى تحيط الدين بكل ما يجب له من إجلال ، بل أنشأ من التقاليد الجديدة ما يصف

أصدق وصف ما يعمر به قلبه الكبير من إيمان عظيم ومنها تقليد الاستماع إلى الدروس الدينية التى يلقيها فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى خلال شهر رمضان المبارك ، ولكن لعل أعظمها شأناً هو التقليد الذى أوجده فى شهر يناير سنة ١٩٤٢ لما أمر بأن يكون الاحتفال بالعام الهجرى الجديد احتفالا دينياً عاماً وأن يكون له ما للأعياد الرسمية من مقام وجلال

وترسمت الحكومة رغبات جلالته فقررت أن يكون الاحتفال بهذا العيد احتفالا رسمياً عاماً فى جميع بلاد المملكة ، فيطلق ٢١ مدفعاً فى العواصم والبنادر التى جرت المراسم بإطلاق المدافع فيها بمناسبة الأعياد الرسمية للدولة ، وتقام فى قاعدة كل محافظة وعاصمة كل مديرية حفلة دينية يرأسها المحافظ أو المدير ، وتكون هذه الحفلة فى أكبر مساجد المدينة حيث يلقى خطيب المسجد أو أحد حضرات العلماء حديثاً عن الهجرة النبوية ، وكذلك تقام أمثال هذه الحفلة فى كل مركز وقرية فيرأس المأمورون والعمد هذه الحفلات فى المساجد ، وتعهد وزارة

الأوقاف إلى خطباء مساجدها فى الأقاليم فى التحدث إلى المحتفلين عن هذه الذكرى التاريخية

وما كادت الرغبة الملكية السامية تذاع حتى بادرت جميع الهيئات إلى تحقيقها فتعددت الاحتفالات بإحياء ذكرى الهجرة النبوية الشريفة وفى مقدمتها الاحتفال الكبير الذى أقيم فى نادى ضباط الجيش

وكان سعادة الأستاذ الشيخ مصطفى عبد الرازق باشا وزيراً للأوقاف لما أنشأ جلالة الملك هذا التقليد التاريخى الجليل الشأن فأفضى إلى الصحافة بالتصريح التالى :

« لا يمكن أن تقابل هذه السنة الحسنة الملكية إلا بأعظم شكر من جميع المسلمين فى أقطار العالم الإسلامى ، فقد كادت السنة الهجرية لعدم اتصالها بشؤون الحياة المادية تمر بالناس غير محسوس بها

وطبيعى أن تكون الحياة التى يحياها العالم الآن مغموراً بالشهوات والمطامع والتنافس على أعراض الحياة الدنيا مبعدة عن المعانى الروحية السامية

« والسنة الهجرية إنما هى رمز للتضحية بالنفس والمال لله وفى سبيل الله

« ولم يكن العالم فى حاجة إلى ما يذكره بالله وبالتضحية فى سبيله أكثر مما هو اليوم فلا غرو أن يكون توجه حضرة صاحب الجلالة الملك الصالح فاروق الأول إلى إحياء ذكرى الهجرة النبوية الكريمة فى يوم رأس السنة الهجرية مظهراً بالغ الدلالة على رغبة جلالته فى أن يحيى فى قلوب الناس المعانى الدينية السامية التى تخفف من حدة المطامع الدنيوية وتسمو بالنفوس إلى المثل العليا التى صورها محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم خرج من مكة إلى المدينة مهاجراً فى سبيل الله »

وفى كل عام يرأس جلالته الاحتفال الكبير الذى يقام فى عاصمة المملكة إحياء لذكرى المولد النبوى الشريف، وبعد مايستمع إلى القصة النبوية الشريفة يعرض وحدات الجيش، ومما هو جدير بالذكر هنا أنه عند ما يجىء ذكر مولد النبى صلى الله عليه وسلم فى أثناء تلاوة القصة النبوية المجيدة يقف جلالته إجلالاً لصاحب الذكرى وإكباراً فيحذو جميع الحاضرين حذوه

ولما بنيت مدينة الجيش فى ضاحية « الماظة » أوعز جلالته

إلى جهات الاختصاص بضرورة بناء جامع للجيش فى مدينته ، فنفذت الرغبة الملكية و بنى الجامع وصلى فيه جلالته أول مرة فى يوم ٥ من فبراير سـنة ١٩٤٣ محاطاً بكبار الضباط العاملين والمتقاعدين

ولأن الملك فاروقاً قوى الإيمان و يعتز بدينه هذا الاعتزاز كله نراه من جهة أخرى يحرص حرصاً شديداً على إبراز ما ينطوى عليه الإسلام من روح التسامح مثبتاً أن هذا الدين يستطيع أن يعيش مع سائر الأديان فى وفاق ووئام

ومن ذلك أنه لما كان جلالته يجوب الصحراء الشرقية فى شهر يناير سـنة ١٩٤٣ عرج على دير سيناء المعروف بدير « سانت كاترين » ولما انتهت زيارته له تفضل وتبرع للدير بأر بعمائة جنيه ، فقابل الرهبان هذه المنحة بالشكر والدعاء وقال راهب منهم همساً : « هذا كرم من ملك المسلمين » فسمع الملك ذلك فالتفت إليه باسماً وقال له : « إننى ملك المصريين جميعاً »

وعلقت يومئذ جريدة كبيرة على هذا الخبر بقولها : « فهنيئاً لمصر بملك صالح متدين هذا شعاره عند ما ينظر إلى جميع رعاياه على اختلاف أديانهم وطوائفهم فلا يهمه منهم سوى أنهم

مصريون فيشملهم جميعاً برعايته وعطفه ، فالدين لله والوطن للجميع والملك للمصريين جميعاً »

وجلالة الملك بسيره على هذه السنّة الحميدة يسير على سنن جده الأكبر ساكن الجنان محمد على باشا الكبير لا فى مصر وحدها بل فى جميع البلدان التى امتد إليها حكمه فى وقت ما ، حتى إنه لما استرد جيوشه من سوريا كتب المسيو باتون قنصل فرنسا إلى حكومته يقول : « إن حكم محمد على كان العهد الذهبى للمسيحيين فى سوريا »

ومحمد على باشا الكبير الذى وضع أسس هذه السياسة الرشيدة البعيدة النظر هو محمد على الذى أبى قبول ما عرضته فرنسا عليه وهو أن تشترك معه فى حملته على طرابلس والمغرب الأقصى والجزائر فى مقابل مساعدة عظيمة تسديها إليه فى المال والسفن والعتاد الحربى نقل لها وهو يرفض اقتراحها : « إنه لا يستعدى بلداً أجنبياً على مسلمين مثله »

ولكن محمد على كان يرى من جهة أخرى أن عطفه على المسيحيين لا يقلل من غيرته على دينه ، بل كان يرى فى هذا العطف مظهراً جميلاً لفضائل الإسلام ولما انطوى عليه من روح

التسامح والإنسانية ، فكفل للمسيحيين حقوقهم وحرياتهم وحقق لشعبه وحدة ما زال ينعم بها إلى الآن

وسار أبناؤه وحفدته على سياسته فنجت مصر بحكمة هذه السياسة من مشكلة اسمها الأقلية أو الأقليات ، فلما انبثق فجر الحركة الوطنية رأينا الهلال يعانق الصليب فكان مظهراً من أروع مظاهر هذه الحركة المباركة ، وصورة من أبدع الصور لاتحاد العنصرين وتآلفهما في خدمة الوطن

وتفضل المغفور له الملك فؤاد فتوج هذه السياسة برعايته وتشجيعه ، فكان كل مصرى ينال من هذه الرعاية ومن هذا التشجيع ما يستحقه بغضّ النظر عن ديانته أو مذهبه

وما كاد المرحوم الأنبا يؤنس بطريرك القبط السابق ينتخب بطريركا حتى أهدى إليه الملك فؤاد صورته الكريمة ممضاة منه ، فكانت لفتة ملكية سامية تضمنت معانى كثيرة

ومن بواعث الغبطة والسرور أن تتجلى هذه الروح النبيلة في حفيد محمد على الكبير وابن فؤاد العظيم ، وقد قابلت الطوائف المسيحية كلها ، فرحة ، جذلة ، ما قاله جلالته فى دير سيناء بما يستحقه من تمجيد وتقدير ، لا لأن ما قاله جلالته كان مجهولا منها

بل لأنه جاء معززاً لما هو مأثور عنه فزادها ذلك غبطة وسروراً ، ففى الوقت الذى تلقى فيه الأديان ما تلقى فى كثير من أنحاء أوربا يقف ملك مسلم عظيم يحكم أكبر بلد إسلامى فى الشرق العربى فيقول : « إننى ملك المصريين جميعاً » فما أروعها عظة !

ولما تشرف نيافة المطران جوين مطران الإنجليكان فى مصر والسودان بمقابلة جلالة الملك فاروق فى أواخر الصيف الماضى(١) بمناسبة عودته من الخرطوم جاء فى سياق الحديث ذكر الكاتدرائية الإنجليكانية فى جهة قصر النيل بالقاهرة ، فنوه المطران الإنجليزى بما لقيه مشروع إنشاء هذه الكاتدرائية من عطف المغفور له الملك فؤاد وخصوصاً فيما يتعلق بنزول الحكومة عن الأرض التى بنيت عليها

وبعد ذلك بأيام تشرف نيافة الدكتور جاربت رئيس أساقفة يورك بمقابلة جلالة الملك بمناسبة مروره بمصر فى طريق عودته من روسيا وهو فوق مقامه الدينى العظيم فى انجلترا يعد من كبار رجال الفكر والاجتماع فيها ، فأعجب المليك بحديثه كثيراً

وعلى أثر عودة رئيس أساقفة يورك إلى دار المطران جوين

(١) فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٣

وهى ملاصقة للكاتدرائية بلغهما أن جلالة الملك سيتفضل بزيارة بناء الكاتدرائية ، فخفا إلى استقباله بما يليق بمقامه السامى ومعهما مطران بلومفنتين وكبار مساعديهما ، وقد أخذتهم روعة فكرة هذه الزيارة ونبلها ، وكان بمعية جلالته الدكتور حسين حسنى بك السكرتير الخاص

وطاف جلالته بأرجاء الكاتدرائية مبدياً اهتماماً بالناحية المعمارية والفنية فى بنائها ، وباللوحات التذكارية التي زينت بها ، شأنه فى كل ما يمت إلى العلم والفن بصلة

وبينما كان جلالته ينعم النظر فى نوافذ البناء وقف أمام نافذتين منها طليت قضبانهما وأجزاؤهما بلون البرونز ، ولكن جلالته لاحظ حالا بما له من خبرة فى هذه الأمور أنها ليست من البرونز، فنقرها بيده فظهر أنها ليست من البرونز فعلا ، وقال المطران جوين إنها ليست من البرونز حقيقة لأن ظروف الحرب حالت دون ذلك وكانوا يجلبونها من انجلترا

ومضى جلالته فى طوافه والدهشة آخذة من الجميع لدقة ملاحظته وسرعة خاطره ، ولما انتهت الزيارة تفضل فشرب الشاى فى

دار المطران مع المطران جوين ورئيس أساقفة يورك وسائر كبار الحاضرين

وبينما كان جلالته يهم بالانصراف التفت إلى المطران جوين وقال له إنه سيهدى إلى الكاتدرائية القضبان والأجزاء اللازمة لتينك النافذتين وإنها ستصنع فى مصر وبأيدى صناع مصريين، فقابل نيافته ونيافة رئيس أساقفة يورك هذه الروح السمحة والمنحة الكريمة بالشكر الجزيل

وقال المطران جوين إن هذا اليوم يوم تاريخى فى حياته

وقال رئيس أساقفة يورك إنها أعظم تحية وجهت إليه

وانصرف جلالته بعد ذلك مودعاً بمثل ما قوبل به من مظاهر التجلة والاحترام . وفى الغد ذهب رئيس أساقفة يورك إلى قصر عابدين وكتب اسمه فى سجل التشريفات مكرراً شكره وعظيم إعجابه بما تحلى به جلالته من روح التسامح

وإن الذين زاروا كنيسة القديس بولس فى روما يذكرون حتما أن أول شىء كان الدليل يحدثهم عنه هو أن الأعمدة الكبيرة التى يشاهدونها عند بابها الداخلى هى هدية من ساكن الجنان المغفور له محمد على باشا الكبير إلى البابا

وفى متحف الفاتيكان غير هدية واحدة أهداها محمد على باشا الكبير فى مناسبات شتى إلى باباوات روما

وقد أراد منشىء مصر الحديثة بذلك أن يكشف للغرب عما فى الاسلام من روح التسامح وأن يعزز اطمئنان الأقليات المسيحية إلى الحكم الإسلامى

فالملك فاروق بما عمله سار على نهج والده العظيم وأجداده الأكرمين ، فقد أحيت الأسرة العلوية الكريمة سنن الخلفاء الراشدين الذين كانوا يأمرون باصلاح كنائس رعاياهم وذكرت الناس بما أبداه صلاح الدين من تسامح كان الأوربيون أول المشيدين به وهو التسامح الذى ظل شيمة العرب فى الأندلس على منوال يذكره الاسبان إلى اليوم بالإعجاب والإكبار

* * *

ولا يضارع جمال هذا التسامح الدينى إلا ما يبديه جلالته من تقدير للأجانب الذين يثبتون صداقتهم لمصر وولاءهم للبيت المالك ويخدمون العلم خدمة صادقة منزهة عن كل غرض ذاتى

ولعل إنعام جلالته على القاضى كرابيتس الأميركى بوسام إسماعيل من الطبقة الثانية بعد وفاته فى شهر أكتوبر الماضى

يبرز جمال هذه العاطفة أكثر من كل مثال آخر

فانه لما أصدر القاضى كرابيتس كتابه عن المغفور له الخديو اسماعيل باشا تبادر إلى الأذهان أن المغفور له الملك فؤاد هو الذى كلفه الكتابة عن والده ، ولكن الحقيقة التى يعرفها المطلعون تنقض ذلك نقضاً تاماً

فقد كان القاضى كرابيتس يريد أن يؤلف كتاباً عن الأميركيين الذين خدموا فى الجيش المصرى، فاستأذن جلالة الملك فؤاد فى الاطلاع على بعض المحفوظات الملكية فأذن له فى ذلك

و بينما كان يراجع تلك المحفوظات وقف على كتب كتبها اسماعيل باشا إلى الجنرال غوردون يحثه فيها بالحاح على القضاء على النخاسة فى السودان ، ورأى فى هذه الكتب حقائق كثيرة كانت مجهولة عن اسماعيل باشا مع أنها كلها فى مصلحته فأوحت إليه هذه الحقائق بأن يترك مؤقتاً موضوع الأميركيين الذين خدموا فى الجيش المصرى ويتجه الى درس المجهول من اسماعيل باشا على ضوء المحفوظات الملكية

وقال القاضى كرابيتس لجلالة الملك فؤاد وهو يستأذنه فى الاطلاع على الوثائق التى يحتاج إليها أنه سيدرسها كقاض فاذا

اعتقد أن اسماعيل باشا مظلوم فعلاً وضع كتاباً عنه بنتيجة دراسته فأجابه جلالته إلى طلبه

وما كاد ينتهى من درس الوثائق التى طلبها حتى آمن بأن أوربا افترت على اسماعيل باشا فعوّل على الكتابة عنه وقرر أن يكون اسم الكتاب «اسماعيل المفترى عليه»

وعلى أثر ظهور الكتاب أراد المغفور له الملك فؤاد أن ينعم عليه بوسام تقديراً لشعوره ومجهوده فشكر لجلالته هذا العطف السامى ورجا منه العدول عن هذه النية لئلا يقال إن الوسام ثمن للكتاب

وللقاضى كرابيتس كتاب آخر عن «ابراهيم باشا» وكتابات كثيرة عن مصر تدل على أنه كان صديقاً مخلصاً لها

وعلى أثر نشوب الحرب الحالية كتب بعض المجلات الغربية كتابات تضمنت كثيراً من أنواع الافتراء ، فانبرى القاضى كرابيتس للرد عليها من تلقاء نفسه بما ينم على ما كان يكنه من إخلاص شديد للبيت المالك الكريم ولصاحب العرش العظيم ، فكان لتلك الكتابات وقع كبير فى نفس كل من اطلع عليها

وفى أواخر سنة ١٩٤٣ مر جنابه بمصر فى طريقه إلى بغداد

واضحاً نشاطه وعلمه وخبرته تحت تصرف حكومته فوافته المنية فيها فقوبل نعيه بأسف شديد من جميع أصدقائه المصريين وكان الملك فاروق فى مقدمة الذين تأثروا لوفاته فتفضل وأبرق إلى أسرة الفقيد معزياً ومواسياً وأصدر أمره بأن يضع القائم بأعمال المفوضية المصرية ببغداد إكليلاً كبيراً من الورد باسم جلالته على ضريح الراحل الكريم ، ولم يكتف جلالته بذلك بل أنعم على الفقيد بوسام اسماعيل فحققت هذه اللفتة الملكية السامية رغبة كان المغفور له الملك فؤاد يريد تحقيقها وأظهرت ما ينطوى عليه قلب جلالته من تقدير ووفاء لكل من يحب مصر ويخلص لها ولعرشها

وليس بين محبي آثار القاهرة الاسلامية من يجهل اسم المسز ديفونشاير فقد كتبت عنها عدة كتب نفيسة باللغتين الفرنسية والانجليزية ، وهى منذ الحرب العظمى الماضية تنظم جولات أسبوعية لضيوف مصر الأجانب فتطوف بهم أشهر تلك الآثار باسطة لهم كل ما يجب أن يعرفوه عنها، وهذا عدا بحوثها فى المجلات العلمية وفى المجمع العلمى المصرى ، وكان المغفور له الملك فؤاد يقدر علمها ونشاطها حق قدرهما ويستقبلها مرتين فى السنة ويصغى

باهتمام إلى اقتراحاتها عما يحسن عمله لصون تلك الآثار والمحافظة عليها

وفى اليوم الخامس من شهر أبريل الماضى احتفلت المسز ديفونشاير ببلوغها الثمانين ، و بينما كانت جالسة فى دارها تطالع برقيات التهنئة التى تلقتها من عارفى فضلها الكثيرين طرق باب الدار رسول من قصر عابدين ومعه كتاب من معالى أحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى يهنئها فيه بعيدها و يبلغها أن جلالة الملك تفضل لهذه المناسبة فأنعم عليها بوسام الكمال من الطبقة الثالثة تقديراً لخدماتها لمصر ما يقرب من نصف قرن

وقد جاء هذا الانعام دليلاً جديداً على أن جلالته فى تقديره للذين يخدمون مصر لا يعرف للعلم وطناً ، وقابلته الدوائر العلمية بمزيد من الغبطة والارتياح للمعنى السامى الذى دل عليه

## الفصل السادس

### عطف جلالته على الطبقات العاملة
### والصغيرة والمحرومة

قص عليّ مرة المغفور له الدكتور محمد شاهين باشا[1] أن عطف الفاروق على القائمين بخدمته وبره بهم تجليا فيه منذ ما كان طفلاً ، فقد كان جلالته يطلب باستمرار نقوداً من مربيته فأرادت يوماً أن تعرف أين تذهب هذه النقود فاتضح لها أنه يوزعها على حارسه وعلى العمال الذين يلتقي بهم في حدائق القصر ليشتروا بها حلوى لأولادهم !

وسمعت مرة أخرى من أحد ضباط الياوران أن جلالته كان يتنزه يوماً وهو صبي على صهوة جواده في مكان قريب من قصر القبة فدنا منه شحاذ طاعن في السن مستجدياً فطلب منه أن يقابله في الغد في المكان عينه ، فلما كان الغد ذهب جلالته إلى المكان الذي كان الفقير ينتظره فيه وأعطاه ما كان متوفراً عنده من نقود

---

(١) وكان الطبيب الخاص للحضرة العلية الملكية .

وبعد ما نودى بجلالته كشافاً أعظم[١] بمدة قصيرة دعته بعض فرق الكشافة إلى تشريف حفلة ساهرة تقيمها فى معسكرها ، ولما انتهت الحفلة وبينما كان «سموه» عائداً إلى القصر العامر بالسيارة الملكية وبمعيته سعادة محمد زكى الابراشى باشا ناظر الخاصة الملكية إذ ذاك التفت « سموه » إلى سعادته وقال له : « أنا مسرور جداً من هذه الحفلة ومما رأيته فيها »

فقال زكى باشا: « الحمد لله يا افندينا فانه يهمنا جميعاً أن تكون دائماً مسروراً »

فقال الأمير فاروق :- « ولكن لا يكفى أن أكون أنا مسروراً بل أريد أن أرى الأولاد الذين اشتركوا فى هذه الحفلة مسرورين كذلك ، فماذا أستطيع أن أعمل لهم ؟ »

فقال زكى باشا : « ما يعمله جلالة الوالد »

فقال الأمير فاروق : « وماذا يعمل والدى ؟ »

قال زكى باشا : « يشترى جلالته سنداً من سندات الدين الموحد ويهديه إليهم فيكون ريعه السنوى مكافأة لمن يفوز منهم بالجائزة الأولى »

---

(١) وكان جلالته يلقب يومئذ بأمير الصعيد

فقال الأمير فاروق على الفور : « أرجو إذن يا زكى باشا أن تشترى لى سنداً فأهديه إليهم »

فقال زكى باشا : « حاضر يا أفندينا »

وقبل أن يكمل سعادته عبارته قال له الأمير : « ولكنى أريد منك أن تشترى هذا السند من مالى الخاص فاذا لم يوافق والدى على ذلك فاشتره من مصروف جيبى وقسط على ثمنه »

ولكى تقدر هذه الرغبة وما انطوت عليه من عاطفة سامية عظيمة تقديراً صحيحاً لا بد أن أوضح هنا لماذا قال الأمير فاروق اشتروا السند « من مالى الخاص »

قال ذلك لأن كل ما كان ينفق على سموه لم يكن من ماله الخاص بل كان ينفق من حساب جلالة والده تنفيذاً لأمر جلالته وهو أن لا يمس مال ولى عهده بتاتاً

وكان الأمير فاروق يعلم ذلك ولذا قال اشتروه « من مالى الخاص » فقد أراد أن يشعر بلذة الجود فأصر على أخذ ثمن السند من ماله الخاص وإلا فليؤخذ من مصروف جيبه ثم يسدده أقساطاً ! . . .

وعرضت هذه الرغبة يومئذ على جلالة الملك فؤاد ففرح بها

فرحاً عظيماً وأمر بتحقيقها فوراً طبقاً لمشيئة ولى عهده

وإن من يرجع إلى دفاتر حسابات جلالة الملك فاروق فى الخاصة الملكية يجد أن أول مبلغ أمر بانفاقه هو ٩٢ جنيهاً ثمن ذلك السند

وكان جلالته يومئذ فى الثانية عشرة من عمره ، وبذلك يكون قد أنفق أول مبلغ من المال فى وجه من وجوه البر والخير

كان همه الأول بعد حضور تلك الحفلة ألاّ يكون هو وحده الذى يفرح بل أراد أن يفرح جميع الأولاد الذين اشتركوا فيها غير مكتف بالفرح الذى شعروا به لما رأوه يشرف معسكرهم

ونما جلالته ونما معه هذا الشعور وهذه العاطفة . شعور التفكير فى غيره ، وعاطفة البر والخير

وما كاد يعتلى العرش حتى تجلى للبلاد من أقصاها إلى أقصاها أن الشعب كله هو محور تفكيره وأن تفكيره الأول قائم على البر والخير

وشعر الفقراء والضعفاء أن الملك يبر بهم ويعطف عليهم

وشعر العمال وصغار الموظفين أن الملك يبر بهم ويعطف عليهم

وتجلى ذلك كله بأجلى مظاهره منذ نشوب الحرب بوجه خاص،

فكان أول ما عمله جلالته أن وجه الكيفية التى تحتفل بها البلاد — حكومة وشعباً — بالأعياد الملكية توجيهاً جديداً جاء مصدقاً لمقدار حدبه الشديد على الطبقات الفقيرة ، فأمر بالغاء الزينات والحفلات على أن يذهب المال الذى تكلفه إلى الفقراء تخفيفاً لضائقتهم ومساعدة لهم فى شدتهم

ومضى جلالته فى هذا التوجيه النبيل السامى فى كل مناسبة سنحت له ، فلم يلبث أن بث فى البلاد روحاً جديدة فى معاملة الطبقات الفقيرة ، وما مشروع « يوم المستشفيات » الجليل سوى أحد مظاهر هذه الروح التى قابلها الناس بمزيد من الاغتباط والسرور، فعملوا أفراداً وجماعات على تحقيق الرغبة الملكية فعمت مصر هذه الموجة الجميلة المشاهدة الآن من العطف على الفقراء والبر بهم

وكانت التقاليد قد جرت قبل الحرب على أن تؤدب فى القصر الملكى فى شهر رمضان المبارك مآدب إفطار متعددة لأمراء البلاد وعلمائها ووزرائها وأقطابها وأعيانها، فلما جاءت الحرب أمر جلالته بالغاء هذه المآدب على أن تحل محلها مآدب تؤدب فى القاهرة وفى سائر مدن المملكة وأرجائها للفقراء والمعوزين على

حساب الجيب الخاص الملكى طول مدة شهر الصوم المبارك ، فقبل أن يحل شهر رمضان بأيام يذهب المحافظون والمديرون إلى قصر عابدين ويتسلمون من معالى رئيس الديوان العالى الاعتمادات المالية اللازمة لهذه المآدب مع رجاء من جلالة الملك بأن يعدوا الفقراء الذين يدعون إليها « ضيوف جلالته » وأن يبالغوا فى إكرامهم والعناية بهم

***

ولما حل شهر رمضان المبارك فى سنة ١٩٤١ أصدر جلالته أمره الكريم بدعوة جميع موظفى القصر على اختلاف درجاتهم إلى الإفطار على المائدة الملكية ، وتفضل فأذن للذين ليس عندهم «ردنجوت» بالحضور بالملابس العادية فبلغ عدد المدعوين أكثر من ٤٥٠ موظفاً شملهم جلالته جميعاً بعطفه ورعايته

وكانت هذه أول مرة يدعى فيها جميع موظفى القصر إلى المائدة الملكية ، أو بعبارة أوضح كانت هـذه أول مرة يدعى فيها غير كبار رجال القصر إلى المائدة الملكية . ومما جدير بالذكر هنا أنه لما أصدر جلالته نطقه الكريم بذلك قال لمن كان فى حضرته من كبار رجال القصر : « أنتم كبار رجال القصر تشهدون

جميع المآدب التى تؤدب فى القصر ، ولكنى أريد أن يكون الذين يجيئون بعدكم هم ضيوفى هذه المرة فيشعر كل موظف فى القصر مهما صغرت درجته أن له فى ذلك نصيباً »

ومن ينعم النظر فى هـذه اللفتة الملـكية السامية يدرك ما انطوت عليه من معنى نبيل ، فالمسألة ليست مسألة مأدبة تؤدب ويدعى إليها ٤٥٠ موظفاً ثم ينتهى الأمر بذلك ، ولـكن المغزى الذى قصده جلالته هو الذى يجب أن يستوقف نظرنا فى هذه المأدبة ، وعندئذ يتبين لنا أن هذه الدعوة كانت فى الحقيقة مظهراً لروح يريد جلالة الملك أن تكون الروح التى تسود علاقات الرؤساء بالمرؤوسين ، وهنا تظهر أهمية المأدبة التى أنوه بها فى هذا المقام تنويها خاصا ، فقد كانت هذه المأدبة درساً اتجه به جلالته إلى رجال الحكم وإلى رجال الأعمال بأن يذكروا الموظف الصغير ولا يغفلوه ، وخصوصا فى الظروف الحاضرة وقد قست عليه مقتضيات المعيشة

إن جلالة الملك أراد بتلك الدعوة وبقوله إنه يحب أن يشعر كل موظف مهما صغرت درجته أن له من عطفه نصيباً أن يرسم للرؤساء ما عليهم من واجب لمرؤوسيهم ، ويوحى إليهم

فى درس صامت بأن البر بصغار الموظفين من الأمور التى تهم جلالته وترضيه

وفى الوقت عينه أمر جلالته الخاصة الملكية بتوزيع مبالغ من المال على العائلات التى أخني عليها الدهر، فلا يمر عيد الفطر المبارك من غير أن تشعر هذه العائلات به ، وأمر كذلك بتوزيع مبالغ أخرى من المال على كل بيت فقير فى القاهرة وفى الأقاليم لا يستطيع أهله أن يستقبلوا العيد بما يستقبله به الناس عادة

وكان ذلك درسا آخر يلقيه جلالته على الأغنياء والموسرين ، فقد أراد أن يذكرهم بالواجب الإنسانى الذى عليهم للمحرومين والمعوزين فيبذل كل غنى وكل من أنعم الله عليه ببسطة من الرزق ما يستطيع بذله بمناسبة العيد لكى يعم الفرح بالعيد أكبر عدد من البيوت يستطيع تعميمه فيها ، فلا يكون هو وحده الذى يشعر ببهجة العيد، ولا يكون هو وحده الذى يأكل ويشبع، ولا يكون هو وحده الذى يلبس ويتمتع

* * *

وفى آخر شهر أكتوبر سنة ١٩٤١ كانت شؤون التموين بشغل البلاد الشاغل وخصوصاً فيما يتعلق بالحبوب فقرر دولة

حسين سرى باشا رئيس مجلس الوزراء إذ ذاك أن يعقد جلسة[١] خاصة ببحث هذا الموضوع الخطير من جميع نواحيه

وبينما كان مجلس الوزراء مجتمعاً وصل جلالة الملك إلى دار رياسة مجلس الوزراء بسيارة خاصة وبمعيته معالى أحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان الملكى وكان قدوم جلالته مفاجئاً

ودخل الملك ومعه حسنين باشا حجرة رئيس الوزراء المجاورة لقاعة اجتماع المجلس ولما علم دولة حسين سرى باشا بقدوم جلالته خف لاستقباله ثم شرف جلالته قاعة اجتماع المجلس وترأسه

وفى الساعة الواحدة بعد الظهر ارفض اجتماع مجلس الوزراء وعلى أثر ارفضاضه وانصراف جلالة الملك من دار الرياسة أفضى دولة حسين سرى باشا إلى الصحفيين بتصريح قال فيه : لما اطلع جلالة الملك على جدول أعمال مجلس الوزراء ورأى أن شئون التموين فى مقدمة الشئون الهامة التى ينظرها المجلس فى اجتماع اليوم قرر جلالته أن يرأس الاجتماع بنفسه ولما دخل على الوزراء قال لهم : « جئت إليكم لأعمل معكم » ثم مضى جلالته فى حديثه فقال : « ابحثوا ما تريدون بحثه واقترحوا ماترومون اقتراحه وتناقشوا

(١) يوم الاربعاء ٢٩ اكتوبر سنة ١٩٤١

فيما تودون المناقشة فيه وقرروا ما ترون أن المصلحة العامة تقضى بتقريره — هذا كله أتركه لكم، ولكن الذى أريده منكم جميعاً أن تضعوه نصب عيونكم وأن تجعلوه موضوع اهتمامكم وتفكيركم وبحثكم وقراراتكم هو أنه من العار أن تكون مصر بلاداً زراعية قبل كل شىء وأن لا تستطيع أن تكفى نفسها بنفسها فى قوتها الضرورى فجميع الجهود يجب أن تتجه إلى معالجة هذه الحالة والى بذل أقصى مايمكن بذله لتوفير القوت لجميع طبقات الشعب وخير لمصر أن يشبع أهلها بثمرات أرضهم من المواد الغذائية وأن يأمن الفقراء فيها غائلة الجوع من أن يزيد محصول القطن أملاً فى ربح مشكوك فيه ولايخالجنى شك فى أن وطنية الزراع تأبى أن يجوع أهل البلاد فى سبيل الحصول على ثمن مرتفع للقطن فى يوم من الأيام »

ولا ريب فى أن يوم الأربعاء ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ سيظل يوما تاريخياً أولا بترؤس جلالة الملك لاجتماع مجلس الوزراء لأول مرة فى عهده وثانياً بتشريفه لدار رياسة مجلس الوزراء إذ كانت هذه أول مرة يذهب فيها الجالس على العرش إلى تلك الدار ولمثل الغرض النبيل الذى ذهب جلالته إليها من

أجله ، فإن اليوم الذى يذهب فيه مليك البلاد إلى رياسة مجلس الوزراء بنفسه ويقول لوزرائه لقد جئت إليكم لأعمل معكم فى سبيل رفاهية الشعب — ليوم تاريخى حقيقة

وقد أراد جلالته بالنطق السامى الذى وجهه إلى الوزراء أن تنفذ أقواله إلى ذهن كل زارع سواء أكان كبيراً أم صغيراً فيعلم أن عليه فى أثناء الحرب واجباً قومياً لا مندوحة له عن تأديته وهو واجب زرع أكبر كمية يستطيع زرعها من الحبوب ، وقد كان تفكير جلالته وهو يوصى بما أوصى به متجها قبل كل شىء إلى الطبقات العاملة والفقيرة ، وكأنما جلالته بقوله « ولا يخالجنى شك فى أن وطنية الزراع تأبى أن يجوع أهل البلاد فى سبيل الحصول على ثمن مرتفع للقطن يوماً من الأيام » قد أراد أن يقول إن تلك الطبقات يجب أن تأكل كفايتها . . . يجب أن تعيش لأنه على أكتافها قامت مصر ولأنه بسواعدها تزداد ثروة مصر!

ورأى مجلس الوزراء أن يخلد ذكرى ذلك اليوم التاريخى العظيم فقرر أن تثبت على المكان الذى جلس فيه جلالته ليرئس الاجتماع لوحة ينقش عليها « إنه فى يوم ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٤١ شرف حضرة صاحب الجلالة الملك فاروق الأول رياسة مجلس

الوزراء ورأس اجتماع مجلس الوزراء لأول مرة » وقد صنعت هذه اللوحة وثبتت فعلاً فى مكانها

وإذا كانت اللوحة لا تذكر السبب الذى من أجله ذهب الفاروق إلى رياسة مجلس الوزراء فإن الشعب يذكره !

* * *

وهل يستطيع كاتب أن يكتب عن بر الفاروق بشعبه وعطفه على الفقراء والبائسين دون أن يتحدث عن الرحلة العظيمة التى رحلها فى شهر فبراير الماضى إلى أعلى الصعيد وكيف قضى يوم ١١ فبراير ، يوم عيد ميلاده السعيد ، بين المرضى والمنكوبين

وقد كان ملايين من الناس يسألون قبل العيد بيوم : ترى كيف يقضى الملك عيده غداً ؟

قال بعضهم : لا بد أنه ستولم فى قصر عابدين وليمة ملكية فاخرة ابتهاجا بهذه المناسبة السعيدة فيشهدها أعضاء الأسرة العلوية الجليلة

وقال بعض آخر : أتكون الوليمة وليمة غداء أم وليمة عشاء ؟ من المحقق أنها ستكون وليمة عشاء فتتلألأ ألوف من المصابيح الكهربائية وتعكس أنوارها على رياش القصر الغالية البهية

وقال فريق ثالث : والغداء ؟ الأرجح أن يكون الغداء غداء غير رسمى فيغتنم الملك فرصة عيد ميلاده ليستريح من عناء مهامه المتعددة، بينما تكون موسيقى الحرس تعزف في ساحة القصر

وقال فريق رابع : ألا يخرج الملك فى يوم عيد ميلاده متنزهاً؟... لقد رأينا اليخت « قاصد خير » راسياً فى الجزيرة فلا يستبعد أن يكون جلالته عازماً على القيام بنزهة نيلية

وكذلك تعددت الآراء فى كيف يقضى المليك يوم عيد ميلاده وكان للخيال نصيب كبير فى تصوير ذلك كله.

وبينما كانت هذه الآراء تتردد فى المجالس العامة والخاصة كان الملك فى طريقه إلى أعلى الصعيد فى زيارة مفاجئة بعيدة عن جميع المراسم الرسمية

فقد أراد أن يقضى عيده فى زيارة الجهات التى انتشرت الملاريا فيها ليتفقد الحالة بنفسه وليقف بشخصه على التدابير التى اتخذت لإسعاف فقراء الأهلين و إعانتهم

آثر جلالته ذلك على مظاهر العيد، وعلى أبهة ولائم القصور، وعلى فخفخة المراسم التقليدية

ولما قالوا له : وكيف يستهدف الملك لخطر المرض ؟ رد عليهم

بابتسامة المؤمن المتوكل على ربه وقال : « هذا جزء من شعبي العزيز فكيف لا أسعى إليه »

كيف لا يسعى إليه وهو المصرى الأول

وكيف لا يسعى إليه وقد آلى على نفسه منذ ما تسلم العرش أن يكون مع شعبه فى كل وقت وفى كل مناسبة

بل كيف لا يسعى إلى الصعيد وقد كان « أمير الصعيد » قبل أن يكون ملك مصر !

وأتيح لى أن أتشرف بمرافقة ركاب جلالته فى هذه الرحلة مع بعض الزملاء فرأيناه يزور القرى فى يوم عيده ويحادث الفقراء فى أكواخهم والمرضى فى دساكرهم حتى إذا عاد إلى الاستراحة الملكية سمعناه يقول: « إن هذا اليوم من أجمل الأيام التى احتفلت فيها بعيد ميلادى »

وكنا قبل ذلك بقليل قد سمعناه فى خلال طوافه يقول: « إن كل مساعدة تسدى إلى الفلاح هى مساعدة تسدى إلىّ »

وأبصرناه يطرق باب كوخ فتقول سيدة عجوز : من الطارق ؟ فيقول لها : « أنا فاروق جئت مستفسراً عن حالك » . وشاهدناه وهو يربت على أكتاف الأطفال بعطف وحنان وقد أمسك

طفل بملابس جلالته فصاحت أمه قائلة : « ده الملك يا محمود » وهي لا تصدق عينيها ، ثم خاطبت جلالته قائلة : « كنا عيانين ودلوقتي شفينا وكنا جعانين ودلوقتي شبعنا »

وفي كل مكان زاره جلالته كان يذوق طعام الفقراء والمرضى ليتأكد من جودته

ولم يشأ جلالته أن يبزغ فجر يوم عيد ميلاده من دون أن يكون لفقراء مديريتي أسوان وقنا نصيبهم من بهجة العيد؛ فسمعناه يقول ليلة العيد لسعادة مراد محسن باشا ناظر الخاصة الملكية إنه يتبرع لهم بعشرة آلاف جنيه

وفي اللحظة عينها تبرع جلالته بألف جنيه «ليوم المستشفيات»

وفي اللحظة عينها كذلك عرفنا أن الملك تبرع بعشرة آلاف جنيه للمسجد الذي سيبنى في لندن

وأمر جلالته بوضع أحد المنازل الكبيرة في التفتيش الملكي في المطاعنة تحت تصرف سيدات الهلال الأحمر ليستعملنه في عملهن الإنساني وذلك إلى جنب العيادة الخارجية المجانية الموجودة في التفتيش

وقال لسيدات الهلال الأحمر في إسنا ولسيدات مبرة محمد علي

فى الأقصر إنه يقدر جهادهن وتضحياتهن ويشكرهن عليها ، وشملهن جلالته بمظاهر عطفه فدعاهن إلى المائدة الملكية ، وركبت كبيرتهن فى إسنا وفى الأقصر فى سيارة جلالته دلالة على ما للعاملين والعاملات فى سبيل الفقراء من منزلة عنده

وكان جلالته واقفاً على شرفة فندق « ونتر بالاس » فى الاقصر قبيل انتهاء الزيارة الملكية لها حين مرت مظاهرة كبيرة من الأهلين وهم يهتفون : « يحيا الملك منقذ الصعيد »

وأبرقت عينا جلالته !

فكانت صورة من أجمل الصور لعظمة العرش الحقيقية . . . شعور الشعب بأن الملك له ، وشعور الملك بأن الشعب له !

# الفصل السابع

## الملك الرياضى
## وروح جلالته الرياضية

فى يوم الأحد ١٤ من فبراير الماضى أقيمت بالقاهرة أول مباراة دولية فى الرماية

وكان معروفاً أن جلالة الملك سيشترك فيها . . . ولكن الدوائر الرياضية كانت تعلم يوم السبت ما تعلمه مصر كلها وهو أن جلالته لا يزال فى أعلى الصعيد يتفقد حالة منكوبى الملاريا فتساءلت كيف يتسنى له أن يشهد المباراة وظن كثيرون أن جلالته عدل عن الاشتراك فيها .

أما جلالته فكان حريصاً على حضور المباراة بدافع من روحه الرياضية العظيمة ، ولا سيما أنها المباراة الأولى من نوعها فى مصر وسيشترك فيها ٩ فرق مصرية وأجنبية فتكون دعاية طيبة لمصر ، وكل شىء ينهض بسمعة مصر يهم جلالته ويتبوأ المكان الأول من عنايته

فلم يكن من جلالته إلا أن غادر الأقصر فى مساء السبت فبلغ القاهرة فى الساعة الثانية من صباح الأحد

وفى الساعة التاسعة والنصف — أى بعد ذلك بسبع ساعات — وقفت سيارة عسكرية صغيرة (جيب) عند مدخل ميدان المباراة ولما نزل سائقها منها تبين للحاضرين أنه جلالة الملك ، وكان مرتدياً بذلة الميدان للسلاح الجوى وقد امتلأ قوة ونشاطاً مع أنه قادم من رحلة شاقة وأنه قضى معظم ساعات الليل فى سفر ، ثم لم ينم بعد ذلك على ما علمنا

وخف كبار الحاضرين إلى استقباله فصافحهم جميعاً مغتبطاً ، ثم تناول بندقيته ووضعها على كتفه وسار إلى المكان الذى يضع فيه المتبارون بندقياتهم بجوار هيئة التحكيم لا فرق بينه وبين سائر الرماة المتبارين

واطلع جلالته على النظام الذى وضع لتسجيل الدرجات التى يحوزها المتبارون ، وكان جلالته يعرف معظمهم فكان إذا التقى بأحدهم بادره بالتحية باسماً وسأله عن حاله وقال له إنه مسرور بلقائه ، ثم يحادثه ملياً فى شؤون المباراة وتفصيلاتها

وكذلك كان جلالته فى خلال كل « فترة استراحة » يطوف

بالحاضرين متنقلا من جماعة إلى أخرى فيضفى عليها من روحه الرياضية العالية ما يبهر الضيوف الأجانب ، وازدادت دهشتهم لما سمعوه يتحدث عن البندقية وأصول ضرب النار ، وعن السلاح بوجه عام ، حديث المطلع الخبير المحيط بأسرار الموضوع الذى يتحدث عنه . . . إن هو ليس ملكاً يحمل البندقية ليتسلى فترة من الوقت ؛ أو ملكا لا يعرف من البندقية إلاّ كيفية استعمالها . . . كلا بل رأوا فيه ملكاً يناقش أشهر خبرائهم الحاضرين فى أدق دخائل البندقية وأسرارها ويذكر ما بين أنواع البندقيات من فوارق فنية دقيقة لا يعرفها سوى الخبراء الاختصاصيين ... ومع ذلك فهو دائماً شديد الرغبة فى الاستزادة مما يعرفه ، فها هو ذا يحمل بندقيته ويتجه بها إلى مكان وقوف مدرب الفرقة الأميركية فيستوثق من أمر عنّ له ، ويدور الحديث بينهما طويلاً . . . هذا ملك وذاك شاويش . . . ولكن كليهما الآن رياضى فى حلبة رياضية واحدة . . . فلا غضاضة على الملك إذا حادث الشاويش واستأنس بآرائه . . . إنه بذلك يقيم من نفسه قدوة فى سمو الروح الرياضية ، وفيما يجب أن تكون عليه أخلاق الرياضيين الحقيقية

وجاء دور جلالته فى التمرينات فانبطح على الأرض مع سائر المتبارين جنباً إلى جنب وأطلق بندقيته ، ولما انتهى دوره أقبل عليه بعض الرماة يهنئونه بمهارته مع أنه لم يتمرن فى المدة الأخيرة بسبب كثرة مهامه ، وفى تلك الأثناء كان مدرب الفرقة الأميركية يقول لى : « إنى أعتقد أن جلالته أكبر خبير فى السلاح فى مصر ، وفى كل مرة يحدثنى عن شؤون البندقية أشعر أننى أمام ممتحن خبير لا يقنع بالردود السطحية » وفعلا أقبل عليه جلالته بعد قليل وقال له : « لقد قلت لى كذا لما سألتك عن كذا فهل لك أن ترينى ذلك عملياً » واتجها معاً إلى مكان المباراة ولم يغادره جلالته إلا بعد ما استوفى جميع أجزاء حديثه الفنى من الناحية العملية

وأزف موعد الغداء وكان الحرس الملكى قد أعد « بوفيهاً » فى خيام نصبت لهـذا الغرض ، وسمعت أحـد المراسلين الأجانب يقول لزميله « أتعتقد أن الملك سيأكل معنا فى هذه الخيام ؟ » فقال الآخر : « سنرى » فلما دخلا الخيام أبصرا جلالته واقفاً يأكل من الشطائر « السندوتش » أسوة بالحاضرين جميعاً ، فلا مكان خاص ، ولا مائدة خاصة ، ولا مكان له وحده ،

ولا طعام خاص به ، ولا أوان من القصر ، فقال المراسل الأول لزميله « إنه حقيقة رياضى عظيم »

وبعد الغداء بدأ التمرين الثالث فى « الضرب الخاطف » فاشترك فيه جلالته كذلك ولشد ما كانت دهشة الحاضرين لما أصاب جلالته الهدف خمس مرات من ست فصفقوا اعجاباً

ولما انتهت المباراة ألقى ضابط أميركى كلمة حيا بها المليك وروحه الدمقراطية والرياضية العظيمة ، وأراد المصورون أن يصوروا جلالته متوسطاً أعضاء الفريق المصرى الذى اشترك فى المباراة فقال جلالته لأعضائه « اقتربوا بعضكم من بعض لكى نظهر جميعاً فى هذه الصورة التذكارية » فكانت هذه التحية التى وجهها إليهم جلالته بروحه الرياضية الجميلة أعظم مكافأة لهم على ما بذلوه من جهد فنجحت المباراة نجاحاً عظيماً وكانت دعاية حسنة لمصر بين أعضاء تسع فرق يمثلون جنسيات متعددة وبين أصدقائهم

وكان الملك ، وهو المصرى الأول ، أول المغتبطين بهذه النتيجة فقال للاميرالاى أحمد سالم بك قائد الحرس الملكى وهو يصافحه : « مبروك فقد كانت المباراة موفقة »

ثم لوح جلالته بيده الكريمة لجميع الحاضرين مسلماً وركب سيارته وانطلق بها عائداً إلى قصر عابدين العامر . . . وكانت الساعة قد جاوزت الرابعة بعد الظهر !

***

وقد نشأ الفاروق مولعاً بالرياضة منذ حداثته فهو يسبح بمهارة ، ويجيد الملاكمة ، ولعب التنس ، والسيف ، وقد شغف أخيراً بلعبة الـ (Quilles) — من ألعاب الرماية — فبرع فيها ودربه المغفور له والده على ركوب الخيل وهو لا يزال حدثاً فغدا على مر الأيام فارساً مغواراً وهو إلى جنب ذلك صياد ماهر وقد أشرت فى فصل سابق إلى آثار صيده فى المتحف الذى أنشأه فى المزارع الملكية فى أنشاص فحسبى هنا أن أقول إن فى تلك الآثار وحدها ما ينم على براعته فى الصيد وعندما يخرج جلالته لصيد البط ويحصى أعضاء جماعته عدد الطيور التي وقفوا إلى صيدها فلا بد أن يكون جلالته فى الطليعة دائماً

وقد سمعت جلالته يقول إنه تعلم سوق السيارة وهو فى السابعة من عمره ، واشترى فى أواخر السنة الماضية يختاً خاصاً سماه « فخر البحار » وهو الآن يقوده بنفسه وقد أحب جلالته

هذا الضرب الجديد من الرياضة وأولع به ولا سيما أنه لا يشكو دواراً مهما يكن الجو رديئاً والعاصفة شديدة

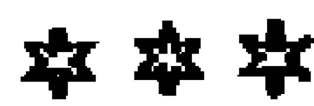
وللنهضة الرياضية فى البلاد نصيب كبير من عطفه وتشجيعه وهو يحرص على شهود المباريات الكبيرة تعزيزاً للروح الرياضية بين شباب البلاد ولا سيما إذا كانت المباريات بين وحدات عسكرية فيحضرها بنفسه ويتتبع مراحلها باهتمام عظيم ثم يوزع بيده الكريمة الجوائز على الفائزين وقد استن جلالته تقليداً جديداً للحفلات الرياضية التى يشرفها بحضوره وهو أن يلبس الذين يتشرفون بالجلوس فى مقصورته الملابس العادية بدلا من الملابس الرسمية

ويعرف جلالته كبار الرياضيين فى مصر معرفة شخصية ولبعض منهم منزلة خاصة عنده ، وهم أول من يعلم أنه لم يقم فى البلاد مشروع رياضى يستحق التشجيع إلا كان جلالته فى مقدمة مؤيديه ، وهو فى الرياضة لا يعرف غير الرياضة ، وعنده أن الرياضة كالعلم والإنسانية ليس لهما وطن ، وكثيراً ما يتردد جلالته على النادى السويسرى للرماية ويشترك مع أعضائه فى تمريناتهم أو فى مبارياتهم ، وفى شهر ابريل الماضى افتتح جلالته ميدان

الرماية الجديد الذى أنشأه فرع الاسكندرية للنادى السويسرى على الأرض التى أهداها إليه جلالته

وهذا عدا تشجيعه للأندية الرياضية بهباته المالية المتواصلة ، ويشرف جلالته كل سنة الحفلة السنوية الساهرة التى يقيمها النادى الأهلى فى دار الأوبرا الملكية ويتبرع له كل مرة لهذه المناسبة بمبلغ كبير من المال

وهو بوصفه كشاف مصر الأعظم شديد الاهتمام بحركة الكشافة فى مصر ، وليس أدل على مقدار تأييده لحركة المرشدات من موافقته على أن تكون جلالة الملكة مرشدة مصر العظمى .



وفى الوقت الذى يكثر فيه الحديث عن مستقبل الطيران بعد الحرب ويتوقع العارفون أن تصبح مصر بحكم إقليمها الجغرافى ملتقى أكبر عدد من الخطوط الجوية — يسجل الكاتب مع الارتياح أن جلالة الملك فاروق فى طليعة من يقدر الطيران وما هو منتظر له من مستقبل باهر بعد الحرب . وكان الجنرال جايلز القائد العام للقوات الأميركية فى الشرق الأوسط يتحدث عن جلالته يوماً فقال إنه لاحظ مع السرور أن الملك مشبع بالميل إلى

الطيران لأنه مما لا ريب فيه أن المستقبل للطيران فمن بواعث الارتياح أن يكون على رأس المملكة المصرية ملك هذا استعداده نحو الطيران

وفى أواخر صيف سنة ١٩٤٣ دعا الجنرال رويس القائد العام السابق للقوات الأميركية فى الشرق الأوسط جلالة الملك إلى افتتاح المطار الذى أنشأه الأميركيون فى ضواحى القاهرة فجاء أكبر مطار لهم فى الشرق الأوسط ، ودعاه فى الوقت نفسه إلى جولة جوية بالطائرة المعروفة باسم C 54 وهى أكبر طائرات النقل فى السلاح الجوى الأمريكى ، وتفضل الملك فقبل الدعوة بشطريها وأتيح لى يومئذ أن أصحب جلالته فى هذه الزيارة وفى الرحلة الجوية التى رحلها إلى الإسكندرية وقد تجلت فيها روحه الرياضية بأجلى مظاهرها

وصل جلالته إلى المطار وهو يسوق بنفسه السيارة العسكرية الأميركية الصغيرة « جيب » وكان الجنرال رويس قد أهداها إليه قبل ذلك بمدة قصيرة ، فأكبر الأميركيون الحاضرون هذه المجاملة من جانب جلالته وكانت موضع حديثهم

ولما بلغ جلالته المكان الذى كان الجنرال رويس ينتظره فيه

مع أركان حربه والمستر كيرك وزير أميركا المفوض السابق فى مصر ترجل من سيارته وصافحهم جميعاً باسماً وكان مرتدياً بذلة القائد الأعلى للسلاح الجوى المصرى و بمعيته الفريق ابراهيم عطا الله باشا ياور جلالته ورئيس هيئة أركان حرب الجيش المصرى

ودعى جلالته إلى الطائرة الكبيرة التى أعدت لرحلته إلى الاسكندرية فصعد إليها وطاف بأرجائها وشاهد محركاتها وأجزاء آلاتها واستمع إلى بيانات قائدها ، وقد ساعدته خبرته فى شؤون المحركات ومطالعاته عن كل ابتكار جديد فى الطائرات على سرعة استيعابها والإحاطة بها ، فما كادت الطائرة تحلق فى الفضاء حتى رأينا جلالته يجلس فى مكان القيادة ويقود الطائرة بنفسه بين إعجاب الضباط الأميركيين ودهشتهم وقد خلع جلالته سترته لشدة الحر فى ذلك الفصل من السنة وظل قابضاً على مفاتيح القيادة حتى الاسكندرية فحلقت الطائرة فوق الميناء ثم فوق المدينة ثم اتجهت إلى قصر المنتزه فهبط جلالته بها وطاف حول منطقة القصر غير مرة ، وكانت جلالة الملكة وصاحبات السمو الأميرات الكريمات يقضين فيه فصل الصيف ، وفى طريق العودة إلى القاهرة تولى جلالته قيادة الطائرة كذلك وقد ازداد رجالها تقديراً.

لمهارته وشجاعته لما علموا أن هذه هى أول مرة قاد فيها جلالته طائرة

ولما انتهت الرحلة وعادت الطائرة إلى المطار خرج منها الملك بادى النشاط والاغتباط ، فدعوه إلى مشاهدة طائرة أخرى قالوا له إن فيها ابتكاراً جديداً،ولشد ما كان استغرابهم لما سمعوه يقول: « لقد قرأت عن هذا الابتكار » ثم حدثهم عن تفاصيله حديث الخبير بها

ودعا الجنرال رويس جلالته إلى جولة فى المطار الجديد فأشار الملك إلى سيارته الصغيرة وقال للجنرال رويس والمستر كيرك والفريق عطا الله باشا « تعالوا معى » وصعد إلى السيارة وانطلق بها وقد جلس الجنرال رويس إلى جانبه وجلس المستر كيرك والفريق عطا الله باشا على المقعد الخلفى ، وكان هناك مئات من العمال المصريين يعملون فى منشآت المطار فلما لمحوا جلالته عرفوه فهتفوا له هتافاً عالياً فكان جلالته يرد لهم التحية بالتلويح بيده باسماً شاكراً

ثم عاد الملك إلى مكان الطائرة فالتمس منه الجنرال رويس أن يسمح للمصورين العسكريين بتصوير ضباط الطائرة مع

جلالته فسمح بذلك مبدياً رغبته السامية فى أن تشمل الصورة جميع رجال الطائرة من ضباط وضباط صف وجنود ، ثم صافح جلالته الجنرال رويس والمستر كيرك وقائد الطيارة ولوح لسائر الحاضرين بيده وهو يطلق العنان لسيارته بيده الأخرى ، ولما ابتعد عن الأنظار التفت إلى الجنرال رويس وقال : « كلما ازددت معرفة بمليككم ازددت إدراكاً لسر تعلقكم به هذا التعلق الشديد »

وقال لى قائد الطائرة : « والذى أدهشنا فى جلالته أنه ليس فى كل ماراَه شىء جديد عليه أو غريب عنه »

***

وكان الملك فاروق طريح الفراش فى « القصاصين » يعانى آلام حادث السيارة الذى حدث له لما علم أن « عبد الفتاح عمر بك » البطل المصرى العالمى فى لعبة « سكواش راكت » وصل إلى مصر بعد الانتصارات الباهرة العظيمة التى أحرزها فى انجلترا على أبطال هذه اللعبة العالميين ، فأعرب جلالته عن رغبته فى رؤيته ، ولما استقبله هنأه بما وفق إليه ، وهنأه أكثر من ذلك بخلقه الرياضى قائلا إن تحلى الرياضى بالخلق الرياضى الكريم يهمه أكثر من بطولته فى الرياضة نفسها ، واستبقاه

جلالته فى حضرته زماناً طويلا ليسمع منه تفاصيل انتصاراته الأخيرة ، وقبل أن يأذن له فى الانصراف تفضل فأنعم عليه برتبة الباشوية تقديراً لبطولته ولما أسداه إلى سمعة مصر فى الخارج بخلقه الرياضى القويم ، فكان هذا التكريم الذى حظى به عبد الفتاح عمرو باشا تكريماً لكل رياضى يفهم الرياضة بمعناها الصحيح

* * *

والواقع أنه إذا كان جلالته رياضياً كبيراً بضروب الرياضة التى يمارسها فهو كذلك رياضى كبير بروحه وخلقه كما يعرف عنه ذلك أصدقاؤه الخصوصيون ، وقد أتاحت ظروف هذه الحرب لكثيرين من الضباط البريطانيين والأميركيين أن يتشرفوا بمعرفته عن كثب فى مناسبات بعيدة عن قيود التقاليد والمراسم الرسمية فاستهوتهم شخصيته بطابعها الإنسانى العظيم ، وقد سمعت غير واحد منهم يقول إنه من بواعث الأسف الشديد أنه ليس متيسراً لكل واحد أن يحظى بمعرفة جلالته لما لسجاياه الشخصية من تأثير كبير فى النفوس .

وقد شاهدت «القصاصين» صورة رائعة لخلقه الرياضى ، فإنه

لما نقل إلى المستشفى العسكرى البريطانى على أثر حادث السيارة الذى حدث له ، أظهر جلداً عظيماً فى احتمال الآلام المبرحة التى كان يشعر بها فى تلك الساعة وطلب إلى أطباء المستشفى أن يبدأوا أولا بإسعاف الذين كانوا فى معيته من رجال حاشيته

وأقام جلالته ثلاثة أسابيع فى ذلك المستشفى العسكرى فى وسط الصحراء فى حجرة من حجره العادية وقد أبت عليه روحه الرياضية أن يغير شيئاً من نظامها لأنه ملك ، بل أصر على أن يعامل كجندى ، كأنما أراد أن يحيط بحياة الجندية من جميع نواحيها ، فنام على سرير « سفرى » واحتفظ بأثاث الحجرة كما كانت عليه عند وصوله إليها وأصدر أمره إلى رجاله بألا يجلبوا له شيئاً من القصر فحتى أغطية السرير ووسائده وملاءاته كانت من أغطية المستشفى ووسائده وملاءاته العادية المتواضعة

ولم ينقض على جلالته فى « القصاصين » أيام حتى قال لى الميجر بيرد قائد المعسكر البريطانى : « إننا من جهة شديدو الأسف على الحادث الذى حدث للملك، ولكننا من جهة أخرى شديدو الاغتباط بالظرف الذى هيأ لنا السبيل إلى التشرف بمعرفته عن

كثب فعرفناه كما هو حقيقة ، فيجب على مصر أن تكون فخوراً بمليكها »

وفى ليلة انتقال جلالته إلى القاهرة أنعم بنياشين ومداليات شتى على رجال المعسكر وضباط المستشفى والممرضات والمرضين الذين اشتركوا فى علاجه وخدمته وأهدى إليهم هدايا شتى ، فكان منظرهم وهم يحملونها شبيهاً « بشجرة عيد الميلاد » كما قال الميجر بيرد

وكان على جلالته أن يستكمل علاجه بعد انتقاله إلى قصر عابدين ، وهنا تجلت عظمة روحه الرياضية بأجمل مظاهرها ، فقد قال جلالته إنه ليس من الوفاء للممرضات اللواتى اعتنين به فى « القصاصين » أن يستوفى العلاج على أيدى غيرهن ، فرغب إلى السلطات العسكرية البريطانية المختصة فى أن تأذن لاثنتين منهن فى الذهاب معه إلى قصر عابدين وملازمته فيه المدة الباقية للعلاج ، فحققت تلك السلطات رغبته السامية وقد وقع اختيار جلالته على الممرضتين اللتين كانتا تخدمانه « فى القصاصين » فى الليل لأنهما تعبتا أكثر من سائر زميلاتهن

وكان « المدلك » الذى يدلك الملك فى أثناء إقامته

« بالقصاصين » أنباشى انجليزى فلم ينسه جلالته كذلك عند انتقاله إلى قصر عابدين بل أخذه معه كما أخذ تينك الممرضتين وقد أقام هذا الأنباشى الانجليزى فى قصر عابدين بملابسه العسكرية الانجليزية طول المدة التى اقتضاها استيفاء العلاج وكثيرا ما كان جلالة الملك يكلف أحد ياورانه دعوته إلى السينما ويضع إحدى سيارات القصر تحت تصرفه فى الذهاب والإياب

وغنى عن البيان أن الملك كان يستطيع أن يجد فى القاهرة عشرات الممرضات والمدلكين، ولكن روحه الرياضية العالية أبت عليه أن يتم شفاؤه فى قصر عابدين على غير أيدى الذين سهروا على خدمته فى وسط الصحراء !

## الفصل الثـامن

فاروق المعـتز بمصريته
ومصر المعتزة بملـكها

لو أراد أعظم المصورين أن يصور سـعادة الملوك كما يتخيلها لما استطاع أن يصورها بأروع مما عرفتها به تلك العبارة التى ختم بها جلالة الملك فاروق إحدى رسائله إلى شعبه ليشكره على مظاهر إخلاصه وولائه بمناسبة عيد ميلاده . قال جلالته : «إن الملك لا يسـتمد سعادته من انتشار ظله على الأرض ، ولـكن يستمد هذه السعادة من تمكين محبته فى القلوب و إنى لأحمد الله أن وجدت فى كل قلب من قلوبكم عرشاً أعتز به وأفتديه

وكل من أتاحت له الظروف شرف معرفة الملك فاروق عن كثب أحس بشدة اعتزازه بمصريته و بكل ما هو مصرى ولمس مقدار ثقته بشعبه واعتداده به

أوَ تريد أن تدخل البهجة على قلب جلالته ، وأن ترى عينيه تبرقان فرحاً وزهواً . . . حدثه عن عمل حسن أو مشرف

عمله مصرى . . . مهما قل شأنه . . . تشعر من الانشراح الذى يرتسم على أسارير وجهه بمبلغ سعادته وفخره

كان جلالته يعانى فى « القصاصين » من الألم ما يعانى حين بلغه أنه لما زار الرئيس روزفلت والمستر تشرشل أبا الهول والأهرام أبى الدليل المصرى الذى صحبهما فى جولتهما أن يتقاضى أجراً على عمله ، فقال جلالته على الفور : « حسن . هذا عمل طيب » وأطرى مسلك الدليل إطراء عظيما وأمر بأن يرسل إليه مبلغ من المال تقديراً منه لصنيعه

ودعا جلالته مرة سمو الأمير بول ولى عهد اليونان و بعض كبار الضيوف الأجانب إلى القصر الصغير الذى بناه فى المزارع الملكية فى انشاص فأعجبوا بجماله وحسن تأثيثه وتنسيقه ، فقال لهم جلالته معتزاً : « إن الأيدى المصرية هى التى بنت أو صنعت كل شىء ترونه هنا »

وعند جلالته أنه إذا أتيحت للعامل المصرى ظروف العمل فلا يستطيع عامل آخر أن يظهر عليه

ولما قال جلالته عند زيارته للكاتدرائية الإنجليزية للمطران جوين ولرئيس أساقفة يورك إنه سيهدى إلى الكاتدرائية أجزاء

النافذتين اللتين جاء ذكر حكايتهما فى فصل سابق ، قال المطران جوين : « إنى سأبرق حالاً إلى لندن لكى يصنعوا لنا هذه الأجزاء » فقال جلالته باسماً : « إن هذه الأجزاء ستصنع بأيد مصرية فتجىء هدية مصرية حقيقة » فضحك رئيس أساقفة يورك ، وقال : « إن جلالته على حق »

ولما اشترك جلالته فى مباراة الرماية الدولية قال لرئيس الفريق المصرى : «إذا أحرزت رقماً يفوق الرقم الذى يحرزه أحد أعضاء الفريق المصرى فضعوا اسمى مكانه لكى يتحسن ترتيب فريقنا وإلا أغفلوا اسمى وخذوا أسماء المتفوقين منا » وكذلك لم يتجه تفكير جلالته إلى أن يقال إنه أحرز رقم كذا بل اتجه إلى ضرورة ظهور الفريق المصرى بمظهر مشرف ، ولذا طلب أن تدمج نتيجة مجهوده — فى حالة تفوقه — فى نتائج جهود غيره ما دام الغرض واحداً !

وقد تعمدت أن أستشهد بهذه الحوادث الصغيرة لأنها مع بساطتها تدل دلالة واضحة على الروح التى تخالج جلالته وعلى الشعور الذى يضطرم بين جنبيه، فهو بحق المصرى الأول بشعوره ووجدانه قبل أن يكون المصرى الأول بتاجه وصولجانه

وهو فى الوقت عينه أول من يقدر الأجنبى الذى يحب مصر ويخلص لها على نحو ما رأينا فى فصل سابق ، وإذا كنت أعود إلى التنويه بذلك هنا فلكيلا يساء فهم ما قلته عن اعتداد جلالته بمصريته ، وأظن أن الأجانب الذين يصطفيهم جلالته ويشرفهم بصداقته أول من يؤمن على هذا الكلام ، وهم كذلك أول من يشهد بأن جلالته مستعد دائماً لأن يكون صديقاً لكل من يشعره بأنه صديق لمصر ، ولا ينسى جلالته أصدقاءه الأجانب عند ما يغادرون مصر بل يذكرهم على الدوام ويوالى السؤال عنهم ، أذكر أنه كان جالساً مرة مع الكولونيل بتلر — وهو الذى كان ياوراً لدوق كنت شقيق ملك بريطانيا نحو اثنتى عشرة سنة — فسمعته يسأله : « كيف حال الميجر فلان » فقال الكولونيل بتلر : « إنه بخير يا صاحب الجلالة وهو فى لندن وقد تلقيت منه كتاباً من أيام » فقال جلالته : « إنى مسرور بأن أسمع أنه على ما يرام فهو صديقى » . . . . . وأظن أن كلمة « صديقى » وحدها تغنى عن كل تعليق !

وما كادوا ينعون إلى جلالته المستر برت فيش وزير أميركا المفوض الأسبق فى مصر ، وقد توفى فى لشبونه ، حتى أمر بأن

يبرقوا إلى وزير مصر فى البرتغال بأن يضع اكليلا من الزهر على ضريحه باسم جلالته وقال حفظه الله « لقد كان المستر برت فيش محباً لمصر وصديقاً لى وأنا فعلا شديد الأسف على وفاته »

***

وكأنما أراد جلالته أن يكاشف شباب مصر المتعلم بما يعلقه عليه من آمال فأمر فى شهر أغسطس سنة ١٩٤٣ بإقامة حفلة شاى كبيرة فى حدائق قصر عابدين تكريماً لأوائل الطلبة والطالبات الذين أتموا دراستهم فى ذلك العام فى كليات الجامعة الأزهرية وجامعتى فؤاد الأول وفاروق الأول وكليتى الحربية الملكية والبوليس الملكية وجميع المعاهد العالية والفنية والمتوسطة بمختلف أقسامها حتى بلغ عددهم نحو خمسمائة طالب وطالبة صافحهم جلالته جميعاً واقفاً وقد افتر ثغره عن ابتسامة الرضاء والارتياح ثم شرب جلالته الشاى معهم وكأنما كان هناك تيار خفى بينه وبين ضيوفه فلم يحولوا أبصارهم عنه ولاحظ جلالته أنهم لا يأكلون فأطال الوقوف وقال لبعض رجال الحاشية « اعزموا عليهم »

وقبل أن يبرح جلالته المكان عائداً إلى داخل القصر التفت إلى ضيوفه وحياهم برفع يده الكريمة إلى رأسه غير مرة وما كادت

الموسيقى تفرغ من عزف السلام الملكى حتى كانت ديمقراطية جلالته ومظاهر عطفه قد أنستهم أنهم فى القصر الملكى فهتف احد الطلبة بحياة « الدكتور فاروق ملك مصر » فدوى المكان بعاصفة من التصفيق وابتسم الملك وكرر التحية. و بينما كان جلالته متجهاً إلى داخل القصر كان الهتاف يتكرر « لملك مصر والسودان » و « ملك الشباب » و « الملك الصالح » و «المصرى الأول » فقد أراد الشباب المتعلم فى تلك اللحظة أن يعرب لجلالته عما يكنه له الشباب — قلب مصر النابض — من حب وولاء وإخلاص فأرسل الهتاف عالياً من قلوب مخلصة عامرة بالإيمان — الإيمان بالله والملك والوطن

وعلى أثر ذلك تقدم معالى أحمد محمد حسنين باشا رئيس الديوان العالى وتلا عليهم الرسالة الكريمة الموجهة إليهم من جلالة الملك وقد استهلها جلالته بقوله :

« إنى لأشعر بالغبطة تغمر نفسى إذ أراكم تحفون بعرشى ، وتحيطون تاجى بهالة من علمكم وشبابكم ، وإن عرشاً وإن تاجاً يحف بهما العلم والشباب لعرش وتاج جديران بمصر : مصر التى كانت ومصر التى ستكون

« أما مصر التى كانت فقد تولى التاريخ الكلام عنها والتغني بمآثرها ، وأما مصر التى ستكون فأنتم المسؤولون عنها و إنها لأمانة فى أعناقكم فلا تجعلوا أنشودة التاريخ فيكم أقل روعة من أنشودته فى أجدادكم »

ثم قال جلالته : « لقد أردت بهذا الاجتماع أن تلمسوا عن قرب حبى لكم وتقديرى للعلم فى أشخاصكم وأن تحيوا باسمى زملاءكم الذين تواضع بهم حظهم فجاءوا بعدكم فى ترتيب النجاح وأن تبلغوهم اعتزازى بنجاحهم ونجاحكم فإن كل إجازة علمية جديدة تعد نجماً ساطعاً فى سماء بلادى

« أنتم حملة المشاعل وكثيرون ينتظرون الضوء الذى تحملون ليهتدوا به إلى طريق الحياة فلا تطيلوا انتظارهم ، وانفعوا بعلمكم وانتفعوا ، وليكن لكم من دينكم ووطنكم و إيمانكم وأمانتكم حصانة تقيكم الزلل »

وختم جلالته رسالته بقوله : « ارفعوا المشاعل فوق الطريق ولا تجعلوها ناراً تحرق بل اجعلوها نوراً يضىء ، وعلى بركة الله سيروا فى طريقكم ، وهذه يدى فى أيديكم تساهم فى العمل معكم ،

يد قوية ، لا لأنها يد ملك ، ولا لأنها يد شاب ، ولكن لأنها يد مصرى يؤمن بمصريته

« فلنؤمن جميعاً بمصر فإنها كنانة الله ولنعمل لها وسيرى الله أعمالنا ويباركها »

وفي شهر رمضان المبارك من السنة عينها أمر جلالته فأدبت مأدبة إفطار كبيرة فى قصر عابدين العامر لرؤساء طوائف العمال وممثلى نقاباتهم وجمعياتهم إظهاراً لإيمانه بالذين تقوم على سواعدهم نهضة مصر الصناعية ولكى يعلموا أن الملك يفتح أبواب قصره ويرحب بكل مصرى يعمل فى سبيل بلاده .

وتفضل جلالته فطاف بهم مسلماً فقابلوه بأشد مظاهر الإخلاص والولاء حماسة ، ولما أزف وقت الغروب وحل موعد الإفطار أكل جلالته من رغيف قدمه إليه أحد العمال فتعالى هتافهم للملك نصير العمال

ولم يشأ جلالته أن يحرم زملاؤهم بالاسكندرية من فيض عطفه ورعايته فأمر بأن تؤدب لهم فى قصر المنتزه العامر مأدبة إفطار مماثلة للمأدبة التى أدبت بالقاهرة

* * *

إن هذه الرسالة ليست سيرة للفاروق بل مجموعة صور سريعة له فى نواحيه المتعددة ، ولكنى لا أستطيع أن أختم هذه الرسالة من دون أن ألمع إلى أيام « القصاصين » و إلى اليوم الذى خرجت فيه القاهرة تحيي المليك باسم مصر كلها فرحة مبتهجة ، بعودته من «القصاصين» بعد ما كتب الله له النجاة ومنَّ عليه بالشفاء . . . فقد كانت أيام « القصاصين » وحفاوة الشعب بالفاروق عند رجوعه من « القصاصين » مبايعة شعبية عامة تجلت فيها مكانة المليك فى النفوس بأروع مظاهرها وأجمل صورها

ففى مساء يوم ١٥ من نوفمبر سنة ١٩٤٣ أذيع أن الملك أصيب فى حادث سيارة بالقرب من « القصاصين » وهو فى طريقه إلى الإسماعيلية ليتفقد الإصلاحات التى أدخلت على يخته الجديد « فخر البحار » وأنه نقل إلى المستشفى العسكرى البريطانى فى «القصاصين» فارتفعت الدعوات الخالصات فى كل مكان ومن كل بيت بحمد الله وشكره على نجاة المليك وسؤاله أن يمن على جلالته بالشفاء العاجل فاستجاب الله تعالى الدعاء وأكرم مصر والشرق العربى كله

وقد رأيت ميدان عابدين فى مناسبات متعددة ولكنى لم أره كما رأيته فى اليوم التالى ليوم الحادث فقد ظلت الجماهير تتدفق عليه طول النهار تدفقاً لم تشاهد العين مثله حتى استحال الميدان على سعته كتلة بشرية واحدة حجبت أرضه عن الأنظار ، ولما ضاق الميدان بجموع الشعب انتشرت فى الشوارع المؤدية إليه والمتفرعة عليه. وهى تهتف للفاروق معقد آمال البلاد

وسمعت الشعب يهتف فى عابدين غير مرة ولكنى لم أسمعه يهتف كما كان يهتف فى ذلك اليوم .

كان هتافه مزيجاً من الدعاء والاغتباط والحماسة ، فكان هتافاً ينفذ إلى القلوب قبل أن يصل إلى الآذان

وكان الشعب يعلم أن الملك ليس فى القصر ومع ذلك كانت الأبصار كلها متجهة اليه كأنما كان كل واحد يبصر جلالته واقفاً فى شرفته ، وهذا هو سر تعلق الشعب بالفاروق فان كل واحد يشعر أن الملك معه ، وأن الملك يفكر فيه ، وأن الملك يشعر شعوره . كل واحد يشعر أن الملك صديقه . كل واحد يشعر أن هناك صلة روحية بين الملك و بينه . وهو شعور لم ينشأ فى الشعب عفواً بل نشأ فيه بعد الذى رآه من بر المليك به فى كل مناسبة

وتفكيره الدائم فيه وحدبه على الفقير قبل الغنى وعلى الضعيف قبل القوى وعلى الصغير قبل الكبير .

أما فى داخل القصر فكان زحاماً لم يعرف رجال المعية مثله فجاءوا بسبعة سجلات كبيرة ليكتب فيها الزائرون أسماءهم ومع ذلك كان التهافت عليها شديداً فقد سعى كل ذى حيثية ومقام ، مصرياً كان أم أجنبياً ، إلى بيت الملك ليعرب عن شعور ولائه وإخلاصه وكان الجميع يرددون أن الله لطف بمصر فحفظ لها فاروقها

ولما أذيع أن جلالة الملك آثر البقاء فى « القصاصين » لم تلبث « القصاصين » أن أصبحت مقصد جموع الشعب من جميع الطبقات فرأت كل يوم ألوفا متعددة من الزوار على الرغم من بعد المكان

ولا أريد هنا أن أتحدث عن وفود العظماء والكبراء الذين يمتلكون سيارات ، ولكنى أريد أن أتحدث عن عشرات الوف من الطلبة والعمال والزراع وصغار الموظفين وأبناء الطبقات المتوسطة ، وكانوا يذهبون إلى « القصاصين » بسيارات كبيرة يستأجرونها لهذا الغرض ويحشرون أنفسهم فيها حشراً أو يسافرون اليها بسكة الحديد فيملأون القطر حتى إذا غصت بهم المركبات تسلقوا ظهر القطار وجلسوا عليه غير مبالين بالخطر الذى

يستهدفون له ما داموا ذاهبين إلى « القصاصين » ليطمئنوا إلى مليكهم المحبوب وليعربوا له عن شعائر ولائهم و إخلاصهم فاذا وصلوا إلى محطة « القصاصين » اتجهوا ماشين إلى مكان المستشفى والمسافة بينه وبين المحطة ذهاباً و إياباً لا تقل عن خمسة كيلومترات تحت وهج الشمس فى صحراء جرداء ، فإذا بلغوا مكان الزيارة اصطفوا فيه صفوفاً منتظمة ، وأوفدوا مندوبين عنهم لمقابلة بعض رجال الحاشية فيرفع هؤلاء رسالتهم إلى جلالة الملك المعظم ، ثم يعودون إليهم و يبلغونهم الشكر السامى و يطمئنونهم و يرجون منهم أن يطمئنوا إخوانهم الذين لم يجيئوا معهم ، فترتفع أصواتهم بالهتاف بحياة المليك الغالية ثم ينصرفون وهم يكررون الهتاف على طول الطريق . هؤلاء هم الذين أردت أنوه بزيارتهم « للقصاصين » تنويهاً خاصاً

وكان الناس فى المدن والقرى التى تمر بها القُطُر الذاهبة إلى « القصاصين » يقابلونها بالهتاف لجلالة الملك كأنما يحملون ركابها تحياتهم لجلالته

وكان العمال الذين يعملون فى المعسكرات القريبة من المستشفى يستهلون النهار بقولهم : « صباح الخير يا فاروق » وهم واقفون فى

اللوريات التى تقلهم إلى مقر عملهم ، وفى المساء يقولون وهم منصرفون باللوريات عينها : « مساء الخير يا فاروق »

شعور شعبى عام لا يمكن كاتباً أن يفيه حقه من الوصف فقد تجلى بصورة تسمو على كل وصف

وعاد هذا الشعور الشعبى فتجدد يوم الثلاثاء ٧ من ديسمبر سنة ١٩٤٣ وهو اليوم الذى شرف فيه جلالته عاصمة ملكه من « القصاصين » فانه ما كاد سكان القاهرة يطالعون فى الصحف قبل ذلك بيوم واحد أن الموكب الملكى سيجتاز العاصمة من قصر القبة إلى قصر عابدين حتى ازدادوا فرحاً وابتهاجاً بهذه الفرصة التى ستتيح لهم ، وهم يجتلون طلعة المليك السنية ، أن يجددوا الإعراب عن شعور الغبطة الذى غمرهم لنجاة جلالته وأن يظهروا لجلالته بهذه المناسبة ما تكنه له قلوب رعاياه من حب و إخلاص وولاء

وعلى الرغم من ضيق الوقت أخذوا يتبارون فى إقامة الزينات وخصوصاً فى الطريق الذى يجتازه الموكب الملكى فلم يأت المساء حتى كانت أقواس النصر قد أقيمت فى جهات متعددة وحتى كانت الأعلام تخفق فى كل مكان ، ومما استوقف النظر أن أصحاب

المتاجر والمحال الأجنبية عدوا العيد عيدهم كذلك فرفعوا الأعلام على متاجرهم ومحالهم مشاركة لمصر فى فرحها وابتهاجها و إظهاراً لما لجلالة مليكها المعظم من مكانة فى نفوسهم

وعقدت الهيئات الشعبية اجتماعات سريعة وقررت ما تعمله لتحية الملك فى هذا اليوم الميمون الطالع ، وذلك وفاء لبعض ما عليها لشخص جلالته وهو الذى غمر طبقات الشعب فى كل مناسبة بفيض من عطفه وكرمه

وأبت هيئات العمال إلا أن يكون هذا اليوم عيداً شعبياً عاماً يظهر فيه العمال ما تنطوى عليه قلوبهم لصاحب العرش العظيم

وكيف لا يجعله الشباب المتعلم من ناحيته عيداً شعبياً عاماً كذلك والملك يمثل أمانى الشباب وآماله . أمانى مصر الغد وآمالها

بل كيف لا يجعله الشعب كله عيداً شعبياً عاماً وقد كان الملك فى كل وقت مع الشعب وللشعب فأضحى محط رجائه ومعقد آماله

واستيقظت القاهرة فى صباح يوم الثلاثاء ٧ من ديسمبر لتشاهد ما لم يسبق أن شهدته من الزينات الجميلة وأقواس النصر العظيمة من قصر القبة إلى قصر عابدين ، وكذلك لم تشهد عاصمة المملكة

مثل ما شهدت فى ذلك اليوم من احتشاد مئات الألوف فى طريق الموكب الملكى حتى ضاقت بهم الطرق والميادين الفسيحة فتسلق كثيرون منهم الأشجار والمرتفعات ليتسنى لهم رؤية المليك المحبوب وامتلأت شرفات المنازل والنوافذ بالسيدات والآنسات على طول طريق الموكب الملكى وأعد أصحاب القهوات والفنادق أماكن لجلوس المتزاحمين للترحيب بالفاروق

وفى نحو الساعة الواحدة بعد الظهر تحرك الركاب العالى من قصر القبة ، وكان جلالة الملك مرتدياً بذلة القائد الأعلى للجيش المصرى، وما كاد جلالته يلمح طلائع شعبه حتى نسى ألمه ونصح الأطباء له فنهض وأخذ يرد لشعبه الوفى التحية برفع يده إلى رأسه تارة وبالتلويح تارة أخرى وهو واقف فى سيارته وقفته العسكرية المعروفة وقد تجلت على وجهه المشرق أمارات الغبطة والانشراح

واستمر جلالته يحيى شعبه كذلك من حدائق القبة حتى ساحة قصر عابدين الداخلية

وكانت الجماهير إذا أبصرت جلالته انفجرت حماستها فتدوى الهتافات وتلتهب الأكف بالتصفيق وتعلو زغاريد النساء على أنغام الجوقات الموسيقية ، وقد ألقت كثيرات منهن الأزهار

والرياحين فى طريق الموكب الملكى من شرفات المنازل والدور ولأول مرة رئى مئات من الأطفال يلوحون لمليكهم المحبوب بأعلام مصرية صغيرة .

واصطف تلاميذ المدارس القائمة فى طريق الموكب الملكى على جانبى الطريق واشتركوا فى تحية جلالته

ولما وصل الركب الملكى إلى ميدان المحطة لم يكن هناك متسع لقدم فتسلق الناس مركبات المترو والترام لكى لا يفوتهم اجتلاء طلعة المليك المفدى

أما فندقا شبرد والكونتننتال فكانا عبارة عن كتلة بشرية يرى المرء أولها ولا يلمح آخرها

وأما ميدان الأوبرا فبدا بصورة يعجز القلم عن تصويرها حتى إذا وصل الموكب الملكى إلى ميدان عابدين خيل إلى المرء أنه أمام بحر زاخر من الخلق وما كادت الجماهير تبصر المليك واقفاً فى سيارته حتى تأججت نار حماستها فاذا الميدان يتحول إلى عاصفة من التصفيق والهتاف

وبينما كانت السيارة الملكية تجتاز باب القصر التفت

جلالة الملك إلى رئيس ديوانه وقال : كم كنت أود لو استطعت أن أصافح كل فرد منهم

و بعد أيام وجه جلالته إلى شعبه الوفى رسالة كريمة استهلها بشكر الله تعالى على رحمته ونعمائه ثم قال :

« وأنتم يا أبناء شعبي لكم بعد الله حمدى وحبى ، فإن ما أحسست من وفائكم وولائكم أنسانى ألمى وضمد جرحى وجعل صحرائى جنة وارفة الظلال

« ولقد تعودت فى صحتى أن أطوف ببلادى لأن هذا واجب الملك وما تصورت فى مرضى أن تطوف بى البلاد هكذا مستفسرة عن صحة مليكها — بل ابنها . فما أنجب وطناً أنتم أبناؤه ، وما أسعد ملكاً أنتم رعيته

« إن الحادث الذي وقع على أن تعلقى بكم لا يعدله تعلقكم بى ، ولقد كنت أشعر أنكم تحبوننى لأنى أحبكم فوددت ألا يذاع النبأ حتى لا تجزعوا ولكنكم سرعان ما علمتم بما حدث لى ، وسرعان ما علمت بما حدث لكم وما حدث منكم

« ثم عدت إلى عاصمة ملكى فرأيت ما وددت معه لو استحالت أنفاسى ونظراتى كلمات شكر فإنها وحدها تستطيع

تصوير ما ارتسم فى ذهنى وخاطرى من معنى وشعور

« إن من أجمل أمانى الإنسان أن يرى من يحبه ولقد رأيتكم ، رأيت مصر كلها فيكم ، وأحسست صدى ما تشعرون به يجيش فى جوانحى خفقاً وفى خاطرى أملا وفى قلبى إيماناً بكم

« يا أبناء شعبى . إننى ملككم أملك أن أحبكم . ولكنى لا أملك شكركم »

فهنيئاً لبلاد بملك هذا هو شعوره نحو شعبها !

وهنيئاً لملك ببلاد هذا هو شعور شعبها نحوه !

يوليو ١٩٤٤

## فهرس الموضوعات

# اقرأ

سلسلة كتب شهرية للجيب يشترك فى تأليفها
أشهر الكتاب فى مصر وسائر البلاد العربية
تصدرها مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

## آراء بعض كبار الأدباء

- « مشروع جليل القدر كبير الفائدة عظيم الأثر فى تغذية الأدب والثقافة » ...
- « زاد فكرى فى مختلف أبواب العلم والأدب يستسيغه الجمهور وترضى عنه الخاصة » ...
- « هذه السلسلة جهد فى سبيل نشر الثقافة وترقية الشعب وإزالة الفروق بين الطبقات » ...

### الثمن بالنسخة

| | | | |
|---|---|---|---|
| مصر | ٥٠ مليما | سوريا ولبنان | ٦٠ قرشا |
| السودان | ٥٥ مليما | العراق | ٦٠ فلسا |

فلسطين وشرق الأردن ٦٠ ملا